الفرقان في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

محمد الصادقي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

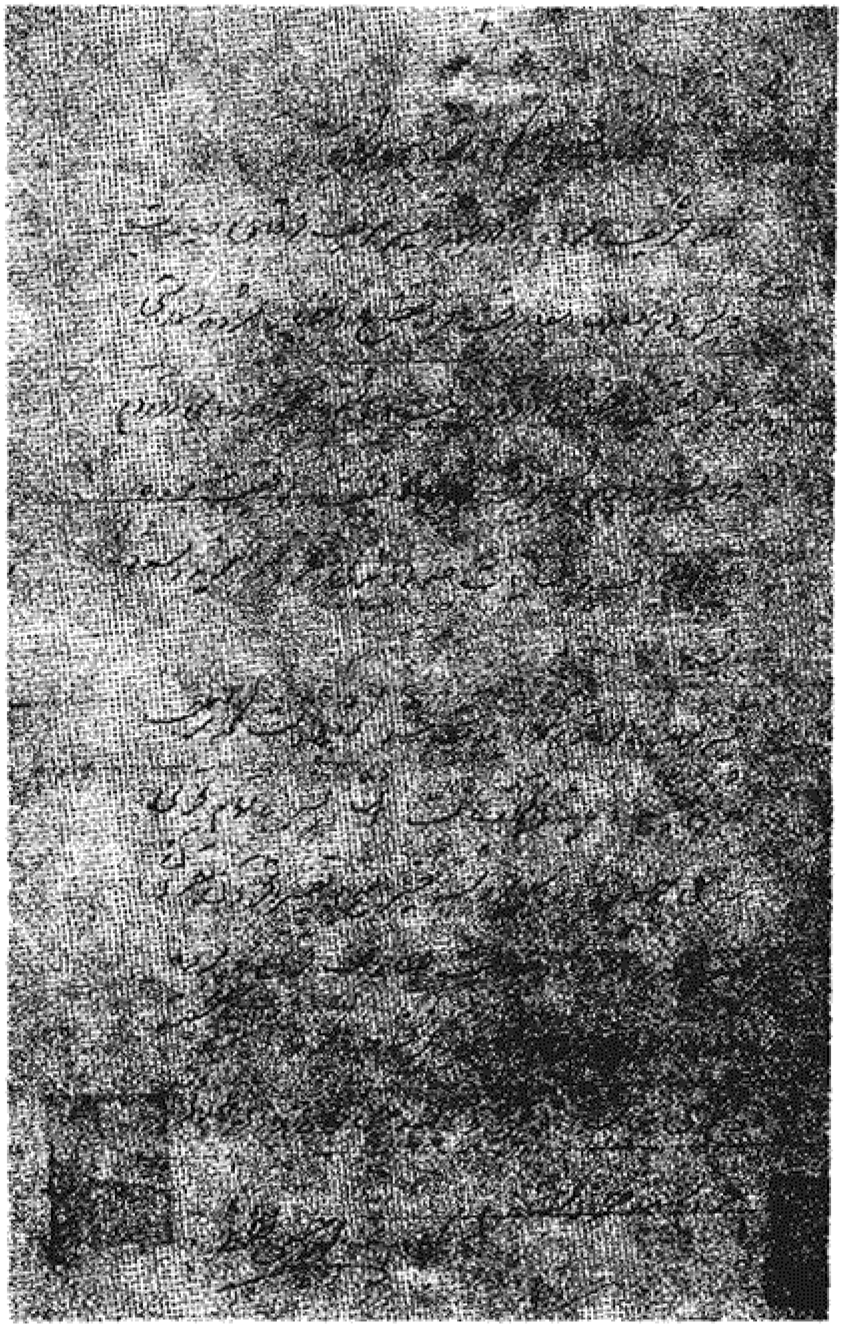

رسالة من صاحب تفسير «الميزان» تعريفا بتفسير الفرقان

من عشرات الرسائل التي وصلتنا تعريفا بتفسير الفرقان من مختلف رجالات العلم وعباقرة الفضل والتفكير وأصحاب التفسير في شتى أنحاء العالم رسالة صاحب «الميزان» الإمام الأعظم سماحة الحجة السيد محمد حسين الطباطبائي دام ظله الوارف على رؤوس المسلمين ، وإليكم ترجمتها الحرفية :

فضيلة شيخنا الشيخ الدكتور محمد الصادقي المحترم دامت إفاضاته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، زرنا مجلدين من تفسيركم الشريف (الفرقان) مع كتابكم الكريم ، فبعد فراق طويل بيننا بأعوام عدة ، وانقطاع أخباركم عنا بزمن بعيد ، يسرني أن وصلني نبأ صحتكم وتوفيق سماحتكم ، فحمدت ربي ، وأرجو منه سبحانه أن يقرنكم دائما بالعافية والتوفيق ، وأن يسدّد خطاكم ، ويؤيدكم بألطافه وعناياته الخاصة.

إن تفسير «الفرقان» الشريف الذي زرته ، إنه لكتاب يقرّ عيوننا ، وهو سند عزنا وأصل من مفاخرنا . نحن المفسرين . إن شاء الله تعالى تكرس كافة طاقاتك وإمكانياتك وتبذل جميع مساعيك في مواصلة هذا الأسلوب الفريد من

التفسير ـ أعني : تفسير القرآن بالقرآن ـ فلا تمل ولا تكسل ولا تفشل في هذا المشروع العظيم ، خدمة للمعارف القرآنية ، وكشفا للقناع عن ذخائر هذا الكتاب المكنون السماوي ، وأرجو من الله عز اسمه لكم التوفيق وأن يؤيد سماحتكم في هذه السبيل ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد حسين الطباطبائي

(سورة الرحمن . مكية أو مدنية . وآياتها ثمان وسبعون)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. الرَّحْمنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسانَ (٣) عَلَّمَهُ
الْبَيانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (٦) وَالسَّماءَ رَفَعَها
وَوَضَعَ الْمِيزانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (٩)
وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (١٠) فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ
وَالرَّيْحانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)
وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (١٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ
الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (١٩) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا
يَبْغِيانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما

تُكَذِّبانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوارِ
الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (٢٦)
وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٢٨) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي
السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣٠) سَنَفْرُغُ لَكُمْ
أَيُّهَ الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ (٣٢)

يروى عن الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمان» [1] وانها حقا عروس القرآن ، وان كان القرآن عروسا كله ، فانها عروس في رنينها وطنينها إذ تزف بموسيقى التعبير المنسق الموزون ، كأنها شعر وليس به! وعروس في حنانها وحنينها [2] إذ تشعرنا بالرحمة والعذاب ومواردهما ، وعروس ـ جملة وتفصيلا ـ في ألفاظها بمعانيها.

والرحمان هي السورة الوحيدة التي تتسمى بأشمل اسم من أسماء الله ويعتبر

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٠ أخرجه البيهقي في شعب الايمان عن علي (ع) قال سمعت النبي (ص) يقول : ...

(٢) الحنان هو الرحمة والمودة ، والحنين شديد الطرب والبكاء ، وكذلك الشوق.

بوحدته آية واحدة ، ترمز الى رحمات رحمانيته ورحيميته في الاولى والآخرة تستعرضها السورة ، لمسات من الرحمتين ، وإعلان عام في ساحة الكون ينطلق من الرحمان فيتجاوب به الكون كله ، فالكون كله ، والسورة كلها ، معارض ومظاهر لآلاء الرحمان «فبأي آلاء ربكما تكذبان»؟.

﴿الرَّحْمنُ﴾ :

.. انها اولى الأسماء والصفات الإلهية بعد «الله» لا يسمى بها إلا الله إلا زورا وغرورا ، فهي تشمل كافة الصفات والأسماء الإلهية الفائضة على الخلق عامة ، إذ هي أعم من الرحيم ، فانها لبعض الخلق خاصة ، فقد ذكرت الرحيم فيما ذكرت ، قرينة برحمات خاصة ، ولم تذكر الرحمان إلا عامة أو قرينة برحمات عامة ، مما يؤكد تفسيرها في السنة واللغة بالرحمة العامة ، وفيما تذكر برحمة خاصة ، لا تعني إلا شمولها لها ، وكما تشمل سائر الرحمات لا اختصاصها بها ، فهي على أية حال أشمل من الرحيم [1]. ومن الرحمة العامة : الرحمانية ، رحمة الخلق وهداية الخلق : ﴿الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ ومن الهداية ما ترجع إليهما من صالح ذاتي أو وصفي وعارضي ، وقد تستعرض «الرحمن» قسما كبيرا من أقسام الرحمتين الرحمانية والرحيمية ، ومن أعظمها :

﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ تتقدم على خلق الإنسان وتعليمه البيان وخلق الأرض للأنام أم ماذا؟ رمزا الى أن القرآن هو الرحمة التي تعادل سائر الرحمات وتتقدمها ، فكتب الوحي كلها تقدمات للقرآن ، وخلق الكون كله بما فيه الإنس والجان خلق لمن يتوجب عليه فهم القرآن ، متذرعا كتاب التكوين آفاقيا وأنفسيا للوصول الى كتاب التدوين : القرآن.

---

(١) لقد ذكرت الرحمان ٧ ، مرة والرحيم ٩٥ مرة ، وفي أحاديثنا : الرحمن بجميع خلقه والرحيم بالمؤمنين خاصة ، وكذلك في اللغة. وتجد تفصيل البحث عن الوصفين في بسملة الحمد. علنا نوفق للوصول إليها بتوفيق الله تعالى.

وانها لنعمة كبرى ورحمة عظمى تتجلى فيها رحمة الرحمان لمن يمكنه تعلم القرآن من ملك او جن وانسان.

وترى أن «علّم» من تعليم العلامة [1] حتى يكون القرآن مفعوله الوحيد : أن جعل القرآن علامة لرسالة الرسول ، وكرامة لمن يتعلم القرآن؟ أم من تعليم العلم ، فمفعوله الأول مقدر هو كل من حمّل تعلّم القرآن ، من حامل رسالته الأصيلة [2] ، الى حملته الفروع ، والى عامة المرسل إليهم.

ومن لطيف الأمر أن كلا التعليمين من أعظم الرحمات الإلهية ، رحمة الإعجاز ـ القمة ، ورحمة التعليم والتزكية ـ القمة ، والأوفق بأسلوب القرآن أن تعني «علم» كلتا القمتين.

وكما أن القرآن بين الكتب رحمة تشريعية قمة ، كذلك خلق الإنسان بين الخلق رحمة تكوينية قمة :

﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ ، عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾ :

فالإنسان مخلوق في أحسن تقويم ، مفضل على كثير من الخلق مهما ساواه آخرون : ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ (١٧ : ٧٠) فتخصيصه بالذكر هنا وعن الجان المشاركين إياه في تعليم القرآن ، ليس إلا لأنه موجّه إليه اصالة ، ثم إلى الجان كفرع من فروع الإنسان ، لا لأنه فقط المكلف بذلك ، أو هو المفضل على الخلق كله.

من ثم ـ وبعد تعليم القرآن وخلق الإنسان ـ يأتي دور تعليم البيان ، وهو

---

(١) قد يكون علم تفعيل علم فهو تعليم العلم ، أو يكون من علم فهو تعليم العلم والعلامة.

(٢) تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا (ع) في الآية : الله علم محمدا القرآن ، أقول وهو من باب التفسير بأفضل المصاديق ، ويناسب كذلك تعليم العلامة كما قلناه.

الزاوية الثالثة في مثلث كيان الإنسان ، بما يتطلبه من الفطرة والعقل والفكرة ، ولكي تكون مادة للبيان ، وإلا فممّ وعما البيان؟!

وترى ما هو البيان؟ لكي يحتل من ميزات الإنسان قمتها! هل إنه إظهار ما في الضمير من الواقع ومن الطلبات؟ فقد يشاركه الحيوان ، كل مع ذوي نوعه وبحسبه ، كما الإنسان مع سائر الإنسان! أو انه بيان باللسان ، وبيان بالإشارة ، وبيان بالقلم ، وإلى سائر البيان : كافة الوسائل التي يتذرع بها ل «بيان كل ما يحتاج إليه الناس» (١) ما يحتاجه صاحب البيان أو غيره من إنسان ، بيان الإفادة والاستفادة ، بيان الإحتجاج أو طلب الحجة على ما يرام ، وترى أن للحيوان هكذا بيان؟ مهما كان له إظهار لما يتطلبه بإشارة أو لسان! كلا وانه الإنسان الذي زود بكل بيان وتبيان ، بأصولها ووسائلها وفصائلها وحصائلها ، فكما القرآن فيه تبيان كل شيء ، كذلك الإنسان ، فله أن يتبين من القرآن كل شيء ، ثم يبين على ضوئه كل شيء ، تجاوب كتابي التكوين والتدوين : الإنسان والقرآن! فإنسان القرآن هو مجمع الكتابين ومرج البحرين ، فيا له من إنسان عالي الكيان!

فقد منح من الوسائل بما لم يزود به سائر الحيوان ، إضافة إلى أن ضميره يفوق سائر الضمائر! فبيانه ـ إذا ـ يفوق سائر البيان! وهكذا بيان عن هكذا ضمير هو الذي يميّزه عن سواه فيمتاز على سائر الحيوان.

ترى لو لم يكن للإنسان بيان أكان إنسانا كما الآن؟ فدور البيان ـ إذا ـ دور أعظم كيان ، به يتعلم وبه يعلّم ، به يحتج وبه يحتج له أو عليه ، به يتكامل وبه يكمل ، ثم وكل وسيلة من وسائل البيان ، قلما ولسانا وسواه ، يتطلب كتابا ضخما بدراسة فخمة ، علّها توضّح طرفا من أطرافه ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾!

---

(١) تفسير القمي عن أبي الحسن الرضا في تفسير «عَلَّمَهُ الْبَيانَ».

ترى لو لا أن ﴿الرَّحْمنُ .. عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾ من أين كان له هذه النعمة القمة السابغة ، السابقة سائر النعم ، الحاوية كافة القيم؟ لنأخذ مثالا ساذجا من وسائل البيان : اللسان وما معه من جهازات الصوت ، عضلانيا وشعوريا : ينتقل شعور ضرورة أو رجحان الإفادة أو الاستفادة من القلب وزملائه إلى الجهازات الصوتية ، فتطرد الرئة ، ما تحتاجه الكلمة من الهواء المخزّنة فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة المحيرة للعقول ، فيصوت الهواء في الحنجرة صوتا تشكله حسبما قرره الإنسان وكيفما قرر : سرعة وبطؤ ام ماذا؟ ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفلك والأسنان ، يمر بها الصوت ، فيتشكل بضغوط خاصة في مخارج الحروف المختلفة ، وفي اللسان خاصة يمرّ كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع خاص ، يتم فيه ضغطه ، ليصوت الحرف بجرس خاص .. وذلك كله كلمة واحدة وراءها ومعها جنود الأفكار والمشاعر والضمائر والإحساسات ، عوالم غريبة وكلها من فضل الرحمن الذي ﴿عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾! ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾ :

هذان السراجان ـ سراج النهار وسراج الليل ـ انهما كسائر الكون بحسبان : يصاحبهما حسبان من الرحمان منذ كان لهما كيان ويكون : ﴿فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً﴾ (٦ : ٩٦) ترى أن الحسبان هنا هو الحساب : فهما مخلوقان بحساب ، ومجريان بحساب ، ويعرف بهما الحساب :

﴿وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ﴾ (١٠ : ٥) ام إنهما في جحيم العقاب كما يرسل الحسبان على من يستحق العذاب : ﴿فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ﴾ (١٨ : ٤٠) وكيف يعذبان؟ وهما كوكبان طائعان لأمر الرحمان! وبما ذا يعذبان؟ اللهم إلا في تأويل يتيم بجانب

أسلوب القرآن [١].

الجواب : ان الحسبان هو الحساب أيا كان ، أفي إرسال العذاب على أهله ، فحسبانه انه بقدر وحساب دون فوضى ، أو في سراجي الليل والنهار ، ففي خلقهما وجريهما ، ولآخر المطاف في وقفتهما ورجعتهما عند قيامتهما ، فإنهما في كل ذلك بحسبان وميزان ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾!

ثم ترى ألم تكن في السماء شمس أكبر وأضوء من هذه ، أو قمر أنور من هذا؟ فاختصا لذلك بالذكر من بين الشموس والأقمار؟

أجل ان هناك شموسا وأقمارا أكبر منهما بكثير وأنور وأحرّ ، ولكنهما أعرف نجمين وأهمهما بالنسبة لنا : سكنة الأرض ـ من حيث الفوائد الظاهرة.

فالشعرى اليمانية ـ كما سبقت ـ هي أثقل من شمسنا بعشرين ضعفا ، ونورها خمسون ضعفا ، وحجم السماك الرامح ثمانون ضعفا ، ونوره ثمانية آلاف ضعف وسهيل أقوى من الشمس بألفين .. ام ماذا؟ وكما هناك أقمار وأقمار!.

فهذان الكوكبان ـ كسائر الكواكب وسائر الكون ـ إنهما بحسبان : في خلقهما وحجمهما ووزنهما ونورهما وحرارتهما وسيرهما ووقفتهما ، في بعدهما عنا ، وفي الخسوف والكسوف ، وفي كيانهما ككلّ كما هما.

فالذي يصلنا من حرارة الشمس ليس إلا جزء من مليوني جزء من حرارتها فلو زادت لاختنقت الأرض أو احترقت ، أو لو نقصت لبردت أو تجمدت ، وعلى التقديرين استحالت عليها الحياة أو صعبت .. وهكذا القمر وسائر النجوم

---

(١) القمي في تفسيره عن الحسن بن خالد عن الإمام الرضا (ع) في الآية : قال : يعذبان قلت : الشمس والقمر يعذبان؟ قال : سألت عن شيء فأتقنه ، ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره مطيعان له ، ضوءهما من نور عرشه وحرهما من جهنم ، فإذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما ، وعاد إلى النار حرهما ، فلا يكون شمس ولا قمر.

والشموس والأقمار وسائر الكون : ف ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ﴾ والكون كله بحسبان ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ .. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟! ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾ :

وكونهما يسجدان هو كذلك بحسبان ، كما الكون كله يشاركهما في هذا السجود الحسبان : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٦ : ٤٩) سجود التسبيح بالشعور المرموز : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧ : ٤٤) فليس التسبيح التكويني اللااختياري ، ولا القولي والعملي الاختياري ، إنهما ليسا مما لا نفقهه ، اللهم إلا ما لا نفقهه من الشعوري المرموز!.

وترى النجم هنا هل هو نجم السماء : الكوكب الطالع ، وهو المقصود في سائر نجوم القرآن ، أو من المقصود؟ كما وأن الشمس والقمر هنا تشيران إليه ، إذا فما ألطفه نزولا من السماء الى الأرض ، من طالع السماء الى طالع الأرض! وما أجمله رباطا بينهما ، يعني ـ فيما يعني معهما ـ ما بينهما من طالع وغارب ، من زائد وعازب : ان السماء وما ينجم فيها ، والأرض وما ينجم عليها ، انهما وما بينهما يسجدان!.

أو أن النجم هنا ما نجم من النبات دون ثبات [١] ، وجاه الشجر النابت على ثبات ، رمزا الى أن غير الثابتات من الكائنات والثابتات ، انها كلها لله ساجدات ، فمحراب الكون لا تخلو منه كائنة إلا ساجدة ، ثم ومن سجود النبات نجما وشجرا ، ما يظهر عليها من آثار صنعة الصانع الحكيم ، والمقدر العليم ، بالتنقل من حال الاطلاع الى حال الإيناع ، ومن حال الإيراق الى حال الإثمار ،

---

(١) لسان العرب : قد خص بالنجم من النبات ما لا يقوم على ساق كما خص القائم على الساق منه بالشجر.

غير متمنعة على المعرّف ، ولا ممتنعة على المدبر ، ثم وذلك كله ـ او من ذلك ـ ما هو عن شعور التسبيح : ﴿وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾!

وفي تقديم النجم على الشجر في السجود إشارة الى تقدمه عليه في ظاهر السجود ، فيما النجم هو النبات المنبسط على الأرض ، فكله رأس وكله سجود ، مهما كان الشجر ساجدا بعروقه وسوقه الناعمة ، فان أصل الساق قائم وان كان قيامه أيضا سجودا فانه قيام بأمر الرحمان!.

فهل تعني هذه الآية ، اليتيمة في نجمها ، ما لا تعنيه آيات النجوم كلها [1]؟ ودون أية قرينة فيها! اللهم إلا قرينة الشجر؟ كلا! فعل الجمع أرفق ، وبالتدليل على السجدة الشاملة أوفق ، وقد تتحمله الآية دون تحميل ، كما وتتحمله اللغة : فالنجم يشمل كل ناجم وطالع ، وطلوع كل شيء بحسبه.

﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ﴾ :

ان رفع السماء يوحي بأنها كانت سماء من ذي قبل ثم رفعت ، ترى انها كانت سماء خافضة فرفعت والسماء هي جهة العلو؟ فكيف كانت سماء إذا؟ ثم ترى الى أين رفعت؟ وعلى م؟ وبم؟.

السماء هذه ـ قبل رفعها ـ هي الدخان الغاز ، حصيلة تفجرة المادة الام : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ ..﴾ (٤١ : ١٢) وكان الغاز هذا في المادة الام ففتقها الله فانفتقت أرضا هي زبد الأرض الام : مادة الأرضين السبع ، وانفتقت غازا هي السماء الام:

---

(١) إذ ليس في القرآن آية يتحمل النجم فيها ما ينجم من النبات إلا هذه ، وآيات النجوم اثني عشر آية.

(الفرقان ـ ٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما ..﴾ (٢١ : ٣٥) فالمادة الام هي المرتوقة ، ثم السماء الام وأرضها هما المفتوقتان عن الام ، ثم وللسماء رفعان ، رفع الدخان الام ، المتصاعد الى أعماق الفضاء بعد تفجرة المادة الاولى ، ورفع الطبقات السبع ، كل فوق بعض ، وعل ﴿السَّماءَ رَفَعَها﴾ تعنيهما ، فلا تعني السماء جهة العلوّ فقط لكي تنافي خفضها قبل رفعها ، وإنما الغاز التي هي مادة السماء ، والجهات والفضاءات العلوية هي أمكنة السماوات ، وقد رفعت إليها ، وكما أن كل سماء مرفوعة على ما تحتها ، كذلك السماوات مرفوعة على ما تحتها من كرات ومنها الأرضون بما فيها أرضنا ، ثم وهي كلها مرفوعة بعمد ولكن لا ترونها : ﴿رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ (١٣ : ٢) [١].

فالله رفع السماء ، هذا الفضاء السامق الهائل الذي لا تبدو له حدود ، وعلق عليها مليارات القناديل ، السيارات منها والثابتات ، ولو لا التقدير والميزان الموضوع في أقدارها وحركاتها لانفلتت فأفلتت الكائنات عن مسيراتها ومصيراتها ، ولكن الرحمان :

﴿وَضَعَ الْمِيزانَ﴾ : وضعا هو رفع لما له الميزان ، ميزان أنزله الرحمان :

﴿اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزانَ﴾ (٤٢ : ١٧) ميزان علم القرآن وسائر الميزان : وضعه في التكوين وفي التشريع ، في السماء والأرض ، للآخرة والاولى ، ميزان الكيان والرباط بسائر الكون ، ميزان العقل والعدل الذي تستقيم به الأمور ، ويعتدل عليه الجمهور : الانس والجان ، وكذلك سائر الميزان : ميزان الدليل : القرآن ونبي القرآن وخلفاءه المعصومون [٢] والعلماء الربانيون ، وميزان

---

(١) راجع سورة النازعات ص ٨٦ ـ ٨٨ ، وسورة الأنبياء في آية الفتق ، وسورة فصلت الآيات ٩ ـ ١٢.

(٢) في تفسير القمي عن الحسين بن خالد عن الامام الرضا (ع) في حديث : «الميزان أمير المؤمنين (ع) نصبه لخلقه ـ ألا تطغوا في الميزان : لا تعصوا الامام ـ وأقيموا الوزن بالقسط : أقيموا الامام بالعدل ، ولا تخسروا الميزان : لا تبخسوا الامام حقه ولا تظلموه ...».

المدلول : العدل في كافة زوايا الكون وحواياه ، فلو لا الميزان لم يبق لأي كائن كيان ، ولا للأنس والجان ، فليدرس الإنسان :

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾ :

﴿وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٥٧ : ٢٥) : فلندرس من كتابي التكوين والتدوين درسا في طغوى الميزان : سلبا : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾ وإيجابا في تقواه : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾.

فتقوى الميزان هي الحساب العدل به وفيه ، وطغواه هي الفوضى اللاحساب ، وليس ميزان البيع فقط ، بل سائر القيم والموازين في سائر جوانب الحياة بمتطلباتها ومنها موازين المعاملات.

فهنا إقامة للوزن بالقسط العدل هي تقواه ، وتخسير للميزان بالقسط اللاعدل ، هو طغواه ، بما لهما من درجات ودركات ، فالحق في الأرض وفي حياة البشر مربوط ببناء الكون ، ومدروس عن ميزان الكون ، فكما الفوضى في وزن سائر الكون تفضي الى القضاء على الكون ، أو شلّ عجلته ودورانه ، كذلك الفوضى في ميزان حياة الإنسان تشل دوران حياته كإنسان ، وتخسره ما فضل به على سائر الحيوان وأضل سبيلا.

وترى أن «الميزان» في هذا المثلث [1] بمعنى؟ كلا! فالأول هو معيار الوزن تكوينا وتشريعا ، والثاني ما يمكن فيه الطغيان ، من ميزان التشريع تهريفا وتحريفا ، أو خلافا وعصيانا ، فميزان التكوين لا يقبل الطغيان ، اللهم إلا ما فيه خيار للإنسان ، والثالث هو الذي يقبل الإخسار من الميزان ، وزنا وموزونا ومعيارا ، اللهم إلا في معيار المعاملات ، حيث الإخسار لا يتجه إلى آلة الوزن ،

---

(١) ١ ـ وضع الميزان ٢ ـ ألا تطغوا في الميزان ٣ ـ ولا تخسروا الميزان.

فقد يحدد كل ميزان بالحد الذي تحدده قرائنه : وزنا ومعيارا وموزونا ، جمعا وتفريقا ، جملة وتفصيلا.

ثم الميزان ـ أي ميزان ـ في الأرض ، لانسانها وجانها ، انه مأخوذ من ميزان السماء ، فحساباتها الجسمانية مأخوذة عن مدارات الشمس ، والروحانية منها تؤخذ عن شموس التشاريع السماوية ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾!.

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ﴾ :

ترى أن الأنام هنا ـ ولا توجد في سواها ـ هي الإنسان كما قد يرام؟ وليس وضع الأرض حاصرا فيهم ، والأرض هنا محصور للأنام [1]! وقد خلق قبلهم الجان : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ (١٥ : ٢٧) فقد كانت الأرض لهم قبل أن تكون للإنسان! اللهم إلا أن يعنى به جنس الإنس بأنساله ، والمخلوق بعد الجن هو النسل الأخير ، إلا أنه لا يختص به خلق الأرض وله مشارك فيها وفي التكليف سواء ، حتى ولو خلق قبل الجن! اللهم إلا اختصاص التشريف ك ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٢ : ٢٩) ولكنها تختلف عن آية الأنام الحاصرة لهم وضع الأرض! اللهم إلا في تشريف مستغرق ، يدمج سائر مشاركيه فيه ، إلا أن «كما» في آية الآلاء تصريحة بشمول الأنام للإنس والجان ، فليس للجان ذكر مسبق على آيتها الاولى ، إلا أن تعنيه الأنام قبلها ، فلتشملها الأنام.

ثم وهل تشمل كل دابة ، أو كل حي من طائر وسابح ودابب؟ قد يكون وكما تصدقه اللغة [2] ولكنما الفاكهة والنخل والرمان لا تناسب إلا الانس والجان ،

---

(١) تقديم المفعول (الأرض) يوحي بالحصر ، بخلاف آية الانتفاع.

(٢) كما عن ابن عباس انه الجن ، وقال انه : الخلق ، ولما سئل عن الدليل استشهد بهذا الشعر :

فان تسألينا مم نحن فاننا عصافير من هذا الأنام المسخر

وقال أيضا : كل شيء يدب على الأرض ، وقال : كل شيء فيه الروح (الدر المنثور ٦ : ١٤١).

وكما الامتنان في وضع الأرض وسواها خصهما : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ فليكن الأنام هو الانس والجان ، فتعميمه لغيرهما غير فصيح ، كما اختصاصه بالانس غير صحيح ، وما دامت تعمه وغيره لغويا وسواه فلتكن ، وإلا فلما ذا لم يأت باسم الإنسان لو كان هو المخصوص كما في خلقه من صلصال كالفخار؟ : ﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ﴾.

ويا لوضع الأرض لنا مهادا وقرارا ، من نعمة سابغة لا ندركها ، اللهم إلا حين يثير زلزال ، أو يحير طوفان ، أو يثور بركان ، فقد نشعر ونفكر في مدى عظيم النعمة لوضع الأرض لنا قرارا ، وجعل هذه المجنونة الفرار لنا ذلولا ، فما هي إلا هباءة سائحة سابحة في بحار الأجواء الواسعة لو لا وضعها العادل في حركاتها وبركاتها لساخت بأهلها الى دركاتها : «وعدل حركتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشم من صياخيد فسكنت على حركاتها من أن تميد بأهلها أو أن تسنح بحملها ...».

فهي محمولة بعمد لا ترونها ، في جادة فضائية ، جادّة في سيرها ، لو لا رحمة الرحمان لا نكفأ بنا الى الأعماق فلم يبق منا باق ، فسبحان الذي جعل الأرض للأنام :

﴿فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ. وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ﴾ :

الفاكهة ما تطيب به النفس وتستأنس من المأكول ، واختصت بما تثمره نبات الأرض ، كما الفكاهة حديث ذوي الانس.

واختصاص النخل بالذكر بين سائر الفاكهة ، لأنها قوت على كونها فاكهة ، ومن أفضل القوت وأفضل الفاكهة ، في حالتي اليبوسة والطراوة ، في حين أن سائر الفاكهة ليست قوتا إلا قليلا كالعنب والجوز ، كما وأن الحب ـ الشامل لسائر الحبوب ـ هي أفضل من النخل ومن الفاكهة ، فمثلث النعيم هذا يختلف في زواياها ، من الأدنى الى الأرقى : فاكهة ـ نخل ـ حب ، على أن للأولين

فضلهما من حيث الفاكهة ، فلا تفكّه في الحب إلا القوت ، ومن الصعب الاكتفاء بالقوت بلا فاكهة ، كما من المحال المعاكسة : الاكتفاء بالفاكهة دون قوت ، اللهم إلا في النخل التي تجمعها ، لفترة غير بعيدة من الزمن.

وبعد هذه يأتي دور الريحان ، النابتات ذوات الروائح الطيبة الريحانية ، التي تصاحب القوت والفاكهة ، وقد تكون الفاكهة ريحانا ، كما القوت قد تكون ريحانا.

ومن فضل النخل أنها ذات الأكمام : جمع الكمّ ـ ضما وكسرا ـ : ما تغطي الثمرة ، كما الكم ما يغطي اليدين ، والكمة ما يغطي الرأس ، فالثمرة المكمومة : المحفوظة عن الفضاء وغباراتها وتأثيراتها ، انها أبعد من الفساد ، ثم وفي أكمام النخل من ليفها ولحاها فوائد ، حتى وفي نواتها أكل للإنسان وسائر الحيوان.

كما وأن في عصف الحب : ورقه وتبنه ، فيها فوائد جمة ، أكلا وسواه.

فهذه وتلك طرف من نعم الرحمان على الإنس والجان :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

وترى أية منة على الجان في أن خلق الله الإنسان وعلمه البيان ، مهما كانت المنة تشملهم في تعليم القرآن وسواه من النعيم المعدودة مسبقا؟.

الجواب : لو لا الإنسان وتعليمه البيان لما استطاع الجان أن يتعلموا القرآن فانه نزل على رسول الانس ، ومن ثم وبواسطته إلى رسل الجان فإليهم ، فخلق الإنسان وتعليمه البيان والقرآن نعمة كبيرة على الجان : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

وهي آية عديمة النظير ، تتكرر في هذه السورة فقط إحدى وثلاثين مرة ، في طيات ذكريات النعم التي منحها الإنس والجان ، تلقي على السورة كلها لونا

من الشعرية المنثورة ، رغم أن القرآن ليس شعرا ، بل ولا نثرا فيما نعرف ، إنه كلام الله خارجا عن الشعر والنثر في ألفاظه ، كما هو خارج عما عرفه الإنسان في معانيه.

والاستفهام في الآية بالنسبة للثقلين للتنديد والتخجيل ، وبالنسبة لآلاء الرب للتجليل ، فآلاء الرب ونعمه ظاهرة فيها ربوبيته ، باهرة رحمته ، إلا النعم التي نبدلها نحن نقما وكفرا : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ﴾ (١٤ : ٢٨) ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٢ : ٢١١).

إن تكذيب النعمة دركات ، كما وأن تصديقها درجات : جوانح وجوارح وأعمالا ، والدرك الأسفل من تكذيبها أن تشارك فيه الثلاث : قولا وقلبا وقالبا ، والدرج الأعلى من تصديقها مثلث التصديق ، وبينهما في كل منهما متوسطات.

﴿خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ. وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

إن خلق الإنس والجان هو النعمة القمة لهما ، كأصل للقاعدة لسائر النعم التي تتواتر لهما ، فما هو صلصال ، وما هو مارج من نار؟

الصلصال هو الطين اليابس المنتن الذي يتردد منه الصوت إذا وطئ : ﴿إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (١٥ : ٢٨) : طين أسود منتن ﴿إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (٣٧ : ١١) : شديد الثبوت ، فطين الإنسان صلصال من حماء مسنون لازب : طين أسود نتن لازق كالفخار : الطين المطبوخ بالنار : الخزف ، وهذا هو مخمر الطين وخالصه ، كما الإنسان هو خالص الكون الترابي ، وهذا يرمي إلى صنع أول إنسان ، فإن نسله ليسوا من هكذا طين : والترتيب الخلقي أنه كان ترابا ، ثم طينا ، ثم حمأ مسنونا لازبا ، ثم صلصالا كالفخار.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أصل الجان ، دون الأنسال الذرية المخلوقة من إنساله :

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ﴾ (١٨ : ٥٠) .. خلقه ﴿مِنْ مارِجٍ﴾ : قلق مازج ﴿مِنْ نارٍ .. وَالْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ (٣٢ : ٧) فالمرج أصله الخلط والمزج ، من مرج ، والمرج هو القلق والاضطراب من مرج :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ (٥٠ : ٥) ، والهرج والمرج بمعنى ، ومرجه هو المرج ، سكنت ازدواجا للكلام ، فالمارج من نار هو القلق منها [١] : اللهيب المنطلق عنها المازج ، الخليط من نار : خليط من مختلف لهيبها بألوانها : أحمر وأصفر وأخضر [٢] وعلّه الى سائر ألوانها التي اكتشف العلم عن سبحة منها ، أم ماذا! وخليط بسموم ، لأنه مخلوق ﴿مِنْ نارِ السَّمُومِ﴾ :

التي تلتهب من سمّ قوي ، إذا فأصل الجن من مارج : قلق مازج ، من نار السموم [٣] : السم الفاتك عند اشتعاله ، وعلّه مختلف السمّ أو قويه أم ماذا.

وترى لو خلق الجان من النور بدلا عن النار ، أو خلق الإنسان من تراب طيب بدلا عن الصلصال كالفخار ، أما كان أحسن آلاء وأقل بلاء؟ فكيف يمتنّ الله على الإنسان والجان في خلقهما مما خلقا؟!.

الجواب : أنه أعلم بما خلق ومما خلق ، فلو لا النار لم يكن الجان جانا وإنما ملكا ، ولو لا الصلصال الحمأ المسنون اللازب لم يكن الإنسان إنسانا وإنما كائنا آخر ، فخلق كلّ كما هو الآن ـ بما يحملان من إعدادات واستعدادات.

---

(١) في الحديث عنه (ص) : كيف أنتم إذا مرج الدين فظهرت الرغبة واختلف الاخوان وحرق البيت العتيق ، وفي آخر عنه (ص) : كيف أنت إذا بقيت في حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤١ عن مجاهد في ﴿مارِجٍ مِنْ نارٍ﴾ قال : اللهب الأصفر والأخضر الذي يعلوا النار إذا أوقدت ، وعن سعيد بن جبير : الخضرة التي تقطع من النار السوداء الذي يكون بين النار وبين الدخان.

(٣) إنما فسرنا المارج بالمعنيين ، لأنه لو أريد أحدهما فحسب لجيء بأحدهما فحسب : خليط أو قلق ، فذكر المارج دليل على قصدهما معا ، ولأنه عني منه القلق وهو لازم ، فلا يعني من مزجه المتعدي ، حتى يفسر بنار مزجت غيرها بشيء ، وإنما لازمه الذي هو الانمزاج.

محصور في المادتين ليس إلا ، فمن عظيم آلاءه للإنسان أنه خلقه من طين نتن فجعله في أحسن تقويم ، وللجان أنه خلقه من نار السموم ، وجعله يتلو الإنسان في التقويم!. ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

فمن آلاء الرحمان ربوبيته الوحيدة للمشرقين والمغربين ، فإن كثرتها فوضى تضاد : ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا﴾ كما أن ثبات الشارقات والغاربات دمار للكائنات.

ثم المشرقان والمغربان هنا تجمعان مشرق الشمس والقمر ومغربهما : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَما بَيْنَهُما﴾ (٢٦ : ٢٨) ومشرق الشمس ومغربها ، مع مشرق سائر الشوارق ومغربها ، ومشرق كلّ مع زميله : الجهة الفرعية شمالا وجنوبا ، ومغرب كلّ كذلك ، وأعلى المشارق والمغارب صيفا وأدناهما شتاء ، في غاية ارتفاع الشمس وانخفاضها : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ (٧٠ : ٤٠) [1] فآيات المشرق والمغرب تتجاوب ، إفرادا وتثنية وجمعا ، دون تنافر وتناحر.

ثم من آلاء الرب في مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما أن الفصول الأربعة مترتبة عليهما ، وتتبعه تقلب الهواء وتنوعها ، وما يليها من مطر وشجر ونبات.

كما وأن من الآلاء الأربع رباعية التدبير ، وما إليها من آلاء في المشرقين والمغربين نحن نجهلها ، لو اختل شيء منها لاختلت الحياة أو استحالت أو حولت مماتا.

---

(١) راجع تفسير الآية ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ المعارج ج ٢٩ ص ١٤٠. وفي كتاب الاحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه : وأما قوله ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ فان مشرق الشتاء على حده ومشرق الصيف على حده. أما تعرف ذلك من قرب الشمس وبعدها ، وأما قوله : ﴿بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ﴾ فان لها ثلاثة وستين برجا تطلع كل يوم من برج وتغيب في برج فلا تعود اليه إلا من قابل في ذلك اليوم.

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

المرج هو القلق وهو الإرسال ، وهو المزج [1] وهنا الإرسال والمزج ، فلو كان أحدهما المقصود لجيء به ، لا المرج الجامع لهما ، مرج الإرسال التقاء دون مزج وتداخل ، ومرج اللقاء دون تفاعل ، اللهم إلا في غير بغي.

ومن البحرين الممزوجين بحر الأرض وبحر السماء ، إذ يمزج من أبخرة الأرض بمياه السماء وبخاراتها ، كما يمزج من مياه السماء ببحار الأرض ، وقد يروى عن علي عليه السلام [2] كما ومنهما بحر العذب والملح الأرضيين ، وقد يجمعهما : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً﴾ (٢٥ : ٥٣) حجر محجور عن بصر العين وبصيرة العلم وحتى الآن ، حجر حاجز بينهما عن التباغي رغم التلاقي : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً﴾ (٢٧ : ٦١).

وترى ما هو هذا الحجر الحاجز البرزخ في البحرين الأرضيين؟ ليس لنا أن نهرف بما لا نعرف! إلا أن البرزخ توحي بأنه ليس من العذب الفرات ولا الملح الأجاج ، وإنما برزخ بين الماءين ، فهل هو ماء بعد؟ قد يكون! ولكنه محجور عن الرؤية ، فليكن أخف من المياه التي نعرفها ، مختلفة عنها تراكيبه ، بجزئياته ، فرقته ودقته بحيث لا يرى!.

---

(١) الإرسال من معانيها الثانوية كما يقال : مرج الدابة يمرجها إذا أرسلها ترعى في المرج : المرعى.

والمزج هو معناها الأصيل وليس هنا القلق ، من المكسور العين ، وهنا هي من المفتوح العين ، إضافة الى كونه لازما والمرج هنا متعد.

(٢) قرب الاسناد للحميري عنه (ع) في آية المرج واللؤلؤ والمرجان : من السماء ومن ماء البحر ، وتتمة الحديث تأتي.

ثم الحاجز بين الأرضي والسماوي أن يبغيا هو تقدير الرحمان ، المحجور عن الإنس والجان! وأما الحاجز بين البحر الأرضي والأنهار فليس محجورا لا عن البصائر ولا الأبصار ، فإنه علو الأنهار على البحار واختلاف أماكنها.

فقد مرج البحرين : أرسلهما طاميين ، وأمارهما مائعين ، فهما يلتقيان بمقاربة مقارفة المرج المزج ، وليست بالمزج ، وإنما ضمّن المرج هنا معنى المزج لأنهما أرسلا رسلهما الرامي إلى مزجهما ، الواقع بدوافعه تماما لو لا الحجر المحجور ، والبرزخ الحاجز ، الذي يمنعهما عن الانخراط ، ويصد كلا منهما عن الانفراط ، فلا يبغي أحدهما على الآخر فيقلبه إلى صفته ، أو ينقصه عن حدته ، لا الملح الأجاج على العذب الفرات ، ولا العذب على الملح الأجاج ، اللهم إلا في مرج المزج غير الباغي ، كما يمزج ماء البحار بمياه الأنهار ، بعد ما يصبح بخارا وأمطارا ، ويمزج مياه العيون والأنهار بمياه البحار إذ تصب فيها ، ولكنه مرج ومزج بحساب وميزان ، إذ يأخذ كل قدر ما يعطي ، دون بخس في المكيال ولا إخسار في الميزان ، وهذا أيضا من الحاجز بينهما ، كما الحاجز بين مياه البحر والأنهار ، إلا أنه حجر غير محجور.

ولو لا الحاجز بين البحرين : بين العذب والمالح في البحر ، وبين البحار المالحة والأنهار العذبة ، وبين التفاعلات عبر التبدلات ، لبحر الأرض والسماء ، لولاه لتعطلت الحياة أو استحالت ، فالملح الأجاج الذي يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ضرورة لتطهيرها بجوها وإفساحها المجال للحياة من حيوان البحر وسواه ، والعذب المدخر في مخازن الأرض ، والساري في مساريها ، والكائن في البحار أيضا كعروق أو أنهار [1] ضرورة للشرب والإنبات ، كل على قدره.

---

(١) كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري خلاله فراسخ لا يتغير طعمها ، وكما تجعل دجلة البحر بحرين ، كذلك هو وسائر البحر بحران ، الأولان مالحان ، والآخران مالح هو المالحان ، وعذب هو دجلة.

والبحران ـ كما أشرنا ـ يعمان ماءي الأرض جمعاء ، سواء مياه البحار بعضهما مع بعض أو ماءي بحر واحد ، أو البحار والأنهار في الأرض ، أو ما يتبدل بخارا من البحار فإلى الأنهار ، ومن الأنهار تسيل إلى البحار ، إلا أن الحجر المحجور لا يساعد بحري البحار والأنهار أرضا ، فإن الحاجز بينهما محسوس هو علو الأنهار واختلاف أمكنتها عن أماكن البحار ، وأما البحر الواحد المتواجد فيه الماءان دون مزج فلا حاجز بينهما ملموسا ، ويتلوه الحاجز المانع عن تغلب أحدهما على الآخر في غير الواحد ، كما في الأمطار من البخار ، والأنهار السائلة في البحار ، فرغم المرج المزج لا تغلب للبعض على البعض.

وترى كيف يعبر عن البحر الواحد الحاوي للماءين بالبحرين؟ لأن أهم شروط التعدد اختلاف المائين ، وقد يكون بحران في مكانين وماءهما من سنخ واحد ، فأحرى أن يكون بحران وهناك ماءان وإن في مكان واحد.

ففي مرج البحرين ، أي بحرين ، وبأي مرج ، إرسالا ومزجا ، وفي جعل برزخ بينهما ، أي برزخ ، ان فيها آلاء من الرحمان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

ترى أن اللؤلؤ والمرجان اللذين تجمعهما الحلية البحرية ، هما يخرجان من العذب الفرات كما من الملح الأجاج؟ والمعروف خروج اللؤلؤ من المالح! تجيبك الآية نفسها : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ واخرى نظيرتها : ﴿وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها ..﴾ (٣٥ : ١٢) وما هي قيمة العرف الهارف غير العارف ، بجنب الخلّاق العليم! ولقد عرف العلم أخيرا نكر ذلك العرف

الخاطئ مصدقا القرآن في خروج اللؤلؤ والمرجان من البحرين : عذبا ومالحا [1] وكما يخرج من أحدهما : المالح ، بسبب العذب : بحر السماء.

وهما ، ولا سيما اللؤلؤ أفخر حلية تلبس ، وهي من لباس الجنة : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾ (٣٥ : ٣٣) وهي من أجمل الجمال إذ الغلمان المخلدون بها يشبّهون : ﴿إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ (٧٦ : ١٩).

وترى ما هو أصل اللؤلؤ والمرجان وكيف يخرجان؟ انهما أعجب حيوانين بحريين وأجملهما! فاللؤلؤ حيوان صغير ، يهبط إلى أعماق البحر ، لتقيه من الأخطار ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية ، ويختلف عن سائر الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء الى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها ، وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه ، فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة الى الصدفة ، سارع الحيوان الى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة! وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤ» [2].

«ولها صنوف عدة ، فأجمل نوع منها ما يتكون في الحيوانات الرخوة الصدفية التي تعيش في البحار الحارة ، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما ، ويوجد منها نحو ثلاثين نوعا .. واللؤلؤ اللطيف الشكل ، الجميل الماء هو ما يسمى باللؤلؤ الحر أو الصافي ، ذو قيمة تجارية هائلة ، وأغلاه ما كان

---

(١) تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٢٦ ينقل عن مجلة «السياسة الاسبوعية» المصرية ٢٧ رمضان ١٣٤٤ ه‍. ١ أبريل ١٩٢٦ ما يلي : «يتكون اللؤلؤ في أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحاربة التي تعيش في الماء العذب أو في الماء الملح ، وكانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهي تستخرج حتى الآن من بعض جهات في أميركا والصين وغيرها ..».

(٢) نقلا عن كتاب «الله يتجلى في عصر العلم».

جميل الماء ، كروي الشكل ، وتختلف ألوانه من : أبيض ورمادي ووردي وأخضر وأصفر وأسود وأزرق» [1].

ومن أروع ألوان تكون اللؤلؤ ما يروى عن علي عليه السلام البحران هما : «من السماء ومن ماء البحر ، فإذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها في البحر فيقع فيها من ماء المطر فتخلق اللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة ، واللؤلؤة الكبيرة من القطرة الكبيرة» [2] إذا ف ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ تعم الخروج من كل واحد منهما كما في بحري الأرض ، والخروج من أحدهما بسبب الآخر كما من ماء البحر بسبب ماء السماء ، ف «من» هنا تعم السببية والنشوية التبعيضية.

ثم اللؤلؤ لؤلؤان ، ما يصنعه الرحمن دون صنع من الإنسان وما يصنعه أو يولده الإنسان بفضل العلم الذي منحه الله [3] فهذه أيضا من منن الرحمان أن أخرج له اللؤلؤ في مختلف الألوان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

«والمرجان يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة

---

(١) ينقله الطنطاوي عن مجلة السياسة الاسبوعية.

(٢) قرب الاسناد للحميري عنه (ع) في الآية «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ».

(٣) فاللؤلؤ المولد أن يدخل في كل من المحار هنة صغيرة كالتي تدخل في الخلقية ، ولكنه بحاجة الى زمان طويل كالذي تقتضيه الخلقي ، لذلك يدخلون في جوف المحار هنة كبيرة تتكون حولها اللؤلؤ سريعا على مقدار كبر حجمها.

«واللؤلؤ الصناعي اكتشفه رجل فرنسي (١٦٥ م) : جاكون ، كان يغسل نوعا من السمك في ماء عذب فرأى في غالته لمعانا كلمعان اللؤلؤ حين يجف ، فخطر له أن يطلي به خرزا من الزجاج بعد مزجه بشيء من الشمع حتى يلصق بالزجاج ، ففعل وصنع أول لولوة صناعية في التاريخ ، فاشتهرت لآليه وأقبلت عليها الغواني في ذلك العصر ، ومصدر هذه المادة نوع من السمك يسمى (البينوس لوسيدوس) وفي انكلترا يستخرجونه من قشر سمك (الرنكة) فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنظف من الملح والقدر ثم تحك الحراشف التي على بطنها بقفا سكين فترسب المادة اللؤلؤة في الماء ، وإذا أريد حفظها في الماء أضيف له شيء من (الامونيا) حتى لا يتطرق الفساد إليها سريعا ...» (تفسير الجواهر ج ٢٤ ص ٧٠ ـ ٧٢).

متر ، وهو حيوان صغير يبني مع الآلاف من رفاقه مساكن هي أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل حتى تكون منها جزائر ، وإذا اجتمعت جزائر عاشت فيها المرجانات آمنة مطمئنة ، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته كظباء الصحراء ، له فروع غبراء ، أو برتقالية صفراء ، أو قرنفلية حمراء أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ، وتعبث الريح بأغصانها ، فكيف إذا تصبح صخرات مكونات للجزائر المرجانية؟ سبحان الخلاق العظيم!.

وجزيرة واحدة من تلك الجزائر المرجانية تبلغ فراسخ عدة ، تتكسر على جوانبها الناصعة البيضاء ، أمواج المحيط (١).

«إن حيوانة المرجانة تثبت نفسها بطرفها الأسفل بصخر أو عشب ، وتفتح فمها التي في أعلى جسمها ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذاءها ، فإذا لمست هذه الزوائد فريسة ـ وكثيرا ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ـ أصيبت بالشلل حالا ، والتصقت بها ، فتنكمش الزوائد وتنحي نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة الى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الإنسان .. ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ الى صخرة أو عشب يلتصق به ويكوّن حياة منفردة ، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي.

ويتكاثر أيضا بطريقة اخرى هي التزرّر ، وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة ، تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها ، ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا ، ثم الجزر المرجانية ـ المسبق ذكرها ـ بتعاون المرجانات» (٢).

---

(١) تفسير الجواهر ٢٤ ص ٢٦ ، نقلا عن بعض المصادر.

(٢) في كتاب : الله يتجلى في عصر العلم.

هكذا يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحرين ، وهما أفخر ما يتزين به الإنس والجان : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾! فلو لا الجان يشارك الإنسان في التزين باللؤلؤ والمرجان ، لم يصح هكذا امتنان.

ومن باب الجري والتأويل ، قد يشمل البحران واللؤلؤ والمرجان ، بحري النبوة والامامة ، بحري عذب فرات ، لا ملح ولا أجاج [1] ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

الجوار : الجواري ـ جمع الجارية ، تشمل الجاريات المنشآت في البحر كلها على مدار الزمن وتقدم الصنع ، وهي لله ﴿وَلَهُ الْجَوارِ﴾ رغم انها من منشآت الخلق! ولأن المنشئ لها من منشآت الله ، وكذلك آلاتها وأدواتها ومحركاتها الرياحية والبترولية والكهربائية وسواها ، فهل يتواجد شيء في الكون ليس من منشآت الرحمن ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٢ ، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ. بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾ قال : علي وفاطمة ﴿بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ﴾ قال : النبي (ص) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ﴾ قال : الحسن والحسين ، وأخرجه أيضا عن انس بن مالك.

أقول : فقد اتصل بحر النبوة بفاطمة الصديقة بنت النبي (ص) ، ببحر الامامة علي (ع) ، بحران ملتئمان متلاقيان ، بينهما برزخ الرسالة القدسية المحمدية ، إذ اتصل بحر الامامة والنبوة روحانيا مسبقا ، ان تربى علي في حجر النبي وفي جو الوحي والتنزيل ، ثم اكتمل الاتصال الروحاني بوصلة جسمانية في زواج علي بفاطمة ، والنبي هو البرزخ بين البحرين إذ جمع الولاية والنبوة ، وعلي له الولاية دون النبوة والوحي ، وفاطمة هي بضعة النبوة ، دون الرسالة والامامة ، والخارج منهما : اللؤلؤ والمرجان : الحسنان هما مجمع الولاية روحانيا ، والنبوة نسبيا.

فجواري البحر من آيات الرحمان ورحماته : ﴿وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ. إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٤٢ : ٣٣) أو إن يشأ يغير البترول ، أو أيا من المحروقات فيظللن رواكد على ظهره ، أو يغير الماء ، أو يثير الريح المجنونة ، أو يخل بشيء مما له دخل في جريانها ، فيظللن في ضلال بأصحابها رواكد على ظهره.

فالله هو المسخر لنا الفلك : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (١٤ : ٣٢) ﴿يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ (١٧ : ٦٦) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ﴾ (٣١ : ٣١) فمن ذا الذي يحفظها في خضمّ البحر وثبج الموج إلا الرحمان ، ومن ذا الذي يقرها على سطحه المتماوج ، ويجريها بالرياح المتهايج إلا الرحمان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ : كهذه المنشآت للإنس والجان ، التي تحمل رحمات من الرحمان.

فلو لا أن هناك في البحر منشآت للجان كما للإنسان ، أو أنهم يركبون منشآت الإنسان لم تكن هي من آلاء الرب لهما فكيف كان عليهم الامتنان؟! فالجان إذا شركاء الإنسان في منشآت البحر كالأعلام : الآثار المعلمة التي تدل الضلال من قريب أو بعيد ، فكما النجوم هدى سماوية في ظلمات البر والبحر ، كذلك هذه المنشآت فإنها كالأعلام : أعلام البحر وجباله ، كجبال البر وأعلامه.

فقد كانت الجواري ولا تزال من أعظم النعم وأوفر المنن ، التي يسرت أسباب الحياة ، وهي من يسر الناقلات : البرية والجوية ، تكليفا ، ومن أكثرها حملا وتخفيفا عن أثقال الحياة.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها﴾ : من ذوي العقول جنا وإنسا أمّن ذا؟ «من عليها» ترى

(الفرقان ـ ٣)

أنهم من على الجوار المسبق ذكرها؟ والفناء يعمهم ومن لا يركب الجوار! اللهم إلا الأولوية بالفناء في خضم البحر المتلاطم ، إلا أن كلهم لا يفنون عليه إلا قلة ، فلا تعني الفناء هذه إلا عموم الفناء فلا تخص من على الجوار! أم من على الأرض [1]؟ ولا يخص الفناء أهل الأرض ، ف ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٢٨ : ٨٨) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ (٣٩ : ٦٨)! اللهم إلا لأنهم هم المخاطبون ، ولا سيما معشر الجن والإنس ، إلا أن خطابات القرآن ، غير المختص بالإنس والجان ، تشمل كافة من يصلحون للخطاب من عقلاء الأرض والسماء ، أم كل من على الدنيا ، الجامعة للأرض وجواريها ومجاريها الجامحة لزيناتها وشهواتها ورغباتها؟ : ﴿وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها﴾ ومن ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ... وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ (١٠ : ٧) قد يكونون هم المعنيين أجمع ، أو هم من المعنيين ، فغيرهم من المتقين المتبنين الحياة على مرضاة الله ، مطمئنين بالله لا سواه ، عائشين مع الله لا سواه ، إنهم باقون مع الله لا يفنون ، وقد توحي له ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لا «ربك» ولا «وجه الله» ولا «الله» فلا تعني البقاء بين الفانين هنا ذات الله فقط ، وإنما الربانيون أيضا ، المخصوصون بربوبيته وكرامته ، وكما أضيف الرب الى أخصهم وأكرمهم «ربك» : فإنه الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم أول العابدين ، وآخر المرسلين.

فأهل الله العارفون بالله ، الباغون مرضاة الله ، هؤلاء هم الباقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ، وأهل اللهو هم الفانون الهالكون ، وهم أحياء يمشون ويأكلون كما تأكل الأنعام.

فليس وجه الرب وجها عضويا لذاته المقدسة ، فلا أحد يقول به ، ولا من المشبهة المجسمة ، الذين يثبتون لله سبحانه أبعاضا مؤلفة ، وأعضاء مصرّفة :

---

(١) القمي في تفسيره قال قال من على وجه الأرض.

أن وجه الله هكذا يبقى ، وسائره يبطل ويفنى ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

ثم الوجه الجسداني ليس ذا الجلال ولا الإكرام ، لأنه ذليل فان كسائر الأعضاء ، ومهان دان كسائر من عليها!.

وإنما «وجه ربك» جهة الربوبية ووجهتها ، الظاهرة في المربوبين الربانيين ، الباهرة في أولياء الله المكرمين ، فإنها باقية ببقاء الله وهم عند الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ﴾ (٧ : ٢٠٦) فالذين هم عند الله ، وليسوا عند أنفسهم ورغباتهم ، وإنما عند ربك ، تحت ظله وفي رعايته ، إنهم باقون قدر ما هم عند ربك ، وفانون قدر ما هم عند أنفسهم : ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾ (١٦ : ٩٦) ﴿وَما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٢ : ٣٦) ﴿وَما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾ (٧٣ : ٢٠).

فهنا آيتا الفناء والهلاك تتجاوبان ، أن الفناء لمن عليها : ضمير تأنيث تضمر الكائنات كل الكائنات إلا وجه ربك ، والهلاك يشمل كل شيء إلا وجهه : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فلا باقي إلا وجه الله : ذاته بربوبيته : الكائنة من ذاته ، والكامنة في البعض من مخلوقاته ، ربوبية رحيمية روحانية ، الذين يتوجه بهم إلى الله ، وتتواجد فيهم مرضات الله وتربياته ، لا ذاته وصفاته! فهم ـ إذا ـ «أنبياءه وحججه الذين بهم يتوجه إلى الله عز وجل وإلى دينه ومعرفته» [١]

---

(١) عيون أخبار الرضا (ع) في باب ما جاء عن الرضا (ع) يسأل عن الخبر الذي رووه : ان ثواب لا إله إلا الله النظر الى وجه الله تعالى؟ فقال : من وصف الله عز وجل بوجه كالوجوه فقد كفر ، ولكن وجه الله أنبياءه ... وقال الله عز وجل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ وقال عز وجل : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فالنظر الى أنبياء الله تعالى ورسله وحججه (ع) في درجاتهم ثواب عظيم للمؤمنين يوم القيامة ، وقد قال النبي (ص): «من أبغض أهل بيتي وعترتي لم يرني ولم أره يوم القيامة» ، وفي تفسير القمي عن علي بن الحسين (ع) «نحن الوجه الذي يؤتى الله منه».

و «إذا أفنى الله الأشياء ، أفنى الصور والهجاء ، لا ينقطع ولا يزال من لم يزل عالما» [(١)] : بالله ، عائشا مع الله : ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ﴾ (٣٩ : ٦٨) فهم ممن شاء الله بقاءهم ، ولم يرض فناءهم لأنهم منه! ف «إنما يهلك من ليس منه».

فليس الفناء ـ إذا ـ مستقبلا : يوم القيامة ، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ في أي زمان أو مكان وبأي كيان ، منذ الخلق حتى الفناء ويوم الإحياء مرة اخرى لأنهم ليسوا منه ، ﴿وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ : ما يتوجه به إلى الله : ذوات قديسة ربانية ، فهم باقون ، لأنهم منه ، وهم عند الله ﴿وَما عِنْدَ اللهِ باقٍ﴾!.

وفي وجهه تعالى وجوه عدة ، معروفة من قرائنها المقرونة بها : من الوجهة سمتا للاتجاه : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ (٢ : ٢٧٢) ومن وجه الربوبية كما هنا ، والوجه هو ما يواجه به الشيء ويواجه به الشيء ، فإذا أصبح المتوجه إلى الله ، يواجه معرفته ومرضاته بكيانه كله ، أصبح كله وجها لله ، وواجهه الله بخاصة رحماته ومكرماته ، وجها بوجه ، فكما أنه أصبح وجها لله ، يكون الله له وجها يواجهه برحمته وحنانه.

ووجه الرب هذا ، هو ذو الجلال ، لأنه من ذي الجلال ، وهو ذو الإكرام ، فانه تعالى يكرم المتوجهين اليه ، العائشين مرضاته ، فبقاء وجه الرب من أعظم آلاءه ، وفناء سائر الوجوه على بعض الوجوه كذلك من آلاءه ، ان كان فناء الكون ، أو فناء الكيان ، بقصر أو باختيار ، فلو لا الفناء الموت لم تعرف قيمة الحياة ، ولازداد الطائشون طيشا ، ولو لا الفناء في الله لم يكن بقاء بالله ، ولو لا

---

(١) الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه : وأما قوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فالمراد : كل شيء هالك إلا دينه ، لأن من المحال أن يهلك الله كل شيء ويبقى الوجه ، هو أجل وأعظم من ذلك ، وإنما يهلك من ليس منه ، ألا ترى أنه قال : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ. وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ ففصل بين خلقه ووجهه.

فناء من عليها ، المطمئنين بالحياة الدنيا ، الراضين عنها ، لم يكن لبقاء وجه الله من جلال ولا إكرام ، مهما كان الفناء الأخير من بلاءه دون آلاءه ، ولكنها من وجهة اخرى من آلاءه ، لمن جانبها ، فالفناء دركات ودرجات ، والبقاء بالله درجات ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟!.

﴿يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

السؤال هو الحاجة التي تحرص النفس عليها ، فالسؤال التماسها ممن يستجيبها ، سواء أكان بلسان الذات ، فالممكنات كلها فقيرة الذات إلى الله ، أم بلسان الصفات فكذلك الأمر ، أم بلسان الحال ، فكل تشهد أن كونها في مثلث الكيان دون سؤال ، ودون إجابة ، إنه من المحال ، أم بلسان المقال ، فقد يجاب إذا توفرت شروط الإجابة ، وقد لا يجاب إذا لم تتوفر : ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ (١٤ : ٣٤) لا ﴿كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ فالأسئلة الحالية والذاتية والصفاتية مستجابة على أية حال ، ولو لم يخطر للسائل ببال ، كمن لا يعرفون الله ، أو لا يوحدونه ، أو الغافلون عنه ، أو الذين قد يسألون ما يضرهم ، وقد لا يسألون ما ينفعهم ، فهو يعطيهم ما يصلحهم استجابة لمثلث السؤال بلا إدراك للسائل فيه ولا مقال ، فهو وحده المجيب ، وسائله لا يخيب ، وما سأل أحد غير الله ، إلا حرم سؤله عند الله ، وماذا يملك من دون الله ، حتى يسألوهم من دون الله؟!

﴿يَسْئَلُهُ مَنْ﴾ فما ذا يسألونه؟ ومتى؟ وما هو دليل الإجابة وليست في الآية؟ ومن هم السائلون؟.

إن السؤال لا يختص كائنا دون سواه ، إن كان يشمل كافة الطلبات والحاجات ، وقد جيء هنا ب «من» إما تدليلا على أن الكائن أيا كان لا يخلو عن شعور ، كيف لا و : ﴿إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ

﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧ : ٤٤) أو أن «من» لتشريف الكائنات العاقلة ـ كالملائكة والإنس والجان ـ على سواها.

ثم وكل يسأل ما يحتاجه ويصلحه هو أو سواه أيضا ، وإلا فلا إجابة.

وقد يسأل أهل السماوات ـ فيما يسألون ـ لأهل الأرض ، من الجنة والناس ، وإلا لم يكن في سؤالهم آلاء للأنس والجان ، فلم يصح عليهما فيه الامتنان ، وممن نعرفهم في أهل السماوات ، السائلين لأهل الأرض الملائكة : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٤٢ : ٥) ﴿.. لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٤٠ : ٧٠) ومن بين السائلين من لا يسأله أمرا سواه ، فالعارف لا يسأله إلا إياه ليزداد معرفة بالله ، فكل يسأل على حد شاكلته ومعرفته مناه : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

وبما أن الأسئلة هذه منوطة بيوم الدنيا ، فلا إجابة يوم الآخرة إلا بما قدمت كل نفس في الاولى ، فهم يجازون هنا لك دون سؤال ، وإنما حسب الأقوال فالأحوال فالأعمال ، فالسؤال إذا تختص هنا : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ : شأن الإجابة وسواها من شؤن الربوبية للأولى دون الاخرى : «من إحداث بديع لم يكن» [١] فإنه بديع في شأنه خلقا وأفعالا على غير مثال واحتذاء أمثال ، إنما يبدع بدعا : ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢ : ١١٧) دون حاجة إلى زمن ، أو استعانة بمثال سابق.

ثم «ومن شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين ويجيب داعيا» [٢] أو أن يفعل ما يشاء عدلا أو فضلا ، ولا يشغله شأن عن شأن : شأن الرحمة الرحمانية والرحيمية.

---

(١) اصول الكافي عن أمير المؤمنين (ع) في خطبة له «الحمد لله الذي لا يموت ولا تنقضي عجائبه لأنه كل يوم في شأن من احداث بديع لم يكن.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٦ ، أخرجه الحفاظ عن أبي الدرداء عن النبي (ص) في آية الشأن.

﴿يَسْئَلُهُ .. كُلَّ يَوْمٍ ..﴾ هل هو كل نهار؟ أم هو بليله؟ أم ماذا؟

إنه كل آن : كل وحدة زمنية عن كل وحدة حركية ، لأصغر ذرة من مادة ، علّها أقل بكثير من الوحدة الالكترونية ٠٠٠ ، ٥٠ / ١ ثانية في حسابنا ، فكل يوم هنا هو كل وحدة زمنية لا تنقسم [١].

ولا يعني السؤال والإجابة في كل يوم ، أن الله تعالى : المسؤول المجيب . هو أيضا بذاته في كل يوم ، وإنما الزمان والمكان ظرف فعله ، لا ذاته ، فقد كان إذ لا «كان» ولا زمان ولا مكان ، وسوف يبقى ويكون إذ يفني كل «كان» وكل زمان ومكان ، وهو الآن كما سيكون وكما كان ، خارجا عن الزمان والمكان ، فلا يشمله زمان ولا مكان ، كما لا يشغله شأن عن شأن.

ثم السؤال هذا في موقف الامتنان هو دليل الإجابة وإلا فلا امتنان.

وأخيرا للشأن هنا وجهتان : للأولى ، كما يسأله فيها من في السماوات ومن في الأرض كل يوم هو في شأن .. وللأخرى أو هو أشمل هو شأن الربوبية الشاملة كل شيء ، في أي زمان أو مكان ، تجريدا للأخرى عن السؤال : «كلّ يوم ، كما كان في الاولى ، مع سؤال «كلّ يوم».

ف «كل يوم» : آن أو ما زاد او نقص ، دهر أو سواه ، «هو في شأن» غير ما كان في غيره ، فلا تكرار في فعله ، ولا عادة ولا تقليد ، ولا مسايرة أو تسيير ، وإنما اختيارا وإبداعا ، فليس الله ليبقى دون شأن ، لا تنقطع رحمته ما كان هنا لك مرحوم ، فقد كان إذ لا كان ، فكان شأنه إذ ذاك ما كان ، ثم

---

(١) لقد تحدثنا عن معنى «يوم» في عدة مجالات ، إنه الزمان أيا كان ، ويتبع القرائن في تحديده ، فشأن الخلق والتدبير يشمل أقل وحدة زمنية ، لأنه من أمر الله «وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» ومن الأقرب أدنى حركة لأصغر مادة لم نعرفها حتى الآن.

لا يخلو أي يوم ـ منذ الخلقة ـ من شأنه أيا كان.

فلله تعالى ، شأنه يوم الدنيا ويوم الدين ، ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا يتبع أهواء خلقه في أي من شأنه (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض) (٢٣ : ٧١) وإنما يحكم ما يشاء كما يشاء ويفعل ما يريد كما يريد : ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ (٢١ : ٢٣).

ففي سماحهم لسؤاله تعالى آلاء ، ولإجابته ما يصلح من سؤال آلاء ، ولرجوع الرحمتين إلى الانس والجان آلاء ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ إنه تعالى ليس له هكذا شأن في اليوم العصيب ، والهول الرهيب ، وإنما شأنه الفراغ للأنس والجان ، للمسائلة الحساب ، ومن ثم الثواب والعقاب.

وترى إذا لم يفرغ للثقلين يعيي عن الحساب ، أو يخطأ في الحساب ، ولا يشغله شأن عن شأن؟

الجواب : أن فراغه للحساب حقيقة ومبالغة ، حقيقة لأنه فرغ عن شأن النشأة الاولى لشأن الاخرى وليس إلا الحساب وما يخلفه ، ومبالغة إذ يعني : سنعيد لكم ونفعل فعل من يتفرغ للعمل من غير تفجيع فيه ولا اشتغال بغيره عنه ، فالعامد لشيء مع غيره ربما قصر فيه أو أخطأ ، والفارغ له لا يقصر ولا يخطأ ، فقد دللنا هنا بذلك على المبالغة للمسائلة الحساب ـ دون عذوب عنه ولا نقصان أو نسيان ـ من الجهة التي نتعودها ، ليقع الزجر بأبلغ الألفاظ وأدلّ الكلام على معنى الإيعاد تقريبا للتصور عن صورة مذهلة مزلزلة للعذاب ، تسحق كيان مصورها سحقا ، وتمحقه محقا ، كيف أن الذي لا يشغله شأن عن شأن ، سيفرغ لكم أيها الثقلان؟! والثقلان هما الانس والجان من الثقل : الثقل ، مما يوحي أنهما الأفضلان

وإن في الأرض فقط [1] ، أو العبء فهما المثقلان الوازران فقط بين المكلفين [2] ولذلك يفرغ لهما لا سواهما ، فالثقل والفراغ يوحيان أنهما اللذان يدور عليهما رحى التكليف ، والحساب الثواب والعقاب ، وإن كان معهما غيرهما من المكلفين المحشورين ، من أعلاهم غير المعروفين ، وأدناهم فيمن نعرف من سائر الدواب : ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [3] (٦ : ٣٨).

فحساب غير الثقلين ليس في فراغ ، مهما كان لهم حساب ، لتفاهة التكليف وخفته ، أو خفة العصيان وقلته ، وأما الثقلان فهما المثقلان تكليفا ووبالا ، كما هما المثقلان ثوابا وكمالا ، ثم الفراغ للحساب الجزاء من آلاء الرب للمؤمنين إذ ينتصر لهم يوم الدين من الظالمين ، ويثابون هناك على ما عملوا يوم الدنيا ، نعمتان لهم ، ونقمتان لمن سواهم من الظالمين ، فالفراغ للحساب لهم من الآلاء وللظالمين بلاء : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

* * *

﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣٤) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ

---

(١) ومما يشهد له ما تواتر عن الرسول (ص) «إني تارك فيكم الثقلين» : أي العظيمين «كتاب الله وعترتي» فليكن الانس والجان أيضا ثقلين بين سائر الخليقة.

(٢) تفسير روح البيان ج ٩ ص ٣٠ قال الصادق (ع) .. لأنهما يثقلان بالذنوب.

(٣) راجع ج ١ من الجزء ٣٠ ص ١٤٣ ـ ١٤٦ في حشر الحيوان.

مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣٦) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ
فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ
وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٤٠) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي
وَالْأَقْدامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٤٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣)
يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٤٥) وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ
جَنَّتانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٤٧) ذَواتا أَفْنانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ
(٤٩) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٥١) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ
(٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٥٣) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ
دانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٥٥) فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا
جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما

تُكَذِّبانِ (٥٧) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٥٩) هَلْ جَزاءُ
الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٦١) وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (٦٢)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٦٣) مُدْهامَّتانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٦٥) فِيهِما
عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٦٧) فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ
آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٦٩) فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧١) حُورٌ
مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ
(٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧٥) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (٧٦)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٧٧) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾ (٧٨)

﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ. يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

المعشر هو الجماعة العظيمة والكثرة الكاملة ، فهل الخطاب به في محشر القيامة ، إذ يحشرون كاملة أجمعين؟ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ (٦ : ١٢٨) ﴿يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ..﴾ (٦ : ١٣٠) أو أن الخطاب يشمل المعشرين : يوم الدنيا ويوم الدين؟

قد يكون. حيث تتحمله الآية في مغزاها.

وهل الآية تبشير للأنس والجان بملحمة غيبية هي إمكانية غزو الفضاء بسلطان علمي أو إقدار بتقدير الرحمان أم ماذا ، فهي خاصة بيوم الدنيا؟.

فهي لا تمت لهما بصلة بما احتفت به من إنذار وتهويل بعذاب يوم الدين : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ .. يُرْسَلُ عَلَيْكُما .. فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ .. وأين هكذا تبشير من هذا الإنذار؟.

ثم النفوذ هنا «من» : خروجا عن أقطار السماوات والأرض إلى غيرهما ، لا «في» : دخولا في أقطارها غزوا لها ، ثم النفوذ فرار من جهة الى اخرى كما ينفذ السهم ، وليس غزو السماء فرارا منها إلى الأرض ، ولا من الأرض إلى نفسها ، وإنما غزو السماء تزويد وتحكيم لقرار علمي سلطوي في الحياة الأرضية على السماء : أن بإمكان ساكن الأرض وما كنها غزو السماء.

فالآية لا تمت بصلة لما تهواه غزاة السماء وإنما هي آية الشورى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ (٤٢ : ٢٩) إذ تعد بالجمع بين دواب الأرض والسماء ، لا تلك التي توعد محاولي النفوذ بإرسال شواظ من نار! فهل هو بعد وعد لغزو الفضاء مع وعيد النار؟.

ثم ولما ذا محاولة النفوذ من تلكم الأقطار؟ أفرارا من حساب الجبار وعذاب النار؟

ف ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ﴾ ثم ولا فرار عن النار إلا بسلطان الجبار على ضوء سلطان من التقوى ، ودون حاجة للنفوذ من هذه الأقطار!.

أم خروجا من سلطان الله : ملكه وقدرته؟ فلو كان بعد الأرض والسماوات مكان لم يكن إلا بسلطان الرحمان : ﴿لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ﴾ : في ملك الله وقبضته ، فما محاولة الخروج عن سلطان الله إلا محاولة جنونية مستحالة.

فسواء أكانت محاولة النفوذ من الأقطار يوم الدنيا أم يوم الدين ، ف ﴿لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ﴾ : فأين تطير هذه الحشرة الهزيلة الذليلة ، وإلى أين ، أتحسبها تنجو من عذاب الرحمان ، أو تخرج عن سلطانه؟ فلتنفذ من الأقطار كل الأقطار ، فهل تفر من النار؟ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ﴾ لا انتصار الفرار ، ولا إخماد النار ، ولا أي غلب على العزيز الجبار ، فلما ذا الفرار؟!

إن شواظ النار : لسانها اللهيب الخالص الأخضر ، ترسل على الفارين ولو إلى أبعد الأقطار ، والنحاس هنا المذاب السائل من الصفر ، أو الدخان المتصاعد من النار ، هما يرسلان عليكما ، ولا اليكما ، مما يوحي أن عذاب الله حاضر حاذر ولو خارج الأقطار ، لا يتطلب معونة الإرسال الى الفار ، ولو استطاع الفرار؟!.

فالسلطة الإلهية المطلقة هي من الآلاء ، وتحقيق العذاب على المستحقين من الآلاء ، وملاحقة الفارين عن العذاب من الآلاء ، عدلا أو فضلا من الرحمان : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ فإن البلاء العدل على أهله من الآلاء الفضل على أهل الله.

﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

انشقاق السماء هو اخترامها وافتراقها عن التئامها وصلابتها :

﴿وَانْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ﴾ (٦٩ : ١٦) واهية وهي الدهان : المهل ـ دردي الزيت إذ تمور مورا ، وكما علّها كانت حين دخانها وردة كالدهان فهي ذات الرجع إلى ما كانت يوم قيامتها فترجع كما كانت ﴿وَرْدَةً كَالدِّهانِ﴾.

وردة علّها احمرارة الحرب أو اصفرارة الخوف والغضب ، تسيل هي السماء كالدماء ، بدلا عن أن تسيل منها الدماء ، وردة الانشقاق في قيامة الإماتة تقدمة لقيامة الاحياء ، ويا لهما من آلاء ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

فهنا سؤال منفي هو الاستعلام ، ولما ذا يسأل علام الغيوب ، أو يسأل عمّا له الموكلون بالعذاب؟ إذ ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَالْأَقْدامِ﴾ ف ﴿لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٢٨ : ٧٨) فإن وصمة الجريمة مثبتة على سيماهم ، ثم وهناك سؤال مثبت : سؤال تقبيح وإيلام : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ﴾ (٣٧ : ٢٤) يسألون عما أجرموا ، لا عما أجرم غيرهم : ﴿قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٣٤ : ٢٥) إذا فلا نفي السؤال يخص جماعة أو طائفة دون آخرين ، ولا إثباته [1]. كما لا جواب للمجرمين عذرا ، ولا استجواب إلا حجة عليهم.

﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ﴾ : علامتهم ـ سيماهم في وجوههم وسائر أعضائهم وأحوالهم وأقوالهم ، الوجوه الكالحة الباسرة بكل الوجوه : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

---

(١) في المجمع عن الإمام الرضا (ع) انه قال في الآية : ان من اعتقد الحق ثم أذنب ولم يتب في الدنيا عذب عليه في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه ، أقول انه في نفسه صحيح كواقع لا كتفسير للآية لأنها تعم الانس والجن جميعا.

باسِرَةٌ﴾ (٧٥ : ٢٣) وحتى إذا تكلفت بشاشة ونضارة ، فسيما الوجوه المجرمة معروفة عند أهله ، وحتى يوم الدنيا ، فالمؤمن ينظر بنور الله فيعرف المجرم بسيماه رغم نضارة النعمة وغزارة النهمة ، فكيف بيوم الطاعة ، إذ الوجوه باسرة ، ورجاسة السرائر في سيماهم ظاهرة ، وعمال العذاب ، الملائكة الموكلون به هناك ، أنظر بنور الله من المؤمنين يوم الدنيا ، فيا له من مشهد عنيف ، ومع العنف الهوان ، إذ تؤخذ بالنواصي : الجباه ، والاقدام ، فيقذفون في النار ، مع كل هوان **﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾** إذ لا مغالطة في عرفان المجرمين ، فلا مخالطة لهم بالمؤمنين.

وإنما تؤخذ بالنواصي والاقدام حين ينتهي دور الشفاعة والغفران ، فإنهما قبل إبرام الحكم وختام الأمر ، يوم البرزخ ، ويوم القيامة قبل الحساب ، أو بينه وبين إبرام العذاب وكما يروى عن الرسول الأقدس (ص) [1].

﴿هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

﴿هذِهِ جَهَنَّمُ﴾ : نار شديدة التأجج **﴿الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا﴾** بكونها وكيانها

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٥ . أخرج عبد الرزاق في المصنف عن رجل من كندة قال قلت لعائشة أسمعت رسول الله (ص) يقول : انه يأتي عليه ساعة لا يملك لأحد شفاعة؟ قالت : نعم ، لقد سألته فقال : نعم ، حين يوضع الصراط وحين تبيض وجوه وتسود وجوه وعند الجسر حتى يشحذ حتى يكون مثل شفرة السيف ، ويسجر حتى يكون مثل الجمرة ، فأما المؤمن فيجيزه ولا يضره ، وأما المنافق فينطلق حتى إذا كان في وسطه خر في قدميه يهوي بيديه إلى قدميه ، فهل رأيت من رجل يسعى حافيا فيؤخذ بشوكة حتى تكاد تنفذ قدميه ، فإنه كذلك يهوي بيديه إلى قدميه فيضربه الزباني بخطاف في ناصيته فيطرح في جهنم يهوي فيها خمسين عاما ، فقلت : أيثقل؟ قال : يثقل خمس خلفات فيومئذ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام.

وإحراقها لهم ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ الذين أجرموا ثمار الحياة الانسانية قطفا لها قبل إيناعها أو قطعا لها عن آخرها ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَها وَبَيْنَ﴾ ماء ﴿حَمِيمٍ﴾ : حار ﴿آنٍ﴾ :

منتهى الحمّة والحرارة ، طواف الاضطرار والاستغاثة : ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ﴾ (١٨ : ٢٩) وليس المغاث به خيرا من المغاث منه ، فلذلك يطوفون في هذا البين حائرين ، وإذا كان ماءها في منتهى الحمام ، فكيف بنارها؟ سبحان العزيز العلام! فطواف المجرمين بين مختلف العذاب من الآلاء : عدلا على مستحقيه ، وفضلا للمؤمنين بل وللمجرمين أيضا يوم الدنيا إذ ينذرون به فينتفعون ، مهما كان لهم عذابا يوم الدين : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ ثم وإليكم مواصفات الجنات التي هي آلاء بشرى لأهلها يوم الدنيا وواقعا يوم الدين :

﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

هاتان الجنتان هما في جنة العدن الخلود : ﴿وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى. فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾ (٧٩ : ٤٠) وعلهما فيها الجنة الجسدانية والروحانية وهي اكبر : ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (٩ : ٧٢) ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ﴾ (٣ : ١٥) فكما ان خوف مقام الرب وتقواه مشتركان بين الروح والجسم ، فلتكن هكذا الجنتان ، أو هما فيها بستانان [٢] بما معهما من جنة المعرفة والرضوان ، أو انهما جنة الانس والجان. كل على حدة ، ولكنه خلاف المعروف من آي القرآن : من اشتراكهما في الجنان دون تباعد وانحياز ، وان «من»

---

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٧ ـ أخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم انه سمع رسول الله (ص) قال : ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ قال : بستانان عرض كل واحد منهما مسيرة مائة عام فيها أشجار وفرعهما ثابت وشجرهما ثابت وعرصتهما عظيمة ونعيمهما عظيم وخيرهما دائم ولذتهما قائمة وأنهارهما جارية وريحهما طيب وبركتهما كثيرة وحياتهما طويلة وفاكهتهما كثيرة.

يشمل كل واحد ، لا كل اثنين أحدهما من الانس والآخر من الجان ، ومن مقام الرب قيامه الربوبي بالقسط : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ﴾ (٣ : ١٨) وقيامه بما نكسب : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ (١٣ : ٣٣) وقيامه بكل متطلبات الحياة : ﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (٣ : ٢) قيامات قيمات : قسطا في الحكم وقسطا في استنساخ الأعمال ، وقسطا في الجزاء ، فليس خوف مقام الرب إلا من قسطه العدل ـ لا القسط الظلم ـ من قيامه بالشهادة والحساب والعذاب ، ثم ومن مقام الرب قيام العبد في موقف الحساب : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ﴾ (٨٣ : ٦) فلمن خاف مقام ربه ، ومقامه عند ربه ـ جنتان : فلتحق لخائفه جنتان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

ثم وكما الخوف من مقام الرب درجات كذلك جنتاه درجات ، ويعم درجات الخوف أن يتبنى حياته الخوف من مقام الرب ، دون اللامبالاة ، ومن أفضل الخائفين «من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويقول ويعلم ما يعمله من خير وشر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال [1]» ومن أدناهم من يقترف أحيانا بعض المعاصي ثم يتوب ، فهو من أهل الجنتين الدانيتين [2].

---

(١) اصول الكافي عن أبي عبد الله (ع) في الآية .. ثم قال : فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

وفي كتاب الجنة والنار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية : هو أن الرجل يهجم على شهوة من شهوات الدنيا وهي معصية فيذكر مقام ربه فيدعها من مخافته.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٦ ـ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الأصول والنسائي والبزاز وأبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء ان النبي (ص) قرء هذه الآية فقلت : وان زنى وان سرق يا رسول الله (ص) فقال النبي (ص) الثانية ولمن خاف مقام ربه جنتان فقلت وان زنى وان سرق فقال الثالثة ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فقلت وان زنى وان سرق ، قال (ص) نعم وان رغم أنف ابن أبي الدرداء ، أقول : تصديق هذه الرواية لا تناسب إلا للجنتين الأخريين. لا الأوليين العاليتين ، ولعل ذلك خطأ من الراوي ان النبي (ص) قرء آية العاليتين ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ﴾ أو إنما يناسب ﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ﴾.

﴿ذَواتا أَفْنانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ جنتان ذواتا أفنان : أغصان مختلفة الألوان صغيرتان نديتان نضرتان ، فلكل جنة أغصان ، ولكلّ ألوان ، كل على حسبه كما الجنتان ، إن كانتا بستانين أو جنة جسدانية وجنة رضوان ، أو كلّ لكل من الانس والجان.

﴿فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ لكلّ عين جارية ، فلجنة الرضوان عين المعرفة الفائضة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وإنما دائبة فمتزائدة ، وكما للجنة الثانية ، فيا للعينين مع الأفنان من نضارة ولمعان : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ فالزوجان هما الاثنان من كل نوع ، أحدهما متشابه لما رزقوه في الدنيا ، والثاني غير متشابه : ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ﴾ (٦ : ١٤١) كلّ متشابه لما رزقوه من قبل : ﴿كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً﴾ (٢ : ٢٥) وغير متشابه هو الزوج الثاني ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، حتى والمتشابه منهما بينه وبين الذي في الدنيا ، بون الجنة والدنيا.

ثم ومن فاكهة المعرفة أيضا زوجان ، متشابه لما عرفوها في الدنيا ، وغير متشابه لم يعرفوها فيها! ﴿مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

وإذا كان بطائن هذه الفرش من إستبرق : حرير غليظ ، فما ذا إذا تكون

ظواهرها؟ إنها أحسن وأنضر من إستبرق ، ولا أنضر لنا يوم الدنيا من إستبرق! ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ : أثمارهما المجتناة «دان» لا تكلّف إلا قطفا من دون تكليف إلا طوعا وعطفا.

﴿فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

قد توحي ضمير الجمع هنا دون التثنية المسبقة ، بأن الجنتين هناك هما الجسدانية والروحانية ، والنساء قاصرات الطرف لسن في جنة الرضوان ، والجنة الاخرى لأهلها ـ ككل ـ جنات ، وكما تتكرر فيما يلي ﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ لا ﴿فِيهِما﴾ فلا تثنية إلا فيما يناسب جنة الرضوان.

فجنا جنة المعرفة دان لأهلها ، يجنونها من أشجارها ، كجنا غيرها ، وكذلك الأفنان ، وعينان تجريان ومن كل فاكهة زوجان.

فكما يتفكه الإنسان من فواكه يأكلها ، كذلك ـ واخرى ـ من فواكه تتفكه بها روحه ، وكما يتنصر من الأفنان الأغصان ، كذلك ـ وأحرى ـ من مختلف أفنان المعرفة والرضوان ، وكما يشرب أو يغمس في عين جارية بالأبدان ، كذلك ـ وأحرى ـ من عين المعرفة الفائضة بفضل الرحمان في جنة الرضوان ، ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ﴾ الجنات الجسدانية ـ بنات ﴿قاصِراتُ الطَّرْفِ﴾ من القصر الكمال ، لا القصور النقص : فهن ، مقصورة أطرافهن على أزواجهن : أطراف العيون والقلوب ، فلا تهوى إحداهن إلا زوجها ، ولا تنظر إلا إليه [1] ، فإنهن عفيفات

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٧ ـ أخرج ابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن النبي (ص) في الآية : لا ينظرن إلا إلى أزواجهن وفيه ١٥١ عن مجاهد في الآية قال : مقصورات قلوبهن وأبصارهن وأنفسهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ لا يرون غيرهن.

الشعور والنظرة ، وقصور الطرف هذا ليس مقصورا عليهم منذ الزواج ، وإنما منذ أنشأهن الله إنشاء إذ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ : لم يقتضهن قبلهم ويقترعهن بجماع أم سواه ، مسا أم سواه وبأي من ألوان الاستمتاع أو سواه [1] ومن طمث العفاف النكاح. وأحرى منه اللاعفاف السفاح.

﴿إِنْسٌ ... وَلا جانٌّ﴾ : والنفي هذا يجوّز الإثبات : أن بإمكان الجن طمثهن كما الإنس ، وكذلك إمكانية طمث كل ذكر من الجن والإنس أنثى الآخر ، ثم ونفي الطمث في معنى أوسع انهن لم يدخلن معركة الحياة الزوجية باتعابها واشغابها وطوارئها ، ولا أية اتعاب تنقص من جمالهن ، فهن كما يروى عن الرسول (ص) بعد ما تلا الآية : «لم يصبهن شمس ولا دخان ، لم يعذبن في البلايا ، ولم يكلمن في الرزايا ، ولم تغيرهن الأحزان ، ناعمات لا ييأسن ، وخالدات فلا يمتن ، ومقيمات فلا يظعنّ ، لهن أخيار يعجز عن نعتهن الأوهام» [2].

﴿كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

هنا يضاف إلى جمال البكارة وقصر النظرة جمال اللون والنضارة : ياقوتية اللون ومرجانيته ، فهن إذا في مثلث الجمال والطراوة ، الذي يجمع كمال الانوثة كله ، وكل ذلك النعيم العميم جزاء الإحسان. و :

﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

وإنه لجزاء الفضل وليس العدل ، فإن الإحسان من هؤلاء المحسنين لم يك ليرجع إلى رب العالمين ، وإنما إلى أنفسهم ، وكما الإساءة ليست إلا عليهم : ﴿إِنْ

---

(١) الطمث لازما الحيض من يطمث مضموما ومتعديا من يطمث مكسورا كما هنا : الاقتضاض والاقتراع والمس ، ف «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ» تجمع جميع ما تحل من الاستمتاعات النسائية ، أو ومعداتها حتى الخطبة.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٨ ـ أخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم انه سمع رسول الله (ص) قال :

﴿أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها﴾ (١٧ : ٧) على أن الحسنة لنا من الله ، فإنه الهادي للحسنى ، مهما كان لنا حول في الإحسان ، ف «هل جزاء من أنعم الله عليه بالتوحيد والإسلام إلا الجنة» [١]؟ فليس يعني الإحسان إلا إيجاد الحسن والإتيان به على ضوء شريعة الله ، أو العقل المؤيد بها ، لا كل تراه حسنا كما تهواه ، فإنه قد يكون إساءة ، أو لا إساءة ولا إحسانا! فيا علينا للرحمان من امتنان فيما أحسن إلينا من آلاء فاضلة ، ونعماء فاحلة يسميها جزاء الإحسان! ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾؟

ثم آية الإحسان لا تختص المسلمين الصالحين بجزاءهم يوم الدين ، فإنها تعمهم والكافرين ، كما تعم يوم الدنيا ويوم الدين ، مهما كان من أفضله وأتمه للمؤمنين ، ليوم الدين ، وكما يروى عن الرسول (ص) : أنزل علي هذه الآية سجلة في سورة الرحمان في المسلم والكافر سواء : «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» [٢] : سواء يوم الدنيا لا يوم الدين.

فقد «جرت في الكافر والمؤمن والبر والفاجر سواء ، ومن صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به ، وليس المكافأة أن يصنع كما صنع حتى يربي ، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء» [٣].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٩ ـ أخرجه ب «الإسلام» ابن مردويه عن جابر بن عبد الله عنه (ص) وب (التوحيد) جماعة منهم ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابن عمر عنه (ص) والترمذي والبغوي والديلمي وابن النجار عن انس عنه (ص) وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس عنه (ص).

كما أخرجه الصدوق في التوحيد عن موسى بن جعفر عن آبائه عن علي (ع) انه سمع النبي (ص) يقول :

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٤٩ ـ أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان والديلمي عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) :

(٣) تفسير العياشي باسناده عن أبي عبد الله (ع) يقول : آية في كتاب الله مسجلة : هي ﴿هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ﴾ جرت.

فكل من أحسن إليك ـ أيا كان دينه أو لا دين له ـ فعليك بالإحسان إليه وبأفضل مما أحسن ، وإلا فالبادئ أفضل ، إلا أن يفضل في جزاءه بإحسان يفوق ما فعل ، وكما هي سنة الله ، وإن كان لا يصله إحسان المحسنين ، اللهم إلا إليهم ، وقد تجري آية التحية في ردّها بأحسن منها أو مثلها هاهنا ، فإن الإحسان من التحية أو هو أفضل التحية.

ونجد الله تعالى يعد المحسنين أجمع الجزاء الحسنى ، إن في الدنيا والاخرى ، أم في إحداهما ، للمؤمن في الاخرى ، وللكافر ـ غير المستحق الاخرى ـ في الاولى ك ﴿مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١ : ١٦) فالدنيا دار جزاء للمحسنين لها ، كما الآخرة دار الجزاء الأوفى لمن أحسن لها ، ولا يظلمون فتيلا.

وآية الإحسان هذه ، في صورة الاستفهام ، تستخرّ الضمائر الحية ، معتبرة وجوب جزاء الإحسان بالإحسان عقليا وإنسانيا ، قبل كونه واجبا قرآنيا ، ولا ينكره إلا من سامح عن عقله وضميره ، حتى ولا الحيوان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

هاتان هما الجنتان العاليتان بما فيهما ومن فيهما ، فهل هناك أعلى منهما ، أو دونهما؟ أجل :

﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ :

وترى إذا كانت الأخريان دون الأوليان فما هي المنة فيهما على الإنس والجان؟

علّها في أن دونهما لمن هم دون من له الأوليان ، وإلا فلا جنة لهم لو لا الأخريان ، وهذا عدل في مراتب الجنات حسب الدرجات ، كما وان كل جنة هنا أو هناك أيضا درجات حسب القابليات ، أفليس ذلك القضاء العدل من آلاء الرحمان :

﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿مُدْهامَّتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

فهناك الاوليان فيهما ذواتا أفنان ، وهنا الأخريان فيهما مدهامتان : خضراوان [1] ضاربتان الى السواد ، فأين أفنان : أغصان مختلفة الألوان ، من : خضراوتان؟.

﴿فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

فهناك عينان تجريان ، وهنا نضاختان : ناضبتان بالماء ، وهذا دون الجريان.

﴿فِيهِما فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

فهناك ﴿مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ﴾ ثانيهما غير متشابه ، وهنا ﴿فاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ هي أولاهما المتشابه لما في الاولى ، دون غير المتشابه.

﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

فهنا خيرات حسان ، تقارف قاصرات الطرف في بعض الخيرات ، وتفارقها في البعض ومن المفارقات هنا :

﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

هنا مقصورات الطرف بقصر أزواجهن لهن وقصر الخيام ، وهناك قاصرات الطرف من ذواتهن دون قصر الأزواج ولا قصر الخيام ، فأين إذا مقصورات من قاصرات؟! فهذه من المفارقات ومن ثم المقارفات :

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

ولأن الطمث ـ أيا كان ـ هو نقص الأنثى ، فلا يناسب الإحسان ولا الحسان في الجنان ، اللهم إلا هامشيا لمن يتذوقها.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٤٩ ، أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال سألت النبي عن قوله : مدهامتان ، قال : خضراوان.

وترى ان كان الحور المقصورات في الخيام غير مطموثة من قبل ، فما هو دور النساء الإنسيات ، هل هن محرومات عن زواج الجنة ولسن حورا ، وكثير منهن مطموثات في الدنيا؟.

علّ الجواب أن الحور المقصورات هن من الخيرات الحسان لا كلهن ، فمنهن أيضا النساء الإنسيات [1] يجعلهن الرحمان عذارى أبكارا ، أم وإذا بقين ثيبات فلسن بمرغوبات عنهن لأزواجهن ، بل هن مرغوبات لهم طيبات ، ثم وهن أفضل وأجمل من الحور المقصورات وكما يروى عن الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم لما يسأل :

«أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال : نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة ، قيل : ولم ذاك؟ قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله ، ألبس الله وجوههن من النور وأجسادهن من الحرير» [2].

وعلّ قاصرات الطرف والمقصورات ، اللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان تشملهن ، وأحرى ، ف «قبلهم» قد يخص الآخرة ، وان طمثن يوم الدنيا بهم أو بغيرهم ، أو أنهم هم الذين طمثوهن في الدنيا فلم يطمثن قبلهم إنس ولا جان ، أو ان طمثهن مطموس يوم الآخرة فأصبحن غير مطموثات.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسانٍ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

فهناك المتكآت فرش من إستبرق وجنا جنتيه دان ، وهنا رفرف :

---

(١) روضة الكافي باسناده الى الحلبي قال سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : ﴿فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ﴾ قال : هن صوالح المؤمنات العارفات ، أقول وهذا من بيان أحد المصاديق البعيدة عن الأذهان بمناسبة ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ..﴾.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٥٠ ـ اخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه عن ام سلمة قالت : قلت يا رسول الله (ص) (إلى أن قال «ص» بعد ما في المتن): «بيض الألوان ، خضر الثياب ، مجاهرهن الدر ، وامشاطهن الياقوت ، يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا طوبى لمن كان لنا» وفي الفقيه قال الصادق (ع) : الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا وهن أجمل من الحور العين.

الأبسطة ـ خضر ، علّها الإستبرق التي كانت بطائن الفرش هناك ، أو فضول المجالس [1].

وعبقري حسان : نادرة حسنة : زرابي أو طنافس أو ثيابا موشاة أو الديباج ، أو أية حسان نادرة ، فأين جنتان وجنتان ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾.

﴿تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾.

أجمل ختام لسورة الرحمان ، قد يكون الاسم المتبارك فيه أيضا هو الرحمان ، الذي افتتحت به سورة الرحمان ، خير بداية وخير ختام ، ولأن الآلاء المستعرضة فيها وسواها ، كلها من رحمة الرحمان ، أكانت رحمانية أم رحيمية فهو اسم ربوبي من أشمله الرحمان ، ويا له من اسم متبارك الكيان في كل زمان ومكان ، ويا لمسماه من جلال وإكرام ، جلال في ذاته وصفاته ، وإكرام برحمته وجلاله لمخلوقاته!.

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٢ ، أخرج عبد بن حميد عن علي بن أبي طالب.

(سورة الواقعة ـ مكية ـ وآياتها ست وتسعون)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ (٢) خافِضَةٌ
رافِعَةٌ (٣) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (٥) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (٦) وَكُنْتُمْ
أَزْواجاً ثَلاثَةً (٧) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ
الْمَشْئَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ
مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ
(١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لا
يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١)

وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ
فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً (٢٦) وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ
(٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَماءٍ مَسْكُوبٍ (٣١)
وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً
(٣٥) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (٣٦) عُرُباً أَتْراباً (٣٧) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ
(٣٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ
(٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكانُوا
يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
(٤٧) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١)

لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ
(٥٤) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٥٦)

﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ. خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾ الواقعة هذه هي واقعة قيامة الإماتة والتدمير ، التي تتلوها قيامة الإحياء والتعمير : ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ (٦٩ : ١٥) : الحادثة التي هي لا محالة واقعة ، لحدّ تسمت باسم الواقعة ، إذ لا بداء عنها ولا رجوع ، فإنها حتمي الوقوع لحد كأنها الآن واقعة ، كما توحي له الفاعلة مرتين : مرة لأن الفاعل لا بد وهو شامل للحال ، مهما شمل ـ أيضا ـ الاستقبال ، واخرى إن كانت تاءها للمبالغة ، كما قد تؤيده تاء الكاذبة ، قرن مبالغة الوقوع بمبالغة اللاوقوع.

و «إذا» الظرفية ـ هنا مضمّنة معنى الشرط ، أنها رغم ما كانت لها كاذبة قبل وقوعها ، ليس لوقعتها كاذبة ظرف وقوعها ، إذ يجد الكاذبة نفسه والكون كله ، يجدها في واقع الواقعة ، فأنى له أن يكون لها كاذبة؟! أو أن الجزاء محذوف يستوحى من «ليس .. خافضة رافعة». ثم ف «كاذبة» هي مبالغة «كاذب» كما «الواقعة» تبالغ في «الواقع» :

إن الذين كانوا يصرون مبالغين في تكذيبها يوم الدنيا ، ليسوا ليكذبوا بها في الاخرى ، فوقعتها ـ وهي وقوعها مرة دون مهل ولا تكرار ـ هي التي تزيل عنهم ذلك التكذيب الإصرار ، فتحولهم إلى التصديق والإقرار ، حين لا يفيدهم تصديق ولا إقرار ولات حين فرار.

ثم ﴿خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾ قد تكون وصفا ل ﴿كاذِبَةٌ﴾ : الذي يكذب بها خفضا لها عن دورها الموعود ، في الحساب العدل والعقاب ، والفضل والثواب ، أو رفعا لها عن الكيان والوجود : أن لا قيامة فلا حساب ، فلا ثواب ولا عقاب!.

أو أنها خبر محذوف المبتدء : «هي خافضة رافعة» : خافضة أقواما ترفعوا يوم الدنيا دونما حق أو صلاحية فرفضتهم إلى النار وبئس القرار ، ورافعة آخرين تنزلوا عما يحق لهم ، فرفعتهم إلى الجنة (١) ، ونعم القرار ، ولأن الواقعة ظاهرة حق وحساب دون الدنيا الفوضى اللاحساب!.

أو أن الوصفين تشملان الواقعة والكاذبة بالمعنيين ، فقد تتحملها الجملة أدبيا ومعنويا : فلا كاذبة للواقعة خفضا ولا رفعا ، بل هي خافضة لمكذبيها رافعة لمصدقيها.

وقد يتخطى نفي الكاذبة لها يوم الواقعة ، إلى ما قبلها ، أن تكون ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾ وصفا للواقعة قبل وقوعها (٢) كما تصفها ليوم وقوعها : أن ليس لوقعة الواقعة قبلها ، من يبالغ في التكذيب بها يوم الدنيا ، كما ليس لها كاذبة يومها ، سواء ، إذ لا سناد لمكذبيها يبالغون به في تكذيبها ، إلا ظنونا وأوهاما لا تملك إلا التشكيك بها ، لا التأكيد من عدم وقوعها ، وهذا ما يبرر المبالغة في الكاذبة ، إذ لا يكذب بها الواقع فيها ، المتواجد عندها ، فضلا عن أن يبالغ في تكذيبها ، حتى يبرر نفي المبالغة.

---

(١) الخصال للصدوق عن الزهري قال : سمعت علي بن الحسين عليه السّلام يقول في الآية : خافضة خفضت والله بأعداء الله في النار ، رافعة رفعت والله أولياء الله إلى الجنة.

وفي الدر المنثور ٦ : ١٥٣ عن محمد بن كعب : تخفض رجالا كانوا في الدنيا مترفعين وترفع رجالا كانوا في الدنيا منخفضين ، ومثله عن السدي وقتادة.

(٢) ذلك وإن كانت الجملة منكرة لا تأتي وصفا إلا لنكرة ، فان الواقعة أيضا ليست معرفة حيث اللام فيها ليست تعريفا ، وإنما هي موصول ، كما يقال : الذي يقع ، ترى الجملة هذه معرفة أم نكرة؟!

فكما الواقعة يوم وقوعها تملك واقع البرهان الملموس على أنها واقعة ، كذلك هي الآن ، وطوال أيام الدنيا ، تملك من البراهين ، ما توضحها وضح النهار ، وكأنها الآن واقعة ، بما تمكّن من واقعها المستقبل من براهين ، وما تفرضها بعد إمكانيتها من براهين اخرى.

فلا يملك أحد من ناكريها يوم الدنيا أن يكذب بها خفضا عن شأنها ، أو رفعا ونكرانا لكونها وكيانها ، كما لا يملكون في الاخرى . ف :

﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ﴾ : قيامة الإماتة والإحياء والمتأكدة ﴿لَيْسَ﴾ حينها ﴿لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾ [1] من يبالغ في تكذيبها ﴿خافِضَةٌ رافِعَةٌ﴾ لا تكذيب الخفض من دورها ، ولا رفعها إزالة لها ، كما و ﴿لَيْسَ﴾ الواقعة ﴿لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ﴾ لا في الاخرى ولا الاولى «خافضة» لها أو «رافعة» ... بل هي . الواقعة «خافضة» لأقوام «رافعة» لآخرين.

فهي هي خافضة لمن ترفع دون حق ، ورافعة لمن تخفض بباطل ، دون أن يملك أحد خفضها هي أو رفعها ، إذ الملك يومئذ لله وله الحكم واليه يرجعون ، دون الدنيا الدنية التي أكثر ملاكها ظالمون ، خافضون دون حق ورافعون ، كما وأنها خافضة للسماء المرفوعة بأنجمها ، ورافعة للأرض المخفوضة بجبالها ، خفض الزلزال ورفعه : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾.

ففي يوم الواقعة تختل الموازين والقيم الأرضية الواهية ، وتحتل مكانها القيم والموازين الإلهية ، بلا مؤاربة ولا مسايرة.

وترى ماذا يحدث اثر حدث الواقعة ، أو ماذا الذي يحدثها؟

---

(١) فاللام هنا للتوقيت ، وعلى الوجه الثاني للتعدية.

﴿إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا. فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا﴾.

... نموذج من مواصفات الواقعة في الأرض والجبال ، فرجرجة الأرض واضطرابها ، وانبساس الجبال وهباءها ، هذا وذلك من مئات المئات من واقعات الواقعة التي تشمل الأرض والسماوات ، فلا تبقي ولا تذر.

إن للأرض رجفات أربع ورجرجات : دائبة هي حركاتها المتداخلة المعدّلة ، وموضعيته هي زلازلها قبل الواقعة ، ومدمرة هي رجة الإماتة كما هنا ، ومعمرة هي رجة الإحياء بعدها ، ورجة الإماتة هي الهائلة المخوفة ، كما توحي لها «رجّا» تعني عظيما مهولا ، محولا للأرض إلى غير الأرض : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾ [(١)].

وبسّ الجبال إرساءها وتسييرها . ﴿فَكانَتْ هَباءً﴾ : ذرات في الهواء [(٢)] . وتفتيتها وبثّها فكانت ﴿مُنْبَثًّا﴾ كالعهن المنفوش ، أفهذه الجبال الراسية تتحول هباء ، بعد ما رست قواعدها في الأرض ، وعلت رؤوسها في الهواء؟ أجل ومع الأرض والجبال السماء.

ترى ثم ماذا بعد قيامة التدمير؟ انها قيامة الإحياء والتعمير ، وانقسام المكلفين الى أزواج ثلاث ، حسب الأعمال والقابليات :

﴿وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾ : أقرانا تحشرون إلى الساهرة جنب بعض ، وإنما تثلثكم سيرة مفارقات الأعمال والنيات ، دون أن ينظر إلى صورة الأشكال أو مقارفات الأعمال ولما.

---

(١) راجع تفسير سورة الزلزال ج ٣ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٦ أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب (ع) قال : الهباء المنبث رهج الذرات ، والهباء المنثور غبار الشمس الذي تراه في شعاع الكرة.

﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ : وهم الذين عاشوا يمين الحياة ويمنها ، إيمانا بالله ، يمينا ، في سبيل الله ، فيمنا في مرضات الله : ﴿وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ. فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ. يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ. ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٩٠ : ١٨).

والميمنة هي ناحية اليمين واليمين ... يمنا وبركة في حياتهم كل الحياة ، ويمينا في اتجاهات الحياة الى الدين ، ويمينا يوم القيامة إذ يؤتون كتبهم بأيمانهم.

﴿وَأَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ﴾ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ. عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ (٩٠ : ٢٠) شؤما في الحياة حيث انحازوا الى شمالها ، ولؤما في العقائد والأعمال والتصرفات إذ جدّوا في إهمالها ، فالمشأمة هي ناحية الشؤم واللؤم قبال اليمين.

والسؤال في أصحاب الميمنة سؤال تبجيل وتجليل ، كما أنها في أصحاب المشأمة سؤال تذليل وتهويل ، ومن ثم السابقون يؤتى بذكرهم دون سؤال ، علّه لأنهم سبقوا السؤال والجواب ، واجتازوا كل حساب ، لأنهم مقربون! وهم ورثة الكتاب لأنهم مصطفون : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (٣٥ : ٣٢).

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ : هل هم السابقون زمانا؟ وليس لسبق الزمن دور في القرب والزلفى! ثم وهم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين! أترى أن القلة الآخرة كالثلة الاولى سابقة زمنا؟ أم هم السابقون شرفا وإيمانا فلما ذا التكرار؟.

ترى لأن الثاني خبر الأول؟ ومن شأن الخبر التنكر : «سابقون» وأن يفيد ، وما هي افادة حمل الشيء على نفسه ، حملا ذاتيا أوليا لا يعنى إلا في المنطقيات دون المعرفيات! أو انه وصف له؟ فكذلك الأمر! فالوصف يزيد الموصوف معنا ، لا أن يكرره دون معنى ولا جدوى! أو أنهما وصفان للزوج الثالث من ﴿أَزْواجاً ثَلاثَةً﴾ فالأول يعني السبق في الاولى ، والثاني سبق الاخرى نتيجة الاولى جزاء الحسنى بالحسنى؟ فهذا ما يقتضيه أدب اللفظ والمعنى ، فالسابقون بالخيرات : ﴿وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (٣٥ : ٣٢) إيمانا وعملا صالحا في الاولى ، هم السابقون بالخيرات جزاء فضلا في الاخرى : ﴿أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ (٢٣ : ٦١) فهم في صراع الحق والباطل سراع الى الحق وسبّاق اليه دون مماطلة ومماهلة ، ولا تلعثم وتوان ف ﴿أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ إلى الله زلفى ، أئمة الهدى ، بدو امة التقى ، فلهم العقبى الحسنى كما أحسنوا في الاولى.

فالسابقون سبقوا أصحاب الميمنة في كافة ميادين سباق التقوى حالا ومقالا وإيمانا ، من حمل الرسالات الإلهية أصالة بالوحي ، أو خلافة عن أصحاب الوحي ، ومن سنّ السنن الحسنة التي ظلت سبلا للخيرات لأهل الخيرات ، ومن أي سباق في أية صبغة إلهية [1] فأصبحوا هم المقربين لهم الأرواح العليا [2] ،

---

(١) كالسباق الى اجابة دعوات المرسلين ، كما في الدر المنثور ٦ : ١٥٤ أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في آية «السَّابِقُونَ» قال : يوشع بن نون سبق الى موسى ، ومؤمن آل ياسين سبق الى عيسى ، وعلي بن أبي طالب سبق الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه عنه انها نزلت فيهم وكل رجل منهم سابق أمته وعلي أفضلهم سبقا.

(٢) في أمالي الشيخ المفيد عن أمير المؤمنين عليه السّلام في آية السابقين : «فأما ما ذكره من أمر السابقين فإنهم أنبياء مرسلون وغير مرسلين جعل فيهم خمسة أرواح : روح القدس وروح الايمان وروح القوة وروح الشهوة وروح البدن ، فبروح القدس بعثوا أنبياء مرسلين وغير

والـدرجات الحسـنى ، وأفضـل الزلفـى في الاولى ، ومـن ثم الاخـرى ، ازدواجيـة السـباق «السابقون السابقون ...».

ثم «المقربون» هنا ـ لا «المتقربون» توحي بازدواجية مكانة القرب لهم من الله : انهم تقربوا اليه كما اسطاعوا ، ومن ثم أكمل الله تقربهم اليه أن قربهم فأصبحوا «مقربين» : قرّبوا لسبقهم سواهم ، فسبقوهم في الجنة لقربهم!.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ترى من هم الأولون الثلة؟ ثم الآخرون القلة؟ أهم الأولون والآخرون من هذه الامة؟ والخطاب «كنتم» شامل كل الخليقة المكلفة ، ولا دليل على الإختصاص بهذه الامة! ولا يربوا الأولون منهم على الآخرين عددا أو عددا ، اللهم في المعصومين الأربعة عشر ، والسابقون يعمهم وكل سابق بالخيرات بإذن الله.

أو أن الثلة وهي الجماعة العظيمة هي ممن قبل الرسالة الأخيرة ، من أنبياءهم وأئمتهم وربانيهم ، ولا ريب أنهم الكثرة الكثيرة ، والقلة ـ وهي هنا بجنب ذلك الكثرة ـ إنها السابقون منذ الرسالة المحمدية الى يوم القيامة ، من الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والأخصين به : الأئمة الاثني عشر ، ومن أجلاء أصحابه وأصحابهم ، ثم الربانيين القمة في هذه الامة الى يوم القيامة (١) فمهما كان أصحاب الميمنة منهم ثلة

---

(١) وفي روضة الواعظين قال أبو الحسن موسى عليه السّلام إذا كان يوم القيامة نادى مناد : أين حواري محمد بن عبد الله رسول الله (ص) الذين لم ينقضوا العهد ومضوا عليه؟ فيقوم سلمان والمقداد وأبو ذر ، ثم ينادي : أين حواري علي بن أبي طالب عليه السّلام وصي محمد بن ـ

كـالأولين ، فـالمقربون مـنهم قلـة دون الأولـين ، فـأين عـدد النبيـين السـابقين ، وهـم أئمـة السابقين الأولين ، وأين هم المعصومون في هذه الامة وهم أئمة السابقين الآخرين؟

ومن ثم أوصياء كلّ والأوفياء من أصحاب كلّ ، السابقين الى الايمان برسالاتهم ، أين هم بجنب الأوصياء الاثني عشر في هذه الامة ، والأوفياء السابقين القمة فيهم؟! مهما كان السابقون القلة أعظم درجة من السابقين الثلة وأتم عددا ، ولكن هؤلاء أكثر عددا.

إذا فالسـابقون السـابقون ، هـم ثلة مـن الأولين وقلة مـن الآخـرين ، ولقـد اصـطلحت «الآخـرون» لأهـل الرسـالة الأخيرة ، كـما ان رسـولها رسـول السـاعة ، ورسـول آخـر الـزمن ، وأمتهـا هـي الامـة الأخـيرة ، وانعطافـا الى سـاير آيات الأولـين والآخـرين : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (٥٦ : ٤٩) كما وأن استعراض أحوال القيامة ، الشـاملة لأهـل الجمـع أجمـع يشـهد لهكـذا تفسـير ، ذلـك ، وكـما يشـهد لـه أئمـة السـابقين الآخرين صلوات الله عليهم

. عبد الله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيقوم عمرو بن الحمق الخزاعي ومحمد بن أبي بكر وميثم بن يحي التمار مولى بني اسد واويس القرني ، قال : ثم ينادي المنادي : أين حواري الحسن ابن علي ، ابن فاطمة بنت محمد بن عبد الله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؟ فيقوم سفيان بن ليلى الهمداني وحذيفة بن أسيد الغفاري ، قال : ثم ينادي : أين حواري الحسين بن علي؟ فيقوم من استشهد معه ولم يتخلف عليه ، قال : ثم ينادي : أين حواري علي بن الحسين ، فيقوم جبير بن مطعم ويحي بن ام الطويل وأبو خالد الكابلي وسعيد بن المسيب ، ثم ينادي : أين حواري محمد ابن علي وحواري جعفر بن محمد عليهما السّلام ، فيقوم عبد الله بن شريك العامري وزرارة بن أعين وبريد بن معاوية العجلي ومحمد بن مسلم وأبو بصير ليث المرادي وعبد الله بن أبي يعفور وعامر بن عبد الله بن جذاعة وحجر بن زائدة وحمران بن أعين ، ثم ينادي سائر الشيعة مع سائر الأئمة عليهم السّلام يوم القيامة فهؤلاء أول السابقين وأول المقربين وأول المتحورين من التابعين.

أقول : والمذكورون ليسوا هم الحاصرون ، وإنما القمة منهم ، أو أن هناك مهمة دعت الى اختصاصهم بالذكر.

أجمعين [1].

هؤلاء السابقون المقربون ، هم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ : جنات فوق سائر الجنات ، وأفضلها جنات المعرفة والرضوان : في الاولى ـ وأحرى ـ في الاخرى ، وهم في جناتهم :

﴿عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ. مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ. يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوابٍ وَأَبارِيقَ. وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَلا يُنْزِفُونَ﴾.

﴿مَوْضُونَةٍ﴾ منسوجة نسج الدروع وعل نسيجها الذهب والفضة : ﴿مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ (٥٢ : ٢٠). مرمولة : مزينة بهما وبالجواهر [2] فهي موضونة توضن بقضبان الذهب والفضة.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْها﴾ : مطمئنين ، حال كونهم ﴿مُتَقابِلِينَ﴾ فجلسة التقابل بين المتحابين خير الجلسات وأحلاها ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ﴾ غلمان حدثة وليدة ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ لا في المقامة بالخدمة فحسب ، وإنما مثلث الخلود : كونا ، وكيانا : خدمة وولدنة.

وترى من هؤلاء الولدان ، أهم ممن أنشأهم الله في الجنة؟ أم هم ـ أو معهم ـ ولدان توفوا قبل أن يبلغوا الحلم ، فلا هم يستحقون النار ، ولا جنة الأبرار ، فهم يخدمونهم دون تعب ولا شغب؟ قد يكون ، ويوافقه العقل والنقل [3].

---

(١) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة عن أبي جعفر عليه السّلام ونحن السابقون السابقون ونحن الآخرون

وفي روضة الواعظين عن الصادق عليه السّلام ثلة من الأولين : ابن آدم المقتول ومؤمن آل فرعون وصاحب ياسين ، وقليل من الآخرين : علي بن أبي طالب.

أقول ، وهذا تفسير ببعض المصاديق منهما ، مختلف فيه كعلي عليه السلام أو مشكوك الشمول كالثلاثة الاول.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٥٥ عن ابن عباس قال : مرمولة بالذهب ، ومثله عن مجاهد وسعيد ابن جبير وقتادة.

(٣) المجمع عن علي عليه السّلام أنهم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها فانزلوا هذه المنزلة.

ثم ترى أهم من ولد المقربين ، ولكي لا يكونوا مهانين بما يخدمون؟ علهم هم : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (٥٢ : ٢٤) إذ توحي اللام باختصاصهم بهم ، أم انهم اختصوا بالمقربين دونما قرابة بينهم ، وليس في تطوافهم عليهم تطفيف عن شأنهم وإنما ترفيع ولا تخفيف ، ولا سيما من كان منهم من ولد المشركين وكما يروى.

ثم ويكون طوافهم ﴿بِأَكْوابٍ﴾ : أقداح ، ﴿أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا. قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً﴾ (٧٦ : ١٥).

﴿وَأَبارِيقَ﴾ : آنية لها خراطيم وعرى ، كلّ لما يناسبه من شراب ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ : خمر هي مأخوذة من عين جارية متلمعة : ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ. بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ﴾ (٣٧ : ٤٧) [(١)].

﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْها﴾ : صداع الرأس «ولا ينخرفون» : فراغ العقل.

﴿وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فاكهة حسب التخير : انتخابا لأحسنها تفكها ، ولحم طير من أي نوع يشتهون ، وبأية طبخة يريدون ، أو انطباخة دون طبخ ، فالفاكهة تختار لأنها عند الشبع ، واللحم يشتهى ، فانه عند الجوع ، فليس تعبير الاختيار والاشتهاء ، اشتهاء فوضى في التعبير ، وإنما اختيار ببلاغة العليم الخبير.

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ : جمع عيناء : واسعة العيون الجميلة ، تحير الناظر إليها. ﴿كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ المصون عن كل لمسة ونظرة ، أو أية عارضة ، لم تثقبه يد ، ولم تخدشه عين ، كذلك الحور العين إذ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ ويزيدهن لطفا انهن طائفات حول أزواجهن [(٢)].

---

(١) راجع ص ٢٢٧ ج ٣٠ من التفسير : خمر الدنيا والآخرة.

(٢) لأن «وَحُورٌ عِينٌ» عطف على «وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ» يطوف عليهم ولدان مخلدون وحور عين.

﴿جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ : لا بما كانوا يعلمون أو يأملون ، أو بما كانوا يعتقدون أو يؤمنون ، وإنما عمل الإيمان الذي كانوا به يداومون.

هذا طرف من نعيم الجنة الجسدانية ، فإليكم طرفا من الجنة النفسانية :

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً. إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ فلما ذا اللغو هناك وهم غارقون في نعمة الله ومعرفته ، ولماذا التأثيم ولا إثم هناك ولا تأثيم ، فإن بواعث اللغو ، وهواجس اللهو ، ووساوس النفس هناك منفية ، لأنهم ظهروا على الحقائق كلها وظهرت لهم ، وكملت عقولهم وأحلامهم ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ﴾ (٤٧ : ٣٦) فلا أضغان تدفع الى تناحرات ، ولا غلّ يدعو لتنافرات : ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ (١٥ : ٤٧) فدافع اللغو والتأثيم ، جهل تحول الى العلم والمقربون كانوا عالمين ، أو طيش استقر بالنعيم ، وهم كانوا يملكون طيشهم ، أو جهالة تحولت الى معرفة وهم كانوا عارفين ، فلا لذة لهم أحلى من العبودية ، ولا ذلة لهم أبلى من ترك العبودية ، فحياتهم هناك حياة أمن واستقرار بإيمان ، دون شغب ولا نصب ، ف ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا تَأْثِيماً﴾ فضلا عن أن يأتوا به ﴿إِلَّا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾ :

قيل من رب العالمين : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ (٣٦ : ٥٨) وقيل من الملائكة المقربين : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١٣ : ٢٤) وقيل من سائر المقربين وسائر أهل النعيم : ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ (١٠ : ١٠) فهي لهم سلام ودار السّلام : ﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (٦ : ١٢٧) ﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾ (١٥ : ٤٦) فليست لهم فيها إلا قيلات السّلام وحيات السّلام يرف عليهم فيها السّلام ، فالجو كله سلام سلام ، فانه دار السّلام ، وصاحبها هو الله السّلام.

ومن قيل السّلام السّلام ، قيلات تحمل تزويدهم بمعرفة الرحمان وذكره

بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وهل يأنس المقربون. وفي جنة الرضوان. إلا بقيلات تقربهم زلفى الى الحنان المنان؟

ومن قيله محاوراتهم فيما بينهم وسواهم من أهل الجنان ، أنيسة حنونة أليفة ليس فيها إلا سلام سلام ، فهم يسمعون سلام كما يسمعون سلام!.

وترى ما هو وجه التكرار في «سلاما»؟ قد يكون رمزا الى مختلف السلام من الله ومن أهل دار السلام ، أو انه سلام لا يحمل ساما كما في سلام المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وإنما سلام يحمل سلاما بكل ما له من معنى صادق لائق ، وقد يكونان هما المعنيّان.

ثم ومن هنا نتبين أن «سلاما» خير تحية وإكرام ، فلنستنّ بسنة أهل الجنة هنا فيسلم بعضنا على بعض.

﴿وَأَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ﴾ : هم أصحاب الميمنة المسبقين ، يؤتون كتابهم بيمينهم وكما عاشوا يمين الكتاب والدين ، وترى كيف سموا «أصحاب الميمنة» عند ذكر الأقسام ، و «أصحاب اليمين» عند ذكر الإنعام؟ علّه لأن الميمنة هي سبب اليمين ، فلولا ميمنة الدنيا ويمنها بيمينها ، لم يؤتوا في الاخرى كتابهم بيمينهم ، كما لو لا مشأمة المشئومين يوم الدنيا لم يؤتوا كتابهم بشمالهم أو وراء ظهورهم.

ثم وأصحاب اليمين لهم درجة بعد السابقين ، ترى «ما أصحاب اليمين» في حالهم وحلهم وترحالهم؟.

﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ : شجر النبق «يخضده الله من شوكه» [1] فيستظل به

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٦ ، أخرج الحاكم وصححه البيهقي في البعث عن أبي أمامة قال كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقولون : ان الله ينفعنا بالأعراب ومسائلهم ، أقبل أعرابي يوما فقال يا رسول الله! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وما هي؟ قال : السدر .

أصحاب اليمين لكثرة غناءه في الإظلال ، لسعة ورقة وتداخله ، فكما الله يبدل سيئاتهم حسنات ، يبدل سيئة السدر حسنة لكي ينتفعوا بما كان يشيكهم بشوكه ، وليتبرّدوا وينتزهوا ببرده ، أو و يأكلوا من فواكهه.

ان الحدائق في الجنان ظليلة* فيها الكواعب سدرها مخضود ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ : شجر الموز [1] ، المقصود منه الثمر للاستغلال وهو من أقوى الثمر وألطفه ، والمرغوب منه الورق للاستظلال ، ومن جماله نضد

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٧ ، أخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله «وطلح منضود» قال : هو الموز ، كما أخرج جماعة عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري والحسن وقتادة ومجاهد.

وروي عن علي وأبي عبد الله عليهما السلام أنهما قرءا «وطلع منضود» وهذا زور وافتراء عليهما عليهما السلام فانه خلاف القرآن المتواتر فليضرب عرض الحائط ، وما أسخفه رواية

تروى عن علي عليه السلام أخرجها ابن جرير وابن الأنباري في المصاحف عن قيس بن عبادة قال قرأت عن علي عليه السلام «وطلح منضود» فقال علي عليه السلام ما بال الطلح ، أما تقرأ وطلع؟ ثم قال : وطلع نضيد ، فقيل له يا أمير المؤمنين! أنحكها من المصاحف؟ فقال : لا يهاج القرآن اليوم (الدر المنثور ٦ : ١٥٧).

أقول : ما هي دلالة طلع نضيد هناك على لزوم طلع ـ كذلك ـ في منضود هنا؟ ولو كان طلعا هنا فعلى إمام المسلمين أن يثبته طلعا ويمحيه طلحا ، فأمثال هذه الروايات ليست إلا زورا من هؤلاء الذين يصرون على وصمة التحريف في القرآن ، وهم يستندون فيه الى ما ينسبونه زورا الى الرسول والأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

رغم المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قرأ «وطلح منضود» كما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم

وفسره علي (ع) بالموز ، وتبعها الصحابة المذكورون مسبقا ، وقد ذكر النبي (ص) في موضع آخر الموز من فواكه الجنة كما في كتاب صنعة أهل الجنة والنار عن أبي جعفر قال قال رسول الله (ص) : ... ان نخل الجنة ... وموزها ورمانها أمثال الدلى ...

الثمر والورق ، قرنا إلى قدم ، ثم نضد أغراسه ، فهو في مثلث النضد : بعضه على بعض ، وهو فاكهة وإدام مع بعض! وما ألطفه أكلا وهو حار الطبع ، تحت سدر مخضود وهو بارد الطبع.

﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ : ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلاً﴾ (٤ : ٥٧) فهو ظليل ممدود ، منبسط لا يتقلّص ، دائم لا تنسخه أو تتفرج به شمس أو سواها ، بسقف وأشجار وخيام أم ماذا؟ مما يدل ـ مع سدر مخضور ـ على وجود الشمس في الجنة ، هذه التي تكور ثم ترجع ، أم سواها من شمس يستظل عنها أهل الجنة فيها ف ﴿لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً﴾ (٧٦ : ١٣).

﴿وَماءٍ مَسْكُوبٍ﴾ : مصبوب من عل دون انقطاع ، أو جار في الأنهار نابعة دون أخاديد وأحفار.

﴿وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ. لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ : كثيرة الطعوم والألوان ، وكثيرة الأنواع والأعداد ، وكثيرة المدة والمدى دون انقطاع ولا امتناع ، لا تقطع لأنها من الرحمة الواسعة اللامحدودة ، ولا تمنع ، ولماذا تمنع؟ أبخلا من المضيف؟ أم مرضا من الضيف؟ فلا بخل أبدا ، ولا مرض هناك.

ومن ﴿ظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ وأحرى ـ ظل الله الممدود على أهل الله في دار كرامة الله : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (٢٥ : ٤٥) ومن ﴿ماءٍ مَسْكُوبٍ﴾ اصول العلم الإلهي التي بها حياة أهل الجنة الروحانية ، ومن (فاكهة ..) فاكهة المعرفة والعلم ، التي يتفكه بها أهلوها [١].

---

(١) روى سعد بن عبد الله القمي باسناده عن نصر بن قابوس قال : سألت أبي عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ وَفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ قال : يا نصر! كأنه والله ليس حيث يذهب الناس ، إنما هو العلم وما يخرج منه. أقول : إنه من باب بيان أفضل المصاديق وأخفاها.

﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ. إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً. فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً. عُرُباً أَتْراباً. لِأَصْحابِ الْيَمِينِ﴾.

(وفرش) : جمع فرش ـ وفراش ، فرشا للراحة اتكاء أو نوما عليه ، وفراشا : حليلة ينام معها على الفرش (مرفوعة) : عن الأرض ، فرشا من حيث العلو معنويا وماديا ، ومن حيث الأشكال والأنواع ، ومرفوعة عن الدناءات فراشا بمن فيها من حليلات : مرفوعات جلالا وجمالا وأحوالا. ف :

﴿إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً﴾ : أوليا بابتداع كالحور العين ، أو ثانويا بعد ابتداء كالمؤمنات المنشآت في النشأة الاخرى ، وكما عن الرسول (ص) : «ان من المنشآت اللاتي كن في الدنيا عجائز شمطا عمشا رمصا [١]» ﴿ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً﴾ [٢].

وترى ما هي حاجة الأبكار من المؤمنات أو الحور المنشآت ، أن ينشأن أبكارا كما الثيبات ، فالأوليات كن أبكارا ، والاخريات حديثات الخلق المبدعات ، لزامهن البكورة دون جعل حديث؟ علّ الوجه أن هذا الجعل هنا وهناك يجعل البكورة لهن لزاما ، لا تزول بزواج : ف (إن أهل الجنة إذا جامعوا النساء عدن أبكارا [٣]) فللباكرات من الدنيا والحور ، تجعل بكورة الخلود ، وللثيبات «إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا» [٤] كأن

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٨ ـ أخرجه من عدة طرق عن انس قال قال رسول الله (ص).

(٢) الدر المنثور عن زيد الجعفي سمعت النبي (ص) يقول في قوله : إنا أنشأناهن إنشاء قال : الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا.

(٣) الدر المنثور أخرج الطبراني عن أبي سعيد قال قال رسول الله (ص).

(٤) الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة ان النبي (ص) أتته عجوز من الأنصار فقالت : يا رسول الله (ص)! ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال : إن الجنة لا يدخلها عجوز ، فذهب يصلي ثم رجع فقالت عائشة : لقد لقيت من كلمتك مشقة ، فقال : إن ذلك كذلك ـ إن الله إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارا.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ إذا فهن سواء في خلود البكورة بما أنشأهن الله فجعلهن أبكارا ، ومن ثم :

﴿عُرُباً أَتْراباً .. وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ﴾ (٣٨ : ٥٢) ﴿وَكَواعِبَ أَتْراباً﴾ (٧٨ : ٣٣) فما هي العرب وما هي الأتراب؟

فالعرب جمع عروبة وهي المعربة بحالها وأقوالها عن عفافها وتعشقها لزوجها فهن المتعشقات لهم والمتغنجات ، الجاذبات لهم والمنجذبات المتغزلات :

يعربن عند بعولتهن إذا خلوا وإذا هم خرجوا فهن خفار

فهن عرب بكافة مظاهر الزوجية ومآربها ومعاربها ، وبكافة مزاهر الجمال مع أزواجهن ، وخفار مع سواهم ، ومن عرب مقالهن عربية كلامهن ولغتهن [(١)] فإنها أجمل اللغات ، وهي لغة أهل الجنة ، فهن عرب في الأقوال والأعمال والأحوال! والأتراب هن لدات منشآت مع بعض ، متماثلات متوافيات السن والجمال مع لداتهن ، ومع أزواجهن ، متكافئات معهم في شؤون الزوجية ، عبر عنهن بالاتراب لمماثلتهن الترائب : ضلوع الصدر المتقارنات المتقاربات : ﴿أَنْشَأْناهُنَّ﴾ :

﴿عُرُباً أَتْراباً لِأَصْحابِ الْيَمِينِ﴾ فهن أتراب لأصحاب اليمين كما هن أتراب مع بعض ، وترب العمر بين الزوجين وإن كان مرغوبا عنه في الدنيا ، ولكنه مرغوب فيه في الاخرى ، لبقاءهما على حالهما هناك ، وتغيرهما عن أحوالهما هنا [(٢)].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٩ ـ أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ص) في قوله عربا : قال : كلامهن عربي ، وفي كتاب صفة الجنة والنار عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر (ع) في حديث أوصاف أهل الجنة : صاروا .. وعلى لسان محمد العربية.

(٢) ان مماثلة العمر بين القرناء من المرغوب فيه مبدئيا ، كتقارب العقلية والفكر كتقارب الجسم ، وكونها مرغوبا عنها بين الزوجين إنما هو باعتبار المستقبل حيث يستقبلان الشيخوخة ، والمرأة أسرع فيها ، والرجل بحاجة دائما إلى شابة تؤنسه ، وأما إذا بقيا في عنفوان العمر فالمماثلة مرغوب فيها دون ريب.

﴿لِأَصْحابِ الْيَمِينِ. ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾.

ومهما كان السابقون الآخرون قلة وجاه ثلة الأولين ، فأصحاب اليمين الآخرون ثلة كما الأولون ثلة ، وأين ثلة من ثلة؟

وإذ لا تناسخ في الأخبار ، وإلا كان أحدهما كذبا أو كلاهما ، فلا يعقل أن تنسخ أية ثلة الآخرين من أصحاب اليمين ، أية قلة الآخرين من السابقين ، وكيف والموضوع أيضا مختلف ، فهنا أصحاب اليمين وهناك سابقون ، فلتضرب أحاديث النسخ هنا عرض الحائط[1].

والآخرون الثلة هنا هم من الامة الإسلامية كما الآخرون القلة هناك وكما يروى [2] خلاف ما يروى ان «هما جميعا من هذه الامة» [3] فإذا كانوا جميعا منهم ، فما هو دور الأوسطين من المسلمين ، وما هو دور سائر الأمم؟ أفليس منهم أصحاب اليمين؟

وترى أية ثلة اكثر عددا وأعظم عددا؟ آية الثلتين لا توحي بشيء! فقد تكونان سواء ، أو إحداهما أو فر من الآخر لحدّ لا تجعلها قلة [4] ، وقد توحي

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٥٥ . أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ضرب أصحاب رسول الله (ص) وقالوا إذا لا يكون من امة محمد إلا قليل ، فنزلت نصف النهار وثلة من الأولين وثلة من الآخرين ، وتقابلون الناس . فنسخت الآية وقليل من الآخرين.

أقول : ولا يفسر القرآن هكذا إلا منسوخ عقله لا يميز بين السابقين القلة وأصحاب اليمين الثلة.

(٢) الدر المنثور : أخرج الطبراني عن ابن مسعود عن النبي (ص) في حديث طويل : اني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة فكبر القوم ثم تلا هذه الآية.

(٣) الدر المنثور ٦ : ١٥٩ عن أبي بكرة عنه (ص) في الآية «هما جميعا من هذه الامة».

(٤) الخصال للصدوق عن سليمان بن يزيد عن أبيه قال : قال رسول الله (ص) أهل الجنة مائة وعشرون صفا ، هذه الامة منها ثمانون صفا.

أقول : الأربعون قبال الثمانين ، لا ريب وانهم قلة ، اللهم إلا إذا كانت صفوف المسلمين أقل عددا من صفوف غيرهم حتى يتقارب أصحاب اليمين الأولين والآخرين.

ثلة الآخرين : أصحاب اليمين ، ان الامة الإسلامية ككلّ اكثر عددا من سائر الأمم ، فأطول زمنا منهم ، فدور الرسالات الواجدة برسلها بين الأمم ، اكثر انتاجا من دور الفترة الرسالية ، وإذا كان أصحاب اليمين من الرسالة الأخيرة ثلة كالأولين ، من حيث العدد ، فليكن الأولون قلة من حيث الزمن بجنبهم ، أو ان اكثر الثلة في الدولة الأخيرة الإسلامية المهدوية ، فلا تتطلب هذه الثلة زمنا أطول ، فبالإمكان أن يكون زمن الأولين أطول من زمن الآخرين ، لا ندري!

﴿وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ﴾؟ وقد يكفي تعريفا بهم انهم أصحاب المشأمة الشمال ، إذ يؤتون كتبهم بشمائلهم إمارة السقوط ، كما يؤتى أصحاب اليمين بأيمانهم علامة النجاح ، وثم هنا الإجابة عن «أين مكانهم في القيامة» :

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ. لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ :

﴿فِي سَمُومٍ﴾ فالسمّ والسمّ كل ثقب ضيق كسم الخياط ، فالسموم هو النار والريح ، الحاملتا السمّ ، لطيفتا التأثير ومبالغتاه ، تدخلان البواطن ثقبا ونقبا ، فالهواء هناك ساخنة هباء تنفذ المسام بشواظ سامّة فتشوي الأجسام ، فكيف إذا النار!

ثم الماء هناك ﴿حَمِيمٍ﴾ كالنار ، لا يبرد ولا يروي ولا يغني من اللهب ، لأنه نفسه لهب ، وإذا كان المتسمم المحموم قد يخف عن سمّه وحمّه بظلّ ، فلهؤلاء المناكيد ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ : دخان لافح خانق : ﴿لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (٧٧ : ٣١) ﴿لا بارِدٍ﴾ يخفف عن وطأ السموم والحميم ﴿وَلا كَرِيمٍ﴾ معتدل قد يعدل من شظا حمّته ، أو يخففه عن قمته ، وإنما يزيده تسمما وخنقا. ولماذا هذا العذاب الخناق :؟ ل :

﴿إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ. وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ. وَكانُوا

يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ :

ثالوث الكفر بالله وبرسالات الله وبيوم الله.

فالمترف هو الذي أبطرته النعمة وأطغته ودللته ، فأخذ من شهوته فيها مداها وانغمس فيها منتهاها ، فليس هو كل ذي نعمة ولا كل طاغ دون نعمة ، وسواء أكانت نعمة المال التي أغفلته ، أو نعمة القوة أو الجمال التي ألهته ، أو أية نعمة من شأنها الإبطاء والإطغاء ، فجماع هذه النعم ظرف لجماع البطر والطغيان ، ثم وكل على حسبه.

فالفقير الذي لا يجد مالا ولا مجالا لتحقيق آمال من قوة أو جمال ، إنه مهما كان كافرا لا يصل إلى قمة الكفر والطغيان ، اللهم إلا هامشا للطغاة المترفين ، فهو أيضا من المترفين ، إذ أترف في نعمة العقل الداعي إلى عبادة الرحمن ، إلى نقمة الطغيان ، وغرته هؤلاء بما يعدونه ويؤتونه من تافه الأنعام ، فالترف له دركات ، وكما الخروج عنه درجات ، والمترفون بدركاتهم من أصحاب الشمال فهم في النار ، وسواهم بدرجاتهم من السابقين أو أصحاب اليمين فهم في الجنة.

هذا ، ولكن الترف الذي يجعل صاحبه طرفا للسابقين وأصحاب اليمين ، هو ذروته لأصول الضلالة والطغيان ، وقد ينجو الهامش ولو بعد زمان وكما يلمح به القرآن :

﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ﴾ (٣٤ : ٣٤) **﴿وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾** (٤٣ : ٢٣) هذا وكما انهم المعذبون الأصول ، والسبب الرئيسي للعذاب **﴿وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً﴾** (١٧ : ١٦) فأمر الله الموجّه إلى المترفين غير ما يوجه إلى غير المترفين ، ولأنهم أولوا نعمة وقوة ، فتكاليفهم أثقل ، وعذاب التخلف عنها أعضل.

ومما يدفعهم إلى الترف إصرارهم على الخلف والنقض العظيم : ﴿وَكانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ فالحنث هو الخلف وهو النقض وهو الميل عن الحق إلى الباطل ، والقول غير الحق ، والذنب ، فالحنث العظيم هو العظيم من كلّ ، ولا أعظم من نكران وجود الله ، والشرك بالله ، وتكذيب رسالات الله ، ونكران يوم الله.

ان حنث نكران القيامة هنا مفرد بالذكر ، ولأن الأصل في نكران سواه إنكاره لا سواه ، ولكي يخلصوا عن عبء التكاليف الإلهية.

فنكران الالوهية الحقة حنث عظيم بكل معانيه الخمسة : فهو خلف للفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ونقض لميثاق الفطرة وحكم العقل ، وميل عن الحق الذي تتوفر له كافة البراهين ، إلى الباطل الذي ترفضه كل البراهين ، فهو قول بغير حق ، وذنب عظيم لا أعظم منه ، وكما يتلوه متفرعا عليه حنث نكران الرسالات ونكران يوم القيام.

هؤلاء المترفون ، كان حياتهم الترف ، والإصرار على الحنث العظيم ، ومنه نكران اليوم العظيم : ﴿وَكانُوا يَقُولُونَ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾.

تقوّل عن استبعاد وبكل إصرار واستبداد : ﴿أَإِذا مِتْنا﴾ وصرنا ترابا ، ثم مضى زمن بعيد عن الكينونة الترابية : ﴿وَكُنَّا تُراباً﴾ فبعد هذه المدة وهذا التحول ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كما كنا من قبل : تنكّر للبعث المؤكد المشار إليه باللام (ل) تأكيدا للنفي ، مقابلة الإصرار بالإصرار! ﴿أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ الذين هم أبعد منا زمنا ، فهم في أمر مريج من ثالوث الاستبعاد : بعدين زمنيين بعد بعد أصل البعث [1].

---

(١) اقنومه الأول الموت والثاني الكينونة الترابية الماضي عليها زمن يعبد لهم. والثالث لمن هو أبعد منهم زمنا : آباؤهم الأولون.

فما هو الفارق بين الأولين والآخرين بعد كون الكل ميتين ، واستحقاقهم الحساب والثواب أو العقاب على سواء ، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ : وقت معين عند الله معلوم لدى الله ، مهما كان مجهولا لدى غير الله ، جمعا مؤكدا تؤكده البراهين [1].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ. فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ :

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ (٤٤ : ٤٦)

﴿أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ. ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ (٢٧ : ٦٨).

هذه مواصفات للزقوم ، أنها أنحس شجرة في الجحيم صوره وسيرة ونبتا :

كما وأن جرس اللفظ يصور ملمس المعنى : حشنا شائكا في الحلوق ، هائلا في العيون ، كالمهل يغلي في البطون ، وما دامت هي من أصل الجحيم فهي آصل من الجحيم ، وما كان طلعها كأنه رؤس الشياطين ، فهو تناسب أكلا لرءوس الشياطين.

وترى إذا كانت هذه شجرة الزقوم فكيف يأكلها الضالون المكذبون؟ أليس الجوع أحلى من هذه الشائكة الفاتكة؟. لأن «ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب [2]» والجوع طاغ ، والمحنة طاغية! ولا طعام لهم إلا هيه!

---

(١) ف «ان» و «ل» وصيغة المفعول الدال على إثبات «مجموعون» تؤكد إثبات ما نفوه وتصديق ما رفضوه.

(٢) تفسير العياشي عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال :

أفصبرا على الجوع المنهك المهلك ولحد الموت؟ فلا موت هنا ولا فوت ، أم لو قدر على الصبر فلا يطعم الزقوم؟ إنه طعامه شاء أم أبى! فليس طعام الإكرام حتى يختار ، إنه طعام العقاب فلا بد منه ولو يحتار ، وكذلك طعام الدوام في العذاب فليأكله بالإجبار ، فالضالون المكذبون إذا بين واجبين أمام ذلك الطعام ، ذاتي ضرورة الحاجة إلى الأكل ، ومفروض ضرورة العقاب والبقاء إلى أجل مفروض.

ومما يوحي باضطرارهم الثانوي في أكله ﴿فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ فالأولى منه يفرض ما يبقي الرمق لأملأ البطون.

ثم أن ثالوث : حرارة الجحيم ، وشائكة الزقوم للحلوق والبطون ، وملأ البطون ، لتدفع إلى الماء ، فترى ماذا يشربون؟ :

﴿فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ : الماء البالغ الحرارة : ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ (٤٧ : ١٥) وبعد ما تقطعت وتفسخت بالزقوم ، عذابا فوق العذاب ، وترى ـ إذا ـ يشربون منه قليلا؟ كلا :

﴿فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ : الهيام داء يأخذ الإبل من العطش [1] ، فالهيم هي الإبل المراض المصابة بداء الاستسقاء وفي الرمضاء ، إذ لا تكاد ترتوي من الماء ، فهم ـ إذا ـ بطونهم مليئة من الزقوم ثم من الحميم ، عذابا دائبا لا يخف ، ولا يخف عن العطش والجوع ، رغم مليء الطعام ومليء الشراب دونما انقطاع.

---

(١) وقد يسمى كل من ، أو ما يشرب الماء الكثير ، هيما كتلال الرمول الساخنة من حر الشمس ، فإنها أيضا هيم لا تروى من الماء ، وكما يروى عن الإمام الصادق (ع) قال : ثلاثة أنفاس في الشراب أفضل من نفس واحدة في الشرب ، ويكره أن يشبه بالهيم ـ قيل وما إليهم؟ قال : الرمل ، وفي نقل آخر عنه : هي الإبل ، وهو الموافق لأصل اللغة.

ومما يوحيه شرب الهيم ، كراهة الشرب الكثير أو المتواصل ، أو بنفس واحدة ، فإن (ذلك شرب الهيم [1]).

﴿هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ : والنزل ما يقدم للضيف إكراما له عند نزوله إلى المضيف ، فالنزل للراحة والاستقرار ، وإذا كانت هي نزلهم التي لا راحة فيها ولا قرار ، فكيف إذا عذابهم في حميم النار ، نعوذ بالله العزيز الجبار.

ومن ثم ترى سردا لبعض البراهين على إمكانية المعاد وضرورته.

﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ

مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ
(٦٩) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ
أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ
رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ
لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ
الْعالَمِينَ (٨٠) أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) فَلَوْ
لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا
تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ
كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ
(٩٠) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ
مِنْ حَمِيمٍ (٩٣)

﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ﴾ «خلقناكم» الخلق الأول كما تصدقون : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (٤٣ : ٩) ﴿فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ﴾ نا ـ لم لا تصدقوننا [١] في الخلق الثاني وإن كان مثله ، بل وهو أهون عليه! ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٣٠ : ٢٧) فذلك إبداع وهذا تكرار فهو أهون ، لو قيس خلق بخلق ، ولكن الكل لديه هين على سواء :

﴿قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ (١٩ : ٩) فلا تفاضل بين قدرته ولا تفاصل ، وإنما يحتج علينا بما عرفناه وتعودناه من هين وأهون ، ان إعادتنا في المعاد أهون من خلقنا الأول من نطفة ومن تراب ، وهو كذلك أهون من خلق المادة الأمّ لا من شيء ، فالإعادة أهون من أصل الخلق بمرحلتين ﴿فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ﴾؟

ثم الخلق الأول فضل غير موعود ، والثاني عدل موعود ، عدل لحدّ كأنه غاية الخلق أجمع : ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾ (٤٥ : ٢٢) ثم ولو لم يكن غاية فهو عناية واجبة بحكم العقل والعدل ، حتى ولو لم يعد به رب العدل ، كيف وقد وعد وردّد الوعد على السن رسله :

﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ (٢١ : ١٠٤) ﴿رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ (٣ : ٩).

---

(١) لو لا بمعنى لم لا ، في مقام الاعتساف والتنديد ، مثل «فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ».

فتصديق المعاد الحساب الجزاء واجب في اطر أربع : إمكانية : المماثلة ، إمكانية : الأولوية ، الضرورة ذاتيا عقلا وعدلا ، والضرورة الوعدية ﴿فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ﴾؟!

هذه هي سنة الله في خلق الإيمان الصادق باستعراض المواد الأولية للكون وإرجاعنا إليها في خلقها وتطويرها ، ولكي نتخطى من التفكير فيها إلى ما يتوجب علينا تصديقه ، وكما يخلق هذا الكون الغامض من مواده الأولية البسيطة ... دون أن يكلفنا الخوض في فلسفات معقدة بعيدة عن الأفكار ، غريبة الأوطار ، فإن شريعة الله لا تخص الفلاسفة العقليين ولا التجريبيين ، بل هي شاملة للجنة والناس أجمعين ، كل يعرفها بقدره ، ويستدل لها بقدره ، كالماء والهواء المستفيد منهما الناس في أطر على سواء ، وفي اخرى حسب المستطاع ، والماء هو الماء والهواء هي الهواء.

يتحدث هنا في آيات ست عن من خلقهم؟ وكيف خلقهم؟ وكيف يميتهم ثم ينشئهم؟ وما هو الرباط بين الموت والحياة بدء وعودا ، برهنّا هنا وهناك على إمكانية وضرورة المعاد الحساب ، مبتدء ببرهان قصير في لفظه ، كثير في معناه وعمقه : ﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ﴾ ومن ثم إلى سائر التفاصيل والتعاليل :

﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ. أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾ :

﴿أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ منيا ، ثم ـ بعد تطورات جنينية ـ إنسانا ﴿أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾ إياه ـ منيا وإنسانا.

فمهما كنت أنت المعني ، فلست أنت خالق المني ، وأين خالق من ممني؟! فإن كنت تحسبك زورا وغرورا انك الممني خالق للمني؟ فمم خلقته؟ ومتى! وكم عدد خلياته ذكرا وأنثى؟ وهل أمنيته لتخلق منه ذكرا أم أنثى أو خنثى أم ما ذا؟

فهل من مجيب ، ولو من عباقرة الأخصائيين في علم الجنين؟ اللهم كلا! ولقد مضت عشرات القرون حتى كشفنا أخيرا عن النزر القليل الضئيل من كيان المنى ، وكيف يمنى؟ ومن أين يحمل؟ وماذا يحمل؟ وماذا يحمّل (١)؟

فليس دورك أنت إلا أن تشتهي فتمني ، ولا صاحبتك إلا أن تحمل المني ، ثم تنقطعان عن كل صلة وعملية أو محاولة إلا أخذ الحائطة ألا تجهض ، ومن ثم فسائر الصنع وكلّه للخلاق العليم ، وكما صنع المني مما صنع ، وأنت لا تعلم منه كثيرا ولا قليلا ، إلا زهيدا ضئيلا على ضوء العلم إن كنت من أهله (أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون)؟ : المني منيا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما ، ثم كسوه لحما ، ثم إنشاءه خلقا آخر ، أنتم أو نحن؟!

(بل أنت يا رب) (٢).

وقد يتحسب الناكرون ان سنة التكوين جرت على خلق الإنسان من مني ، ولا توالد فلا مني يوم القيامة يمنى حتى يخلق مرة اخرى! والجواب ان خالق الإنسان من مني يمنى ، قادر أن يخلقه من حالة اخرى ، وكما خلق الإنسان الأول ولا مني يمنى ، فإذ تصدقون أنه الخالق في الصورتين بمني ودون مني ، فما يمنعكم من تصديقه في خلقه مرة اخرى ، فآية الخلق العام :

﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ ...﴾ للتدليل على إمكانية ولزوم المعاد ، وآية ﴿ما تُمْنُونَ ...﴾ دليلا على عدم انحصار خلقه في كيفية خاصة ، فإنه الخالق على أية حال : يخلقكم في آخر حال كما بدأكم أول مرة ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

فهذه رؤية ، وإلى رؤية اخرى :

---

(١) راجع من سورة العلق ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ الجزء الثلاثين.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٦٠ ـ اخرج جماعة عن حجر المرادي قال : كنت عند علي (ع) سمعته وهو يصلي بالليل يقرء فمر بهذه الآية ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ﴾ قال : بلى أنت يا رب.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ...﴾ [1] رؤية اخرى في ما تمنون تجعلكم تصدقون بيوم الدين ، فلقد تسلل المني من أجزاء البدن ، التي هي كلها حية حياة الإنسان ، وبانفصالها عنها تموت عن هذه الحياة ، وباستقرارها في الرحم وتنقلاتها من حالة إلى اخرى ترجع إليها في صورة إنسان آخر حياة اخرى تماثل الاولى ، فكما الله يحيي هنا ويميت ثم يحيي مرة اخرى ، كذلك وأحرى في الحياة الاخرى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ﴾!

وإذا كانت الحياة بتقديرها من الله ، فهل الموت وهو انتهاء دور من الحياة ليس بتقدير الله؟ ولكي يكون مسبوقا لا يقدر على إعادتها :

﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ. وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ﴾.

فهو السابق في الإحياء ، ثم الإماتة ، فكيف يكون مسبوقا عاجزا عن تحقيق ما قدره من آجال ، دون تقدم لها ولا تأخر : ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ (٨ : ٥٩) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ...﴾ (٢٩ : ٤) ﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ (١٥ : ٥).

ام كيف يكون مسبوقا على تبديل أمثالهم وإنشاءهم فيما لا يعلمون؟

إنه سابق هنا وهناك ، وفي كل تحقيق وتبديل وإنشاء كما يشاء! دون سبق عليه في سباق استباق الآجال ، ولا سباق تناثر الأبدان بعد تحقق الآجال ، ولا سباق ضلال الأجزاء وتناحرها ، ولا سباق أصل الموت ، فلا تتغلب الأسباب وتسبق مسبب الأسباب ، دون تحقيق ما توجّب ووعده من تبديل الأمثال والإنشاء الجديد ، فليس الموت خارجا عن تقديره ، أو انه بتقدير غيره ، حتى يكون مسبوقا في حوادث الموت ، فتفلت عنه أزمة الاحياء بعد الموت ، بل هو

---

(١) الفاء هنا وفيما بعده تفريع للأدلة الفرعية للمعاد على دليل الأصل «نحن خلقناكم».

سابق كافة الأسباب في الحياة وفي الموت ، فكذلك الإحياء بعد الموت ، دون أن تسبقه الأسباب التي هي من أمره ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ... عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ﴾ [1] تقدير صالح يخلفه الجزاء بعد الإنشاء ، فالموت الفوت الذي لا نشأة بعده ، انه موت الفوضى ، لا يتأتى من الحكيم العليم ، وإنما هو التقدير الناحي منحى الإنشاء في خلق جديد.

وترى ماذا يعنى تبديل الأمثال؟ المبني عليه تقدير الموت؟ هل انه تبديل كل سلف بخلفه : ﴿... إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (٧٠ : ٤٢) : نبدلهم خيرا منهم يخلفهم؟ فليس تقدير الموت ينحو إلى هذا التبديل ، وإنما هو تقدير الحياة والموت مع بعض ، على أنه تبديل بالأمثال لا تبديل الأمثال.

او انه تبديل كل منهم بمثله في النشأة الاخرى ، تبديلا بنفسه في صورة وحالة أخرى ، لا تبديلا ببديل غيره : ﴿نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾ (٨٦ : ٢٨) : بدلنا أمثالهم تبديلا تجهلونه : ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ وإن كنتم تعلمون أصل الإنشاء درسا من النشأة الاولى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ﴾؟

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٦ : ٨١) ف ﴿نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ... عَلى أَنْ نُبَدِّلَ

---

(١) «على أن نبدل» متعلق ب : قدرنا ومسبوقين ، فتقدير الموت هو على الإنشاء الآتي ، وليس مسبوقا على الإنشاء الآتي ... قدرنا ... على أن نبدل ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل ... ومما يبرر الإتيان ب «على» للمتعلق الأول «قدرنا» وإن كان في الثاني «مسبوقين» أيضا وجه في «على» هو التدليل على عدم المغلوبية ، ف «على» إثباتا تدل على الغلبة ، ونفيا تدل على عدم المغلوبية ﴿ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ على أمرنا ﴿إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ﴾ تأمل.

أَمْثالَكُمْ ...﴾ ﴿وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ :

فإن تبديلكم أمثالكم غرض من تقدير الموت ، وهو مقدور لنا ميسور.

فليس الهدف من تقدير الموت انقطاع الحياة وحصول الفوت ، ولا أننا مسبوقون مغلوبون في التبديل والإنشاء ، بل المنشأ الاخرى ، والمثل المبدل اليه ، خير من النشأة الاولى صفاء فبقاء : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَالْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ. عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٧٠ : ٤٣) : يوم تبديلهم خيرا منهم أبدانا ، صفاء فبقاء ، فشرا لهم عقابا وجزاء.

إن الخاطبين في آيات تبديل الأمثال ليسوا هم الحاضرين يوم نزول القرآن ، بل الأولين والآخرين المجموعين إلى يوم الدين ، فهم أجمعون يبدّلون أمثالهم ، التي هي خير منهم ، كما وهم أجمعون ينشأون فيما لا يعلمون [١] لا أن كل جماعة تبدّل مثلها أن يخلفها مثلها فإنه تبديل بالمثل ، وليس تبديل المثل [٢] بل وليس تبديلا أيضا فإنه في أصل اللغة تغيير شيء عن حاله ، وإنما هو إبدال : جعل شيء مكان آخر [٣].

---

(١) فضمير الجمع هنا وهناك يعني كل الجمع ، لا ان الأول يعني المخاطبين «أمثالكم» والثاني كل الجموع «وننشئكم» إلا أن يعني بالجمع الثاني نفس الأول ، ويوم الإنشاء الآخر يوم الجمع ـ لا جماعة خاصة.

(٢) التبديل مما يتطلب مفعولين أحدهما مذكور هنا : أمثالهم ، فالأول محذوف هو هم. وإذا كان المقصود جعل الخلاف لهم أمثال فالواجب لغويا أن يقول أن يبد لهم بأمثالهم ، وآيات التبديل والإبدال أقوى شاهد على ذلك : «عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها» «عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ» «فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً» بخلاف آيات التبديل التي تنحو منحى تحويل الحال.

(٣) لسان العرب للمنظوري ج ١ ص ١٧٦ ، كما وفي الآية «كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها» فهي هي وهي غيرها «فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ» بخلاف آيات الإبدال كما مضت.

هنا تبرز حقيقة ناصعة من طيات هذه الآيات ، أن المعاد في المعاد هو مثل الميت ، لا عينه فإنه محال ، ولا غيره ، أو مع أجزاء غيره فإنه خلاف العدل ، وهو هرج ومرج ، فالبدن المعاد هو هو أصلا وجوهرا ، وليس هو هو وزنا وصورة ، فإنه يخلق مرة اخرى في خلق جديد : وهذا الخلق الجديد هو مثل العتيق العتيد مماثلة الشيء لنفسه في حالتين : ﴿وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً. أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...﴾ (١٧ : ٩٩) ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (٥٠ : ١٥) فلا إعادة للمعدوم هناك ، وإنما نشأة اخرى وخلق جديد هو مثل القديم ، خلقا وجوهرا.

وترى أنه يخلق الروح من جديد ، كما يخلق البدن من جديد؟ أقول أجل ، ولكن أين جديد من جديد ، فجديد البدن هو صورة جديدة عما كان بدنا دون روح ، ولكن جديد الروح ليس إحياءها من جديد ، وإنما إحياءها عن صعقتها وإغماءها وإغفاءها إلا من شاء الله : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٩ : ٦٨) : صعقة الأحياء بالحياة الدنيا ، وصعقة الأحياء بالحياة البرزخية ، فمن لم يمت حتى الصعقة ليست له حياة برزخية ، ومن هو ميت حينها وحي برزخيا ، يصعق : فلا هو حي ولا هو ميت ، برزخ بين الموت الفوت والحياة البرزخية ، وهو آخر رمق من الحياة.

ففي الخلق الجديد تحي عن الصعقة الروح نفسها ، ويخلق البدن مرة اخرى ، فيصدق تبديلهم أمثالهم ، حقيقة في أبدانهم ، وإعادة كاملة الحياة إلى أرواحهم ورجعها إلى أبدانها.

وهذا نزر قليل من إنشائنا فيما لا نعلم ، ندرسه عن النشأة الاولى ، وعما يوحيه الله هنا : ﴿... نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

إن البدن الجديد يشابه القديم : أنه على مثاله ، وأنه كان فيه ، ويفارقه أنه خلاصة منه ، دائبة مع الروح مدى الحياة ، قابلة للخلود ، بعيدة عن الفساد ، بخلاف العتيق البائد غير الخالد ، الناقص والزائد ، إذا فالجديد خير من العتيق صفاء وجلاء ، وإن كان أبلى منه بلاء إن كان من أهل البلاء ، ولكنه خير جزاء إن كان من أهله ، خيرا على خير.

وقد يروى صحيحا عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام : سئل عن الميت يبلى جسده؟ قال : (نعم ـ حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فإنها لا تبلى تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة [1]) وكما يروى عنه في البدن المعاد : (هي هي وهي غيرها).

نبذة عن تبديل الأمثال كما يخطر ببال :

إن الروح المفاقة بعد صعقتها تعود يوم القيامة الكبرى إلى شخص هذا البدن الذي صار رفاتا ، تعود إليه بعد خلقه ثانيا على مثال صورته الاولى ، متخلصا متحللا عما زاد على أجزاءه الأصيلة ، التي خلق منها أول مرة : ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٧ : ٢٩) ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (٢١ : ١٠٤) فالعود على مثال البدء في خلق أول إنسان ، وكل إنسان.

فكما ان كل إنسان مخلوق من سلالة من طين وهي الماء المهين (المني) وهو سلالة وصفوة من كافة أجزاء الإنسان ، التي هي سلالة من مختلف الأغذية ، التي تسللت أولا من طين تحول غذاء نباتا وحيوانا ، فالمني إذا سلالة من طين ، من طيات هذه التحولات ، ومن ثم النطفة سلالة من هذا الماء المهين ، تجعل في قرار مكين من المبيض ، لكي تنمو وتصبح جنينا بعد طي مختلف الصور خلقا بعد خلق ، وهذا في الخلق الأول لكل إنسان إلا الأول.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج ٢١ ص ٤٣ ـ ح ٧ وفيه ج ٣٧ ح ٥ «والبدن يصير ترابا منه خلق» أي الطينة المشار إليها في الحديث.

فكذلك حين العود إذ تصطفى من طينه سلالة ، ومنها سلالة أخرى ، تتخلص في الاولى عن الأجزاء الملتحقة بها طول الحياة ، وفي الثانية عن ثقل البدن الدنيوي لحدّ يصلح للخلود في دار الخلود ، بريئا عن المرض والموت وسائر العوارض الطارئة عليه يوم الدنيا ، وحيث ان ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ (٣١ : ٢٨) يكمل المطلوب في العود كما البدء : ان البدن المعاد في المعاد سلالة من سلالة من طين الإنسان ، يخلق من الطينة التي خلق منها أول مرة.

وكما الإنسان الأول خلق من صلصال من حماء مسنون وطين لازب كالفخار ، وكل ذلك دون تحول التراب منيا ثم جنينا ، ودون مكوث الرحم طيلة شهور ، فكذلك إعادته خلقا ثانيا في المعاد ، فيصير طينه حماء صلصالا : طين أسود نتن صلب ، فيبرئه الله ويصوره كصورته الاولى كالفخار ، قضية مماثلة العود للبدء ، فتتم الإعادة كما بدء : ﴿كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [1].

وهل الأمثال المبدل إليها من المثل أو المثل؟ قد تؤيد المثل آيته :

﴿.. قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ وكما يجب أن يكون البدن المعاد مثل الأول وإن في الأصل ، ولكنه مثل مثل : فلو كان مثله فقط وجب حمله ما كان يحمله دون زيادة ولا نقصان ، ولو كان مثله فقط جاز أن يدلّ عليه بمشابهة وليس منه في شيء ، وليس هذا إعادة وتبديلا عادلا ، وإنما البدل العادل هو المثل المثل : مثل يدل عليه علامة له وآية ، ومثل أنه يحمل منه الأصل مادة والصورة كما يحق ، فالأمثال المبدل إليها تجمع المثل والمثل ، ويا له جمعا ما أحسنه وأعدله.

وأحرى الأمثال يوم المعاد أمثال السيرة والأخلاق ، التي تتحول صورة ، وأمثال الأعمال والأقوال التي تبقي في أعضاءها وأجواءها ، ومن ثم تشهد معها لها أو عليها.

---

(١) راجع (عقائدنا) بحث مقارنات المعاد ص ٢٧١ ـ ٢٧٨.

هذا من تبديل الأمثال في الاخرى ، كما وان هناك تبديلا للأمثال في الاولى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ...﴾ إذ يأخذ المني من الأصلاب والترائب ، ثم يخلق منها أمثالكم. فإذ خلق من منيك مثلك ، فقد خلقك مثلك ، وكذلك الله يخلقك مثلك من منيك وطينتك يوم القيامة ، وإن كان فرق بين مثل ومثل ، فهنا من منيك مثلك ولدا لك ، وهناك منيك الذي خلقت منه أول مرة ، تخلق منه مرة أخرى مثل الاولى ، فما أوضحه مثالا خلق الأمثال يوم الدنيا بخلق الأمثال في الاخرى!

فكما ان ﴿ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ﴾ كم (أمثالكم) في الاولى ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ في التطورات الجنينية ، كذلك وأحرى ﴿ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ﴾ كم (أمثالكم) في الاخرى ﴿وَنُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ﴾ فلتدرسوا للنشأة الاخرى من الاولى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ﴾ :

درسا في مرحلتين من النشأة الاولى : ﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ...﴾ درس الأولوية في المرحلة الاولى ولأن النشأة الاخرى أهون منها وأحرى ، ودرس المماثلة التامة في المرحلة الثانية : خروج المني من الأجزاء الحية وانفصاله عن الحياة الانسانية ، ثم رجعه إليها عبر التطورات الجنينية ، دروس حاضرة حاذرة من كتاب تكوينكم تذكركم النشأة الاخرى.

ف (عجب كل العجب لمن أنكر النشأة الاخرى وهو يرى النشأة الاولى) [1]! ﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمُغْرَمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

---

(١) اصول الكافي باسناده إلى أبي حمزة قال : سمعت علي بن الحسين (ع) يقول :

هنا زرع وهناك حرث ، وأين حرث من زرع؟ فالزرع هو الإنبات ولا منبت حقيقة إلا الله : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ ...﴾ (٦ : ١٤١) ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ ...﴾ (١٦ : ١١) ﴿وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً﴾ (١٨ : ٣٢) ﴿يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً﴾ (٣٩ : ٢١) فإنشاء الزرع وإنباته ، وجعله وإخراجه ، إنه من الله ، مهما كان حصده وقطعه من خلق الله ، وإذا ينسب الزرع إليهم أحيانا بتلميح دون تصريح : ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ (٤٨ : ٢٩) فانما هي نسبة مجازية توسعية لأنهم يبذرون وقد يسقون ويصلحون ، دون حول ولا قوة فيه إنشاء وإنباتا إلا بمشيئة الله ، فلو شاء لم تبدأ رحلتها ، ولو شاء لم تتم نباتها ونماءها ، ولو شاء لجعلها حطاما بثمارها ، أو قبل أن تؤتي ثمارها : ﴿لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً ...﴾ : هشيما متفتتا متكسرا تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ : تتعجبون يائسين مما أصيب به زرعكم وتتحدثون قائلين : ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ : مخسرون فيما بذرناه وبذلنا لزرعنا إذ خاب سعينا ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ : عن نصيبنا من رزق أو عن رحمة الله.

فلو أنكم أنتم الزارعون ، فلما ذا تحرمون منه أنفسكم وتغرمون؟ فما الزرع إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يمنحكم ثمره ويسمح لكم خيره ، أن يسّر البذرة في رحلتها الناجحة كما فعل فيما تمنعون بأدواره الجنينية وقبلها ، حذوا بحذوه ف (لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت) [1].

ولتأخذوا درسا من البذرة المزروعة التي تحصدون ، أنكم كذلك في القيامة تحصدون ، فبذرة الحياة الدنيا لا حصاد لها وافيا إلا اليوم الذي فيه تحشرون.

وكما أن البذرة الميتة نباتيا تحيي مع الماء والأرض ، ثم تموت ، ومن ثم تحيي مرة اخرى ومرات في كل حصدة وزراعة ، فلو لا تصدقون أن الله الذي أحياكم

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦٠ ـ أخرجه جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) : ..

ثم يميتكم ، أنه سوف يحييكم لكي تحصدون بعد ما تحصدون؟ ولتجزى كل نفس بما تسعى.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ يختص هنا بالذكر بين سائر الماء ، لأنه أصل الحياة المباشرة للإنسان ، ثم بواسطة النبات والحيوان حياة ثانوية مكملة لها.

فهل أنتم الشاربون أنزلتموه من المزن : السحاب المثقل بالماء ، أم الله؟ فمن هذا الذي يزجي سحابا من أبخرة المياه فيبسطه في السماء ، ويسقي به من يشاء؟ ومن الذي خلق عنصر الماء من قبل وحوله إلى مختلف الحالات ، وجعله أصل الحياة؟ أنتم أم الله؟ ﴿فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ﴾؟.

﴿لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً﴾ : بدل العذب الفرات : مالحا مرا حارا بأشده لاهبا ملتهبا كالنار ، حاملا لعنة الموت لا رحمة الحياة ، يؤج بكم إلى عجيج الصرخات [1] ، ولكنه جعله لكم عذبا فراتا سائغا شرابه ، مهما جعل من دونه ملحا أجاجا لغير الشرب من مصالح الحياة ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ؟﴾.

وكما أن هذا الماء يحمل الحياة ، بضمة ـ وهو ميت ـ إلى أجزاء ميتات ، فلو لا تصدقون أن الله يرسل هذا الماء إلى رميمكم ورفاتكم فيرجعكم إلى الحياة؟. ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ : عقليا أن تصدقوه في نبإ المعاد ، وعمليا أن تقدموا خيرا لأنفسكم ليوم المعاد؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ. نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾.

علّ ذكر المني والماء والنار يوحي بأن النشأة الاخرى سوف تكون في

---

(١) هذه كلها معاني الأجاج كما في لسان العرب لابن المنظور الافريقي.

إطار هذا المثلث ، أن الله يحييه من النطفة التي منها خلق ، وهي الطينة الأصيلة المخلوق منها الجنين ، الباقية طوال الحياة ، الحاملة كافة الأعضاء ، هذه! دون الزوائد الملتحقة بها من هنا وهناك ، والمنفصلة عنها كذلك إلى هنا وهناك ، يرسل الله الماء بالنار على هذه الطينة فيحييها كما خلقها أول مرة : ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾! [1].

إن النار متاع للحياة كما الزرع والماء متاع ، قواعد ثلاث تتبنى الحياة متناصرة في مختلف الحقول ، نباتية وحيوانية وإنسانية أم ماذا؟ فما هو دور الإنسان بشأن النار؟ اللهم ليس إلا الإيراء : إيقاد الزند ـ الناجح ، دون الكابي ، فهل للإنسان إلا إيقاد النار بوقودها الأصيل : شجرة النار ـ كما يصنعه البدائيون ـ أو غير الأصيل كسائر الوقود المصطنع ـ كما يفعله المتحضرون ـ؟

وكما النار تشمل سائر النار ، وإلى نيران الكهارب والاوكسيجين وسائر الإشعاعات النارية والنووية ، كذلك شجرة النار ، التي تتشجر فتتسعر منها النار ، من الشجر الأخضر وإلى غيرها من الشجر : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (٣٦ : ٨٠).

تختص النار هنا بالشجرة الأخضر ، وهناك تعمّ الشجر ، وليس اختصاص الانحصار ، إنما الذي يعرفه كل إنسان ، وإلا فما من مادة إلا وتحمل نارا ، من عناصر وجزئيات وذرّات ، ومن ثم يتفجر أنها على ضوء العلم تتوقد مختلف النار ، كهربيا وذريّا أم ماذا؟.

فكما أن من احتكاك فرع من شجرة بفرع من شجر آخر تورى نار ، كطريقة بدائية بادئة في إيراء النار ، كذلك سائر النار بسائر الإيراء من سائر الأشجار.

ثم هناك وقود أول ووقود ثان وإلى سائر الوقود ، من شجر الإيراء ، ومن

---

(١) نبحث عن المادة المعادة في المعاد في مجالات أوسع إن شاء الله.

حطب وزيت وبترول أم ماذا؟ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ؟﴾ أنت يا رب! ولماذا؟

﴿نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً﴾ : لإمكانية المعاد ، فكما أنها من اصول الحياة في المبدأ ، كذلك هي في المعاد ، أن تتعاون مع الماء في الطينة فيرجع كل ببدنه الأصيل! فهذه تذكرة.

ومن ثم تذكرة لنار المعاد ، التي تورى على من قدمتها يداه ، وأن الله ليس بظلّام للعبيد ...

﴿وَمَتاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾ : أقوى : دخل في قواء : مفازة ، وهي كذلك من الأضداد من القوة نفيا وإثباتا. فالغني مقو لكونه ذا قوة ، والفقير مقو لكونه بلا قوة ، ثم المفازة قد تكون مفازة الأسفار القريبة من هنا إلى هناك دنيا ، أم سفر بعيد من الدنيا إلى الآخرة ، فالدنيا إذا كلها مفازة وقواء ، كما وأن أصحابها كلهم ذوو قواء : فقراء وأغنياء ، مفازة واسعة ـ زمانا ومكانا ـ يتجول فيها الخلق أغنياء وفقراء ، ويجتازونها إلى الساهرة على سواء.

فالنار التذكرة للخلق أجمعين ، هي أيضا متاع للمقوين ، في سفر قريب أم بعيد. المقوين الواجدين القوة والغنى ، والمقوين الفاقدين لهما أو إحداهما ، فالحاجة إلى النار حاجة عامة للناس أجمعين ، مستضعفين كانوا أم مستمتعين ، وعلى حد تفسير الرسول الأمين صلّى الله عليه وآله وسلّم : (لا تمنعوا عباد الله فضل الماء ولا كلاء ولا نارا ، فإن الله تعالى جعلها متاعا للمقوين وقوة للمستضعفين وقواما للمستمتعين) [1]. مهما كان مقوي الدنيا في مفازاتها أحوج إليها.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦١ ـ أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن وائلة قال قال رسول الله (ص) : ...

وعلى ضوء هذا التنبؤ من نبينا العظيم وكما تتحمله الآية ، يرجع ضمير التأنيث في «جعلناها» إلى مثلث اصول الحياة : الماء والزرع والنار ، فهي متاع للمقوين :

أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء ، الكائنين في قواء : مفازة لا تفوز بالحياة إلا بها ، وإلا فهي قفر ، إذ لا ماء فيها ولا نار ولا كلاء ، ومن ثم فلا حياة فلا إنسان.

فمتاع هذا المثلث ظاهر ، فما هي تذكرة الزرع والماء؟ إنهما تذكران إمكانية المعاد ، الذي يضم هذه الأصول في المعاد!.

ولأن الله يذكّركم بالقيامة وطامّتها قبل أن تأتيكم ، ويبرهن لكم إليها بما لا مزيد لها قبل أن تأتوها ، وينعم عليكم بوافر النعيم في الاولى لكي تتمتعوا بها وتقدموا للأخرى :

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ : نزّه ربّك العظيم عما ينافي الربوبية العظيمة ، نزّهه مستعينا باسمه العظيم [1] ، فربك عظيم واسمه عظيم لأنه يدلك على عظيم ربوبيته ، ولكنك لا تستطيع تسبيح ذاته بذاته ، إذ لا تحيط به علما ، فسبّحه باسمه العظيم وكل اسمه عظيم. فقل : (سبحان ربي العظيم) [2] لا فحسب تسبيحا في المقال ، فكذلك في الإيمان والحال والأعمال ، أن تصبح حياتك تسبيحا باسم ربك العظيم ، أو تتحول إلى اسم الرب العظيم ، كما وأن أولياءه المكرمين هم من أسماء الله الحسنى ، يدلون على الله ويقربون إلى الله.

﴿فَسَبِّحْ﴾ ربك العظيم ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عن الفوضى اللاغاية الصالحة من الخلق ، العابثة بهم ، فلا يحشرهم للحساب الجزاء ، وسبحه باسمه عن الحساب

---

(١) على أن الباء في «باسم» للاستعانة كما هو الأظهر دون تكلف زائد. فالقول انها زائدة قول زائد ، وغيره بمعنى غيره لا يلائم الآية.

(٢) من لا يحضره الفقيه ، والمجمع. صح عن النبي (ص) أنه لما نزلت هذه الآية ، فقال (ص) : اجعلوها في ركوعكم.

الفوضى يوم الحساب ، وعن كل ما لا يليق بعظمة الربوبية الفاضلة العادلة بغير حساب.

وترى هل يختلف «ربك» عن «رب العالمين» أفهناك أرباب متشاكسون؟! كلا! وإنما يوجه الخطاب هنا ـ على أوجه الوجوه ـ إلى أعظم أسماء الربوبية العينية : الرسول الأقدس محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فباستطاعته أن يسبح ربه باسمه العظيم ، وهو أيضا من اسمه العظيم ، وهو أعرف من سواه باسم ربه العظيم : رب عظيم واسم عظيم ، يسبح به رسول عظيم ، ولكي يكمل التسبيح فيقتدي به من سواه من العالمين.

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ :

تحدثنا عن اللاقسم في مواضعها ، وانه حقا نفي للقسم لا قسم ، إيحاء بالاستغناء عنه لما له يقسم. وإن كان القسم عظيما فإن المقسم له أعظم وأغنى ، فكرم القرآن وسعته ، الزاهر المتظاهر اللامع ، أظهر من مواقع النجوم وألمع ، لمن كان له بصر ، فما هي هذه النجوم بمواقعها ، التي يستعظم الله أن يقسم بها ، وإن كان لما هو أعظم منها؟.

ترى انها نجوم السماء : الكواكب الطالعة فيها ، الآخذة مواقعها ، رصدا للراصدين ، وهداية للمهتدين [1] : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (٦ : ٩٧)؟ ونجوم القرآن أهدى ، وهدايتها أعمّ وأبقى! فلما ذا يقسم بها كمثال لإثبات كرم القرآن وسعته في هداه ، وزهرته وعلاه؟.

---

(١) اصول الكافي بإسناد القمي عن مسعدة بن صدقة قال قال أبو عبد الله (ع) في قول الله عز وجل : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾ قال : كان أهل الجاهلية يحلفون بها فقال الله عز وجل : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾ قال : عظم أمر من يحلف بها.

أقول : يشهد على ما في المتن إذ كان المقصود كل النجوم ، والحديثان كما ترى صريحان انه نفي للقسم ، خلافا لمن يحاول تحويله الى القسم تحميلا لا يتحمله القرآن.

أم هي هي النجوم يوم قيامتها ، الساقطة الواقعة في مواقعها (١) ، المطموسة عن كيانها : ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ (٧٧ : ٧) ولماذا يقسم بها لنجوم لا تسقط ولا تطمس؟ فيوم القيامة يوم تظهر نجوم القرآن بحقائقها مهما كذبوا بها من قبل :

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ (١٠ : ٣٩)!.

أم هي نجوم من السماء ، هي رجوم لمسترقي السمع بالملإ الأعلى ، آخذة من أهدافها من مواقع الشياطين ، ثاقبة لهم وداحرة (٢) : ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ﴾ (٣٧ : ٩)؟

ولماذا يقسم بها لنجوم القرآن وهي أدحر وأثقب للشياطين ، كما هي أهدى وأنور للمؤمنين : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ (١٧ : ٨٢).

أم هي آيات القرآن ، النازلة نجوما ، بعد أن نزلت ليلة واحدة ، على قلب الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم أعلى موقع لنزولها ، ثم تتحول الى مواقع اخرى من قلوب السابقين الى دعوته ، ثم أصحاب اليمين ، ثم الى الناس أجمعين؟ فنجوم القرآن نجوم هداية للجنة والناس ، ورجوم على النسناس (٣).

---

(١) من موقع اسم زمان واسم مكان ، زمن وقوعها ومكانه.

(٢) مجمع البيان روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) أن مواقع النجوم رجومها للشياطين فكان المشركون يقسمون بها فقال سبحانه : «فلا اقسم بها» ، أقول هنا المواقع جمع موقع اسم مكان وكما هو كذلك في الاحتمال الأخير ، ولعله جمع موقع اسم مصدر ولكي يشمل معنى اسم المكان والزمان.

(٣) الدر المنثور ٦ : ١٦١ أخرجه جماعة عن ابن عباس في قوله ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾ قال : القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال : القرآن ، وفيه أخرج الفريابي بسند صحيح عن المنهال بن عمرو عنه قال قرء عبد الله بن مسعود ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ﴾ قال : بمحكم القرآن فكان ينزل على النبي (ص) نجوما ، وفيه مثله عن مجاهد ، وعن ابن عباس في إخراج آخر في الآية قال : مستقر الكتاب أوله وآخره ، أقول انه فسر الموقع بمعنى المستقر وهو قريب كما قلناه.

وهل يقسم بنجوم القرآن لإثبات كرم القرآن؟ قد يجوز وهو أحرى! فإنه من برهنة الشيء على نفسه ، فكما الشمس تدل على نفسها ، وهي أحرى شاهد لها ، كذلك نجوم القرآن بمواقعها ، القلوب الواقعة هي فيها ، الواعية لها ، انها تدل على ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿فَلا أُقْسِمُ﴾ هنا ، لا قسم ضمّن فيها القسم [1] لا بمواقع النجوم كلها ، وإنما بنجوم القرآن ، ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ : عظيم في دلالته ، عظيم في جلالته ، عظيم في معناه ، عظيم في هداه.

إنه تصريح باللاقسم وتلويح بالقسم بمواقع نجوم القرآن ، وما أحلاه تعبيرا ، عن لماعة نجوم القرآن وبلاغتها ، وكما يروى عن أفضل مواقعها : الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم : «.. له نجوم وعلى نجومه نجوم .. فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل المعرفة لمن عرف الصفة ، فليجل جال بصره ، وليبلغ الصفة نظره ، ينج من عطب ، ويتخلص من نشب ، فإن التفكر حياة قلب البصير ، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور ..» [2].

فمهما كان القسم بسائر النجوم عظيما ، لأنها دلالات ظاهرة ، وشهادات على عظمة القدرة ، وسعة الحكمة لمن يوقعها في مواقعها ، فيهتدي بها راصدوها ، ويندحر مسترقو السمع للملأ الأعلى ، وهي إضافة الى ذلك ظاهرة في أنفسها في طلوعها وغروبها وانفضاضها وانقضاضها ، ولكنما حق العظمة وعظمة الحق في الدلالة على كرم القرآن ، ليس إلا في نجوم القرآن ، وقليل هؤلاء الذين يعلمون ، وكثيرون يجهلون ، أن القرآن نور ينير لنفسه ، فلا يستنير بسواه ، وحتى الرسول لرسالته لا يستدل بسواه ، فهو نور لمن أرسل به ، ونور لمن أرسل اليه ،

---

(١) راجع ص ١٥٩ ج ٣٠ ـ الفرقان وكذلك الآيات ٦٩ : ٣٨ ـ ٤٣ و ٩٠ : ١ و ٨٤ : ١٦ و ٧٥ : ١ ـ ٣ و ٧٠ : ٤٠ ـ ٤١ ـ فانها آيات سبع تحدثنا عن اللاقسم فيها.

(٢) اصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ ـ الطبعة لجديدة عنه (ص) ...

وعلى حدّ تعبير الموقع الثاني من مواقعه :

علي عليه السّلام : ونور لا تطفأ مصابيحه ، وسراج لا يخبؤ توقده ، وشعاع لا يظلم ضوءه ، وفرقان لا يخمد برهانه ، وتبيان لا تهدم أركانه .. فهو معدن الإيمان وبحبوحته ، وينابيع العلم وبحوره ، ورياض العدل وغدرانه ، وأثافي الإسلام وبنيانه ، وأودية الحق وغيطانه ، وبحر لا ينزفه المنتزفون ، وعيون لا ينضبها الماتحون ، ومناهل لا يفيضها الواردون ، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون ، وأعلام لا يعمى عنها السائرون ، وآكام لا يجوز عنها القاصدون ، جعله الله ريّا لعطش العلماء ، وربيعا لقلوب الفقهاء ، ومحاجا لطرق الصلحاء ، ودواء ليس بعد داء ، ونورا ليس معه ظلمة ، وهدى لمن ائتم به ، وعذرا لمن انتحله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وحاملا لمن حمله ، ومطية لمن أعمله ، وآية لمن توسم ، وجنة لمن استلأم ، وعلما لمن وعى ، وحديثا لمن روى ، وحكما لمن قضى» (١).

إن القرآن قبل نزوله كان كوكبا لم يطلع بعد على المطالع غير الإلهية ، وإنما كان في ام الكتاب لدى الله : ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (٤٣ : ٤) عليّ عن الطلوع لأحد ، وحكيم عن أن يطّلع عليه أحد ، وإنما بزغ نجما : ـ كوكبا طالعا ـ لأول مرة ، إذ أشرق على قلب الرسول الأمين في ليلة مباركة ، ومن ثم بزغ نجوما إذ تنزلت آياته المفصلات ، مفسرات للنجم الأول ، ثم انتقل منه صلّى الله عليه وآله وسلّم الى حفاظ سره وخزنة علمه الأئمة المعصومين ، ثم منه ومنهم الى سائر المؤمنين كنجوم الشفاء والرحمة ، وعلى الشياطين رجوم البلاء والنقمة ، نجوم أربعة للقرآن الكريم! ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ : كيف لا وهو من لدن رب كريم : ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (٢٧ : ٤٠) متحولا الى رسول كريم : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

(١) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ص ٢٠٢.

(٨١ : ١٩) كريم في آياته ، كريم في معطياته ، غير ضنين ولا لئيم ، فالكرم هو التوسع في المحاسن الكبيرة ، فلا ينقص عن كرمه ، ولا يمس من كرامته فإنه :

﴿فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ :

ترى ما هو الكتاب المكنون ، الكائن فيه القرآن الكريم ، ليكنّه عما يمسّ منه إلا المطهرون؟ وما هو المسّ ومن هم المطهرون؟.

علّ ﴿كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ هو لوح محفوظ : ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (٨٥ : ٢١) [1] ، وليس في كتاب ثابت عند الله غير لائح للآخرين ، أو لائحا لجمع الأولين غير لائح للآخرين ، إنما «في لوح» : صفحة لائحة ظاهرة لمن يتمجد به من المكلفين ، من الجنة والناس أجمعين وإلى يوم الدين ، آياته لائحة ، بيناته واضحة ، ورغم أنه في لوح ، وبمتناول الكل ، فهو «محفوظ» و «مكنون» عن لعبة اللاعبين ، وتحريف المحرّفين ، فكيان القرآن أيا كان هو أنه في حفاظ الله وكنانه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ (١٥ : ٩).

وترى أهو محفوظ كذلك عند من يقرأه عن ظهر الغيب غالطا أو عامدا ، أو يكتبه كذلك وينشره بغية تحريفه؟ .. كلا ، إنما في ﴿كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾ و «كتاب» هو الثابت فليس إلا الحق ، فهو قرآن كريم في ثابت بإذن الله ، مكنون بكنان الله ، آخذا من ام الكتاب ، وإلى كتاب قلب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وقلوب ممثليه المعصومين ، وكتب ألسنتهم ، ثم وكتب صدور الحفاظ ، فالغالط يرجع لما يظهر غلطه ، والعامد يفضح إذ يرى خلاف ما يراه الحفاظ والمؤمنون ، والكاتب غلطا ، جاهلا أو عامدا ، لا يبقى كتابه سندا ، فريثما ينشر يدحر ، وكما دحر المسلمون القرآن المحرّف الذي نشره الاسرائيليون ، وكيف ينجح قرآن

---

(١) راجع تفسير الآية في ج ٣٠ ص ٢٧٠ ، والآية : «لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ» ج ٢٩ ص ٢٨٠.

محرّف بين بلايين البلايين من القرائين طول العالم الاسلامي وعرضه ، وخلال التفاسير وسواها ، وفي صدور الحفاظ وسواهم ، حتى ولا كلمة واحدة ، أو حرف أو نقطة واحدة ، وكما الواقع المجمع عليه من هذا القرآن طوال القرون الاسلامية خير

شاهد إيجابي لذلك الكن والحفظ ، وواقع الانحدار عن المجموعة الاسلامية لما قد يحاول دسه ونشره وبثه شاهد سلبي على غيره ، فمهما سمي قرآنا فليس في كتاب ، وإن سمي كتابا فليس مكنونا.

﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ فما هو «هـ»؟ وما هو المس؟ ومن هم المطهرون؟

الضمير الغائب «هـ» راجع إلى القرآن أيا كان من محاله ومدارجه : حين ينزل من عند الله ، وإذ يصل إلى منزل القلب المحمدي ، وحين يسمع أو يفهم أو يمس خطه بلمس ، أو ببصر ، أم ماذا؟ فلا يمسه في أيّ من هذه إلا المطهرون وكما يناسب هذه وهذه.

فقد حمله إذ نزل ، المطهرون «المقربون» [1] : ﴿وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ. وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (٢٦ : ٢١٢). وكما لا يحمل علمه صافيا دون كدر إلا المطهرون ، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا ، وهم أهل بيت الرسالة المحمدية ، فهم أولاء الذين يمسون حقائقه وينفذون أحكامه كاملة ، يمسونه كما يحق دون أن يمسوا منه بباطل.

ومن ثم لا يدركه بعدهم إلا المنوّرة قلوبهم ، المطهرة نفوسهم ، كل على قدره ، وكما يعيه قلبه و «القلوب أوعية فخيرها أوعاها» ، كما ولا يسمع اليه ولا يبصره إلا المطهرون في أسماعهم وأبصارهم ، دون الملتهين بالأغاني الملهية ، والصور المغرية ، فهم لا يتلذذون من القرآن فلا يمسونه سمعا ولا بصرا ، كما لا يتفهمونه

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦٢ . أخرج ابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس عن النبي (ص) ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ﴾. قال : عند الله في صحف مطهرة لا يمسه إلا المطهرون المقربون.

معنى وبصيرة ، ولا يتذوقونه واقعا ... وإلى هنا «لا» نافية تنفي واقع المسّ هكذا في مختلف المس ، كل على حسبه.

ومن ثم تكون «لا» ناهية تنحو نحو النهي عن مسّه ، خطه ورسمه ، إلا المطهرون عن الكفر ، فلا يمسه كافر ، اللهم من يحاول التطهر به ، لا مسّه أو المس منه ، وإلا المطهرون عن أحداث وأخباث «فلا يمس القرآن إلا طاهر» (١).

ولا غريب من القرآن أن يجمع بين النفي والنهي في حرف واحد ، أو انها نافية تعني في موارد النهي مبالغة النهي (٢).

فالطهارة المشروطة في حلية مس القرآن خطا ، تعمّ الطهارة عن الكفر وطهارة الحدثين ، وضوءا وغسلا ، والطهارة عن أية نجاسة في المحل الماسّ ، دون اختصاص بالحدثية ، خلافا لبعض الفقهاء ، وفاقا لإطلاق المس والطهارة. تأمّل.

ف ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ مسّ النور والخير ، ولا مسّ السوء والشر ، فالمطهرون داخلون في مسّه ، وغيرهم خارجون عن مسّه وعن المسّ من كرامته (٣).

كيف وهو مكنون بكنان الله أينما كان!.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ .. إنه كتعليل لعدم مسّه إلا من المطهرين ، فما

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٦٢ ـ أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص) : ... وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل مثله وعن ابن حزم الأنصاري عن أبيه عن جده عنه (ص) مثله. وأخرج عبد الرزاق وابن أبي داود وابن المنذر عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه قال في كتاب النبي (ص) لعمرو بن حزم : «ولا تمس القرآن إلا على طهور».

وفي الاستبصار بإسناده عن أبي الحسن (ع) قال : المصحف لا تمسه على غير طهر ولا جنبا ولا تمس خطه ولا تعلقه ، إن الله تعالى يقول : ﴿لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

(٢) والإتيان بالخبر وقصد الإنشاء عادة جارية فيما يراد تأكيد الإنشاء ، فلا يخبر بالنفي هنا فيما ينهى ، يعني انه من المنع لدرجة كأنه لا يقع أصلا.

(٣) الاستثناء على الأول متصل إذ يمسونه ، وعلى الثاني منفصل إذ لا يمسونه.

نزل من رب العالمين كيف يحمله إلى رسله الشياطين؟ أم كيف يمسه إلا من طهرهم رب العالمين ، أو كيف يجوز مسّه من غير المطهرين عن أدناس وأحداث وأخباث؟!

نكات وتنبهات :

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ ترى هل من نكران لأحد أنه قرآن ، حتى يقسم أو لا يقسم تلميحا بالقسم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ : مقروء!.

علّه لأن الناكر كان ينكر كونه مقروءا له من ربّه ، على سمعه وقلبه ، إذ قالوا ﴿بَلِ افْتَراهُ﴾ : اختلقه من نفسه ، ثم نسبه إلى ربه ، فإنكارا عليه يؤكد ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ جوابا عن هكذا قيل.

ومن قيل انه قرآن قرأه عليه الشياطين ، قرآن لئيم ، فيرد عليه ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ : ﴿وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ﴾ (٢٦ : ٢١٠).

ومن قيل ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ولكن دسّ فيه ومسّ منه الشياطين ، فأصبح محرّفا كما فعلوا بالكتب من قبل ، فيرد بقوله ﴿فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾.

ثم على ضوء «كريم» انه كريم كما الله كريم ، لأنه أنعم نعم الله وأدومه.

ومن كرمه عدم هو انه بكثرة التلاوة والمراجعة ، بل هو دائبا غضّ طريّ ، لا تزيد كثرة تلاوته إلا طلاوة وطراوة ، خلاف سائر الكلام أيا كان ، فإنه لا يحلو على التكرار والترداد ، وقد يرجع مرّا إذا استمر ، بخلاف القرآن الكريم : طاهر الأصل ، ظاهر الفضل ، لفظه فصيح ومعناه صحيح «ظاهره أنيق وباطنه عميق ، له تخوم وعلى تخومه تخوم» [1].

---

(١) اصول الكافي ج ٢ ص ٥٩٨ عن النبي (ص).

وترى والقرآن هو الكتاب كيف يكون في كتاب ، فما هو كتاب وكتاب؟

الجواب : أن الكتاب المكنون هو المكتوب فيه الكتاب ، والقرآن الكتاب هو المكتوب ، ففرق بين مكتوب ومكتوب فيه ، وسواء أكان المكتوب القرآن المسجل بقلم النور على البيت المعمور : القلب المحمدي أم ماذا ، أو كان القرآن المفصل بألفاظه أو معانيه أم ماذا ، وإذا كان المكتوب فيه مكنونا فالمكتوب أكنّ وآمن.

ثم «المطهرون» يعمّ من طهّروا أنفسهم ونفوسهم فطهرهم الله تطهيرا ، كمن تشملهم آية التطهير.

ومن طهروا نفوسهم فأيدهم الله فيما طهروا ، كمن يحذون حذوهم ويتلون تلوهم من الأولياء المكرمين.

ومن تطهروا ـ أخيرا ـ عن الأحداث والأخباث ، فلو قال «إلا المتطهرون» لم يشمل إلا الآخرين ، وأما «المطهرون» فهو يشمل الأولين والآخرين ، لأن الطهارة فيها تعم الثلاث [1].

ثم ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ : يخص القرآن المفصل النازل نجوما ، بعد المحكم النازل ليلة القدر [2] مما يدل على عدم اختصاص الكتاب المكنون بالقرآن المحكم ، بعد نزوله ، عند النبي ، أو قبله عند الله ، أنه مكنون عند الله وعند نبي الله فقط لا! بل هو محفوظ أينما حلّ وارتحل ، وإلى القرآن المفصل ، عند النبي وعند المؤمنين وإلى يوم الدين [3].

وبما أن مسّ القرآن باللسان من أخفى المسّ وأخفه ، فالنهي عن هكذا مسّ

---

(١) التطهير الالهي ، والتطهير البشري ، وما بينهما من تطهير إلهي وبشري.

(٢) لأن التنزيل هو النزول التدريجي بخلاف الإنزال فانه دفعي.

(٣) راجع سورة القدر ج ٣ ص ٣٧١ ـ ٣٨١ من الفرقان.

للمحدث ، ألا يقرءه على حدث ، منع خفي ينحو منحى الكراهة ، وهو إيحاء لطيف استوحاه المطهرون المعصومون كما هو دأبهم في فقه القرآن.

والكراهة هنا هي قلة الثواب ، تحريضا على التطهر فالقراءة ، ليدرك كامل الثواب.

ومن ثم ، وبعد ذلك كله في نجوم القرآن ، أفتستقبلون رجومه؟

﴿أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ، وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ :

﴿أَفَبِهذَا الْحَدِيثِ﴾ : حديث الله وآياته «تدهنون» : تتهاونون ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً﴾ (٤ : ٨٧) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤٥ : ٦) ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٨ : ٤٤).

ورغم أن حديث القرآن رزق رزقتموه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ منه ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ : تبديلا بنعمة الله نقمة وكفرا : ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ (٢ : ٢١١) أهربا من نعمة الله وحربا مع الله.

إنكم لا تدهنون بالكفر والفسق وأي باطل ، ثم تدهنون بحديث الله وآياته التي هي رزقكم في المثل العليا ، فأفّ لكم كيف تحكمون!.

أفتكذبون الله انه يقدّر الموت ، وليس بمسبوق فيه ، ولا في أن يبدلكم أمثالكم وينشأكم فيما لا تعلمون فيدينكم بما كنتم تعملون ، فلو لا تدرءون عن أنفسكم الموت أو ترجعون الأرواح إذا بلغت الحلقوم :

﴿فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ. فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ :

هل ان الله أقرب الى المحتضر أم أنتم؟ انه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ بل ومنه أيضا : قيوما بحيطة العلم والقدرة ﴿وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ : لا رؤية البصر : أنتم ولا أي محتضر ، فان هذا القرب ليس من المبصر ، ولا رؤية البصيرة اليقين إلا من المحتضر ، آمن أو كفر ، إذ يجد نفسه بين يدي من هو أقدر منه وأقرب اليه منه ، وأما أنتم الناكرون ، الناظرون الى المحتضر فلا تبصرون لا بالبصيرة ولا بالبصر ، فهلّا تذكرون من المحتضر أنه على نفسه ليس أقدر من الله وسوف يأتي دوركم على سواء.

وإذ ليس الله أقرب اليه منكم ، وأنتم أقرب اليه ، وتحبون حشره ورجعه! ﴿فَلَوْ لا .. تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في نكران الدينونة الحساب؟

﴿فَلَوْ لا .. تَرْجِعُونَها﴾ الروح ﴿إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ ﴿إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ : ﴿إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ. وَقِيلَ مَنْ راقٍ ..﴾ (٧٥ : ٢٦) ﴿وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ الى المحتضر يستغيث بلسان القال أو الحال ، وهو ممن يخصكم ، أو ينفعكم رجعه الى الحياة لتجربوا أنكم أنتم السابقون لو تزعمون ﴿فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ : غير محمولين على مكروه موتا أو سواه ، أو كنتم غير عباد عاجزين ، أو غير مجزيين بأعمالكم [1] ﴿فَلَوْ لا تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ : في هذه الدعاوي الزور ، وفي عدم دينونة الحساب ، فمن يدين بأنه مدين لا يدعي سبقه على رب العالمين في تقدير الموت ، فلا يفكر ولا يحاول في رجع أيا كان ، ولكن الذي لا يدين بأنه مدين ، لأنه ناكر سبق الله في الحياة والموت وفي تبديل الأمثال بعد الموت ، فليدرأ الموت وكل سوء عن نفسه وعمن يخصه :

---

(١) المفردات للراغب ، يذكر هذه المعاني الثلاث للمدين.

﴿فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ (٣ : ١٦٨) ﴿فَلَوْ لا تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾؟

فالله هو السابق في الموت وفي الحياة ، في المبدء والمعاد ، وعدله يفرض المعاد الحساب ، والجزاء الوفاق.

أضواء في طيات هذه الآيات :

١ ـ ﴿فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ : في هذه اللحظة الحاسمة الجاسمة ، إذ تولى الروح وراءها الدنيا وتستقبل الاخرى دون أن تملك من أمرها شيئا إلا ما قدمت من صالحات وأخرت ، وقد انفصلت عمن حولها وما حولها من مالها وما لها! ٢ ـ بلوغ الروح التراقي والحلقوم دليل قاطع لا مرد له على عدم تجردها عن مادة مّا ، فالمجرد عنها ليس له مكان لا خارج البدن ولا داخله ، فأين الروح المجردة في البدن حتى تبلغ الحلقوم ثم تخرج؟

٣ ـ يبتدء خروج الروح من الرجل إلى الحلقوم ومن ثم تخرج ، وليس كما يزعم انها تخرج من المخرج ، وإلا لم يكن بلوغها الحلقوم حالة للاحتضار.

٤ ـ ان الله أقرب إلى المحتضر ممن سواه ، وأقرب إليه من نفسه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٥٠ : ١٦) واقع معقول وملموس ، وفي حياتنا اليومية ، فهو أقرب إلى الكائن ـ أيا كان ـ من نفسه : كيانا وكونا وقدرة وعلما وعزما وتصميما ف ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها﴾ (١١ : ٥٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٨ : ٢٤) فإن كنت أنت أقرب إلى نفسك ، أو غير الله أيا كان فلما ذا تغلبون في مصالحهم ولا تغلبون ، كلا! ﴿وَلكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ رغم البصائر المتكررة المبصرة لكم فانى تصرفون! ٥ ـ فالرجح كالبدء بيد الله ، يقدر كيف يشاء ويميت ويحيي ثم إليه تقلبون : ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ..﴾ (٢٩ : ٤٢).

حين تقف قدرة الإنسان ـ أو أيا كان ـ وكل محاولاته ، يقف علمه وينتهي دوره المختار ، فتنفرد القدرة الإلهية وعلمه وأمره ويخلص الأمر كله لله وهنا لك يخسر المبطلون ﴿فَلَوْ لا تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ :

﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ. وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ. وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ :

جولة ثانية تختصر الاولى ، وتزيد عليها في الجزاء بين الموت والمعاد ، فالاولى تستعرض الجزاء منذ القيامة الكبرى : ﴿إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ .. فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ﴾. وهذه تستعرضها منذ الاحتضار والموت وإلى القيامة ، ﴿فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾.

في هذه الجولة نرى المقربين في مثلث الرحمة ، علّ الروح والريحان للبرزخ ، وطبعا جنة نعيم وهي الخلد للآخرة [1] ، كما وان المكذبين الضالين في مثنى : ﴿فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ علّها للبرزخ ، و ﴿تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وليست إلا للآخرة [2] ومن ثم لأصحاب اليمين وهم الامة الوسطى بينهما ، واحد يعم سلام الإكرام والانعام ، منذ الموت إلى يوم القيام.

وترى ما هما الروح والريحان؟ ان الرّوح والروح من أصل واحد ، ثم اختص الثاني بالنفس ، والأول بالنفس المتنفسّ ، وهما ما به الحياة ، حياة الأصل للروح ، وحياة النزهة للروح ، فالمقربون يتنفسون بالموت عن خنق ما كانوا وحنقه ، ثم يزيدهم روحا وروحا وريحانا ، وعل الروح هنا رحمة نفسانية روحانية ، ونسمة من جنة الرضوان ، ونفحة من معرفة الرحمان ، ويا لها

---

(١) امالي الصدوق باسناده إلى موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد (ع) في حديث : ﴿فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحانٌ﴾ يعني في قبره ﴿وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ يعني في الآخرة.

(٢) اصول الكافي وأمالي الصدوق بهذا الاسناد ﴿وَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ يعني في القبر ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ يعني في الآخرة.

بوحدتها من روح وريحان ، ثم الريحان عطر يعطر المشام ، ويذهب بعفونة الأيام.

ثم وما هو ﴿فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ﴾؟ علّه يوحي بحالة مرضية لهم تطمئن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بسلام له منهم وسلوان ، فلا يضطرب بما قد اقترفوه من آثام ، فقد حوّلهم الله من لا سلام الى سلام ، إذ كفّر عنهم سيئاتهم وأدخلهم مدخلا كريما ، وبدّل سيئاتهم حسنات فأصبحوا في سلام وسلوان ، في رحمة وغفران ، فمنهم لك سلام ، عطاء من ربك وإنعام : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾.

وترى لماذا (سلام) وليس (السّلام)؟ قد يكون تنكير السّلام له منهم لإثبات أصل السّلام ، دون أن يناحره شيء من اللاسلام للأدنين من أصحاب اليمين ، الذين قد يذوقوه في فترة البرزخ ، ولو زاد ففي بداية القيامة ، أم لو زاد فمصيرهم الأخير الجنة مهما ابتلوا هنا وهناك ، إذا فحالهم مرضية للرسول الشفيع الأمين ، وبشفاعته وذويه يخرج غير المخلدين عن الجحيم ، وهم أدنى أصحاب اليمين.

ثم الرعيل الأعلى منهم لهم السّلام كل السّلام دون عذاب ولا بلاء ، ثم المتوسطون بين الأولين والآخرين لهم وسط من السّلام ﴿فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ﴾ مهما اعتراهم من غير سلام.

كما وأن روح المقربين وريحانهم وجنتهم النعيم درجات حسب الدرجات ، فلأفضل المقربين الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم فضله على سواه ، لحدّ يحتاجه في الزلفى من سواه.

كما وأن للمكذبين الضالين دركات في نزل من حميم وتصلية جحيم «حتى انصرف المشيع ورجع المتفجع ، اقعد في حفرته نجيّا لبهتة السؤال وعثرة الامتحان ، وأعظم ما هنا لك بليّة نزول الجحيم وفورات السعير وسورات

الزفير ، ولا دعة مزيحة ، ولا قوة حاجزة ، ولا موتة ناجزة ، ولا سنة مسلية بين أطوار الموتات وعذاب الساعات) [1].

ثم وتصلية جحيم هي إيقادها بوقود أجسادهم وأرواحهم الجهنمية : ﴿وَأُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (٣ : ١٠) فسائر أهل النار وهم هوامش الضلالة يحرقون بنارهم كما احترقوا يوم الدنيا ، ثم ومنهم من ينجو مع الناجين فيلحق بأصحاب اليمين ، ومنهم .. ثم لا يبقى في النار إلا الوقود حتى يتم جزاءهم الوفاق ، ثم تخمد النار ويموت الوقود ، المؤبدون ثم لا يحيون.

﴿إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ :

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٦٩ : ٥٢) لا علم اليقين فقط ولا عين اليقين ، وإنما حق اليقين ، الذي ليس فوقه يقين ، و «هذا» هو الله ، وهو كتاب الله ، وهو يوم الله ، لا ريب في أي من هذا وذاك ، فالمقربون لهم في ذلك حق اليقين ، وأصحاب اليمين لهم عين اليقين أو علم اليقين ، ثم للمكذبين الضالين عين اليقين إذ يدخلون الجحيم ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (١٠٢ : ٧) وكان لهم أن يروها قبل يوم الدين : علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين.

ومهما يتعرض علم اليقين وهو اليقين العلم ، للخطأ أو الإهمال في متطلبات اليقين ، أو تخطأ عين اليقين أو تهمل مهما كان أقل خطأ وإهمالا من علم اليقين ، فليس حق اليقين وهو اليقين الحق ، الثابت الصامد ، مما يخطئ أو يهمل ، لأنه واضح وضح النار وأوضح.

---

(١) نهج البلاغة للسيد الرضي عن أمير المؤمنين علي (ع) : ...

سورة الحديد ـ مدنية ـ وآياتها تسع وعشرون

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٩) وَما لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١١)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

هنا وأحيانا في غيرها «سبح» وهنا لك في مواضيع «يسبح» إيحاء باستمرارية تسبيح الكائنات غابرا ومستقبلا وحاضرا دون فكاك ، وأيا كان التسبيح ومن اي كان.

و «سبح» مما تعدّى بنفسها ، فلما ذا عدّيت هنا باللام وأحيانا بنفسها؟ لأن اللام توحي بالاختصاص ، فلا تسبح ما في السماوات والأرض إلا لله ، لا له ولسواه ، فليحمل عليها المعدّى بنفسها : ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ فلا تسبيح إلا لله.

والتسبيح هو الإمرار السريع دون تباطئ ، من السبح : المرّ السريع في

الماء والهواء أو أيا كان ، فالمسبح لله يمر سريعا في ممرات نفسه وسائر الكائنات ، دون وقفة ولا ريبة ، ويحمل معه تنزيه الله ذاتا وصفات وأفعالا وأسماء وأحكاما أم ماذا ، لأن الكون محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها وتنزّهه عما لا يليق به.

وترى التسبيح فقط من ﴿ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ دونهما ومن فيهما وهم أقدر وأحرى؟ .. إنه للكائنات كل الكائنات : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (١٧ : ٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾ (٢٤ : ٤١) ﴿وَسَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ (٢١ : ٧٩).

فالكائنات كلها تسبيحات لله بما لا نفقهه ، من التسبيح عن شعور وإدراك ممن نحسبهم غير عقلاء ولا مدركين ، أو ما نفقهه من تسبيح اختياري لمن يعرفون الله بدرجاتهم ، أم ذاتي لمن يكفر بالله ، فذاته في صفوف الكائنات تسبح الله عما لا يليق به من ذات وصفات أم ماذا.

فالعارفون الله ، ومن يدق أبواب المعرفة بالله يرون الله مسبّحا عبر سير البصر والبصيرة في آيات الله ، أنفسية وآفاقية ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (٤١ : ٥٣).

فالكائنات بذواتها وصفاتها وحالاتها ، بأفعالها وأقوالها وكل ما لها : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أفلا تدل ذواتها الفقيرة البائسة على نزاهته تعالى عن البؤس والفقر ، أو لا تدل دلالة جامعة تضم سائر الدلالات أن الله مسبّح الذات والأفعال والصفات عما للكائنات كل الكائنات من ذوات وصفات : «هو خلو من خلقه وخلقه خلو منه» «كلما في الخلق يمتنع عن خالقه ، وكل ما في الخالق يمتنع عن مخلوقه» والى غير ذلك من مفارقات بين الواجب والممكنات.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ .. وَهُوَ الْعَزِيزُ ..﴾ : غالب لا يغلب ﴿الْحَكِيمُ﴾ : فلا يجهل أو يخطأ أو يظلم ، عزيز حكيم : في ألوهيته وربوبيته .. وفي أنه مسبّح.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ :

«له ملك» الملكية المالكية الحقة دون زوال فلا يزول وهو لا يزال ﴿مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعبرة عن الكائنات كل الكائنات ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ : كأبرز مظاهر الربوبية المطلقة ، لا فحسب ، بل : ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ما هو شيء أو يمكن أن يكون شيئا ، قدرة متعلقة بالممكنات في كافة الجهات.

فيا لتسبيح المملوك العبد للملك المالك بالحق من حلاوة وطلاوة ، كيف لا و :

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ :

آية فريدة منقطعة النظير ، ليست إلا هي وإلا هنا كما هي ، اللهم إلا في البعض من اتجاهاتها بعبارات اخرى ، تعني السرمدية الإلهية : أزلية وأبدية ، والحيطة العلمية والقيومية المطلقة.

وهذه الأسماء الأربعة من مظاهر السرمدية والحيطة المطلقة الإلهية ، كونا وكيانا وعلما وقدرة وقيومية أم ماذا.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ لا سواه ، وترى أنه أوّل بالنسبة لسواه في الزمان أو المكان ، تقدما فيهما على أيّ كان؟ ولا زمان له ولا مكان ، فهو الذي كوّن المكان والزمان! .. أو أنه أوّل في الحدوث؟ وليس له حدث ، وإنما أحدث الأشياء وكان إذ لا كان ، فلم يحدث هو أيا كان ، وان كان حدوثا بلا زمان!

كلا : «إنه الأول لا عن أول قبله وعن بدء سبقه .. ولكن قديم أول وقديم آخر» (١) : أولية القدمة والأزلية ، فلو سألت عن ربك متى كان؟ فالجواب

(١) الكافي عن علي بن ابراهيم القمي بإسناده الى ميمون اللبان سمعت أبا عبد الله (ع) وقد سئل عن الأول والآخر فقال : «.. وآخر لا عن نهاية ...».

إذن : «كان بلا كينونة ، كان بلا كيف ، كان لم يزل بلا كم وبلا كيف ، كان ليس له قبل ، هو قبل القبل بلا قبل ، ولا غاية ولا منتهى ، انقطعت عنه الغاية وهو غاية كل غاية» [١]. ترى «ومتى لم يكن حتى يقال متى كان؟ كان ربي قبل القبل بلا قبل وبعد البعد بلا بعد ..» [٢] .. وإذا سألت «أين كان ربنا قبل أن يخلق سماء وأرضا؟ فالجواب : «أين» سؤال عن مكان ، وكان الله ولا مكان» [٣].

ف «هو كائن بلا كينونة كائن ، كان بلا كيف يكون» [٤] : تفارق كينونته تعالى سائر الكينونات تفارق التباين التام ، إذ ليس له بدء ولا زمان ولا مكان ولا تحول من حال الى حال ، بل لا تكون له حال.

هذه هي الأولية اللائقة بجناب عزه ، الأزلية اللاأولية ، أو والأولية في الخالقية والتقدير ، فليس معه خالق ولا بعده أو قبله ، ومهما كان خلقه في زمان

---

(١) الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه رفعه قال : اجتمعت اليهود الى رأس الجالوت فقالوا له : ان هذا الرجل علم يعنون أمير المؤمنين (ع) فانطلق بنا اليه نسأله ، فأتوه .. فقال له رأس الجالوت : جئناك نسألك ، قال : سل يا يهودي عما بدا لك ، فقال : أسألك عن ربك متى كان؟ فقال : ... فقال رأس الجالوت : امضوا بنا فهو أعلم مما يقال فيه.

(٢) بنفس الاسناد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبيه الحسن الموصلي عن أبي عبد الله (ع) قال : جاء حبر من الأحبار الى أمير المؤمنين (ع) فقال : يا أمير المؤمنين متى كان ربك؟ فقال : ... فقال يا أمير المؤمنين أفنبي أنت؟ فقال : ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد (ص).

(٣) فيه وروي أنه سئل الصادق (ع) أين كان ربنا ...

(٤) الكافي باسناده عن أبي عبد الله (ع) قال رأس الجالوت لليهود : ان المسلمين يزعمون أن عليا من أجدل الناس وأعلمهم ، اذهبوا بنا اليه لعلي أسأله عن مسألة وأخطئه فيها فأتاه فقال : يا أمير المؤمنين! اني أريد أن أسألك عن مسألة ، قال : سل عما شئت ، قال : متى كان ربنا؟ قال له : يا يهودي! إنما يقال متى كان لمن لم يكن فكان متى كان ، هو كائن بلا كينونة كائن ، كان بلا كيف يكون ، بلى يا يهودي ، ثم بلى يا يهودي ، كيف يكون له قبل ، هو قبل القبل بلا غاية ولا منتهى غاية ولا غاية إليها ، انقطعت الغايات عنده ، هو غاية كل غاية ، فقال : أشهد أن دينك الحق وأن من خالفك باطل.

ومكان ، فلا يعتريه هو زمان ولا مكان ، فقد كان إذ لا «كان» ، لا زمان ولا مكان ، ثم خلق الزمان والمكان ، وخلق فيهما كلّ «كان».

هذا ، ولكنما الأولية الأزلية لزامها أوليّات الالوهية كلها ، فالأزل خارج عن كل زمان ومكان ، مهما كان معه ـ لخلقه ـ زمان ومكان.

إن الزمان مهما كان وأيا كان ، هو محدود لا محالة لتصرّمه ، وإن أجزاءه محدودة ، ومجموعة المحدودات محدودة لا محالة ، فله أول وهو حين خلق ، وآخر حين ينقضي.

وأما الأزلي الذات ، وغنيّها عن كافة الذوات ، المفتقرة اليه الذوات ، المبتدأة المبتدعة في الذوات وفي الصفات ، هذا الأزلي ليس له حدّ ولا أية حالات ، إنما أزلي لا أولي ، أول ليس له أول ، وآخر ليس له آخر :

«والآخر» آخر كما هو أول ، فالأول أزل والآخر أبد والجمع سرمد : «آخر لا عن نهاية .. ولكن قديم أول وقديم آخر ، لم يزل ولا يزول بلا مدى ولا نهاية ، ولا يقع عليه الحدوث ولا يحول من حال الى حال ..» [1].

«إنه ليس شيء إلا يبدأ ويتغير أو يدخله التغير والزوال ، وينتقل من لون الى لون ، ومن هيئة الى هيئة ، ومن صفة الى صفة ، ومن زيادة الى نقصان ، ومن نقصان الى زيادة إلا رب العالمين ، فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة ، هو الأول قبل كل شيء ، وهو الآخر على ما لم يزل ، ولا تختلف عليه الصفات والأسماء كما تختلف على غيره ، مثل الإنسان الذي يكون ترابا مرة ، ومرة لحما ودما ، ومرة رفاتا ورميما ، وكالبسر الذي يكون مرة بلحا ، ومرة بسرا ، ومرة

---

(١) الكافي عن القمي بإسناده الى أبي عبد الله (ع) وقد سئل عن الأول والآخر فقال : «الأول لا عن أول قبله وعن بدء سبقه ، وآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين ، ولكن قديم أول قديم آخر خالق كل شيء».

رطبا ، ومرة تمرا ، فتتبدل عليه الأسماء والصفات ، والله عز وجل بخلاف ذلك» [١].

هذه هي الآخرية اللائقة بجناب عزّه ، أو الآخرية في الخالقية والتقدير أيضا ، فليس بعده خالق كما لا يكون معه أو قبله ، بل هو «قبل القبل بلا قبل ، وبعد البعد بلا بعد ولا غاية ولا منتهى لغايته ، انقطعت الغايات عنده ، فهو منتهى كل غاية» [٢]. فقد كان إذ لا ـ كان ـ وسوف يكون إذ لا ـ يكون ـ : كينونة سرمدية فائقة التصور ، ليس لمن سوى الله من إدراكها نصيب ، إلا نفي الكينونات المخلوقة عن جنابه ، وإثبات كينونة سرمدية لا نملك من تصوّرها شيئا ، إلا أنها غير ما نملك من كينونات!.

وآخر بمعنى آخر هو أنه المرجع وإليه المصير ، فهو آخر في الأبد ، وآخر في الخالقية ، وآخر في المصير.

وحصيلة التعبير التفسير عن آية الأول والآخر ، أولا وأخيرا. انه : «قديم أول ، قديم آخر» «قبل القبل بلا قبل ، وبعد البعد بلا بعد» «لم يزل ولا يزول بلا مدى ولا نهاية» «الأول قبل كل أول ، والآخر بعد كل آخر ، بأوليته وجب أن لا يكون له أول ، وبآخريته وجب أن لا يكون له آخر» [٣] ، وهو المبدء وإليه المصير. فهو أول نظرا الى ترتيب الوجودات سلاسل ، فإنها استفادت الوجود من الأول تعالى ، وأما هو فهو كائن بذاته دون مكوّن ،

---

(١). الكافي عن ابن أبي يعفور قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : «هو الأول والآخر» وقلنا : أما الأول فقد عرفناه وأما الآخر فبين لنا تفسيره ، فقال : ...

(٢) خبر الخبر الماضي إذ سأل أمير المؤمنين (ع) متى كان ربك؟ فأجاب : ومتى لم يكن؟

(٣) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (ع) وفيه «إن قيل كان فعلى تأويل أزلية الوجود ، وإن قيل لم يزل فعلى تأويل نفي العدم». وفيه «سبق الأوقات كونه والعدم وجوده والابتداء أزله».

ثم هو آخر نظرا الى سلسلة السلوك المعرفي ، فهو آخر منازل السالكين ، وغاية الباغين.

وترى إذا انحصرت به الآخرية الأبدية كما الأولية الأزلية ، فما هو دور الآبدين في الجنة إذ وعد لهم ﴿عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ؟﴾.

أقول : إن أبديتهم لو كانت بمعنى اللانهاية ، انها زمنية عارضية غيرية ، فهم آبدون بفضل الله ورحمته ، فمن ذواتهم هم بائدون لا يملكون أبدا ولا حياة ، فهم في أبدهم لهم آخر في ذواتهم ، كما وأن لزام الزمن لكيانهم يحكم بأن لهم آخرا كما لهم أول ، وهذه تختلف عن الآخرية الأبدية الإلهية اختلاف العدم عن الوجود ، فقد «كان الله ولم يكن معه شيء» ، والآن كما كان وسوف يكون كما كان ، لا يقارنه أيّ كان ، وليس معه شيء أيا كان ، ليس معه في أي زمان أو لا زمان ، وإنما كيان كل «كان» : إنه من جلوات قدرته ، وكما لا تختلف حاله تعالى بعد الخلق عما كان قبله في السرمدية ، كذلك أحوال الخلق فإنها لا تختلف من حيث الفقر والعدم الذاتي ، لا تختلف بعد خلقها عما قبل ، اللهم إلا بظهور الوجود ، دون استقلال ولا لحظة ، فضلا عن الأبدية ، اللهم إلا بفضل الله.

ومن الفوارق بين الأبدين ، أن الإلهي منهما لزام الأزلية ، والثاني لزامه الحدوث والبداية.

هذا ، ولكن الحق أن لا أبدية للخلق وإن كانت عرضية ، فان الزمان محدود أيا كان ، وما له بداية لا بد أن تكون له نهاية مهما جهلناها ، ومن ميزات اللانهاية أنها لا تقبل الزيادة والنقصان كما اللابداية. ترى لو نقص من زمن الجنة سنة أو زيدت ، ألا تنقص اللانهاية لها ولا تزيد؟ فإن لا ، فلتكن زيادة سنة ونقيصته على سواء! وإن بلى ، فهذا ينافي اللانهاية اللامحدودية (١).

---

(١). راجع كتابنا (حوار) بحث الأبدية والأزلية ص ٤٣. وهنا أحاديث تدل على زوال كل شيء ، كما أخرجه في الدر المنثور ٦ : ١٧١ في دعاء الرسول (ص) «.. والكائن بعد ما لا يكون شيء ..».

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ﴾ : ظاهر على ما سواه بالقدرة والغلبة والعلم ، وظاهر بوجوده دون كنهه ، في كل ما سواه بالحكمة والصنعة وآثار العلم ، ظهور القدرة والعلم دونما استثناء ، وظهور الآية لمن أراده وابتغاه.

«فليس ظاهرا من أجل أنه على الأشياء بركوب فوقها وقعود عليها وتسنّم لذراها ، حتى ولا على عرشه وكرسيه ، ولكن لقهره ولغلبته الأشياء وقدرته عليها ... وإنه الظاهر (لا ظهورا بالذات ، وإنما بالآيات والدلالات) لمن أراده ... فأي ظاهر أظهر وأوضح من الله ، تبارك وتعالى؟ لأنك لا تعدم صفته حيثما توجهت ، وفيك من آثاره ما تغنيك» [1].

و «ما رأيت شيئا إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» [2]. «قبله» : بالأزلية الأولية والخالقية ، «بعده» بالأبدية الآخرية ، «معه» بالقيّومية ، «وفيه» بآثار الصنع الحكمة ، ومن رزق حديد البصر ودقيق النظر ، فلا يبصر حياته إلا ربه ، وهذا هو توحيد البصر.

«عميت عين لا تراك .. متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدلّ عليك ... يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته ..».

«والباطن» : خفي في الذات رغم أنه ظاهر بالآيات «وكل ظاهر غيره غير باطن ، وكل باطن غيره غير ظاهر». وكما لم يكن ظاهرا على شيء ، كذلك ليس باطنا في شيء ، حتى يستبطن فيرى في شيء ، «الظاهر لا برؤية ، والباطن لا بلطافة» : ذرية الجسم ودقته! فهو الظاهر غلبا على من سواه ، وغلبه باطن لا يراه من سواه ، وهو الظاهر بالآيات لمن أراده ، وباطن بالذات ولو عمن أراده ، وهو باطن الذات والصفات والإرادات ، إذ لا ترى بعين البصر ، وهو ظاهر فيها إذ يرى بعين البصيرة ، دون حيطة ولا إدراك ، فباطن ـ أيضا ـ ببصيرة الحيطة والإدراك.

---

(١). الكافي عن علي بن محمد مرسلا عن الحسن الرضا (ع) قال : اعلم علمك الله الخير ، ان الله تبارك وتعالى قديم ـ الى قوله ـ : وأما الظاهر ...

(٢). عن الامام الصادق عليه السّلام.

ولا ظاهر من الله إلا آياته ودلالاته ، ثم هو باطن فيما سوى آياته ودلالاته ، وليس باطنا يحل في سواه ، أو لأنه دقيق لا يبصر فإنه «لا يحس ولا يجسّ ولا يمس ولا يدرك بالحواس الخمس».

يا من هو اختفى لفرط نوره　　الظاهر الباطن في ظهوره

وجوده من أظهر الأشياء　　وكنهه في غاية الخفاء

. فإنه ظاهر في التعريف ، باطن في التكييف.

فسبحان «الذي بطن من خفيات الأمور وظهر في العقول ، بما يرى في خلقه من علامات التدبير» «الظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه» [1] :

لا شيء فوقه في الظهور بمعنييه ، ولا باطن دونه بمعانيه ، فكل باطن لغموضه ورموزه ، لدقته وصغره ، لبعده زمانا أو مكانا ، أو لأي من أسباب البطون ، انه يرجى ظهوره لمن يهيء أسبابه ، إلا الله ، وكل ظاهر قد يخفى على العقول إلا الله ، إذ الكائنات كلها دلالات وآيات بينات دالات على الله ، فهو أظهر من كل شيء ، ولإحاطته على كل شيء ، وأبطن من كل شيء ، ولإحاطته من ورائه وإنه أقرب إلى كلّ شيء من نفسه ، «عميت عين لا تراك .. ألغيرك من الظهور ما ليس لك!

انه ليس من معاني بطونه تغيّبه عن الخلق أو تغيب الخلق عنه ، فإنه بكل شيء عليم وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير :

---

(١). بين الأقواس مقتطفات من الخطب التوحيدية لأمير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة ، وفي الدر المنثور ٦ : ١٧١ عنه (ص) «أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ، وفيه كان من دعائه (ص): يا كائن قبل أن يكون شيء والكون لكل شيء والكائن بعد ما لا يكون شيء أسألك بلحظة من لحظاتك الوافرات الراجيات المنجيات».

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ :

فالمسبح له مما في السماوات والأرض ، الملك المالك للسماوات والأرض ، القدير على كل شيء ، الأول والآخر مستغرقا كل شيء ، الظاهر لمريديه في كل شيء ، والظاهر بقدرته على كل شيء ، حقيق أن يكون ظاهرا بعلمه على كل شيء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وليس علما به بعد خلقه ، ولا انه أعلم به بعد خلقه ، فقد «أحاط بالأشياء علما قبل كونها ، فلم يزده بكونها علما ، علمه بها قبل أن يكون كعلمه بها بعد تكوينها» [(١)]. فلكل شيء وجود علمي قبل كونه واقعيا «والعلم ذاته ولا معلوم ، فلما أحدث الأشياء وقع العلم منه على المعلوم» [(٢)].

وكما الله باين عن خلقه في ذاته وصفاته ، كذلك باين في علمه وهو من صفات ذاته . ف «علم الله لا يوصف الله منه بأين ، ولا يوصف العلم من الله بكيف ، ولا يفرد العلم من الله ، ولا يباين الله منه ، وليس بين الله وبين علمه حدّ» [(٣)].

بل وليس هناك بين ، فذاته علم ، كما ان ذاته حياة وقدرة ، صفات ذاتية ثلاث ، تنشعب منها صفات الفعل.

فقد «علم الأشياء لإبادة لا يكون العلم إلا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره»[(٤)]. و «كل شيء» في العلم ، أوسع من «كل شيء» في القدرة ، فالشيء

---

(١). التوحيد للصدوق خطبته لعلي (ع) وفيها :

(٢) فيه باسناده إلى أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته.

(٣). توحيد الصدوق باسناده إلى عبد الأعلى عن العبد الصالح موسى بن جعفر (ع) :

(٤). فيه في خطبة لعلي (ع) .. ونوافيكم بتفاصيل عن علمه تعالى في طيات آياته ان شاء الله.

المقدور هو ما تتعلق به القدرة لصلوحه ، أو يمكن أن تتعلق به لإمكانه ، وأما المعلوم فيكفيه تعلق العلم فيشمل المحالات الذاتية ، وكما يشمل الممكنات ، ليس لأن العلم أوسع من القدرة ، وإنما لأن المقدور أضيق من المعلوم ، لا لنقصان في القدرة ، وإنما لقصور في المحال ، فإنه ليس شيئا في القدرة مهما كان شيئا في العلم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

.. آيات سبع تحمل «ستة أيام» لخلق السماوات والأرض ، ومن ثم آيات في «فصلت» تفصّل هذه الستة على خلقهما سبعا وسبعا ، فهي هي إذا أحرى بالبحث والتنقيب عن : كيف تنقسم الستة على السبع والسبع؟ دون سائر السبع التي تحمل «ستة أيام» دون تفاصيل كما هنا ، اللهم إلا أن نشير إلى حصيلة موجزة عما نفصلها في «فصلت» :

انها ستة أوقات وأدوار زمنية مضت على خلق السماوات والأرض ، وليست هي على سواء ، ولا نصيب منها لأدوار التكامل الأرضي والسماوي ، وإنما لخلق الزبد الأرضي : مادتها الأم ، والدخان السماوي كذلك ، ولتحويلهما إلى سبع وسبع ، ولخلق الأنجم في السماء الاولى ، أم ماذا؟!

فلا تناحر بين آيات الستة أيام ، وآيات فصلت : ثمانية أيام ، فأربعة منها لدور التكامل الأرضي ، والباقية : اثنان لخلق الأرض ﴿.. خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وآخران لقضاء السماء سبعا ـ وعلّه مع الأرض : ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي [1] يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. فاليومان الباقيان من الستة ـ إذا ـ لخلق وراء الخلقين ، علّ أحدهما لخلق الدخان السماوي ، أو والزبد الأرضي ، والثاني

لخلق المصابيح في السماء الدنيا ، ولأنه و ﴿أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ متأخر عن يومي تسبيع السماء و .. أم ما ذا؟! ﴿.. ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ : عرش العلم : ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ وعرش القيمومة على ذوات الخلق : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ وعرش الرقابة البصيرة على الأعمال : ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهذا المثلث نتيجة الاستواء على العرش انه : ﴿يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ : من مياه وبذور ومن سائر الأشياء أمواتا وأحياء ما لا يحصيها إلا الله ﴿وَما يَخْرُجُ مِنْها﴾ : من مياه وأشجار وأثمار ومن أحياء وأموات ، صادرات وواردات أرضية كلها في ظلال عرش العلم والتقدير والتدبير ، لا يفلت منها فالت ، ولا يغلط فيها غالط ، اللهم إلا من شذ عن أمر الله من الجنة والناس ، ولكنه لا يقدر على مناحرة إرادة الله ، اللهم إلا فيما له الخيار من أمور تشريعية ، ولكنها أيضا لا تحصل أخيرا إلا بإذن الله تكوينا مهما لم يأذن تشريعا.

﴿وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ﴾ : من سماء الوحي من وحي وتقدير ، ومن سائر السماء من أنوار وأمطار ، ومن شهب ونيازك نارية ومن طوارق نورية ﴿وَما يَعْرُجُ فِيها﴾ من الملائكة الموكلين بأعمال العباد ، الشهود لهم وعليهم ، ومن أعمال وأقوال وأحوال ، ومن نور ونار وبخار أم ماذا! ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ : أينما كنتم من أدوار الوجود ، من ذرات وجزئيات وعناصر ، ومن تراب وأثمار وإلى نطفة إلى الخلق الآخر الإنسان ، ومدى الحياة وبعد الموت وإلى النشأة الاخرى «هو معكم» هنا وهناك ، معية هي لزام ذواتكم ، وترى ما هي هذه المعية أينما كنتم : كل مكان وزمان؟ أو ما هي المعيات المعنيات بين مختلف المعيات؟

هل انها معيّة التأييد والتوفيق؟ ﴿وَقالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ

وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ..﴾ (٥ : ١٢) وهذه معية مشروطة لا تعمّ الجميع! .. أو معية النصرة في الحرب : ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ﴾ (٤٧ : ٣٥) وليس الكل محاربين ، ولا مؤمنين أقوياء صامدين في الحرب حتى يستحقوا النصر!. أو معية الحفظ عن العدو الضاري وهو على الدرب : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا﴾ (٩ : ٤) ولا يستحقها المؤمنون كلهم فكيف بسواهم! كلا.

وإنما معيّات عامة تشمل ـ على أقل تقدير ـ المخاطبين من الجنة والناس أجمعين ، من معية علمية فهو أعلم بهم من أنفسهم : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (٤ : ١٠٨) ومعية القدرة القيومية و ﴿ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها﴾ (١١ : ٥٦) والمعية الخالقية ، إذ الخلق لا يستغني عن الخالق بعد خلقه ، فهو كما كان وأحوج مما كان ، استبقاء لما أوتي : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ، ومعية الشهادة على الأعمال أم ماذا : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٤١ : ٥٣).

ومعية الحفاظ على العباد : ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ (١٣ : ١١) وما إليها من معيات إلهيات كما تليق بذاته وصفاته المقدسة ، دون معية زمانية أو مكانية ، بمداناة أو حلول أم ماذا! فقد «كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان ، لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان» [1] ، فمعنى كونه في كل مكان مع كل إنس وجان ، هو معية العلم والقدرة والخالقية والحفاظ على الخليقة.

---

(١) اصول الكافي بإسناده عن الامام الكاظم موسى بن جعفر (ع) قال : إن الله تبارك وتعالى كان ... ولا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه ، احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور ، «لا إله إلا هو الكبير المتعال».

ومن ثم معها معيات خاصة للخصوص من عباد الله الذين يعيشون مع الله : معية الوحي والإلهام ، والتوفيق المستدام ، والنصرة على الأعداء والحفاظ الخاص ، ومعية القرب والزلفى قدر ما يكون العبد مع الله! وإنها لحقيقة مذهلة ومؤنسة ، حقيقة أن تؤخذ بعين العبرة والادكار ، مذهلة بروعة الجلال تمنع شاعريها عن التورّط في الضلال ، ومؤنسة برحمة الظلال ، رضوانا وقربى الى حضرة ذي الجلال ، فيا لها من إسعاف عن كل فتك وإسفاف ، وإيناس عن كل وحدة سفساف! فإيمان بالله ، وعلى المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : «من أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان» [1].

ومن فروع هذه المعية الشاملة : ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، ومن ثم المعية الملكية المالكية : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

وبطبيعة الحال ترجع امور الملك والرعية الى الملك ، فالأمور كل الأمور راجعة الى الله في الاولى والاخرى ، من امور التكوين وتدبيره ، وأمور التشريع وتقديره ، الأمور : الأفعال والأشياء ـ ومنها الأشخاص ـ والأوامر [2] ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (١١ : ١٢٣) ، ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٨ : ٧٠) ترجع اليه كما منه بدأت : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ (٢ : ١٥٦).

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ :

﴿لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ﴾ (٢٣ : ٨٠) : اختلاف بينهما بالنور والظلام ، وكون أحدهما خلف الآخر بنسق ثابت ، واختلافهما زمنا حسب اختلاف الفصول وأجزائها ، فكما الله هو الخالق لهما ، ومرتبهما ، كذلك هو الذي

---

(١). الدر المنثور ٦ : ١٧١ ـ أخرجه ابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت عنه (ص).

(٢) فالأمور هنا جمع الأمر بمعانيه : الشيء ـ الفعل ـ الأمر مقابل النهي ، أو بوجه عام : الحكم.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ﴾ : نقصا من الليل فزيادة في النهار كما في الصيف ، ونقصا في النهار فزيادة في الليل كما في الشتاء ، كحقيقة الولوج ، وكذلك التقاءهما في وقتي الطلوع والغروب ، تداخل الليل في النهار غروبا ، كأنه والج فيه ، وتداخل النهار في الليل طلوعا كأنه يلجه ، حركة دائبة منظمة لطيفة ، تدل بلطف على محرّك منظّم لا تأخذه سنة ولا نوم.

﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ : صاحب الصدور ، علّه القلب الذي يصاحب الصدور وهو فيه ﴿وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أو وسائر ما يصاحب الصدور من العقول والألباب ، أو أنه الروح صاحب الصدر ، بكافة جنودها الروحية المدركة ، فالله عليم بهذه الذات فضلا عن الصدور ، فان حصائلها بمصادرها تصدر من سائر جنود الروح.

﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ :

آية فريدة في كرامة الاستخلاف في الإنفاق ، تكوينا أن هيأ لنا ربنا وسائل الإنفاق بما هبانا ، وتشريعا أن أمرنا بالإنفاق كما أنفق علينا ، تخلّقا بأخلاق الله ، ولنكون مثلا لله مهما لن نكون مثله!.

فالأموال التي نملكها ليست لنا إلا خلافة مسموحة من ربنا ، تتداول بيننا في معاملات ووراثات فإنفاقات فلسنا إذا فيها إلا كأدات :

ويكفيك قول الناس فيما ملكته — لقد كان هذا مرة لفلان

إنها أمانات فسح لنا مجالات بتصرفات فيها ضمن حدود الشرع ، ننفقها على مستحقيها الآخرين كما ننفقها على أنفسنا ، فلا ننسى أولا وأخيرا أنها لله وأننا فيها مستخلفون ، فلا نتخلف عن حدود الخلافة في الأمانة.

ويا لها من رحمة وكرامة ربانية أن يعدنا أجرا كبيرا لو أنفقنا مما استخلفنا فيه على عياله! والخلق عيال الله ، فأحب الخلق عند الله أحبهم لعيال الله.

وليس الإنفاق دون شريطة الإيمان مأمورا به ولا مرغوبا فيه ، بل هو مرغوب عنه ، كمن يمن أو يؤذي أو يرائي الناس : ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ (٢ : ٢٦٤).

وإنما الإنفاق المندفع عن الإيمان ، فلا لون له إلا ابتغاء رضوان الله ، دون ألوان الغايات والتجارات وسائر المكاسب غير الإلهية ، فالإنفاق المنطلق عن الإيمان رحمة شاملة تشمل ذوي الاستحقاق كلهم ، قرباء وغرباء ، ضعفاء وأقوياء ، من يرجى خيره ومن لا يرجى ، كل ذلك على حد سواء : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (٢ : ٢٦٢) كما وأن لغة الإنفاق توحي بذلك فإنه الإفناء ، ومن يبتغي أجره في الدنيا من أهلها ، ماديا أو معنويا ، انه ليس بمنفق ، إنما هو تاجر ، فقد يكون فاجرا في تجارته كمن ينفق في سبيل الطاغوت ، أو يمن ويؤذي المحتاج ، أو يرائي الناس ، أم ماذا ، وقد يكون صالحا كسائر التجار ، وإنما الأجر الكبير للمنفق في سبيل الله لا سواه.

وترى من هم المخاطبون ب «آمنوا»؟ أهم المؤمنون؟ فكيف يؤمرون بتحصيل الحاصل! أم الكافرون بالله وبالرسالات؟ فمن أين يعرفون أن هذا أمر من الله؟ وهم ناكرون له غير مصدقين بوحيه! ثم ومن لا يؤمن بدليل العقل فكيف يؤمن بمجرد النقل؟!.

نقول أولا هم المؤمنون ، وقد أمروا هنا كما في غيرها بمزيد الإيمان : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ (٤ : ١٣٦) والإنفاق في سبيل الله بحاجة إلى إيمان عريق ، دون الإيمان الذي يصانع الشرك أحيانا : ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ

﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (١٢ : ١٠٦) فللإيمان عقيديا وعمليا مراقي ودرجات لا بد أن يتدرج إليها بمساعي ومحاولات دائبة.

ثم وماذا عليه لو خص بالكافرين أو شملهم ، إذ يأمرهم بالإيمان بعد استعراض دلائل الإيمان وملزماته ، فلهم أن يعرفوا وحي القرآن ببيناته ، ومنه أمرهم بالإيمان ، فطالما البينات تقنعهم للإيمان ، فهنا يأمرهم بحقيقة الإيمان ، إذ لا يكفي الإيمان البدائي لمثل الإنفاق في سبيل الله ، إذا فالخطاب يشمل الناس أجمعين مؤمنين وكافرين! ومن ثم يندد بالكافرين منهم:

﴿وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ :

فالتنديد هنا بسلب الإيمان وليس بنقصانه ، ف «ما لكم» ما داؤكم؟ وما دواؤكم؟ فلو ﴿لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾؟ ودوافع الإيمان تحيط بكم؟ من دعوة رسولية تملك من كافة البينات المخرجات من الظلمات الى النور ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ ومن استجابة الفطرة للميثاق المأخوذ عليها من الله ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الله ﴿مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ : بالدعوتين : برسول الفطرة التي فطر الناس عليها ، وبرسول الله الذي يدعوكم بإقامة وجوهكم إليها : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها ... ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٠ : ٣٠) ثم وقليل هؤلاء الذين يعلمون فيؤمنون ، ثم قليل المؤمنون العالمون الذين يعملون.

فمن يحترم عقله ، ويؤمن بفطرته الإنسانية ، عليه أن يصغى لمن يوقظ فطرته ، ويذكره مهمته في دوره الانساني السامي ، فليستجب دعوة الرسول الداعي الى دعوة الفطرة ، و ﴿ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾!.

إنه ليست دعوات الرسل بالتي تجانب وتنافر دعوة الفطرة ، وإنما تجانسها

وتنورها أكثر وأكثر ، وتتبناها كدعامة اولى محكمة لبناية الإيمان المفصل ، وهنا ملتقى وحي الله ووحي الفطرة ، وكلاهما من وحي الله للذات وخارج الذات.

وقد يشمل التنديد المؤمنين الناقصين لماذا لا يؤمنون كما يجب ، إيمان له مخلفاته في العمل ومنه الإنفاق في سبيل الله ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الرسول ﴿مِيثاقَكُمْ﴾ من ذي قبل ، لتؤمنوا حقه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بميثاقكم الذي واثقتموه [١].

هذا ، وشموله للكافرين هو الذي يبرر التنديد بسلب الإيمان ، وليشمل المؤمنين والكافرين جميعا ، وأما اختصاصه بالمؤمنين فلا مبرر له ، أن ينفي الإيمان عن المؤمن لعدم استكماله : ﴿وَما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ وترى كيف يدعوكم؟ :

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ :

ومن ميثاق الرسول آياته البينات التي توثق المبصرين بالايمان ، إضافة الى ميثاق الفطرة وسائر الميثاق.

ان الإنسان أيا كان يعيش ظلمات الأوهام أحوالا وأوحالا ما دام متحللا عن وحي الفطرة ووحي الشريعة ، وقليل هؤلاء الذين يقيمون وجوههم لدين الفطرة ، ولا يقيمهم تماما إلا الوحي المفصل المفسر لوحي الفطرة ، فالمتحلل عنهما يعيش ظلمات بعضها فوق بعض ، والمتحلل عن وحي الشريعة كذلك يعيش

---

(١). عله الميثاق العام لما آمنوا بألسنتهم ، انهم سوف يؤمنون بقلوبهم وأعمالهم ، فشهادة اللسان ميثاق على شهادة القلوب والأعمال ، أو ميثاق أو مواثيق خاصة بينه وبين هؤلاء ، أو ميثاق الآيات البينات ، إذا فآخذ الميثاق هو الله هناك وهو رسول الله (ص) هنا وهو أيضا من ميثاق الله.

ظلمات مهما كانت أخف ، فالرسول يتلو عليهم آيات الله البينات ، ليخرجهم الله بها من الظلمات إلى النور ، قضية الرأفة والرحمة.

وما أسماه تعريفا بالرسول : «عبده» إذ تحلل عن عبودية وعبادة ما سوى الله ، واختصه نفسه بالله ، فاختص لذلك أكرم كرامات الله : أن يحمل أشرف وأسمى رسالات الله.

ان هناك ظلمات تظلم على الفطرة الانسانية فتظلمها ، فإذا أخرج الإنسان عنها بمذكرات الآيات البينات فهو إذا في النور الذاتي ، وليس وراء ذاته إلا ما يزيد فطرته جلاء واعتلاء ، فالفطرة غير المحجوبة هي النور ، وهي المرقى إلى ساير النور ﴿نُورٌ [1] عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾.

لذلك ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ لا (فيدخلهم النور) فإنه من دواخل ذاته فهو داخل فيه محجوبا أو غير محجوب ، فإذا ارتفعت الحجب الظلمات فهو إذا في النور ، دونما حاجة إلى طي مسافة بينه وبين النور ، فإنما يبتدئ بفطرة الله التي فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، وينتهي الى الله النور ، منتهى لا نهاية له ، فلا بدّ للسالك الى هذا النور أن يستمر في السير ، ناسيا نفسه وذاكرا ربه.

﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

هنا الخطاب الأول العتاب خاص بضعفاء الايمان ، الذين يتثاقلون عن الإنفاق في سبيل الله ، قاتل أم لم يقاتل ، أنفق في غير سبيل الله أو لم ينفق وإن كانوا درجات.

﴿وَما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ ولستم إلا مستخلفين فيما رزقتم ، ثم ولا يبقى لكم

باقية : ﴿وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلا ان الأموال لكم ، ولا انها باقية أو أنتم باقون ، فإذا الخلائق فنوا وانقرضوا ، خلوّا ما كانوا يسكنونه أو من يساكنونه ، وزالت أيديهم عما كانوا يملكونه ، وهناك الله وارث ما تركوه ، وإن كان مالكا من قبل مالكوه ، فهو الباقي بعد فنائهم ، والدائم بعد انقضاءهم.

فلا بدّ للمال أن ينفصل عن صاحبه ، بالموت فالوبال ، أو بالإنفاق وسائر الواجب أو الحلال ، فهل من عاقل يترك ما له وبالا دون تسميد لمستقبل الحال بإنفاقه أو قرضه في سبيل الله؟! ويا لها من حجج بالغة دامغة ، ناصعة ناصحة ، فما الذي يبقى عندها من دوافع الشح وهو الق البخل لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد! ثم ينتقل الخطاب إلى المنفقين المقاتلين في سبيل الله في ساعتي العسر واليسر ، ترى انهما سواء. كلا :

﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ ..﴾ من ﴿الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ ..﴾ (٩ : ١١٧) وفترة الشدة قبل الفتح ، وأهمه فتح مكة ، وبعده فتح الحديبية ، الذين أنفقوا وقاتلوا في حالة الأسر والعسر ، أيام كان الإسلام غريبا والخطر قريبا ، والمسلمون محاصرون مطاردون ، قليلون في العدة ، قليلون في العدة ، فالإنفاق والقتال كانا في عضال ، فلا تشوبهما شائبة ، مهما كان الإنفاق قليلا لقلة الأموال .. ف ﴿أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا﴾ إذ أنفقوا وقاتلوا في رخاء ورجاء ، ولم يكن لمن قبل الفتح رجاء ولا رخاء ، أنفقوا والعقيدة آمنة ، والغلبة كائنة أو كامنة ، فليكن من قبلهم أعظم درجة منهم ، مهما كانت النية صافية وعلى سواء ، فإن الموانع والدوافع تختلف هنا وهناك ، وأفضل الأعمال أحمزها ، فالظروف الصعبة الملتوية قبل الفتح تحكم ان المنفقين المقاتلين في سبيل الله فيه أفضل ممن أنفق وقاتل بعد الفتح مهما كان الإنفاق من قبل قليلا ، فليس الكم هو الذي

يرجح الميزان ، وإنما هو الظرف والباعث وما يمثله من حقيقة الايمان [1].

«و» إن كان ﴿كُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنى﴾ ولكنما الجزاء الحسنى درجات كما الأعمال والنيات الحسنى في اليسر والعسر درجات ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ومن ثم كما ان المناصرين في ساعة العسر مع النبي (ص) أفضل درجة ممن ناصره ساعة اليسر ، فالذين ينصرون الإسلام بعد دوري الرسالة والامامة ، وظروفهم كمن قبل الفتح أو أعسر ، فهم أفضل درجة من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، إذ هم كانوا في ظلال الرسول (ص) حاضرا بآياته البينات ، والآخرون غيّب عن زمن الرسول (ص) وإنما صمدوا في الايمان لما رأوه وسمعوه من قرآنه المبين وتبيانه المتين ، فأحاديث التفضيل بين من قبل الفتح ومن بعده لا تشملهم [2] بل وتفضلهم كآياته على من قبل الفتح. فحسناهم أفضل من حسناهم صورة طبق الأصل ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ فليجز كذلك حسب شاكلته ﴿وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾.

(١ ، ٢) الدر المنثور ٦ : ١٧٢ ـ أخرج سعيد بن منصور عن زيد بن اسلم قال : قال رسول الله (ص) يأتيكم قوم من هاهنا ـ وأشار بيده إلى اليمن ـ تحقرون أعمالكم عند أعمالهم ، قالوا : فنحن خير أم هم؟ قال : بل أنتم ، فلو ان أحدهم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدكم ولا نصيفه ، فصلت هذه الآية بيننا وبين الناس : ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقاتَلُوا﴾ وأخرج مثله ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عنه (ص) وأخرج احمد عن انس في حديث عنه (ص) دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل احد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم ، وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو ان أحدكم أنفق مثل احد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه.

أقول : وكل هذه مقارنة بين من كانوا زمن النبي قبل الفتح وبعده ، وأما الذين أتوا ويأتون بعده فلا ، فلا فضل إذا إلا للأفضل أعمالا ، حسب الظروف والنيات ومدى الصعوبات.

فلينفق المؤمن مما هو مستخلف فيه ، وسوف يتركه لمستخلفه ، ولو غفل عن هذا وذاك ، وحسب انه هو المالك أو الباقي ملكه ـ وهو من أضعف الايمان ، أو هو الكفر ـ فلو غفل هكذا أو تغافل ـ إذا فليقرض الله من ماله! قرضا يربيه الله فيه ، هنا وبعد ما يحييه :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ :

ومن ذا الذي يبقى بعد هذا الخطاب الحنون العتاب متصلبا على منع الإنفاق والإقراض؟! .. هنا! إذ يجعل الله عبده مالكا لما استخلفه فيه ، ويجعل نفسه مستقرضا بمضاعف الأداء وأجر كريم ، هنا ينفتك القلب ، وحقيق لمن له أدنى شعور أن يموت خجلا ، أو يصعق ويتصدع وجلا ، كيف ان الله الغني الحميد يستقرض عباده الفقراء المهازيل (يستقرضهم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد ، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملا) [(١)] ، ومجرد الشعور ان المستقرض غني أمين ، مضاعف في الرد ، كريم ، إنه يطيّر أصحاب الأموال إليه طيرانا.

فيا له ربا حنونا في هدايته كيف يداري عباده المجاهيل في هداه ، فلا يبقي سبيلا إلا ويرشدهم ، ولا يذر دليلا إلا ويدلهم ، وهنا يعطف بهم الى مثلث التدليل من زواياه الثلاث ، يجعل نفسه في الثالثة كأنه المستقرض : ﴿يُقْرِضُ اللهَ﴾ وليس إلا لعباده ، مما يدفع جماعة من اليهود الى القولة الهراء الاستهزاء : ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ﴾ (٣ : ١٨١) وهذه نهاية العناية الإلهية في الهداية ، وكما ترمز بأن أوامره ونواهيه كلها لصالح العباد ، فسبيل الله هي سبيل صالح الحياة

---

(١) نهج البلاغة عن علي (ع) «واتقوا أموالكم وخذوا من أجسادكم تجودوا بها على أنفسكم ولا تبخلوا بها عنها» فقد قال الله سبحانه : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ..﴾ واستقرضكم وله.

على ضوء الهداية الإلهية ، فإنه أعلم بصالحنا منا ، فإقراض الله ، والإنفاق في سبيل الله ، والتصدق لله ، هذه كلها تنحو منحى سبيل الإنسان وصالحه ، فالله هو الغني ونحن الفقراء ، فما أكفر عبدا وأجهله أن يتغامض عن هذه العظات ، ولا يتذكر بتلكم الموعظات ، فيعيش حياته ويلات وويلات!.

وكما الإنفاق هو الافناء ، ان يؤتي ما أوتي من ماله او ماله لله دون ابتغاء جزاء او شكور ممن سوى الله ، كذلك الإقراض هو الاقطاع : ان تقص وتقطع مما لك قرضا حسنا ، إن واجبا او ندبا ، قرضا ترجع فيه او لا ترجع ، حسنا متحللا عن كل سوء.

ومن أركان الحسن في القرض أن يكون بنية حسنة : لوجه الله : ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ وبطيبة نفس ، وأن يكون مما تحبون : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ومن الحلال . ف (لا يقبل الله صدقة من غلول) ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ وبعيدا عن الرئاء والمن والأذى : ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾ وألا يعتز في نفسه مذللا للمستقرض ، فإن الله هو المستقرض مهما كان لعباده المحاويج : ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ وألا يماطل في ادائه ما يجد سبيلا الى أداء عاجل وان يؤجل الى ميسرة ان كان قرضا يرجع ، دون مراجعة ولا مخاجلة او مخالجة ، وان يتحرى الأحوج اشخاصا وجهات إلهية ، وان يخفيها تحرجا عن الرئاء ، او يبديها تحريضا لمن سواه شرط الإخلاص : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (٢ : ٢٧١) فتلك عشرة كاملة في اصول القرض الحسن.

وكما ان الإقراض من مضاعفات الرحمة وكرم السجية ، كذلك الله يعد المقرض مضاعف الرد وكريم الأجر ، ولأن الأجر موعده الحياة الاخرى ، فليكن المضاعف ، او من المضاعف ، في الحياة الدنيا ، ان يربي الله ماله ضعفا او أضعافا : ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾ (٢ : ٢٧٦) يربيه ماديا ، ويربيه

معنويا ان تتزكى نفس تعوّدا على العطاء ، وألا يتهدّده الفقراء والمديونون بمسّ في ماله او نفسه او عرضه ، فيعيش سليم الحال ، سليم المال ، وسليم المآل ، ﴿إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (١٣) يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ

الحَقّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)
إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨)
وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (١٩) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ
وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ
مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ
مَتاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ
لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢١)

وترى متى يضاعفه الله له وله أجر كريم ، كأحرى الأوقات الوفيات؟ ..

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ أيها الناظر البصير ، وبالأحرى أيها الرسول البشير النذير! ﴿تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ فما هذا النور الخاص بالجهتين ، الذي لا يتخطى صاحبه إلى سواه فيضطر المظلم أن يلتمسه في مناه : ﴿انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾؟.

انه ليس نورا يبصر ومن خارج ذواتهم «نورهم» لا (نور) أو (نور سواهم) وإنما نور البصيرة الذي أخرجهم الله اليه ، من ظلمات الهوى إلى نور المعرفة والهدى ، نور أشرق في تلكم الأرواح المستجيبة لدعوة الله ، نور يحصل بالسعي دون فوضى ، ومن ثم هو يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم الاخرى جزاء وفاقا ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ نور يخرج صاحبه من الخزي هناك كما أخرجه من سائر الظلمات هنا ، ثم يتممه الله هناك كما يشاء ويرضى : ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ (٦٦ : ٨) [1]. نور يلتمس سعيا في الحياة الدنيا ، ومع اختصاصها بأصحابها قد يشفعون من يليق بها أن ينظروا إليهم في الاخرى : ﴿.. انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾.

إن سائر الأنوار لا تختص بأصحابها ، فقد تغتصب أو يستفاد منها دون علم أو رضى أصحابها ، يستنير منها الصديق والعدو ، والمؤمن والكافر ، وأما ذلك النور فمثله كنور البصر ، لا يبصر إلا لصاحبه قدر سعيه ، صادرا منه وواردا اليه ، اللهم إلا شفاعة مرضية ، فهو برهان ربّاني : ﴿قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ﴾

---

(١). راجع سورة التحريم ج ٢٨ . الفرقان.

مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (٤ : ١٧٤) وهو إيمان ناتج عن ذلك البرهان : ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (٣٩ : ٢٢) وهو العمل الصالح الناتج عن الإيمان. ومن ثم هو نور الفرقان الناتج عن خالص الإيمان : ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ (٨ : ٢٩) : مربع النور : ﴿نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ﴾!.

ترى ولماذا ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ دون سائر الجهات الأربع أو الست؟ ... لأن هذا النور غير سائر النور ، نور البصيرة وليس البصر ، وإن كان يهدي ـ فيما يهدي ـ البصر. ولأن طريق الجنة يمنة ووجاه ، وطريق النار يسرة ووراء ، وكما عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (بينا أنا على حوضي انادي هلم ، إذ أناس أخذتهم ذات الشمال فاختلجوا دوني ، فأنادي ألا هلم فيقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول سحقا) [١]. فلا نور لأصحاب الشمال لا وجاها ولا يمنة ، وإنما تأخذهم النار من ورائهم وذات الشمال.

وقد تختص ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بالسابقين المقرّبين ، الذين هم وجه بلا قفا ولا أية جهة اخرى إلا وجه الله ، ومن ثم يتوجهون اليه ، ويتجهون إلى رحمته ورضوانه ، و ﴿بِأَيْمانِهِمْ﴾ لأصحاب اليمين الذين هم وجه من وجه ، وإذا اتجهوا عن الأمام فإلى اليمين ، فانه الدين ، وإن كان أدنى من المقربين.

أو ان قسم الإيمان والعمل الصالح والفرقان تكون بالأيمان ، فان المؤمن يؤتى كتابه بيمينه ، وقسم الهداية تكون بين الأيدي ومنه الهداة إلى الله ، وقد توحي له ﴿بَيْنَ [٢] أَيْدِيهِمْ﴾ نفسها فانه النور المفصول عن ذواتهم بين الأيدي ، وهم الهداة خارج الذوات ، و ﴿بِأَيْمانِهِمْ﴾ لا عن أو من أيمانهم ، فانه النور الذاتي اللامع بالأيمان ، فهو الإيمان والعمل الصالح والفرقان الناتج عنهما [٢].

وأما الشمال ووراء الظهر فلأصحاب الشمال إذ يؤتون كتابهم فيهما ، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار ، جهنم يصلونها وبئس القرار.

---

(١). تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسي ج ٩ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٢) الخصال للصدوق بإسناده الى أبي خالد الكابلي قال قال أبو جعفر (ع) في قوله : .

أو انه نور واحد قد توحي به وحدة النور : ﴿نُورُهُمْ يَسْعى﴾ فالنور المربع من الأيمان يعده للحساب الحاضر ، وهو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل وكلاهما واحد وإن كانت وحدة النور أعمّ من الوحدة العددية والنوعية. إذا فالوحدة والكثرة كلتاهما معنيتان ، لأن الكثرة هنا هي الوحدة والوحدة هي الكثرة وكلها نور ، من مثلثه الذاتي وواحده الخارجي : الهداة الى الله ، كتابا وأنبياء وأولياء.

وكما أن مساعي النور درجات ، فالحاصل عنها أيضا درجات حسب المساعي والمقامات ، ف (الناس منازلهم بأعمالهم) [1] ، منهم من يستضيء بنوره أصحاب الجنة أجمعون ، ومنهم دون ذلك إلى من لا يضيء نوره إلا له دون سواه.

ثم هذا النور الساعي من الجهتين الأصيلتين تضيء لأصحابها من سائر الجهات ، يعرفهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم (انهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وبنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) [2] طالما السعي الشمائلي هامشي على ضوء الأولين ، كما الخلفي والفوقي والتحتي.

ومن ثم يصاحب نورهم بين الأيدي والأيمان بشرى جنة الخلود والفوز

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٢ ـ أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية قال ذكر لنا ان نبي الله (ص) قال : ان من المؤمنين يوم القيامة من يضيء له نوره كما بين المدينة الى عدن او الى صنعاء فدون ذلك ، حتى ان من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه ، والناس منازلهم بأعمالهم.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٧٢ ـ أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن عبد الرحمن بن جبير انه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله (ص) : أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأول من يؤذن له ان يرفع رأسه فأرفع رأسي فأنظر بين يدي وعن خلفي وعن يميني وعن شمالي فاعرف امتي بين الأمم. فقيل يا رسول الله! وكيف تعرفهم؟ بين الأمم ما بين نوح الى أمتك؟ قال : غر محجلون من اثر الوضوء ولا يكون لأحد غيرهم ، وأعرفهم انهم يؤتون كتبهم بايمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم الذي يسعى بين أيديهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

العظيم على ضوء النور الذي التمسوه يوم الدنيا ، وتممه الله في الاخرى : ﴿بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

فهذا دور المؤمنين ، فما هو إذا دور المنافقين؟ إنه النكسة وظلمة الركسة :

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾:

هناك المؤمنون والمؤمنات في منظر طريف ظريف ، وهنا المنافقون والمنافقات في منظر هائل عنيف ، في حيرة الضلالة ومهانة الإهمال ، متعلقين بأذيال المؤمنين والمؤمنات قائلين : ﴿انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ وأنّى لهم الاقتباس ، ولات حين مناص ، من الظلمات التي عاشوها حياتهم!.

وترى ما هذه النظرة التي يلتمس منها قبسات النور؟ إنها ليست نظرة البصر فإنها غير مفيدة ، وهي حاصلة في حوارهم ، وإنما هي نظرة البصيرة المتأملة الشفيعة الى الله أن يقبسهم من نورهم ، لذلك لم تعدّ ب (إلى) المؤدية معنى نظر البصر : (انظرونا) : تأملونا لهذه البغية ، وليس مجرد التأمل (في) : ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٧ : ١٨٥) أو التأمل (كيف) : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٣٠ : ٩).

(ولا نظر الانتظار : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ، إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ﴾ (٧٥ : ٢٣) اللهم إلا انتظارهم ليلحقوهم الى الجنة على نورهم كما هم مسرعون ، وأنّى لهم وهم مظلمون مبطئون!.

أو انتظار الشفاعة لمن ينظرونهم أمل الشفاعة ، ولكنه أيضا النظر (إلى) وهنا النظر (انظرونا) فهو نظر يفيد الاقتباس من ذلك النور.

وقد التمسوا محالا فأجيبوا بمحال مضاعف : ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً﴾ فليس هذا النور بالذي يلتمس هنا ، ولا بالذي يقتبس من أهل النور هنا ، وإنما يلتمس (وراءكم) يوم الدنيا التي خلفتموها وراءكم ظهريا ، ومن ثم يقتبس منه هنا ، أو كان أصله من هناك ثم يتمم هنا بشفاعة أو التماس ، ثم

يكون تمام الاقتباس : ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ (٦٦ : ٨) ، وأما الذين لم يلتمسوا من ورائهم نورا هناك ، فلا نور لهم هنا ، لا أصلا ولا تتميما ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢٤ : ٤٠) ولكن أهل الله ينظرون بنور الله دونما ضوء بصري منه يقتبس ، فأين المنافقون القائلون للمؤمنين : ﴿انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾؟ والمؤمنون ﴿رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ [(١)]؟

وهذا الجواب المهانة العتاب يحمل محالين : الرجوع الى الوراء : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ (٢٣ : ١٠٠) والتماس النور لو رجع: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ (٦ : ٢٨).

ولماذا ﴿قِيلَ ارْجِعُوا﴾ لا (قالوا)؟ علّه لأن القائل هنا ليس هم المؤمنين أنفسهم ، أو هم كلهم ، بل هم خزنة النار بإذن العزيز الجبار ، أو انه قيل من الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي كان يذكرهم ذكراهم هذه ليل نهار ، فلم يستفيقوا من نومتهم ، فاستحقوا هكذا استهتار ، بأمر تعجيزي يستهزأ بهم كما كانوا يستهزؤن بالمؤمنين ، أو انه مكر من خير الماكرين أن يرجعوا الى وراء لهم اليه الرجعة ، وراء في المحشر نفسه ، فيفاجئون بسور له باب ، كل محتمل ومتحمّل ، والجمع أجمل.

لقد كان المؤمنون والمنافقون يتراءون ويتسامعون في حوار حاسم ، فضرب بينهم بحجاب الجواب العتاب ، ثم حجاب سور له باب بعد ذلك الجواب :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٣ ـ اخرج الطبراني وابن مردويه قال قال رسول الله (ص) : ان الله يدعو الناس يوم القيامة بأمهاتهم سترا منه على العباد ، وأما عند الصراط فان الله يعطي كل مؤمن نورا وكل منافق نورا فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون ربنا أتمم لنا نورنا ، فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا».

أقول : نور المنافقين هنا ضوئي عرضي امتهانا ومكرا حسنا ، ونور المؤمنين ذاتي كسبي إكراما لهم وتكريما.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾ :

ترى ما هذا الحجاب ، وما هذا الباب ، وما هو باطن الرحمة وظاهر العذاب؟؟

هل انه حجاب الأعراف؟ : ﴿وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ ...﴾ (٧ : ٤٦) قد يكون ، وليكن حجابا دائبا لا يستطيع أصحاب النار اختراقه يمنة أو يسرة أو من عل ، فليكن سورا دائريا أو مثله ، لا طوليا له جانبان منتهيان ، فإنهما له بابان ، فلا حاجة فيه الى باب ، ولكنه ﴿بِسُورٍ لَهُ بابٌ﴾ فالسور توحي بحجاب يحيط من الجوانب كلها ، فانها الحائط المشتمل ، والباب - أيا كان - توحي أن لا سبيل الى داخل السور إلا منه ، إذا فهي حائط محيط بأهل الجنة ومحاط بأهل النار ، والباب هذه بابها الى الجنة ، فهي باب الرحمة ، وباطن السور فيه الرحمة : واقعها إذ يعيش أهلها النور ، وبشارتها ، إذ هم يخرجون من بابها الى الجنة ، وظاهر السور ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ قبل نفس السور ﴿الْعَذابُ﴾ واقعه إذ يعيش أهله الظلمات ، ومستقبلة إذ يستقبلون فيه النار.

فلن يدخل السور ، ولن يقرب الى باب السور ، إلا أهل النور ، وأما المظلمون فهم خارج السور ، وناءون عن باب السور ، فالمؤمنون هم في مربع النور : معهم ، وفي السور ، ومن باب السور ، والى الجنة النور ، والمنافقون ومعهم الكافرون هم محرومون عن النور بما حرموا أنفسهم.

وهذا من الفصل يوم الفصل بين المؤمنين وسواهم ، ثم هناك فصائل اخرى تفصل بينهم تلو بعض ، أو مع بعض حتى يتم الفصل ، حين استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ثم لا ترائي ولا حوار.

وبما أن كل ما في الآخرة هو مثال لما في الدنيا ثوابا أو عقابا ، جزاء وفاقا ، فهذا السور المضروب بينهم في المحشر مثال عما ضرب بينهم يوم الدنيا ، سور الحياة الدنيا ، الذي حاول المؤمنون أن يبطنوه وينظروه عميقا وبعيدا فبصرهم :

(من أبصر بها بصرته) وغيرهم نظروا الى ظاهر منه و (أبصروا إليها فأعمتهم) :

﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾ (٣٠ : ٧) والدنيا هي الدنيا والسور هو السور ، وإنما اختلفوا وافترقوا في مفترق النظر بحديد البصر ، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

ف ﴿باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ كما في باطن الحياة الدنيا الناحي منحى الرحمات لمن أبصر بها ، ﴿وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ﴾ كظاهر الحياة الدنيا لمن أبصر إليها ، فالحياة الدنيا في باطنها الرحمة ، وظاهرها من قبلها العذاب ، لا أنها العذاب أو فيها العذاب ، وإنما من قبلها وبسببها لمن يعلم ظاهرا منها ويجهل باطنها.

ومن لطيف التعبير (فضرب) ماضيا ، لا (فيضرب) مضارعا ، رغم استقبال الضرب ، مما يوحي أن هذا السور المضروب يوم الاخرى كان مضروبا من قبل يوم الاولى ، فليس سور الاخرى إلا استمرار الاولى في صورة اخرى! ثم هذا السور حاجب الرؤية وليس حاجب الصورت حيث الحوار والتنادي :

﴿يُنادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في سور الدنيا ، ونعيش مع بعض ، ويساكن بعضنا البعض ، عشنا في صعيد واحد ، وحشرنا معكم في صعيد واحد ، فلما ذا هذا الفراق بين الرفاق؟ وقد كنا مسلمين!.

قالوا ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ :

﴿قالُوا بَلى﴾ : كنتم معنا معية الزمان والمكان وفي ظاهر الإيمان ، وليست تفيد هذه المعية المادية الجوفاء ، إذا اختلفنا في معية حقيقة الإيمان ، فمقاييس الاخرى تختلف عن الاولى اختلاف الحساب عن الفوضى.

(... بلى) فيما لا يفيد هنا ، و (لا) فيما يفيد : ﴿وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾.

لكنكم عشتم مربع الظلمات بدلا عن مربع النور : فتنة الأنفس ، والتربص ، والارتياب والغرور ، وأين مربع الظلمات من مربع النور!.

﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ : أنفسكم أنتم عن برهاني الفطرة والرسالة ، فخسرتم النور الأول ، والتهيتم عن النور المبين ، و (فتنتم) المؤمنين الذين هم كأنفسكم قضية الايمان لو كان : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ﴾ (٨٥ : ١٠) وليتكم ما لبثتم في هذه الفتنة فرجعتم الى نور الفطرة والرسالة ، ولكنكم (وتربصتم) وتلبثتم ماكثين في هذه الفتنة الالتهاء فقست قلوبكم : ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ (٥٧ : ١٦) ﴿بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ (٢ : ٨١) ﴿كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٣ : ١٤) فالتربص في الفتنة تعمّقها وتزيدها ركسة عن الحق ، تربصتم بأنفسكم في الفتنة وتربصتم بالمؤمنين الدوائر : ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ (٤ : ١٤١) ﴿وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩ : ٩٨) ، كذلك وتربصتم عن التوبة والإنابة الى الله ، ثالوث التربص المنحوس.

ولو أنكم رجعتم عن الفتنة المتربصة بكم وبالمؤمنين ، والمتربصين عن التوبة ، ورجعتم الى الله ، قفزة الى الفطرة قبل انكسافها بالمرة ، لرجع لكم نور العلم فالإيمان ، ولكنكم ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ إذا استأصلت الفطرة عن نورها فأظلمت ، فأوصلتكم الفتنة المتربصة المستقرة الى الريبة ، ريبة في كل حق ناصع ، أو إيمانا

بكل باطل فاجع : ﴿أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ فقد كفرتم بالرسالة الإلهية الناصحة الناصعة كفر النفاق والشقاق.

وطالما الخطوة الثالثة الريبة بعد تربص الفتنة زلقة خطرة ، ولكنما الأمل في الرجعة الى الهدى بعد واقع وإن بصعوبة ، ولكنكم (وغرتكم الأماني) :

ثالوث الأماني الفارغة الجوفاء ، من النفس الغريرة ، ومن الشيطان الغرور ، ومن الكفار الغارين ، وساعدتكم في هذا الثالوث المنحوس الدنيا الغرور ، بكل زور وغرور. وكأنها أنزلتكم الى درك الطمأنينة الى الباطل لحد الإيمان به واليقين ، إذ زال عن فطرتكم كل نور ، فلم تبق إلا الظلمات ، حيث الأماني تستحكم عرى الفتنة والارتياب ، ولا سيما أمنية انتكاس أمر الإسلام ، وارتكاس المسلمين ، ف (تجنبوا المنى فإنها تذهب بهجة ما خوّلتم وتستصغرون بها مواهب الله جل وعزّ عندكم ، وتعقبكم الحسرات فيما وهمتم به أنفسكم) [١] ، وهكذا عشتم مربع الظلمات ﴿حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ : بالموت والسؤال والحساب والعقاب ، وكانت حياتكم كلها حياة الغرور إذ ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ : الشيطان المبالغ في الغرور ، فان له أيادي في مربع الضلال ، ولكنه ليس ولا يمكن إلا باستجابة المغرور ، دون تسيير وإنما مسايرة الزور والغرور.

وهكذا يخطو الغرور بالإنسان الى دركات الغرور ، لا لأن غروره قوي وإنما لضعف المغرور ، انضعافا من الإنسان ، فانضيافا الى الشيطان و ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً﴾ ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ﴾.

﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ :

فليس لكم هناك مال تفدون به ، أو نفس تفدي عنكم ، ولو كان ف (لا

---

(١). اصول الكافي باسناده الى ابان بن تغلب قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول :

يؤخذ منكم ...) ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدى بِهِ﴾ (٣ : ٩١) رغم ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ (١٣ : ١٨) ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥ : ٣٦) ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)﴾ (٧٠ : ١١).

﴿مَأْواكُمُ النَّارُ﴾ في دار القرار ، كما كان مأواكم في دار الفرار ﴿هِيَ مَوْلاكُمْ﴾ : أملك بكم وأولى بأخذكم ، فكأنها تملككم رقا ، ولا تحرركم عتقا ، وكما كنتم ارقاء لموجبات النار ، جهنم تصلونها وبئس القرار.

لقد حان الآن أن ينحى المنافقون نحو الإيمان ، فتخشع قلوبهم لذكر الله لو كانت لهم قلوب ، فالمؤمنون أجدر بذلك وأحرى :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾.

انه ليس المنافقين والكافرين فقط هم الذين ينسيهم الشيطان ذكر الله ، فيخطوا بهم خطواته ، بل هو إلى تضليل المؤمنين أرغب ، فحيا إلى مطاردة الشيطان ان ندرحه عن صدورنا وقلوبنا فإنه الوسواس الخناس :

بخشوع القلب يخشع القالب ، وقد يخشع القالب والقلب لاه ، ورين القلب لا يزيله ويجليه إلا ذكر الله ، ذكر يأخذ بأزمة القلب ويستكن في زواياه ، فليس ذكر اللسان إلا من بواعث ذكر القلب ، وإلى أن يصبح العبد كله ذكرا الله!

فالذكر الذي لا يخشع به القلب ، هو قالب الذكر وليس قلبه ، وإنما حقيقة الذكر هي التي تقلّب القلب إلى الله ، وتفرغه عما سوى الله.

وهنا الآية ترن رنا عاتبا حنونا ، وتأن أنّا صارخا على اسماع المؤمنين منونا ، محذّرة إياهم أن تقسوا قلوبهم بطول الآماد في التغافل والتساهي عن ذكر الله ، فإن ذكر الله درجات ، كما ان نسيانه دركات ، ومهما يبلغ الإنسان إلى درجات من الإيمان ، فبعده درجات ودرجات ، لو قيست إلى ما قبله لكان كالدركات.

فليعش المؤمن حياته تروية دائبة لقلبه بمياه ذكر الله ، فهذا الخطاب الود العتاب يواجه المؤمنين كافة إلا المقربين ، يواجههم الطول التاريخي والعرض الجغرافي أن يحاولوا في تخشيع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق دونما غفلة ومماطلة أو مماهلة ، محذرا إياهم أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم أمد الذكرى فنسوا وغفوا فقست قلوبهم ، وليس وراء قسوة القلب إلا كل فسوق وخروق ، وإلى الكفر.

والقلب ـ كما سمي ـ كيانه التقلب والانقلاب ، فلا بدّ له دوما من زمام رباني يزمه عن الأزمات التقلبات ، فلا بدّ من الطّرق والمتواصل عليه بطوارق أنوار الذكر حتى لا يبلد ويقسوا وتنطمس إشراقته ، ولكي يرق ويبرق ويشف ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (١٣ : ٢٨) تخرج عن تقلباتها الفوضى ، وتطمئن إلى الله العلي الأعلى.

ذلك لأن قلب الروح يعشق اللامحدود ، وإنما تقلبه وتزلّقه إلى هنا وهناك ، إلى هذا وذاك ، دونما وقفة واطمئنان ، لأنه لا يجد بغيته في هذه المحدودة الزائغة الزائفة من كائنات الوجود ، فإذا تعلق بالله اطمئن وارتكن ، ثم لا تقلّب ولا انفلات ، اللهم إلا لمن لم يعرف ربه كما يحق ، فقد ينزلق إلا من اعتصم بالله وعصمه الله.

ان طول الآماد في فترات الرسالات من أهم ما ينسي ذكر الله فتقسى بها القلوب ، لأنهم ينورون القلوب ويحركونها بسناد الوحي فلا يخطئون أو

يتباطئون ، ومن سواهم من مبلغي رسالات الله إنما يصدرون عنهم غيّبا وحضورا فقد يتباطئون أو يخطئون ، مما يقلّل من تأثيرات العظات ، فتتعاظم القساوات في ثالث الأدوار ، دور الانتظار الذي نعيشه ، إذ لا رسول ولا إمام حاضرا ، وإنما منتظرا ليأتي ويقوّم الأود ، فهذا الدور من أخطر الأدوار تقاسيا للقلوب ، ومن أكثرها مسئوليات على عواتق المسلمين ، فإذا يؤثر طول الآماد في الفترات الرسالية في قساوات القلوب ، والرسالة غير منتهية ، والفترة محدودة ، فما ذا يكون أحوالنا في دور الانتظار وقد انتهت الرسالة والرسالات ، وختم دور الإمامات ، والفترة طائلة لحد غير معروف ، ولحد الآن الف وستة وستون سنة تمضي على الغيبة التامة لدور الإمامة ، ولم يسبق له مثيل طولا ، ولا يأسا قاطعا عن تجديد الرسالات.

فإذ تأنّ آية الأنّ على المؤمنين زمن الرسول [1] وعلى اسماعهم تأن الآيات من أقوى الرسالات الإلهية ، فنحن الغيّب عن ذلك الزمن ، وعن زمن أئمة تلكم الرسالة ، نحن أحرى وأجدر وأفقر إلى هذه الرنة الموقظة ، فلنأخذها نصب عيوننا ، وصغي آذاننا ونقول : بلى يا رب! قد آن لنا أن تخشع قلوبنا لذكرك وحقيق لمن له قلب أن يصعق ويتفتت لما يسمعها كبعض الأولين [2].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٤ ـ أخرج ابن مردويه عن انس مرفوعا إلى النبي (ص) قال : استبطأ الله قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة من نزول القرآن فأنزل الله : ألم يأن ... وفيه اخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : خرج رسول الله (ص) على نفر من أصحابه في المسجد وهم يضحكون فسحب رداءه محمرا وجهه فقال : أتضحكون ولم يأتكم أمان من ربكم بانه قد غفر لكم ولقد أنزل علي في ضحككم آية : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ قالوا : يا رسول الله (ص)! فما كفارة ذلك؟ قال : تبكون قدر ما ضحكتم ، وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود ان رسول الله (ص) قال : لا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم إلا ان كل ما هو آت قريب ، إنما البعيد ما ليس بآيات.

(٢). روح المعاني للالوسي ج ٢٧ ص ١٨٠ : روى السلمي عن حمد بن أبي الحواري قال : بينا كنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة فأقبلت نحوها فرأيت رجلا قد خر مغشيا عليه.

وترى ما هو الفارق بين (ذكر الله) و (ما نزل من الحق) وهو أفضل ما يذكرنا الله؟. قد يكون ذكر الله أعم مما نزل من الحق ، حيث الحق النازل هنا هو القرآن وهو نبي القرآن بسائر بيناته ، وهو أحق ما يذكر الله من خوارج الذوات ، ولكنها لا تذكر الله إلا باستجابة من دواخل الذوات ، فطرا وفكرا وعقولا بما معها من مذكرات آفاقية وأنفسية ، فذكر الله يشمل سائر ما من شأنه أن يذكرنا الله مما نزل من الحق وسواه ، فالحق النازل تشريعا من طرق الرسالات ، والحق النازل تكوينا من سائر الطرق ، يتناصران في تحقيق ذكر الله الذي يخشع القلوب.

ومن الفوارق الأدبية بين (ذكر الله) القرآن. و (ذكر الله) سوى القرآن ، انه في القرآن إضافة إلى الفاعل فإنه المذكر لله ، وفي سواه إضافة إلى المفعول فإنه يذكرنا الله : (ذكر القرآن) ـ (ذكر ما سوى القرآن) ولا ضير أن يجمع ذكر الله هنا فاعله ومفعوله سواء.

ولو ان ذكر الله ـ أيا كان ـ دخل شغاف القلب ، وأخذ بزمام القلب فهنا الخشوع دونما محاولة أخرى ، ولو انه بقي في حالة الأهبة والذكر قالبا ، ولم يتحول إلى القلب فلا خشوع وبأية محاولة أخرى ، وإنما التنديد في آية الأنّ بمن لم يحول قوالب الذكر إلى القلوب ، لا ما نزل من الحق ولا سواه ، وإنما اكتفوا

بذكر اللسان ، ومن ثم بكل هؤلاء الذين وقفوا عن الحراك في تحكيم ذكر الله في قلوبهم ، أو يتباطئون في الحراك ، مهما انقلب ذكر من الله إلى قلوبهم ، فليس لذكر الله حد ولا نهاية ، وعلى السالك أن يتسارع في هذه السبيل حتى يتوفاه الموت ، ومن ثم يسرع بالعجلة التي قدمها لنفسه.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ : ألم يأت آن وحين ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بألسنتهم دون قلوبهم ، أو بقلوبهم أحيانا دون أخرى ، أو ببعضها دون الآخر ، أو بدرجة دون تزايد ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ كل ما يذكر الله ﴿وَما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ قرآنا وأيا كان ، ﴿وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ﴾ من اليهود والنصارى ﴿فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ : الأجل والفترة بين الرسالات ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شاءوا أم أبوا ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾) وهم العامدون الضالون المضللون. فقيل منهم ضالون جهلا وقصورا فهم ليسوا بفاسقين ، وقليل من هؤلاء القلة مؤمنون صامدون رغم طول الآماد وبواعث القساوات ، وهنيئا لهذه القلة المؤمنة ، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة من الملة الحنيفة المحمدية ، وفي أقسى الزمن وأطول الفترات : دور الانتظار ، نظرة الانتصار.

وترى هل من فرج بعد الانكسار بما تقاست القلوب في فترة الانتظار ، وماتت الأرض؟ اللهم نعم :

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

إن إحياء الأرض بعد موتها ، لا بعد إماتتها ، توحي ان موتها منها ، وإحياءها من الله ، فهي إذا الحياة الروحية ، بعد موتها عنها بما قست القلوب (١)

---

(١) الكافي باسناده عن أبي ابراهيم موسى بن جعفر (ع) في الآية : قال : ليس يحييها بالقطر ولكن يبعث الله عز وجل رجالا فتحي الأرض لإحياء العدل ولإقامة الحد فيها انفع في الأرض من القطر أربعين صباحا.

أقول : سلب الاحياء بالقطر عله سلب الحصر ، وكما يزعمه البسطاء ، فإن الآية تشملها وان تلويحا.

وإن كانت تشمل حياتا قبلها بموتها هي الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية الجسدانية ، وكذلك حياتا بعدها هي الحياة الاخرى عند القيامة الكبرى ، ولكنما المقصود الأصيل من الحياة هنا هي الوسطى : الروحية السامية ، زمن قيام الدولة الإسلامية الكبرى بزعامة القائم المهدي عليه التحية والسلام [1] ، لمكان (بعد موتها) وان الآية تحتف بها آيات لا تناسب الحياة المادية فحسب :

(ألم يأن ...) (ان المصدقين ...) وإن كانت تلمح بالحياة الاولى والاخرى أيضا.

فالأرض المبشّر بإحيائها هي الأرض الناقصة من أطرافها : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾ (١٣ : ٤١) وهو ذهاب نورها وبهجتها بذهاب علماءها العارفين بالله ، ومؤمنيها المتمسكين بدين الله.

كما وانها أراضي القلوب التي خوت عن خشية الله ، وانطفت عن نور معرفة الله ، فالله تعالى يحيي هذه وتلك ، زمن الانتظار أحيانا ، وزمن الانتصار تماما ، إذ لا حكم إلا الله ، فلا يعبد إذا إلا الله.

فلا يقوم قائم الانتصار إلا بعد ما ملئت الأرض ظلما وجورا وهذا موتها ، فهو يملأها قسطا وعدلا ، وهذا إحياءها ، وإن كان لا بد لتأسيس هذه الدولة العالمية من مساعدين من أقوياء المسلمين ، فهم أولاء ، العشرة آلاف جنود

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى سلام بن المستنير عن أبي جعفر (ع) : في قول الله تعالى : اعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها. قال : يحيي الله تعالى بالقائم بعد موتها ، يعني بموتها كفر أهلها والكافر ميت.

وفيه باسناده إلى سليط قال : قال الحسين بن علي (ع) منا اثنى عشر مهديا أولهم امير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وآخرهم التاسع من ولدي هو القائم بالحق به يحيي الأرض بعد موتها ويظهر به الدين الحق على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي روضة الكافي باسناده إلى محمد الحلبي انه سال أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل : اعلموا ان الله يحيي الأرض بعد موتها . قال : العدل بعد الجور.

المهدي (ع) وثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا اصحاب الألوية ، إضافة إلى من يرجعهم الله من سائر المؤمنين الأشداء رجعة الاستعداد او الاستدعاء! اللهم اجعلنا منهم احياء او أمواتا.

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾:

مزيد تأكيد لإقراض الله قرضا حسنا متصدقا فيه وفي سواه من إنفاق في سبيل الله ، والتصدق هو التجافي عن حق لمن يحتاجه ، بتكلف ، كأن يحبه كثيرا ، أو يحتاجه دون ضرورة أم ماذا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ [1] وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ :

ان الصديقين والشهداء عند الله ليسوا أناسا خصوصا تحتكر لهم هذه المقامات ، وتحجز لهم لأنهم أصحاب القرابات الى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أو أيا من ميزات اللهم إلا القربات : الإيمان بالله ورسوله وان كان له درجات ، فالصديق والشهيد عند الله هو الذي بلغ الذروة من الإيمان عقيديا وعمليا ، فإن الإسلام شريعة لا مجال فيها للطبقيات في نيل الدرجات.

ومن المؤمنين الذروة من فرّ بدينه من أرض الى أرض مخافة الفتنة على نفسه ودينه [1] مما يدل على أن دينه أعز عنده مما سواه ، وان كانوا هم أيضا درجات.

صحيح أن المؤمن لن يصل الى درجة النبيين ، إلا أن له أن يضاهيهم فيصل

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٦ أخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال قال رسول الله (ص): «... كتب عند الله صديقا فإذا مات قبضه الله شهيدا وتلا هذه الآية ثم قال : والفارون بدينهم من أرض الى أرض يوم القيامة مع عيسى بن مريم في درجته في الجنة».

الى درجة الشهداء والصديقين وكما هم شهداء وصديقون : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٤١) ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا﴾ (١٩ : ٥٦) ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ (٥ : ٧٥) فالصديقون والشهداء هم من مربع النور : الرعيل الأعلى المنعم عليهم : ﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً﴾ (٤ : ٦٩) فقد بلغ الصديقون الى درجة يؤمر المصلون أجمعون أن يهديهم الله صراطهم : ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (١ : ٥) فهم البالغون القمة في النعمات الروحية الإلهية ، اللهم إلا رسالة الوحي في غير النبيين منهم.

إذا فبإمكان المؤمن أن يصطف في صفوف النبيين اللهم إلا الوحي والعصمة الخاصة بهم ، فإنهما جذبة إلهية لمن كمّل سيره الى الله ، فيصطفيه الله تكميلا لما قصر هو عنه ، فالنبوة بين سعي بشري واصطفاء مكمل إلهي.

ولأنهم صديقون عند ربهم ، فهم الشهداء عند ربهم كما النبيون شهداء :

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَداءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ (٣٩ : ٦٩) ومحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم هو شهيد الشهداء : نبيين وصديقين : ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (٤ : ٤١).

إنهم يشهدون على أعمال العباد لأنهم صديقون لا يكذبون ولا يسهون ، فحياتهم الصدق دون أية كذبة ، ولا تورية إلا ما يشاء الله ويرضى ، وكيف يمكن إلقاء الشهادة ممن لم يتلق الأعمال ، فهم ـ إذا ـ يلقّون أعمال العباد ويتلقونها يوم الدنيا حتى يشهدوا بها ويلقوها في الاخرى ، كما وأنهم شهداء عند الله :

حضورا عنده وليسوا غيّبا ، يشاهدون جلاله وجماله ، كبرياءه ومناله ، عميان عمن سوى الله ، لا يرون شيئا إلا وقد يرون الله قبله وبعده ومعه وفيه ، رؤية علم ومعرفة كأنها عيان : «اعبد ربك كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك».

وهم كذلك شهداء الله وحججه يوم الدنيا ، يدلون اليه ، مجاهدين في التدليل عليه ، مثلث الشهادة الصادقة للصديقين وحسن أولئك رفيقا.

هؤلاء لهم أجرهم كما سعوا ، ونورهم كما قدموا ولا يظلمون فتيلا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَكَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ : رسلا ورسالات بسائر الآيات ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ : نار شديدة التأجج ، كما هم كانوا نارا على أصحاب النعيم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ :

ان الحقيقة في الحياة الدنيا ، وراء كل ما يبدو فيها هي الحياة الخماسية الزهيدة الجوفاء ، دون بقاء ولا وفاء ، تجمعها «انها حياة الغرور» : غرور لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر ، ومن ثم هي ﴿فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن أبصر إليها فأعمته عن حقيقتها ، وهي هي ﴿مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ﴾ لمن أبصر بها فبصرته ، فهي من طبعها حياة الغرور لمن لا يحدّ البصر ، وهي ثانية حياة المغفرة والرضوان لحديدي البصر! فعلى السالك السبيل من هذه القنطرة الخطرة أن يعمق النظر ويحد البصر ، لكي لا يغره بالله الغرور في هذه الحياة الغرور.

انها حياة ذات وجهين ووجهتين : باطنها فيه الرحمة وظاهرها من قبله العذاب ، وكما تضرب هي سورا بين أهل الجنة والنار يوم القرار.

فبإمكان الإنسان أن يجعل من الحياة الدنيا حياة عليا ، أن يقنطرها للأخرى ، ويستخدمها للارتقاء في مراقي العبودية والتقى ، فان الدنيا مدرسة الآخرة!.

يجعل بدل اللعب الطفولي ، العمل البناء البطولي ، وبدل اللهو عن ذكر الله لهوا عما سوى الله وعيشة مع الله ، وبدل زينة الحياة الدنيا ، زينة الحياة العليا :

الإيمان والتقوى ، وبدل التفاخر بالأرذل الأدنى ، التناصر فيما يحب الله ويرضى ، وبدل التكاثر في الأموال والأولاد ، التكاثر في المثل العليا.

ان دور اللعب هو دور الطفولة ، يتعبون أنفسهم فيما لا يعنى ، فتذهب أتعابهم سدى ، واللهو دور الشبان ، إذ يلتهون عن مهمات الحياة الى ملذاتها وملماتها ، وعن عقلياتها الى شهواتها ، ثم لا يبقى لهم بعد انقضاءها إلا حسرات ، إذ يرى تقضّي العمر والمال واللذة العمياء ، والزينة في الملابس والمراكب والمساكن دور الكهولة أو ما يشارفها ، بعد ما انقضى ثورة اللهو والشهوة ، ثم بعد الكهولة دور التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصب والألقاب الفارغة الجوفاء ، وأخيرا دور التكاثر في الأموال والأولاد وقد يتخطى الأحياء الى الأموات : ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ. حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ﴾.

ومن الناس النسناس من يعيش هذه الأدوار طول حياته ، صبيا في كهولته ، شابا في طفولته ، طفلا في رجولته ، يلعب ويلهو وهو شيخ هرم ، ويلعب دور الزينة والتفاخر والتكاثر في سني عمره كلها (فأولى لهم ثم أولى لهم)!.

وهنا الآية تمثل خير الأمثال للحياة الدنيا (كمثل غيث) مثلا عن الحياة العليا ، الخليطة بزخارف الدنيا : ﴿إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٠ : ٢٤).

والغيث من الغوث : المطر المغيث العطشى ، والمغيث الحب والنوى ، وكذلك الحياة العليا الإيمانية تغيث أصحابها عن غرور الدنيا وزخرفاتها ، وهي الحياة المستجيبة لنداء الفطرة ورسالات السماء.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ﴾ : هل الكفار هنا هم الزرّاع إذ يكفرون البذر ويسترونه تحت التراب؟ وقد يناسبه الغيث والنبات! ولكنها إذا آية يتيمة في هكذا كفر بين آيات الكفار كلها [1]! أم هم الكافرون الساترون الحاجبون الفطرة عن نور الحق ، والساترون سائر الحق بحجب التكذيب والإنكار؟

قد يلائمه سائر آيات الكفار ، وغير فصيح ولا صحيح أن يعني به في هذه اليتيمة غير ما عنى به في سائر العشرين آية ، فلما ذا لم يقل الزرّاع لو كان معنيا من الكفار ، كما في سائر آيات الزرّاع [2]؟ وقد قورن بالكفار في واحدة منها : ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (٤٨ : ٢٩)! ولكنما العجاب من نبات الغيث لا يخص الكفار ، زرّاعا أم غير زرّاع ، بل يعجب المؤمن والكافر ، ولا سيما الزرّاع مؤمنين أو كافرين!

قد يعني به الزرّاع هنا مضمّنا الكفار ، تورية وإلماعا الى إعجابهم بالحياة الدنيا ، فالغيث يعجب الزراع وأحرى ، ويعجب الكفار زراعا وسواهم ، وأين عجب من عجب؟ عجب كافر وهو عجاب كافر ، وعجب مؤمن وهو عجاب مؤمن ، عجب لاه ، وعجب من رحمة الله.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ النبات ﴿فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً﴾ : كسرا هشيما تذروه الرياح ، وهكذا ينتهي شريط الحياة الدنيا العاجلة الزهيدة ، ثم هي ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ للزراع الكافرين المعجبين بظاهر الحياة الدنيا ، اللاعبين اللاهين المتزينين المتفاخرين المتكاثرين ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ﴾ للزراع المؤمنين ، الذين استفادوا من غيث الحياة إغاثة لها عن دنياها ، فما زخرفوها أو دنّسوها بغرورها وزورها ، بل أنبتوها من هذه الممرة الكأداء نباتا حسنا ،

---

(١) وهي احدى وعشرون آية لا يحتمل معنى الزرع إلا في هذه.

(٢) وهي اربعة عشر آية.

فهي في الآخرة ﴿مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ﴾ لمن قصر قليلا وجاهد كثيرا ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ﴾ لمن عاش حياته رضوان الله.

فانما الدنيا مزرعة الآخرة ، وأهلها كلهم زراع ، فمنهم من يخسر زرعه ويخسر كالزراع الكفار ، ومنهم من يربح ويربح كالزراع المؤمنين.

﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ : إنها متاع يتمتع به الى حين : ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ (٢ : ٣٦) دون استمرار ليوم الدين ، وهي كذلك متاع يشترى به غفران من الله ورضوان ، وإن كان قليلا بجنب ما يبدل عنه : ﴿فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٦ : ٣٨) فلا أصالة للحياة الدنيا القلة إلا متاعا في الآخرة : ﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ (١٣ : ٢٦) أجل انها متاع ولكنها تغري المتمتعين بها انها أصيل ، يبصرون إليها كغاية فتعميهم عماية عن حقيقتها المتاع الزهيد ، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ﴾ ولو أبصروا بها فهي «في الآخرة ﴿مَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوانٌ﴾!.

ولو استعلمنا بعيد النظر في هذه العبر وجدنا أن القرآن لا يقصد بهذه المهانة للحياة الدنيا إهمالها والعزلة عنها فنعيش حياة الرهبان والدراويش ، وإنما يقصد تصحيح المقاييس في استعمال هذه الحياة لتتخطى الدنيا إلى العليا ، والاستعلاء على غرور هذا المتاع الغرور ، لنستبدل بها حياة أبقى وأرقى في الآخرة والاولى ، فالدين يستعمر الاولى قبل الاخرى ويستمر بالإنسان في حياة عليا وهو في الدنيا ، ويصنع ميادين السباق للرفاق في هذه القنطرة إلى مغفرة وجنة :

﴿سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ :

نؤمر هنا بالسباق ، وفي غيرها بالسراع : ﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٣ : ١٣٢).

وهكذا يجب أن تكون مسارع الحياة ومصارعها إلى الله ، لا إلى اللهو.

وهل هناك من فرق بين آيتي آل عمران والحديد؟ إن هذه تقدّر عرض الجنة كعرض السماء والأرض ، إذا فليست هي في السماوات والأرض ، ولا كعرضها ، وإنما كعرض السماء والأرض ، وعلّها السماء الاولى أو أية سماء؟ ولأنها للمتقين.

وتلك تقدّر عرضها السماوات والأرض ، فهي إذا فيهما وكسعتهما ، بالسماوات السبع ، ولأنها للسابقين فهي أوسع؟.

أقول : لا هذا ولا ذاك ، فان جنة المتقين والسابقين وأيّ من المؤمنين هي فوق السماء السابعة : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى﴾ (٥٣ : ١٥) مهما كانت لها درجات حسب الدرجات ، وسدرة المنتهى هي منتهى الكون المحيط بسائر الكون ، ومن الأفق الأعلى لصاحب المعراج قبل مقام أو أدنى ، هذه الجنة فرشها عرش السماء السابعة و (سقفها عرش الرحمان) [1].

ولو كانت هي في السماء والأرض لم يكن عرضها كعرض السماء والأرض ، ولا عرض السماوات والأرض ، وإنما (جنة هي السماوات والأرض) فالسماء هناك هي السماوات هنا وكما في غيرها ، إلا إذا قيّدت بالدنيا (السماء الدنيا) أم ماذا ، والعرض هو السعة ، لا ما يقابل الطول ، فان السماوات والأرض ليست عرضا مقابل الطول ، وإنما هي سعة جامعة للعرض والطول ، ف ﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ﴾ تعني سعتها ليس إلا.

وبعد كل ذلك فشكل السماوات والأرض دائري كروي لا طول له ولا عرض ، وإنما محيط وسطح وحجم ، وإن الجنة معدّة الآن للمتقين والذين آمنوا

---

(١) كما يروى عن الرسول (ص) تفسير الفخر الرازي ج ٢٩ ص ٢٥٣.

بالله ورسله ، ولا نرى إعدادا في الأرض أن تصبح من الجنة ، ولا في السماء.

إذا فسؤال : إذا كان عرض الجنة كعرض السماوات والأرض ، فأين النار؟ هذا السؤال ساقط لا جواب له إلا اختلاف المكان. وما يعزى من جواب إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : (سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل؟) مختلق ، فمن المحال اجتماع الليل والنهار في أفق وجو واحد ، فكيف تجتمع الجنة والنار في السماوات والأرض؟ وساحة الرسول بريئة من هذه الهرطقات!.

ثم المسابقة المسارعة إلى مغفرة من الرب هي في الدنيا ، ومن أعمالنا ، وهما الى الجنة ـ منذ الموت الى ما يعلم الله ـ من فضل الله نتيجة أعمالنا بما وعدنا الله : ﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

فالمسابقة الى مغفرة مسابقة ـ بالمآل ـ الى الجنة ، فالدنيا هي ميدان سباق الى الجنة ، يجعلها أهلها سباقا الى النار ، فأين سباق من سباق ، وجنة من نار؟.

ترى وكيف السباق الى غفران الله ، وبأية وسيلة؟ إنها ترك كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات ، والإنابة إلى الله ، والتوبة النصوح ، وتبنّي الحياة إيمانية مهما تسرّ بتها أخطاء صغار ، فهنا لك الشفاعة ، وهنا لك قبول التوبة ، وهنا لك تكفير السيئات ، ومن ثمّ جنة عرضها الأرض والسماوات ، أعدّت للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فليست الجنة حصرة على المقربين ، وحسرة على من سواهم من المؤمنين.

توحي المسارعة إلى مغفرة ، أنه كما التوبة واجبة ، كذلك السرعة لها والمسارعة إليها واجبة ، فان في تأجيلها قسوة فحسرة وندامة ، وفي تعجيلها تنوير للقلب المظلم ورجعة الى الرب وكرامة.

ترى ولماذا ﴿إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو من فعل الله لا المستغفر؟ ولم يقل : (إلى استغفار ربكم)! لأن كل استغفار لا تتبعه المغفرة ، وإنما استغفار التوبة النصوح : ﴿أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...﴾ (١١ : ٣).

فالواجب تهيئة الوسائل لغفران الله كما يحق ، وبما يشاء الله ويرضى ، ف ﴿أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ (٣ : ١٣٦) ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٥ : ٩) ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٤٩ : ٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (٦٧ : ١٢) ... هؤلاء ممن تحق لهم المغفرة فالجنة.

وترى ان الإيمان بالله ورسله كتقوى عقائدي كاف في استحقاق فضل الجنة؟ كلا ، اللهم إلا بتقوى عملية وكما في آية آل عمران : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وان آية الصدّيقين والشهداء اكتفت بذكر الإيمان بالله ورسله ، ولا ريب أن إيمانهم قمة الإيمان ، وإن كانوا أيضا درجات.

* * *

﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِما النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (٢٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩)

﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ :

فما هي المصيبة المعنية هنا؟ وما هو الكتاب؟ وما هو الرباط بين ترك الأسى والفرح وبين المصيبة المكتوبة؟ :

المصيبة هي النائبة النازلة التي تصيب دون خطأ ، الرامية المصيبة الهدف ، وهي الرحمة المصيبة أهلها ، من الصّوب : نزول المطر ، فهي تجمع إصابة الحسنة والسيئة : ﴿ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (٤ : ٧٩).

وهذه الإصابات كل بإذن الله : ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ (٦٤ : ١١) و ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ (٧٨ : ٤) ولكنما الحسنة من الله كما هي من عند الله ، والسيئة من نفسك وان كانت بإذن الله ومن عند الله ، فالله أولى منا بحسناتنا ، ونحن أولى منه بسيئاتنا.

وإصابة السيئات قد تكون لأهلها بما كسبت أيديهم : ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٤٢ : ٣٠) إصابة بذنوبهم : ﴿أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ (٧ : ١٠٠) : ﴿ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٣٠ : ٤١).

وإذا تصيب المصيبة السوء غير أهلها ، فقد تكون امتهانا لهم بما لم ينهوا وسكتوا ورضوا ، كالتاركين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم قد تصيبهم ما تصيب أهل السوء من إصابات السوء ، وقد تكون امتحانا وتكفيرا عن سيئات كما لأصحاب اليمين ، أو تكون ترفيعا لدرجات كما للسابقين المقربين ، وكل ذلك تشمله آيتنا هذه ، وآيات الكسب تخص غيرهم ممن لهم يد في السوء

مباشرة أم سواها [١].

وأما «كتاب» فيه المصيبات ، فهل هو كتاب الإذن التكوين؟ اللهم نعم! إذن التكوين بعد إذن التقدير ، وبعد ما اختار أهل السوء سوءا ، أم وكتاب الإذن التشريع؟ اللهم لا! فانه لا يأذن بالشر أو يشرعه ، أم وكتاب العلم [٢] بما يأذن ويكون؟ طبعا ، فانه بكل شيء عليم ، فأحرى به أن يعلم بما يأذن.

وبما أن الإصابة ـ أيا كان ـ هي من خارج ، تصيب الإنسان في الأرض أو في نفسه ، وليست من أفعاله ، فكونها في كتاب لا يعني الجبر ، بل وإذا شملت أفعاله فكتابه المسبق لا ينافي الاختيار في الأفعال التكليفية ، لأن كتاب العلم انكشاف عما سيكون ، لا تسيير لما يكون ، وكتاب التقدير يكون على قدر ما يكون بسوء الاختيار ، وكتاب الإذن إبرام لما تتحقق مقدماته بالاختيار ، وان كان كتاب الاذن والتقدير تسييرا بالنسبة لنتائج السيئات وعكسياتها إذ لا مفر عنها ، بل وهي أيضا مختارة ، فالامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار ، اللهم إلا لمن تصيبه المصيبة تذكيرا وامتحانا ، وبأحرى من تصيبه ترفيعا لدرجاته كالسابقين المقربين.

فأنت وأعمالك ومصائبك حسنة وسيئة ، وأرضك ، كلها «فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها» : الأرض والنفس والمصيبة ، فلا يخفى منك على الله شيء ، ولا

---

(١) اصول الكافي عن علي بن ابراهيم عن الصادق (ع) «لما حمل علي بن الحسين (ع) الى يزيد بن معاوية فأوقف بين يديه قال يزيد لعنه الله : «وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» فقال علي بن الحسين (ع) ليست هذه الآية فينا ، ان فينا قول الله عز وجل : «ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ» فنحن الذين لا ناسى على ما فاتنا ولا نفرح بما أوتينا منها.

(٢) علي بن ابراهيم باسناده الى عبد الرحمان بن كثير عن أبي عبد الله (ع) في هذه الآية : صدق الله وبلغت رسله كتابه في السماء ، علمه بها وكتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر وغيرها ، ان ذلك على الله يسير.

تتغلب على مشيئته في شيء ، ولا تجبر على شيء ، اللهم إلا في أجلك المحتوم ، أو المعلق على غير عملك وفعلك ، أو اصابتك بما أنت السبب ، أو ما ليس لك نصيب في السبب ، فإنها كلها ﴿فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها﴾ وهذا إعلام من الله مسبقا :

﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ :

ولماذا الأسى على ما فات ومضى ، وهو مقدر كائن بحساب دون فوضى ، فان كان الفوت بسيئة منك فهذا شيء مرتقب ، فلا تأس ، وإنما غيّر سيرتك ، وان كان من غيرك فاعتبره لك عبرة وذكرى أو تكفيرا عن سيئات ، أو ترفيعا لدرجات ، إذا فلما ذا الأسى على ما فات؟!.

ثم ولماذا الفرح والمرح بما آتاك الله ، فلعله نعمة تضم نقمة فاستعذ منه بالله ، أو تجربة فاستعن فيه بالله ، أو كرامة من الله امتحانا فلما ذا الفرح؟ فهل تلهيك نعمة؟ وكثير هؤلاء الذين يلتهون! وليس الامتحان في النعمة أهون منه في النقمة : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ (٢١ : ٣٥).

فلا تحسبن النعمة لباقة منك ولياقة ، ولا النقمة عذابا وآفة ، فقد تكون النعمة نقمة والنقمة نعمة ، وقد تكون غير ذلك «والدهر لك يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» (١).

وهذه الآية تمثل أزهد الزهد في الدنيا لأهل الدين وكما عن علي أمير المؤمنين عليه السلام : «الزهد كله بين كلمتين من القرآن : ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا﴾

---

(١) عن علي أمير المؤمنين (ع).

ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه» [1] .. وما من أحد إلا وهو يحزن أحيانا ويفرح اخرى ، فليكن صابرا عند الإصابة السوء ، وشاكرا عند الخير ، دون جزع ولا بطر.

فليست هذه الآية بالتي تجمد الطاقات ، وتدعو للاتكاليات ، تعطيلا للمساعي وإبطالا لها مغبة الأقدار ، لأنها ليست إلا حسب المكاسب ، أو المصالح واللياقات ، وما الخارج الناتج عن كسبه وسعيه ليخطئه لو قدر له امتهانا أو امتحانا ، فعليه أن يعيش سعيا وكدحا الى خير ، وراء أقداره العاكسة في كتاب ، ولكي تصبح مصائبه خيرات وسيئاته حسنات.

هذه الآية تستجيش الإنسان وتستصلبه في الأحداث لكي لا يجزع ويستطار فتسحقه الأحداث ، وتعصف به عواصف الزمن وقواصفه ، بل يصمد عند الحوادث فيتغلبها دون أن تغلبه ، وليستمر في نشاطه وكدحه تخفيفا عنها أو قضاء عليها أم صبرا حيث لا مندوحة إلا إياه ، فيتعامل مع الأحداث كأنها مرتقبة طول الحياة ، فيعالجها بنفسه لا أن يخالجها في نفسه تقسّما وانهزاما ، فالأسى على الفائت تشغل البال ، والفرح بالآتي يفسد المآل ، وهما من سوء الحال ، فليكن المؤمن ثابت الحال في كل مجال ، كالجبل الراسخ لا تزيله القواصف ولا تحركه العواصف ، وهو عماد الزهد وسناد الكدح.

ولماذا «فاتكم» لفوات الحسنات ، و «آتاكم» : الله لما اوتي من رغبات؟ ... لأن فوت الحسنات مما كسبت أيديكم ، والحسنات مما آتاها الله ، فالخير كله بيديه والشر ليس اليه.

﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾ فالمختال هو مفتعل الخيال والخيلاء والكبرياء ،

---

(١) في نهج البلاغة عن علي (ع) وفي اصول الكافي عن أمير المؤمنين (ع) أن الناس ثلاثة : زاهد وصابر وراغب ، فاما الزاهد فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه ، فلا يفرح بشيء من الدنيا ولا يأسى على شيء منها فاته فهو مستريح.

فهو فخور يفخر كثيرا بما خيّل اليه ، يعيش حياة الخيال والفخر والكبرياء ، ويأسى على ما فاته من الفائدات والرغبات كأنه حق له مغتصب ، ويفرح بما اوتي منها ويفخر كأنه حق له مرتقب ، ومن ثم يبخل عما اوتي من خير ويتخطاه الى أمر الناس بالبخل :

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ :

فما أجهله وأبخله ، وما ألعنه وألأمه هذا النكد الأغود الذي يبخل بمال الله ـ الذي استخلفه فيه ـ عن عباد الله ، ثم يأمر الناس بالبخل ليكونوا معه سواء ، متوليا معرضا عن الله ، و ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ غني عن مالك ومالك ، غني عنك وعن غناك ، غني في ذاته وعن مخلوقاته وهم الفقراء ، حميد في ذاته وان لم يكن له حامدون ، فما يناله شيء من حمد الحامدين؟!.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَالْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ :

هنا إقامة الناس بالقسط بمثلث : البينات والكتاب والميزان طوعا ، وتقويم لهم بالقسط ، بالحديد البأس الشديد كرها ، لمن ليس له طوع الى الحق ورغبة الى القسط ، الذين يجهلون أو يتجاهلون لغة الإنسان : البينات والكتاب والميزان ، فليواجهوا بلغة الحيوان : حديد فيه بأس شديد ، ومن ثمّ منافع للناس ، لأنه يؤدب النسناس ويوقفهم لحد الناس ، فمثلث البرهان حجة الناس ، والحديد حجة على النسناس ، فما هو الميزان بعد الكتاب؟ وما هي البينات قبله؟ وكتابات الوحي كلها بينات!.

إن القرآن بوحدته بينات وكتاب وميزان ، ولكن سواه من كتابات الوحي

كتاب وليست ببينات معجزات ، وإنما هي مبيّنات بمعجزات أصحاب الرسالات ، ومهما كانت ميزانا بالمآل ، ولكنها بما تثبته البينات.

ومن ثم فحملة الرسالات يحملون معهم بينات تثبت تلكم الرسالات ، معجزات كافية وآيات وحجج بالغة وافية لحمل الناكرين على التصديق ، من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وإلا فليجابه بحديد.

ثم الكتاب الحامل لشريعة الله ، ناهج مناهج الحياة في كافة الإطارات ، وهل ترى الكتاب والبينات يكفيان لتقويم الناس بالقسط دون ميزان معهم يزنون به البينات والكتاب ، ويزنون به الجماعات ، فيثبتون الحجة ببيناتهم في قلوب الناس ، ويحملونهم على تصديق الكتاب ، ومن ثم الى وعيه وتطبيقه؟.

كلا! انه لا بد من ميزان : عقلي وعلمي وتطبيقي بوحي ، كما الكتاب وحي ليوزن الوحي بالوحي ، ويصدق الوحي ويطبق بالوحي!.

فميزان الرسل إضافة إلى البينات والكتاب ، هو عقل الرسالة وروحها وعصمتها وقدسيتها وحكمتها وحكمها : ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ (٤ : ١٠٥) وهذه الثلاث كلها نازلة من سماء الوحي : بينة وكتابا وميزانا ، فلا يحمل الرسل من الأرض إلا قوالب وأجسادا ، وأما القلوب والأرواح فهي نازلة بالوحي : ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (١٧ : ٨٥) روح القرآن وروح نبي القرآن : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾ (٤٠ : ١٥) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ (١٦ : ٢) فهؤلاء الرسل الكرام أرواحهم القدسية وعقولهم وعصمهم موازين لوزن البينات والكتاب والمرسل إليهم ، ومن ثم ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾! وترى ان الناس يقومون بالقسط ـ فقط ـ بالبينات والكتاب؟ كلا! وحتى المؤمنين منهم ، فلا بدّ من ميزان لتقويمهم على حكم الكتاب بالعدل كما يقومون بالبينة والعقل ، من ميزان الحكم القويم المستقيم على ضوء الكتاب بحجة

البينات ، فالحكومة الإلهية من الميزان النازل مع الكتاب ، وإن كان الكتاب بميزان بيان الرسول يمثل التشريع ، فميزان الحكم يمثل التنفيذ ، فلا قوام لتشريع بلا ميزان الحكم ، كما لا حكم وزينا بلا تشريع إلهي.

هذه هي القوة التشريعية التنفيذية ، وترى انها تقوّم الناس أجمعين؟ اللهم لا ، إلا المؤمنين بالرسالات ، الذين يعقلون فيؤمنون ، وأما الذين لا يعقلون أو يجهلون أو يتجاهلون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، أما هؤلاء فلا بدّ عليهم من قوة رادعة عن التخلفات ، ضابطة عن الهمجيات والفوضويات ، وما هي إلا الحديد وبأسه الشديد :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ﴾ :

والحديد بوجه عام كل ما فيه حدة وصلابة وحتى حدة البصر : ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٥٠ : ٢٢) ، وبوجه خاص هو الحديد المعروف بأصوله وفروعه ومواليده.

و «انزاله ذلك خلقه إياه» [١] لا فقط من السماء فإن الله ليس ما كن السماء وساكنها ، حتى ينزل ما ينزله منها ، وإنما أصل الإنزال في أمثاله إنزال الرحمة من علوّ ساحة الربوبية إلى المربوبين الهزلاء النازلين كما أنزلت الانعام الثمانية ، وإن كان ذلك لا يمنع نزوله أيضا من السماء إلى الأرض كالأمطار.

فلما كانت الأرض شماسا مجنونة محترقة ، كانت الفلزات كالحديد وأمثاله سائلات أحيانا وغازات وكبخارات في جو الأرض ، أخرى ، فلما أخذت تقر وتبرد شيئا فشيئا ، أخذت السحب الغازية الحديدية وسواها تنزل فترة بعد أخرى فتدخل في شقوق الأرض أو تشقها فتدخلها فتصبح معادن تحت الأرض أو على مناكبها الجبال أحيانا!

والحديد هنا «يعني السلاح وغير ذلك» [٢] مما يحد ويقد ، ومن بأسه الشديد

---

(١) الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) في الآية : فانزاله ذلك خلقه إياه.

(٢) التوحيد للصدوق عن علي (ع) في الآية : يعني السلاح وغير ذلك.

ما هو عند البأس الشديد ، ودور الحديد معروف طول التاريخ في الحروب وغيرها ، إضافة إلى منافعها الاخرى.

ان البأس الشديد في الحديد لا يخص الأسلحة وفي حالة الحرب فقط ، انه يعم كل ما فيه الحاجة إلى البأس والقوة والصلابة ، من صناعات وبنايات وزراعات وسائر الحاجيات المحتاجة إلى البأس ، أو غيرها من منافع للناس :

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ : و (يعلم) هنا ، كما في أمثالها ، من العلم : الميز ـ دون العلم عن الجهل : ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (٨ : ٣٨) فمن ينصره ورسله بالحديد السلاح كما ينصر بسواه فهو الطيب ، ومن لا ينصر قاعدا عن القتال في سبيل الله من أولى الضرر فهو الخبيث مهما نصر بسواه ، فعلم الناصرين دين الله عن الخاذلين والمتخاذلين من أهم منافع الحديد ، فالله يعلمهم تمييزا لكم ، ليعرف بعضكم البعض في بلوى السلاح الحديد : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ (٤٧ : ٣١) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣ : ١٤٢) ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ. وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا﴾ (٣ : ١٦٧).

فالحديد السلاح ، وموقف الحرب اللزام ، انه بلاء يبلى به المسلمون ، فالجهاد علم : علامة وميز ـ للمؤمنين ، والقعود عن الجهاد ، أو الفرار من الزحف دون مبرر ، إنه علم على المنافقين أو ضعفاء المؤمنين ، علم لنا بأمر الله ، لا علم لله بعد جهل أم ماذا!.

فمن ينصر الله ورسله (بالغيب) : نصرة الله الغيب ، وللرسل الغيب ، فإن رسالتهم غيب ولو تثبت بالأدلة الشهود ، كما يثبت بها وجود الله ، وكذلك من ينصر الله ورسله نصرة بالغيب ، في عمق القلب وحق الرضا ، دون نفاق ورثاء كمن ينصر ظاهرا ، بلفظة قول أو عمل ما دام الأمل في هذه النصرة : أن تجلب له المناصب والأموال ، أو تعطف إليه الأنظار ، فإذا جاء الخطر وخاب الأمل فحيدي حياد!

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا .. وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ .. وَلِيَعْلَمَ اللهُ .. إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ :

فلأنه قوي الحجة والمهجة ، قوي الرحمة والمحبة ، قوي اللطف والعناية ، جعل الناس تحت ظلال البينات والكتاب والميزان ، ولأنه عزيز غالب محمود في غلبه ، ينفّذ شريعته أخيرا بقوة الحديد ، فللجهاد الدور الأخير بعد شلّ الحجج في تقويم الأود وتدعيم العمد ، رغم انها بالغة دامغة ، فالحديد ببأسه الشديد يفسح مجالات فاسحة للحياة الأمينة النبيلة ، بما يكسح ويمسح وصمات العار عن جبين الإنسانية بدحر أعداءها وقهر ألداءها!

ثم الرسالات الإلهية هي رسالة واحدة في جوهرها ، في مبدءها ومنتهاها ، في معناها ومغزاها ، مهما تشطرت في جزئيات هامشية منها ، كما وان أممها أمة واحدة : ﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٢١ : ٩٢) : امة لله ، تلتقي في عبادة الله.

وترى لماذا ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ لا المكلفون أجمع ومنهم الجان؟ هل لأن الرسل أرسلوا للناس فقط؟ وليست الرسالة محصورة لهم!

أقول : ليس إلا لأنهم محور الدعوة الرسالية والجان فروع ، كما وان رسالتهم فرع لرسالتهم ، فالرسل الأصول هم من الإنس للمرسل إليهم الأصول ، ثم الرسل الفروع الجن هم للمرسل إليهم الفروع الجن ، والقيام بالقسط على ضوء هذه الرسالات معني فيهم أجمع.

وقد توحي ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ انه الأصل في مثلث المنافع للحديد ، ف ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ﴾ هما نفعان له بطبيعة الحال ، قصدا أم لم يقصدا ، ولكن ثالث الأضلاع : (وليعلم) مقصود من الحديد ، فالجهاد به خير من سائر بأسه ، وأنفع من سائر منافعه ، لأنه يحفظ بيضة الدين ، ويؤمن الحياة ويطمئنها للمؤمنين ، كما وان علم الناصرين منهم عن الخاذلين مما يبصّرهم في مجتمعهم ، لكيلا يأمنوا إلى كل من يدعي الايمان ، نعمتان هامتان من بين سائر نعم الحديد!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَإِبْراهِيمَ وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ :

ان شجرة النبوة الواحدة الباسقة ، تمتد من فجرها وجذرها الأول الأصيل :

(نوح) وإلى ابراهيم وموسى وعيسى ، وتنتهي إلى خاتم النبيين محمد (ص) وبين هؤلاء الأصول فروع متشابكة غير متشاكسة ، تنبت من تلكم الأصول ، ذرية بعضها من بعض ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ﴾ وفي مقدمتهم النبيون الذرية ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ فليست النبوة للذرية لأنهم ذرية وارثة ، فالنبوة لا تعرف الذرية ولا تورث ، وإنما انتجاب من بين الذرية ﴿وَجَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتابَ﴾ لا أن كلهم أنبياء ذووا الكتاب.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ :

«ثم قفينا» التقفية هي جعل شيء إثر آخر استمرارا فيه بما كان ، فالرسل بعد نوح وابراهيم الى عيسى بن مريم ، بعضهم استمرار بعض : كل لاحق لسابقه في رسالة واحدة مهما كانت حملتها كثرة ، كقوافي الشعر المتلائمة التي تشد بعضها بعضا بالاقتفاء.

و ﴿عَلى آثارِهِمْ﴾ مما يؤكد هذه التقفية الاقتداء ، وليس اقتداء رسول برسول مما يجعل المقتدي أدنى من المقتدى به وهو أعلى من المقتدي ، ف ﴿إِنَّ الْهُدى هُدَى اللهِ﴾ (٢ : ١٢٠) لا هدى النبيين ، إلا حملا لها أمانة وتبليغا بها ، وكما أمر سيد المرسلين أن يقتدي بهداهم : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (٦ : ٩٠).

و (برسلنا) هنا لا تعم الرسل أجمع ، وإلا خرج عنهم نوح وابراهيم من قبل ، والمسيح ومحمد (ص) من بعد ، وإنما هم من بين نوح وابراهيم والمسيح ، مع التصريح بهؤلاء الثلاثة والتلميح أخيرا بمحمد (ص) : ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾ : من المؤمنين بالمسيح ، فالإيمان الثاني هو الايمان بالنبي المبشر به في الإنجيل محمد (ص) ، كما ويصرح به وبكتابه في آية تجاوبها : ﴿وَقَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ، وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ. وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللهُ ... لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً ...﴾ (٥ : ٤٨).

فلا تعني تقفية هؤلاء الرسل بالمسيح : ﴿وَقَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ لا هنا ولا هناك انه خاتم المرسلين ، وإنما كتقفية لكل سابق بلاحقه ، ومعظمه هنا تقفية الرسل الاسرائيليين بخاتمهم السيد المسيح ، ومن ثم يقفى بالرسول الاسماعيلي الذي هو بكتابه مهيمن على الكتب والرسل أجمعين.

فمن الهراء القولة الفارغة ان المسيح المقفى به الرسل هو خاتم المرسلين ، خلافا للتلويح هنا والتصريح هناك ان محمدا هو الخاتم لا سواه [1].

ولماذا لم يذكر موسى عليه السلام بعدهما وقبل المسيح عليه السلام وهو من الخمسة أولي العزم؟ علّه لأن المقام ليس مقام تعديدهم ، ولذلك لم يذكر أيضا سيدهم وخاتمهم محمدا صلّى الله عليه وآله وسلّم إلا تلويحا. والعناية بذكر المسيح بعد الأولين ليس إلا لاستعراض

---

(١) حاول الكاتب المسيحي (الحداد) في كتابه (القرآن دعوة نصرانية) إثبات ان المسيح خاتم النبيين بهذه الآية ، بان الرسل يشمل الكل ، فلما قفوا بالمسيح فهو آخرهم وهو زور هراء كما بيننا.

بعض الأحوال من الذين اتبعوه أو ابتدعوا في شرعته ، كما أن ذكر نوح وإبراهيم يعني بيان ذرية النبوة في أصليها.

مثلا لذلك ترى إنجيل المسيح لا يذكر بعد التوراة مع ذكر القرآن ﴿إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى﴾ (٤٦ : ٣٠) إيحاء بأن الإنجيل هو الكتاب الوحي الفرع ، لا يستقل عن التوراة ، فليس نبي الإنجيل أفضل من نبي التوراة حتى يترك اسمه قبل المسيح هنا.

وكون المسيح من ذرية نوح وإبراهيم ، ولا ينسب إليهما إلا من ناحية الام ، يؤيد صدق الذرية على أولاد البنات ، فالنصوص الإسلامية الدالة على اختصاص سهم السادة بذرية الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تشمل المنتسبين اليه بالأمهات ، وأصرح منها آية «أبناءنا» [1].

﴿وَآتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ﴾ نص على نزول إنجيل واحد على السيد المسيح ، لا أناجيل عدة متناحرة ألّفه مؤلفون عدة ، حصروا بعد ردح من الزمن وبعد غربلات في أربعة ، وهم مع ذلك مجهولون أو مجهولة نسبة هذه الأناجيل إليهم [2] ، وقد

---

(١) «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ».

(٢) راجع كتابنا «المقارنات» وكما اوردنا فيه مقالة (لاردنر) نقلا عن (فالتس): «ان هذا الأمر تحقق ان العهد الجديد لم يصنفه المسيح ولا الحواريون مطلقا ، بل صنفه رجل مجهول ونسبه الى الحواريين ليعتبره الناس ، وآذى المريدين لعيسى إيذاء بليغا بأن ألف الكتب التي فيها الأغلاط والتناقضات» (ص ٤٨).

وتذكر دائرة المعارف الفرنسية عن بعض الأساقفة ان نسبة إنجيل مرقس ويوحنا إليهما زور وافتراء وإنما ألفهما بولس (٥٠). وفي دائرة المعارف البريطانية : «اما إنجيل يوحنا فلا شك ولا مراء انه كتاب مزور» (٥٠). ويقول المفسر الانجيلي الشهير (هورن) : الحالات التي وصلت إلينا في باب زمان تأليف الأناجيل من قدماء مؤرخي الكنيسة منقطعة وغير معنية لا توصلنا الى امر معين (٥٢).

من مقالات الأستاذ (لن) ان إنجيل يوحنا بكامله تصنيف طالب من طلاب مدرسة الاسكندرية دونما تردد ، ونسبه الى يوحنا زورا ، ولقد كانت فرقة (لوجين) في ق ٢ م تنكر هذا الإنجيل وجميع ما أسند الى يوحنا ... (٥٠)

نجد اسما أو ممثلا عن إنجيل المسيح في بوتقات النسيان والتناسي ، يضيء أحيانا لمن شاء أن يستضيء [1].

وأما الرأفة والرحمة المجعولة في قلوب الذين اتبعوه ، فهما أمر ملموس ، لا في المسيحيين أجمع ، وإنما الذين اتبعوه ، وقد كان رؤفا رحيما ، فمن اتبعه ، وفي رأفته ورحمته ، فالله يجعلهما في قلبه زيادة في هداه.

وهؤلاء المتبعون هم نصارى المسيح الذين نصروه في زمنه وينصرونه بعده. ومن نصرته تصديقه بمن بشّر به : النبي محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وبالمودّة للمسلمين : ﴿... وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْباناً وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥ : ٨٣).

وهؤلاء هم الذين جعلهم الله فوق الكافرين الى يوم الدين : ﴿إِذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ...﴾ (٣ : ٥٥).

---

(١) إنجيل المسيح كان في العهد الأول في متناول الأيدي ، وكما في دائرة المعارف الانجليزية وكتاب اكسهومو ، واختاره الفاضل (اكهارن) وكثير من المتأخرين من علماء النمسا ، ومال اليه المحققون : ليكلرك ـ كوب ـ ميكايلس ـ ليسنك ـ نيمير ومارش ، وممن ظفر أخيرا بهذا الإنجيل المغفور له حيدر قليخان قرلباش المعروف بسر دار كابلي مترجم إنجيل برنابا الى اللغة الفارسية. ويقال ان بروفسور (كربن) الفرنسي مندوب الأدباء الفرنسيين في إيران ، اشترى هذا الإنجيل من مكتبة الكابلي ب ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٥ ريالا إيرانيا وأرسله الى باريس.

ومما يمثل هذا الإنجيل إنجيل برنابا القديس (راجع المقارنات).

هؤلاء الأماجد ، لا المسيحيين الناكرين للرسالة الإسلامية ، جاهدين لها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوّا ، أو الكارهين للفحص والتحري عنها ، المتجاهلين عنادا الحق فيها ، وأما الجاهلون القاصرون منهم ، المؤمنون ، فلهم أجرهم ولا يظلمون نقيرا.

﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ :

وما هي الرهبانية المبتدعة؟ وكيف يجمع بين البدعة والكتابة الإلهية؟

وما هو حق رعايتها؟ وهل في الإسلام رهبانية كما في المسيحية؟

الرهبانية في أصلها من الرّهبة : الخوف مع تحرّز واضطراب ، والرهبانية من الله مأمور بها : ﴿إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (١٦ : ٥١) ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ (٢١ : ٩٠) ، وهي من غير الله منهي عنها ، ﴿فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣ : ١٧٥) و (من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء).

وترى إذا كانت الرهبانية من الرهبة : الخوف ، فكيف تكون مبتدعة عند النصارى ، ومنهية عندنا؟! ...

أقول : لأنها شاكلة خاصة من الرهبة ، منسوبة الى الرهبان : المتعبدون الله في الأديرة والصومعات ، بعيدة معزولة عن المجتمعات ، فالرهبانية مصدر الراهب ، ثم تحوّلت اسما لما فضل عن المقدار وأفرط فيه ، أن تعيش بعيدا عن الحياة والأحياء ، شاغلا عن حاجيات الدنيا الى عبادة الله ، بترك ملاذها والزهد والتقشف فيها ، والعزلة عن أهلها وتعهّد مشاقها وكأنك في قبرك! فالرهبنة من مبتدعات النصارى وليست من مبتدءات الله في أية شريعة من شرائعه ، ولكن الله كتبها عليهم بعد ما ابتدعوها ، في إطارات خاصة وظروف

وزمن خاص وكما يروى [١] ، ففريق رعوها حق رعايتها ، وآخرون لم يرعوها.

وقد تكون «رهبانية» بين جعل وكتابة إلهيين على كونها عطفا ل «مودّة ورحمة» فالمجعول هو رهبة الرهبانية ، جعلها الله في قلوبهم مع المودّة والرحمة : ﴿وَجَعَلْنا ... وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ...﴾ والمكتوب هو الرهبانية الحقة بعد ما ابتدعوها ، والمبتدعة هي الانعزالية المطلقة عن الحياة إلى عبادة الله [٢].

إنهم حينما ابتدعوا الرهبانية ، كتبها الله عليهم ابتغاء رضوانه ، رفضا لما فيها من غايات اخرى ، فأصبحوا إذن مرتبطين بها أمام الله أن يرعوها حق رعايتها بما رفضوه عن أنفسهم وحرّم الله ، وما فرضوه على أنفسهم وكتب الله ، حفاظا على متطلباتها من تطهّر وترفع وعفة ومناعة وقناعة وعبادة ، مما يحقق في نفوسهم حقيقة التجرّد لله ، ولكنها انتهت في الغالب الى طقوس جوفاء ، فارغة عن الروح البراء ، تجارة كغيرها من تجارات ، إلا أنها بالدين وما أتعسه وأخسره من عناء لعناء!.

---

(١) مجمع البيان عن ابن مسعود قال : كنت رديف رسول الله (ص) على الحمار فقال يا ابن ام عبد! هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت : الله ورسوله أعلم ، فقال : ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى (ع) يعملون بمعاصي الله ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم ، فهزم اهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا : إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا ولم يبق للدين أحد يدعو اليه ، فتعالوا نتفرق في الأرض الى ان يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى (ع) ـ يعنون به محمدا (ص) ـ فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية ، فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ، ثم تلا هذه الآية : «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله» ، ثم قال (ص) : يا ابن ام عبد! أتدري ما رهبانية امتي؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة.

(٢) «إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ» استثناء متصل كما بينا ، وكونه منقطعا ينافي وجود المفعول «ها» في «ما كتبناها» فلا معنى لكونه منقطعا إلا على تاويل مستهجن يذاد عنه ساحة كلام الله بل وكل كلام فصيح او وعادي غير فصيح.

فمن حق الرعاية للرهبانية حصرها بزمن التقية ، حفاظا على دين الله وعلى البقية الباقية من المؤمنين بالله ، وأما أن يترك فيها اللذات المحلات كأنها محرمات ، كالنساء وأمثالها فلا!.

وأما أن يستمر بها في كل زمن كأنها من صلب الدين وحتى زمن القدرة على إظهاره والدعوة اليه ، وكما قد يفعله الرهبان المسيحيون ، فلا.

ومن حق رعايتها الإيمان بالرسول المبشر به من المسيح والنبيين قبله : محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم كما قال : «من آمن بي وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» ، فإن الرهبة الحقيقية من الله تحلّ عقد العصبية ، وتشرح الصدر لتصديق ما وصى به الله.

فهؤلاء الكرام هم الذين آمنوا بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وصدقوه ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ : الذين كفروا به وجحدوه [1] «فلما بعث النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم انحط صاحب الصومعة من صومعته وجاء السائح من سياحته وصاحب الدير من ديره فآمنوا به وصدقوه» [2] وهؤلاء هم القلة القليلة

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٧٧ أخرج جماعة من الحفاظ عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله (ص) : يا عبد الله! قلت لبيك يا رسول الله! ثلاث مرات ، قال (ص) : هل تدري أي عرى الايمان أوثق؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أوثق عرى الايمان الولاية في الله بالحب فيه والبغض فيه ، قال : هل تدري أي الناس أفضل؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أفضل الناس أفضلهم عملا إذا تفقهوا في الدين ، يا عبد الله هل تدري أي الناس أعلم ، قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وان كان مقصرا بالعمل ، وان كان يزحف على استه ، واختلف من كان قبلنا على اثنين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرها ، فرقة وأزرت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى بن مريم حتى قتلوا ، وفرقة لم يكن لهم طاقة بمؤازرة الملوك ولا بالمقام معهم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهم الذين قال الله : ﴿وَرَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ : الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ : الذين كفروا بي وجحدوني ، وروي الذي قبله ابن مسعود عنه (ص).

(٢) المصدر أخرج النسائي والحكيم الترمذي في نوادر الايمان وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في حديث طويل ...

الذين رعوا الرهبانية حق رعايتها ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ﴾ كما وهم لا يزالون في الصوامع والأديرة ، دكّات التجارات والغايات ، وأديرة التحمير والاستثمارات!.

فكثير من الراهبين التاركين الزواج بواحدة ، يغوصون في بحر من الدعارات بالراهبات ، وكثير من الراهبات التاركات الشهوات ، الرافضات الزواج الواحد ، يتلوثن بدعارات في الأديرة مع جماعات الرهبان.

هذا! ولكنما الرهبانية في الإسلام ممنوعة بكافة صورها ، فكان من حق رعايتها للرهبان المؤمنين بمحمد أن تركوها لأنها ممنوعة في الإسلام ، كما قال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : «رهبانية امتي الهجرة والجهاد والصلاة والصوم والحج والعمرة» (١) جمعا بين ألوان الواجبات الجماعية والفردية ومن أهمها الجهاد وكما قال : «رهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله» (٢) طبعا وبكل الطاقات : نفسا ونفيسا ، قلما ولسانا وفكرا أم ماذا ، دون الرهبانية الانعزالية الصومعية التقشفية ، العازلة عن الحياة ، المنعزلة عن المجتمعات ، ولو كانت محصورة في العبادات ، فالإسلام كله حياة ، وكله هجرة ، وكله جهاد ، وكله حج وعمرة وصلاة ، لا تختلف إلا في الصورة ، وأما السيرة والمسيرة فصيغة واحدة هي : سبيل الله!.

ان الرهبانية حتى الحقيقية منها لم تكتب علينا ، وإنما أبدل عنها بالجهاد ، وما ألطفه المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث يقول : «إني لم أؤمر بالرهبانية» (٣)

---

(١) كما مضى حديثه عن المجمع عن ابن مسعود وفي عيون الأخبار عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : صلاة الليل.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٧٨ أخرج أحمد والحكيم والترمذي في نوادر الأصول وأبو يعلي والبيهقي في الشعب عن انس أن النبي (ص) قال : لكل امة رهبانية ورهبانية هذه الامة الجهاد في سبيل الله.

(٣) أحمد بن حنبل ٣ ، ٨٢ ، ٢٦٦.

«ان الرهبانية لم تكتب علينا» [1] «وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام» [2] حتى ولا حالة التقية ، دونما حاجة الى صومعة أو دير ، ويروى أن نفرا من الصحابة أخذهم الخوف والخشية حتى أراد بعضهم أن يعتزل عن النساء ، وبعضهم الإقامة في رؤوس الجبال ، وبعضهم ترك الأكل والشرب فنهاهم النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عنها وقال : «لا رهبانية في الإسلام» ، وقال : «رهبانية امتي في المسجد» ، وان كنت ولا بد ، فكن في الناس ـ إذا ـ ولا تكن معهم ، وآخر المطاف أن تهاجر بدينك الى بلد يحملك أو تتحمله ، أو القتل أخيرا في سبيل الله ، فإن الحياة عقيدة وجهاد.

فبدعة الرهبانية فلتة بين البدع ، إذ ليست في النار «وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» فإنهم حفاظا على إيمانهم لم يجدوا بدا من هذه البدعة ، وقد احتفت بجعل إلهي لرهب الرهبنة من قبل مع المودة والرحمة في قلوبهم ، وبكتابتها كرهبنة حقيقية بعد ما ابتدعوها : ﴿وَجَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبانِيَّةً ... ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللهِ﴾.

ومن ثم المؤمنون أجمع سواء المسلمون وسواهم كالذين اتبعوا المسيح ، هم يؤمرون أن يؤمنوا بالرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تكملة الإيمان بالرسالة ، أو الإيمان بها :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ :

هنا يبرز الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم بشموخ الرسالة كأنه الرسول لا سواه: ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ وان الرسل قبله قد هيأوا ظروف رسالته العالمية الختمية دون أن يستقلوا بجنبه في شيء ، اللهم إلا رسالة للتعريف به وتعبيد المسالك لوصوله ، كالصفوف التكميلية المهيأة لقمة الثقافة!.

---

(١) سنن الدارمي نكاح ٣.

(٢) أحمد بن حنبل ٦ : ٢٢٦.

والمخاطبون أن يؤمنوا ثانيا بهذا الرسول هم المؤمنون من أهل الكتاب وسواهم ، وعد كلا كفلين من رحمته ، فالأولون إذ كانوا مؤمنين من قبل ثم استجدوا الإيمان به فلهم أجران [1] والآخرون إذ آمنوا أولا ثم ازدادوا إيمانا فلهم كفلان ، ومن ثم فمن لم يؤمن من أهل الكتاب تجاهلا وعنادا فلا كفل له ولا أجر وإنما وزر على وزر ، وإذا كان جهلا قاصرا فله أجر ، كمن آمن بالرسول من غيرهم ثم لم يستجد الإيمان فله كفل ، والمشركون وسواهم الذين لم يؤمنوا أولا وأخيرا فعليهم وزر ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾.

وعلّ هذه الآية الشاملة لفريقي المؤمنين تأمين للمسلمين منهم إذ فزعوا من أجر الآخرين مرتين : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ. وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ﴾ (٢٨ : ٥٥).

فلما نزلت هذه الآية قالوا يا معاشر المسلمين! أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم فأنزل الله هذه الآية : الكفلين [2].

إذا فالمحور الأصيل فيها هم المؤمنون من غير الكتابيين كما ويدل عليه : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ ...﴾ فإنهم بحجة آية الأجرين علموا تفوقهم على المؤمنين لو آمنوا ، ومساواتهم لو بقوا ، فلا يقدر المسلمون على شيء من فضل الله!.

---

(١) الجمع عن النبي (ص) في حديث : وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد (ص) فله أجران.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٧٩ أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس ، وابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان.

كلا! فهناك إيمان من أهل الكتاب قبل أن يسلموا ، ثم إيمان بعده فلهم أجران ، وهنا إيمان من غيرهم بداية ، ثم تقوى تحكّم ذلك الايمان فلهم كفلان ، حيث الايمان الأول للآخرين هو الايمان الثاني للأولين ، فقد فاقهم المؤمنون المتقون . إذا . في تحكيم الايمان ، فطالما لأولئك أجران ، فلهؤلاء كفلان إضافة الى نور يمشون به وغفران ، اللهم إلا أن يثلثوا إيمانهم بتقوى الايمان فهم سواء مع المؤمنين المثنين الايمان.

وترى ما هما الكفلان ، وما هو النور والغفران؟

الكفل هو الكفيل الضامن ، والرحمة الكفلان علّها الحسنتان : ﴿رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ (٢ : ٢٠١) وعلى النور الذي يمشون به فيهما ، وعذاب النار الذي يوقونها فيهما ، هما الكفلان أو منهما ، فحسنة الدنيا كفيلة لحسنى الحياة فيها ، بتحويلها الى حسنها في الاخرى ، وحسنة الاخرى التي هي الاخرى كفيلة بالروح والرضوان ، أو الحسنتان هما كفل ، والوقاية عن عذاب النار هو الآخر : كفالة إيجابية واخرى سلبية.

ثم النور الذي يمشون به هو الفرقان الناتج عن تقوى الايمان ، المخرج عن طغوى العصيان : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (٨ : ٢٩) ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (٣٩ : ٢٢) ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ (٦ : ١٢٢) في ظلمات الوسواس الخناس ومهابط الأحوال ومخابط الأوحال فلا ينزلق أو يتخبط.

وهذا النور كفل للمؤمنين عظيم ، يكفل تنويرهم في الحياتين ، ويتحول من الدنيا الى الأخرى نورا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ويتممه الله هناك :

﴿يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ (٦٦ : ٨).

ثم دور الغفران هو تتميم نور الإيمان ، وكفارة عما ربما يعرضه من نسيان وعصيان.

وكما عرفناه ، لا يكفل الكفلان إلا لمن زاد إيمانا على إيمان ، أيا كان وإنما بحساب وميزان ، وأجران لمؤمني أهل الكتاب ، ثم ولهم كفلان لو زادوا إيمانا على إيمان :

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ :

فآية أجرهم مرتين علمتهم أن المؤمنين من غيرهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، ومنهم من زعموا أنهم كأهل الكتاب لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي يؤتاه المسلمون ، وآخرون. وهم كثير. تعصبوا كأن الجنة خاصة بهم : ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى﴾ (٢ : ١١١) أو أن النبوة خاصة بآل إسرائيل كأنها محتكرة فيهم ، وآية الكفلين هدمت هذا المربع المزعوم بأضلاعه وتبنت صرحا عاليا بكفلين أعلى من الأجرين ، اللهم إلا إذا تحول أصحاب الأجرين الى حالة الكفلين ، أو تحول أصحاب الكفلين الى حالة الأجرين أو أدنى ، فلكل أجره وكفله ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

هكذا يحكم الله في آية الكفلين ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ : هم أو المسلمون ﴿عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ﴾ فالمسلمون قادرون على فضل الله وأحرى ، كما هم قادرون ، دون اختصاص ولا حكرة لفضل الله بقوم خاص ، وإنها القدرة بالإيمان والعمل كما يشاء الله ويرضى ، لا القدرة بالأمنية والأمل كما يهوون ، اللهم إلا الرسالة الالهية التي لا يقدر عليها أحد إلا صفاء هي كظرف للاصطفاء.

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ ...﴾ حال : ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ تكوينا وتشريعا ، لا بأيديهم كما يهوون ، ولا بأيدي الفوضى ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ لا من يشاءون ، وبميزانه العدل لا كما يزعمون.

ف «لا» هنا ، كما في غيرها نافية ، وقولة القائل انها زائدة فارغة زائدة ، تضم غلطة معنوية الى غلطتها الأدبية [1] كما الواو في «وان الفضل» حالية وليست عاطفة تجعل ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ متعلق اللاعلم : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ ... أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ﴾ نقيض ما يعنيه القرآن من تعليم الحقائق دون إغراء بجهالات وخرافات.

---

(١) لما عجز جماعة من الناس من تفسير «لِئَلَّا يَعْلَمَ» نفيا ، قالوا «لا» هنا زائدة ، فالمعنى إذا «ليعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله» وسواء أكان ضمير الجمع لأهل الكتاب أنفسهم أو للمسلمين فآيتا الأجر والكفل تناقضاهما ، فكل منهما قادر على شيء من فضل الله بفضل الايمان وغير قادر بالأماني.

(سورة المجادلة ـ مدنية ـ وآياتها اثنتان وعشرون)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ
وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ
إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)
وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ
تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا
فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرِينَ
عَذابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنا
آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ

يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ
أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ
إِلاَّ هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ
الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ
وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي
أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا
اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً
إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي
الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ

﴿وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١)

سورة تحمل ـ فيما تحمل ـ أحكاما تربوية جماعية أخلاقية ، جارفة التصورات الخاطئة ، والتصرفات الغالطة ، والعادات الجاهلة ، منشأة أسسا جديدة ، ومبادئ عالية ، في نفوس الجماعة المسلمة ، ولكي تحمل دعوة الإسلام آمنة مطمئنة لمن يبتغي السلام.

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

طرف من عنت الجاهلية بحق المرأة المظلومة المنكوبة ـ بين مئات الأعنات ـ أن الرجل كان يغضب على امرأته فيحرمها على نفسه بالظهار قائلا : «أنت عليّ كظهر امي» فتحرم عليه ، ولا تطلق منه كالمعلقة : لا أيّم ولا ذات بعل ، ظلما ما أفحشه بحقها وبحقه أيضا.

فالإسلام منذ بزوغه في أفق الجزيرة ، أخذ يجرف هذه الهرطقات آونات حدوثها ، ومن ذلك الظهار : ظاهر رجل من امرأته فأتت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تجادله في زوجها ، وتشتكي الى الله بأسها وبؤسه ، والرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يملك حكما ولا جوابا حتى يأتيه الوحي ، فانصرفت آئسة بائسة ، فإذا بالوحي يأتيه حاملا تفاصيل الحكم : ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ...﴾.

إن الله تعالى يسمع الأقوال لا كما نسمعها ، ويبصر الأحوال لا كما نبصرها ، فإنه سميع لا بآلة ، بصير لا بأداة ، فطالما يكلمنا عن نفسه بلغتنا لكي نتفهم ، ولكنه لا يعني منها إلا ما يناسب ساحة قدسه دون مناسبات الممكنات ، فسمعه وبصره هما علم ما يسمع وما يبصر ، دون سمع ولا بصر كما لسواه.

وهنا سمع أول ، يشمل سمع العلم بالشكوى ، وسمع إجابتها : ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ ...﴾ وسمع ثان علّه يخص الأول : ﴿وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما﴾ أو يشمل الثاني ، وثالث يعمهما أيضا : ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ : الدعاء : قولا وإجابة ﴿بَصِيرٌ﴾ بموارد الإجابة ، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

وهل تجوز مجادلة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم للشكاة على المشكي عنهم ، وليس الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بالذي يتخلى عن الحكم الحق وفصل الخصومات والإنتصار للمظلومين؟.

إن الاشتكاء إلى الله هنا يوحي بأن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ما كان يملك حكما حينها ، فالمشتكية عن زوجها ما ملكت نفسها حتى جادلت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لامسا بكرامته ، وإنما طبيعة المضطر الذي يضيق عليه المخرج أن يجادل الحاكم ويشتكي إلى الله الذي فوقه لكي يحكم ويحلّ ، فالاشتكاء إظهار ما بالإنسان من مكروه رجاء حلّه ، فإذا لم يجد حلا عند الخلق يرفع شكواه إلى الخالق ، وهذه هي السنة السنية أن يشتكى الى المؤمن فإنه شكوى الى الله ، فلو قصر أو قصّر رفعها الى الله ، توسلا بالأسباب ، ثم الى مسبب الأسباب ، وهي الطريقة المثلى ، دون الاقتصار على الأسباب ، أو رفضها بتاتا والاشتكاء الى الله في كل قليل وجليل! ثم الجدال ـ لغويا ـ لا توحي بسوء ، فمنها شيء ومنها حسن ومنها أحسن ، ولم تكن شكوى المظاهر منهما الى الله على رسول الله ، وإنما على المظاهر ، ولقد كان النبيون يجادلون الله : ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ (١١ : ٧٤) : جدال خير ، رغم ﴿إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ﴾ (٦ : ١٢١) : جدال شر ، فإن الجدال أصله المفاوضة للإحكام ، من جدلت الحبل : أحكمت فتله : إحكام حق أو باطل ، وما كانت المظاهر منها تجادله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلا لإحكام حقها وانتصارها على زوجها المظاهر ، في محاورة : مرادّة بينها وبين الرسول : تقول : «يا رسول الله إن فلانا زوجي ، وقد نثرت له بطني وأعنته على دنياه وآخرته ولم ير مني مكروها ، أشكوه إليك ، فقال : فيم تشكونيه؟ قالت : إنه قال : «أنت عليّ حرام

كظهر امي» وقد أخرجني من منزلي فانظر في أمري ، فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ما أنزل الله تبارك وتعالى كتابا أقضي فيه بينك وبين زوجك ، وأنا أكره أن أكون من المتكلفين ، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها الى الله عز وجل والى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وانصرفت .. وأنزل الله في ذلك قرآنا : ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. قَدْ سَمِعَ اللهُ ...﴾ [(١)].

وهذه المنعة والحائطة الرسولية مما تحكم عقد الرسالة وتطمئن الناس أنه ﴿ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ وكما أمره الله : ﴿... لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ ...﴾ (٤ : ١٠٥) فما هو إلا رسول وليس مشرّعا!.

ثم الشكوى هذه توحي بأن المرأة في الإسلام لها حق المجادلة بحقها ، والمحاورة بشأنها ، حتى ومع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم دون أن يحكم عليها بالسكوت والخمول ، وأنّ إذن الزوج لا يشترط فيما يحق لها من جدال وتراجع لأخذ الحق الى حكام العدل.

﴿الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

تنديد شديد بالمظاهرين من نسائهم ، زاعمين أنهن يصبحن كأمهاتهم بهذا القول الزور المنكر.

---

(١) القمي باسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : ان امرأة من المسلمات أتت النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقالت : ...(نور الثقلين ٥ : ٢٥٤). أقول : وهذه المرأة حسب الروايات هي خولة بنت ثعلبة زوجة أوس بن الصامت ومن ذلك ما روته عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء اني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهي تقول : يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم اني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبرئيل بالآيات ، (الدر المنثور ٦ : ١٧٩).

فهنا علاجان لمشكلة الظهار : علاج من أساس : أنه منكر من القول وزور كما هنا فليترك ، وعلاج ثان : تحليل المظاهر منها بالكفارة كما يأتي.

فالزوجة لن تصبح اما : لا واقعا ، فهي التي ولدته ، ولا شرعا إلا في التي أرضعته : ﴿وَأُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ (٤ : ٢٣) أو نساء النبي حفاظا على كرامته ﴿وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ﴾ ودونهما : ف ﴿إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ :

حصر الامومة الواقعية في الوالدة ، ثم الشرعية الاعتبارية منها لا تحصل إلا بالرضاع فتحرم مؤبدة وهي مثل الام إلا في الميراث ، وإلا في أزواج النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وتحصل الحرمة المؤقتة تأديبا في الظهار ، فلا امومة فيه لا واقعا ولا اعتبارا وتنزيلا.

فالحصر هنا وان كان محصورا في الامومة الواقعية ، ولكنما المنكر والزور موجهان الى التنزيلية المقصودة من التشبيه.

فالقول : إن المظاهرين من نسائهم إنما كانوا يشبهونهن بأمهاتهم بغية التحريم كما هن ، لا أنهن أمهاتهم واقعا ، والآية تنفي الامومة الواقعية هنا دون التنزيلية ، فأين المنكر والزور؟ يرده أن نفي الامومة الواقعية ينفي التنزيلية والمشابهة في الحكم أيضا إلا بدليل ، والمنكر والزور هنا هو الحكم بالحرمة كالام ، أو الإخبار بها : فالقول «أنت عليّ كظهر امي» إن كان إنشاء تشريعا لحكم الحرمة فهو منكر ينكره العقل والعاطفة ، وكذلك زور ، لأن ذلك من اختصاصات الشارع الإلهي دون سواه ، وإن كان إخبارا عن حكم الله فهو زور وغرور.

ف ﴿ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ﴾ ينفي الامومة الواقعية ، وبما أن نفيها لا يكفي لنفي المشابهة. وان كان يوحي به. يثنيّه بنفيها أيضا : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً﴾ إذ لا دليل على المشابهة هنا ، بخلاف ﴿أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وزوجات النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فهن محرمات كما الأمهات الواقعيات ، بدليل هذه الآيات.

فالقول «أنت عليّ كظهر امي» منكر ينكره الواقع والشرع والضمير واعتبار العقل ، وزور يكذبه الشرع والواقع ، عادة جاهلية تعرّقت فيهم كأنها أصل يعتمد عليه.

والظهار من الظهور بمعنى الغلبة والعلو : ﴿فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ : يعلوه ، فالزوج غالب على زوجته يملكها في بضعها ، ويعلوها في أمره وإرشاداته : ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ﴾ ﴿كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا﴾ كذلك ويعلوها ويركبها حين يطؤها ، ولذلك قد يعبّر عن طلاقها بالنزول عنها : «نزلت عن امرأتي» إذ كان يركبها ، مسيطرا عليها ... فليس ـ إذا ـ من الظهر ، فإنه ليس أولى بالذكر من الأمام الذي فيه مواضع المباضعة والتلذذ منها ، فظهر المرأة ليس أصلا فيما يرغب منها ، بل وفي إتيانها منه قول بالتحريم!.

وإذا كان الظهار منكرا من القول وزورا فهو محرم قطعا ، ولا ينافيه عفو الله وغفره : ﴿وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ فإنه بعد التوبة والكفارة التالية.

﴿وَالَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

صحيح أن الظهار لا تجعل الزوجة كالام في حرمة مؤبدة وكالمعلقة ، ولكنها تحرّمها مؤقتة نكالا من الله ، فالمقصود منه لم يقع ، والواقع غير مقصود ، وحكم الحرمة المؤقتة الزائلة بالكفارة من الله تعالى تأديب وتأنيب للمظاهرين من نساءهم ، وليس إمضاء لسنة جاهلية.

و ﴿مِنْ نِسائِهِمْ﴾ تعم الدائمة والمنقطعة وملك اليمين خلافا للأربعة في الثانية إذ لا يعتبرونها زوجة ، ولأبي حنيفة والشافعي في الأخير ، وعموم النساء للثلاث ، وان المنقطعة زوجة بالكتاب والسنة ، حجة عليهم ، وكما سويت بين الحرة والأمة

في أحاديثنا [1]. وقد تشمل المطلقة الرجعية فإنها زوجة ، فلو ظاهر منها حرم وطئها قبل الكفارة ، ولا تشمل قبل التزويج خلافا لمالك وأبي حنيفة في الأخير ، وقولهما يخالف النص : «من نساءهم».

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾ : القول هنا هو الظهار ، وليس العود له تكراره ، فإنه عود اليه لا له ، ولا صرف الندم على الظهار ، فإن العود ظاهر في العمل دون النية والحالة ، وتجاوبنا الآيتان : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ : من النجوى المحرمة ، مواصلة فيها ، وإنما يعني العود للظهار ، نقضا له وعودا الى حاله قبله ، كأن لم يكن ظهار : ان يواقعها ، ويوحي به ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ وفي الصادق عليه السلام «إذا أراد أن يواقع امرأته» [2].

إذا فلا يراد من العود له إلا ثالث ثلاثة : عودا لنقضه ، ورجوعا الى حالة ما قبل الظهار ، فعود التكرار يكرر الكفارة ، وليس موجبها لأول مرة ، إذ هو منكر وزور كما في مرات اخرى بعدها ، ونص الآية يثبت الكفارة بعد العود.

ثم لا يحرم بالظهار إلا الجماع الذي تحلله الكفارة ، فغيره من الالتذاذات حلال قبل الكفارة ، إلا على تفسير التماسّ بمطلق الالتذاذ جماعا وسواه ، ولكن التماس نفسه ينفيه ، فإنه مس من الجانبين كناية عن المواقعة ، بل المس أيضا كذلك في متعارف القرآن فضلا عن التماس ، كما في العلوي [3].

---

(١) الكليني عن إسحاق بن عمار قال سألت أبا ابراهيم عليه السلام عن الرجل يظاهر من جاريته فقال : الحرة والأمة في ذلك سواء ومثله كثير(الوسائل ١٥ : ٥٢٠).

(٢) رواه ابن بابويه في الصحيح عن جميل بن دراج عن الصادق عليه السلام أنه سأله عن الظهار متى يقع على صاحبه فيه كفارة؟ فقال : إذا أراد أن يواقع امرأته (قلائد الدرر ٣ : ٢٧٠).

(٣) الكليني باسناده عن الباقر عليه السلام عن أمير المؤمنين في حديث طويل : «مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا» يعني مجامعتهما (الوسائل ج ١٥ : ٥١٠) ورواه القمي في تفسيره مثله ، وفيه ص ٥١٨ القمي عن الصادق عليه السلام سألناه عن الظهار متى يقع على صاحبه الكفارة؟ قال : إذا أراد أن يواقع امرأته ورواه الشيخ والصدوق مثله.

ويحرم على الزوجة ما يحرم على الزوج بنفس سند التماس حيث يحرّم المس من الطرفين ، فيحل لها بكفارة الزوج ، والحكمة في هذا الحرمان من جانب الزوجة أن تساعد على حرمان الزوج.

ويصح ظهار العبد كما الحر ، وعدم ملكه لرقبة حتى يعتق يدخله فيمن لم يستطع ، دون أن يخرجه عمن يصح ظهاره ، ولكنه لا يصح من المرأة للنص : ﴿مِنْ نِسائِهِمْ﴾ إضافة الى أن لغة الظهار لا تناسب إلا الزوج كما سبق في أحاديثنا (١).

وهل يصح الظهار قبل الدخول؟ نعم لإطلاق الآية ، ولا للأحاديث المقيدة لها بالمدخول بها ، خلافا للأئمة الأربعة ، وفاقا للأئمة الاثني عشر عليهم السلام إذ يروون عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم شرط الدخول (٢) ، كما رووا اشتراطه بحالة طهر غير المواقعة بحضور عدلين كالطلاق خلافا للأربعة (٣).

والنص هنا ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا﴾ فلو لم يعد فهل تحرم عليه حتى يعود ، أو لا يعود فتصبح كالمعلقة؟ قطعا لا! فكيف يرضى الله بهذا الذي سماه كذبا وزورا أن يستمر ، وإنما يجبر على أحد أمرين : العود مع الكفارة ، أو الطلاق فيما إذا رفعت المظاهر منها أمرها الى الحاكم ، كما في أحاديثنا : انه يجبر على أحد الأمرين بعد ثلاثة أشهر من المرافعة.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ : إذا كانت عنده رقبة ، وإلا فليشتر

---

(١) القمي باسناده عن الصادق عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام إذا قالت المرأة : زوجي علي كظهر امي فلا كفارة عليها.

(٢) الكليني بإسناده عن الصادق عليه السلام عن رجل مملوك ظاهر من امرأته فقال عليه السلام : لا يكون ظهار ولا إيلاء حتى يدخل بها ورواه الصدوق بسندين عن الصادقين عليهما السلام (الوسائل ١٥ : ٥١٦).

(٣) الكليني بإسناده إلى الباقر عليه السلام قال : لا يكون ظهار إلا في طهر من غير جماع بشهادة شاهدين مسلمين ورواه القمي في تفسيره مثله ومثله كثير (الوسائل ١٥ : ٥٠٩).

ويحرّر ، وهل يشترط فيها الإيمان؟ اللهم نعم ، كما تدل آيات التحرير وحكمته.

تحرير رقبة جزاء بما نوى أسر رقبة : أن يحرم زوجته عما يحق لها وقد جعل الله العتق في كفارات متنوعة ، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب ، وحكم الإسلام بالترقيق لأسرى الحرب ، ثم حكمه هنا وهناك بتحريرهم ، حكمان عادلان ، في الأول تسلب حرية الأسير الكافر كفا عن بأسه ، وإشغاله كما يجب إسلاميا ، وتثقيفه كذلك ، حتى إذا أسلم يأتي دور الحكم الثاني : التحرير.

﴿ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أن تكفّروا فلا ترجعوا لمثله ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ : من ظهار ، وعود له ، أو وطيء قبل الكفارة أو بعدها ﴿خَبِيرٌ﴾.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾.

لم يجد تحرير رقبة ، سواء أكان عدم الوجدان لعدم وجود رقبة كما في هذا الزمان ، أو لعدم مال يكفيه لاشتراءه ، أو لأنه هو رقبة فلا يملك رقبة حتى يحررها ، أو لحاجة مدقعة إليه رغم وجود المال ، أو وجود الرقبة ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها. كفارات مترتبة أوسطها صيام شهرين متتابعين ، والتتابع هنا كما في كفارة الصيام.

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.

والنص : «ستين» يحكم بعدم جواز إطعام واحد أكثر من واحد ، خلافا لأبي حنيفة : أن «لو أطعم مسكينا واحدا ستين مرة يجزي» : خلافا لنص الآية» [1].

وواجب الإطعام هو المعتاد في الطعام ، وان زاد ففضل ، «ذلك»

---

(١) ومن الغريب احتجاج أبي حنيفة لرأيه بان «المقصود دفع الحاجة وهو حاصل» وهذا اجتهاد مقابل نص القرآن!.

الضغوط النفسية والمالية عليكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ فلا تأتوا بتصرفات وأقوال منكرة وزور فإنها خلاف الإيمان ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ لا ما حددتم لأنفسكم في مثل الظهار أن تكلفتم ما لم تكلّفوا ﴿وَلِلْكافِرِينَ﴾ عقائديا أو عمليا بهذه الحدود الإلهية ﴿عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.

وعدم استطاعة الصوم شهرين متتابعين أعم من العجز عن أصل الصوم ، أو الصوم هكذا ، أو أن الشبق الشديد والغلمة الهاجمة يطيقانه عن أن يصبر شهرين رغم إمكانية الصوم ، شرط ألا يجد طريقا آخر لإطفاء نائرة الشهوة كزواج منقطع ومثله.

وإذا لم يجد ما يطعم يستغفر الله ويؤدى عنه من بيت المال لو أمكن ، وهو ممن يأكل من الكفارة لو كان مسكينا كما في أحاديثنا [١].

وهل تسقط هذه الكفارات إذا واقعها قبلها؟ كلا! وإنما تثبت كفارة اخرى للوقاع قبلها [٢]. و ﴿قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ بيان لظروف وجوبها وان الوقاع قبلها محرّم ، فلو واقع فعل محظورا ، فهل إن فعل المحظور يسقط الكفارة!.

---

(١) القمي بإسناده عن الصادق عليه السلام قال : جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله! ظاهرت من امرأتي ، قال : اذهب فأعتق رقبة ، قال : ليس عندي ، قال : اذهب فصم شهرين متتابعين ، قال : لا أقوى ، قال : اذهب فاطعم ستين مسكينا ، قال : ليس عندي ، قال : فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أنا أتصدق عنك فأعطاه تمرا لإطعام ستين مسكينا ، فقال : اذهب فتصدق بها ، فقال : والذي بعثك بالحق لا أعلم بين لابتيها أحدا أحوج اليه مني ومن عيالي ، قال : فاذهب وكل وأطعم عيالك (نور الثقلين ٥ : ٢٥٧).

(٢) الشيخ الطوسي بإسناده عن الحلبي عن الصادق عليه السلام عن الرجل يظاهر من امرأته ثم يريد أن يتم على طلاقها؟ قال : ليس عليه كفارة ، قلت : إن أراد أن يمسها؟ قال : لا يمسها حتى يكفر ، قلت : فان فعل فعليه شيء؟ قال : إي والله إنه لآثم ظالم ، قلت : عليه كفارة غير الاولى؟ قال : نعم يعتق أيضا رقبة وروي ما في معناه عن الحسن الصيقل عنه عليه السلام وعن أبي بصير عنه عليه السلام (الوسائل ١٥ : ٥٢٧ ـ ٥٢٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ﴾.

المحادة هي الممانعة ، والكبت : رد بعنف وتذليل ، وهذا المقطع صورة من صور الحرب والنكاية للذين يحادون الله ورسوله : يأخذون لأنفسهم مواقف وحدود مستقلة وجاه حدود الله ، في التكوين وفي التشريع ، واقفين عند حدّهم . حسب زعمهم . لحدود الله ، يتعدونها في تبجح وغرور ، فيختلقون أحكامهم المنكرة الزور ، كمن كانوا يظاهرون من نسائهم ، انهم ﴿كُبِتُوا﴾ :

ردوا بعنف وتذليل ، عن حدودهم الى حدود الله ، كما ردّ الذين من قبلهم من حماقى الطغيان ، وهذه الآيات البينات تكفي بيانا لحدود الله ﴿وَلِلْكافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذابٌ مُهِينٌ﴾ كما أهانوا الله في محادتهم. ان المحادين لهم كبت في الدنيا ، وعذاب مهين فيها وفي الآخرة :

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللهُ وَنَسُوهُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا﴾ كما عملوا ، فيسمعهم ما قالوا ، ويريهم ما عملوا ﴿أَحْصاهُ اللهُ﴾ : في الشهداء من أنفسهم وأعضائهم وأرضهم وفي نفوس الملائكة الكرام الكاتبين والنبيين ، أحصاه : تلقيا منهم وإلقاء ، رغم أنهم ﴿نَسُوهُ﴾ ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾: حاضر علما في تلقيها ، وحاضر علما في إلقائها ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون ، وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون.

لا فحسب أنه شهيد على كل شيء ، فإن له علما شاملا بالكون كله ، فإلى صورة حية منه تمس أوتار القلوب :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى

ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ : رؤية العلم كأنها عيان ، استفهام تقرير : أن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يرى . فيما يرى . ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ من سرّ وإعلان ، دون أن يكون شيء أقرب له من شيء ، أو أبين له من شيء ، يعلم ما في الكون على سواء ، دون أي جهل أو خفاء ، ويعلم من يتناجون ونجواهم و ﴿هُوَ مَعَهُمْ﴾ معية العلم والقيومية ، لا معية الكيان والحدّ والعدد ﴿ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ﴾ : أشخاص رجالا أو نساء أم مختلطين ، تناجيا ومسارة بينهم ﴿إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ﴾ وليس ثالثهم ، إذ لا يتناجى معهم ولا يتناجون معه ، وليس داخلا في أي حد وعدد ، وإنما «رابعهم» في علمه بما يتناجون ، دون أن تخفى عليه خافية ، أجل ، وانه تعالى لا يتمم عدد الكائنات بذاته ، فهو «واحد بعدد ، ولا عن عدد ، ولا بتأويل عدد» فليس رابعا لهم ككائن محدود بحدودهم ، يقارنهم في كيانهم وزمانهم ومكانهم ومكانتهم ، وإنما مقارنة المعية العلمية والقيومية (داخل في الأشياء لا بالممازجة ، خارج عن الأشياء لا بالمزايلة) ﴿وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ﴾ بنفس المعنى ﴿وَلا أَدْنى مِنْ ذلِكَ﴾ اثنين أو واحد : كمن يتناجى ونفسه : ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ ﴿وَلا أَكْثَرَ﴾ من خمسة وأكثر ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا﴾ : وهذه المعية المطلقة اللامحدودة تفسير عميق أنيس لكونه تعالى رابع المتناجين أو سادسهم ، انه المعية العلمية دون حجاب ، لا والمعية العددية وسواها من المعيات التي لا تناسب ساحة قدسه تعالى ، كما وان ﴿أَيْنَ ما كانُوا﴾ يخرجه وينزهه تعالى عن المكان أيا كان ، فليس للمحيط على كل ماكن ومكان أن يكون في كل مكان ، إلا كونا علميا ، وكما في جواب الامام علي عليه السلام عما

سأله جاثليق : أين هو؟ وعما سئل عنه أبو بكر [1] وكما عن الامام الصادق والكاظم عليهما السلام [2].

وانها لصورة سارية سارّة من الحيطة العلمية الإلهية ، بكل شيء ، وبنجوى المتناجين ، ومعاريض المتخافتين ، سامعا للحوار ، وشاهدا للسّرار ، تترك القلوب وجلة لا تثبت لها ، ولا تقوى على مواجهتها ، ثم هي في نفس الوقت أنيسة أليفة لمن يعرفون الله ويرجون له وقارا.

---

(١) اصول الكافي بإسناده سأل الجاثليق أمير المؤمنين عليه السلام فقال : أخبرني عن الله عز وجل أين هو؟ فقال عليه السلام : هو هاهنا وهاهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله : «ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ... ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا﴾ (البرهان ٤ : ٣٠٣).

وفي إرشاد المفيد : وجاءت الرواية أن بعض أخبار اليهود جاء الى أبي بكر فقال له : أنت خليفة نبي هذه الامة؟ قال له : نعم ، فقال له : إنا نجد في التورات أن خلفاء الأنبياء أعلم أممهم فخبرني عن الله أين هو؟ في السماء هو أم في الأرض؟ فقال له أبو بكر : هو في السماء على العرش ، فقال اليهودي : فأرى الأرض خالية منه! وأراه على هذا القول في مكان دون مكان! فقال له أبو بكر : هذا كلام الزنادقة ، اغرب عني وإلا قتلتك ، فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : يا يهودي! قد عرفت ما سألت عنه وأجيب عنه به ، وإنا نقول : ان الله جل جلاله أيّن الأين فلا أين له ، وجل أن يحويه مكان ، هو في كل مكان بغير مماسة ولا مجاورة ، يحيط علما بما فيها ولا يخلو شيء منها من تدبيره تعالى ... (الى أن قال) فقال اليهودي : أشهد أن هذا هو الحق وأنك أحق بمقام نبيك ممن استولى عليه (نور الثقلين ٥ : ٢٦٠).

(٢) تفسير البرهان ٤ : ٣٠٢ عن الكافي بإسناده عن ابن أذينة عن الصادق عليه السلام في هذه الآية : هو أحدي الذات بائن من خلقه وبذاك وصف نفسه وهو بكل شيء محيط بالإشراف والاحاطة والقدرة ، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالاحاطة والعلم لا بالذات لأن الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة فإذا كان بالذات لزمها الحواية.

وفيه عن الامام الكاظم عليه السلام قال : ان الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان لا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه احتجب بغير حجاب محجوب واستتر بغير ستر مستور لا إله إلا هو الكبير المتعال.

وكفانا حضوره بما نسرّ ونعلن رهبة منه ، ورغبة في طاعته ، ولكنه ينبئنا بما عملنا يوم القيامة ، رجفة فوق رجفة : ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وانه يعاملنا بما عملنا ويحكم ﴿وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾.

وعلّ تخصيص الذكر بالعددين الفردين بمناسبة النزول [(١)] وان الله يحب الوتر لأنه وتر طالما بين الوترين من بون.

ثم التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وما يحزن الذين آمنوا ، إنها محرمة وأحيانا لحد الكفر ، كما أن التناجي بالبر والتقوى محللة ولحد الوجوب أحيانا فيما يحمل تحقيق واجب أو الذب عن محرّم ، فلا تحرم ولا تجب ذاتيا ، إلا بما تحمل من مفروض أو محظور :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَيَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

أتى ذكر النجوى بخيرها وشرها في سبع سور [(٢)] تندد بالذين يزعمون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم (٤٣ : ٨٠) (٩ : ٧٨) وأن النجوى لا خير فيها ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (٤ : ١١٤) ناهية عن نجوى الظالمين : ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ (٢١ : ٣).

ولقد كانت للمنافقين والذين في قلوبهم مرض مؤامرات سرية يتناجون فيها ضد الرسالة الإسلامية ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ﴾ وضد الرسول : «معصيت الرسول»

---

(١) قيل نزلت في قوم من المنافقين اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين وكانوا على هذين العددين.

(٢) هذه السورة والإسراء ، طه ، الأنبياء ، النساء ، التوبة ، الزخرف.

الثالوث المنحوس من نجواهم ، رغم ما أمروا بطاعة الله والرسول ، فطاعة الله تعم العلاقات الفردية والجماعية سلبا وإيجابا : محرمات وواجبات ، فالإثم المقرون بالعدوان هنا هو التخلفات من القسم الأول التي لا تعدو المتخلف الى سواه إلا شذرا ، والعدوان هو الثاني الذي يعدوه الى سواه ، ومعصيت الرسول لا تعمهما ، وإنما تخص التخلف عن أوامره ونواهيه الولائية كرئيس للدولة الإسلامية ، فطاعته فيها طاعة الله بالعنوان الثانوي ومعصيته معصيته ، فلو لا أمره أو نهيه لم يك وجوب ولا حرمة.

فالمتآمرون ضد الإسلام كانوا يتناجون في ثالوثهم المنحوس «بالإثم والعدوان ومعصية الرسول» ما ينهار به الإسلام من أساس ، ولكن الله كان يخبر الرسول بهذه الخطط اللئيمة ، والدسائس الخفية ، والتدابير السيئة للجماعة الإسلامية.

لقد نهاهم الله عن نجواهم هذه ، ثم يعودون لما نهوا عنه إصرارا في إسرارهم المكائد اللئيمة ، فيطلع الله نبيه والمؤمنين بثالوث النجوى ، وأنهم يحيّون الرسول بغير التحية الإسلامية : «حيوك بما لم يحيك به الله» فهل إنها (السام عليك) كما كان من اليهود قاصدين : (الموت أو المرض عليك)؟ أو انها (أنعم صباحا وأنعم مساء) : تحية أهل الجاهلية [1]؟ علّ الآية تشملهما ، ولكنها لا تخص الاولى ، بل قد تخص الثانية ، فان «ما لم يحيك به الله» توحي بأنهم كانوا تاركي السنة الاسلامية في تحيتهم وهي «السلام عليكم» لا انهم كانوا يسبون الرسول في تحيتهم ليّا بألسنتهم وطعنا في الدين كما اليهود كانوا يفعلون.

ويرد عليهم أيضا قولهم في أنفسهم : ﴿لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِما نَقُولُ﴾ بقوله : ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ : فعذاب الدنيا لا يحسب له حساب

---

(١) القمي في تفسيره .. وقولهم إذا أتوه : أنعم صباحا وأنعم مساء وهي تحية أهل الجاهلية ، فأنزل الله ﴿وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾ ، فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أبدلنا الله بخير تحية أهل الجنة : السلام عليكم (نور الثقلين ٥ : ٢٦١).

بجنب الآخرة ، إذ يصلون : يوقدون ، جهنم ، كما كانوا وقودا لنيران المؤامرات يوم الدنيا ، وحسبهم من عذاب الدنيا أن الله يفضحهم في مكائدهم ومصائدهم ضد الرسالة الإسلامية ﴿خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ﴾!.

وطالما لم يؤثر النهي عن النجوى في المنافقين ، ولكنه مؤثر في الجماعة المؤمنة التي قد تنجرف في نجوى سيئة فتؤدي بها إلى «الإثم ﴿وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كالتشاور فيما يرتبط بالسياسة الإسلامية ، بعيدا عن القيادة ، والتجمعات الجانبية ، تناجيا هنا وهناك ، المنافية لروح التنظيم الإسلامي ، فإنها قد تؤدي ـ وكثيرا ما تؤدي ـ إلى البلبلة والفوضى ، الراجعة ﴿بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ وإن لم تكن مقصودة! إلا أن مجرد الإثارة للمسائل الجارية ، وإبداء الآراء فيها على غير علم ، وبعيدا عن القيادة ، قد يؤدي إلى هذا الثالوث المنحوس الذي يبغيه المنافقون ضد الإسلام.

فحذار حذار أيتها الجماعة المسلمة أن تعاونوا المنافقين على أنفسكم في تناجيكم الجانبية ، فتصبحوا أعداء أنفسكم وسائر المؤمنين!.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَناجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ :

﴿تَناجَوْا بِالْبِرِّ﴾ : في علاقاتكم الفردية والجماعية ، ما ثبت أنه برّ : واسع الخير والبركة ﴿وَالتَّقْوى﴾ : التجنب عن سخط الله ، وعن معصية رسول الله ، «تناجوا» فيما بينكم لترك التصميمات الجانبية ، فيما يرتبط بالقيادة والتنظيم والسياسة الاسلامية «تناجوا» تخفيا عن الأعداء ـ لا عن المؤمنين المسالمين ـ أو تخفيا عن ضعفاء العقول من المؤمنين ، الذين يفشون الأسرار جهلا فتبوء بالخسارة والدمار ، «تناجوا» متقين عن محاظير التناجي فرديا وجماعيا.

﴿إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ :

فقد تكون النجوى خالية عن الإيذاء والإزراء والمؤامرة ، وإنما بالبر والتقوى كما في تناجي الرسول والمؤمنين ، فهي راجحة أو واجبة ، وقد تكون محزنة ومؤذية للمؤمنين وإن لم تكن فيما يضرّهم ، فهي محرّمة تشملها الآية.

وقد وردت الأحاديث النبوية بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة ، وتزعزع الثقة ، وتبعث التوجّس ، وعلى حدّ قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : (... ما هذه النجوى! ألم أنهكم عن النجوى؟» [١]. كما عن الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم : (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه) [٢]. اللهم إلا فيما لا مندوحة عنه وهو أوجب من وجوب رعاية أشخاص المؤمنين ، كالتناجي فيما يهمّ الدولة الاسلامية ، ويجب إسراره لأنه من أسرار الدولة ، تقديما للواجب الأهمّ.

وقد تكون مؤامرة ضد المسلمين ومؤذية للمؤمنين : ﴿ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ، فتشملها الآيات : هذه والمسبقتان ، حرمة مضاعفة ، سواء أكانت من المؤمنين ، أم من المنافقين ، مهما كانت مختلفة في دركاتها.

والنجوى اللئيمة لا تضرّ المؤمنين ـ كما الشيطان لا يضرّ ـ إلا بإذن الله ، ألا يمنع أذاها ، بأن لا يخبر الرسول والمؤمنين بمؤامرات المنافقين السرية ، فيقعوا في فخاخهم من غير علم ، بلوى وامتحانا من الله ، لا امتهانا!.

وفي هذه المحن لا سبيل للخلاص إلا التوكل على الله أن يكفى بأسهم ، بعد

---

(١) الدر المنثور ٦ ـ ١٨٤ أخرج البخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : ... وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال : كنا نتناوب رسول الله (ص) يطرقه أمر ويأمر بشيء فكثر أهل النوب والمحتسبون ليلة ، حتى إذا كنا نتحدث فخرج علينا رسول الله (ص) من الليل فقال : ما هذه النجوى؟ ألم تنهوا عن النجوى!.

(٢) مسند احمد بن حنبل ٣ : ٣٠.

سلوك السبل المستطاعة ، فقصورها وكلالها عن كفاية البأس ، فالتوكل على الله قادرين وقاصرين : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٦٥ : ٣).

فلا يعني التوكل على الله ترك الأسباب تفريطا لها ، ولا فيما إذا كلّت أو قلّت فحسب ، وإنما ترك التوكل على غيره من أسباب ، بل التوسل بها لوصول البغية متوكلا في كل ذلك على الله ، دون توهّم لاستقلال الأسباب وإن كانت كافية حسب الظاهر ، فإن له تعقيمها ، كما له تتميمها إذا قلّت أو كلّت.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ :

بما أن الدين ليس تكاليف حرفية جافة ، ولكنه تحوّل في الشعور ، واستجاشة لمكارم الأخلاق ، وحساسية في الضمير ، لذلك نرى الآيات تترى في تأديب الجماعة المسلمة بالمثل العليا ، وتأنيبها فيما ينافيها ، في كل قولة وحركة وسكون.

والتفسح في المجالس هو التوسع فيها ، وأحرى المجالس بذلك مجالس النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كما أنه أفضل القائلين : (تفسّحوا ـ انشزوا) ، وقد كان المسلمون يتضامّون في مجالسه صلّى الله عليه وآله وسلّم ركاما ، تنافسا على القرب منه ، وتحارصا على استماع كلامه ، فإذا ورد وارد ضنّوا بالتفسح له ، فأمرهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ألا يضنّوا ، ويتفسحوا في المجالس ترحيبا وترغيبا للواردين ، ولا سيما إذا كانوا أفضل منهم في الإيمان ـ هنا ـ «فافسحوا» وبأحرى إذا كان الوافد أعلم ، «فانشزوا» : ارفعوا : قوموا وقدموهم على أنفسكم في المكان كما هم أفضل منكم في المكانة.

نزلت الآية يوم الجمعة ورسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم جالس في الصفّة وفي مكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فقدم جماعة منهم عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم ،

فما فسح لهم في المكان ، فأمرهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم «تفسّحوا» وأمر بعضهم «فانشزوا» : ارفعوا.

أجل وإن فسح المكان والمجال للأفضل والأعلم فرض من الله إكراما للعلم والإيمان ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾.

فعلى المؤمنين الناجين أن يفسحوا أو ينشزوا : يقوموا للأفضل منهم ، وعلى القائد المسئول عن تنظيم الجماعة المسلمة أن يأمر الغافلين غير العارفين أن يتأدبوا بهذا الأدب الرائع ، ولكي يكون الجو دائما جو التفضيل للأفضل ، فالتنافس في الفضائل ، وهذه الفسحة في المكان تتخطاهم الى فسحة في النفس ، ووسعة في الصدر ، ورحبة في القلب ، فمتى رحب القلب اتسع وتسامح واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة. كما وأن النشوز عن المكان يتخطاه الى النشوز والرفعة في المكانة.

﴿تَفَسَّحُوا ... يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾ : في الدنيا أن يخرجكم عن ضيق الحياة وضنك العيش ، وفي الآخرة ألا يضيق عليكم في الحساب ، فيدخلكم في فسيح جنته ووسيع رحمته.

إن ذيل الآية ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ يتجاوب تماما وما استوحيناه ، أن واجب التوسع والنشوز هو للقادم الأفضل في العلم أو الإيمان ، مهما كان راجحا لغير الأفضل تأدبا ، وكما فعله الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم بالقادمين من أهل بدر (١) ، وفعله الإمام علي بن محمد النقي عليه السّلام برجل من فقهاء

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٨٥ . نزلت الآية يوم الجمعة وجلس رسول الله (ص) يومئذ في الصفة وفي مكان ضيق وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا الى المجلس ، فقاموا حيال رسول الله (ص) فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي (ص) عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم

الشيعة (١) ، ولكن هذا لا يعني أنه يحق للقادم ـ ولو كان أفضل ـ أن يقيم الجالسين فيجلس مكانهم ، وكما عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا أو توسعوا) (٢) ، وإنما الأدب الاسلامي للقادم أن يجلس بدون الشرف ، كما كان من دأب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمة من آل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم (٣).

ـ ينتظرون أن يوسع لهم فعرف النبي (ص) ما يحملهم على القيام فلم يفسح لهم فشق ذلك عليه فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام من أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه فنزلت الآية.

(١) الاحتجاج للطبرسي : روي عن الحسن العسكري (ع) انه اتصل بأبي الحسن علي بن محمد العسكري (ع) ان رجلا من فقهاء شيعته كلم بعض النصاب فأفحمه بحجته حتى أبان عن فضيحته ، فدخل على علي بن محمد (ع) وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب وهو قاعد خارج الدست وبحضرته خلق من العلويين وبني هاشم ، فما زال يرفعه حتى أجلسه في ذلك الدست وأقبل عليه ، فاشتد ذلك على أولئك الأشراف ، فأما العلويون فعجلوه عن العتاب ، وأما الهاشميون فقال له شيخهم : يا ابن رسول الله! هكذا تؤثر عاميا على سادات بني هاشم من الطالبيين والعباسيين؟ فقال (ع) : إياكم وأن تكونوا من الذين قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ، أترضون بكتاب الله عز وجل حكما؟ قالوا : بلى ، قال : أليس الله يقول : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ .. يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ فلم يرض للعالم المؤمن إلا أن يرفع على المؤمن غير العالم ، كما لم يرض للمؤمن إلا ان يرفع على من ليس بمؤمن ، أخبروني عنه قال : ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾؟ أو قال : يرفع الله الذين أوتوا شرف النسب درجات؟ أو ليس قال الله عز وجل : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ؟﴾ فكيف تنكرون رفعي لهذا لما وفقه الله؟ ان كسر هذا فلان الناصب بحجج الله التي علمه إياها ، لأفضل له من كل شرف في النسب.

(٢) الدر المنثور ٦ : ١٨٥ ـ أخرج البخاري ومسلم عن عمر أن رسول الله (ص) قال : ...

(٣) الكافي عن أبي عبد الله الصادق (ع) قال : كان رسول الله (ص) إذا دخل منزلا قعد في أوفى المجلس اليه حين يدخل. وفيه عنه (ع) : من رضي بدون الشرف من المجلس لم يزل الله عز وجل وملائكته يصلون عليه حتى يقوم.

ثم ورفع درجات للذين آمنوا والذين أوتوا العلم ، ذلك حسب درجات العلم والإيمان . كما للجهال والذين كفروا دركات . درجات في الدنيا ودرجات في الآخرة ، ومن درجات الدنيا فرض التفسح لهم في المجالس ، والقيام لهم احتراما وإجلاسهم في مقامهم ، ومنها اختصاصهم أو تقدمهم في مناجاة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كما فرض في آيته ، فالرفعة لهم شاملة للدارين وفي الناحيتين الصورية والمعنوية ، وعلى المؤمنين بالله التخلق بأخلاق الله في هكذا ترفيع.

ثم ولا ريب أن للعالم الدّين درجات على العالم غير الدّين ، أو الدّين غير العالم ، وفيما إذا جمعا في اثنين واختلفا في الدرجات ، فالفضل للعالم الأتقى ، ف ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ وآية الاستواء ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ إنما تفضل العالم على الجاهل ، فتبقى أفضلية الأتقى بين العلماء . على درجاتهم . ثابتة.

﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ : هكذا تؤمرون بتفضيل الفضلاء في العلم والإيمان ، ولكي تخلقوا جوا طاهرا يلمس فيه هذا الأدب الرائع ، والله خبير بأعمالكم ، الموافقة لأوامره ، والمخالفة سواء.

الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٣) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ

أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢٢)

يبدو أنهم كانوا يتنافسون متهافتين على تناجي الرسول (ص) كلّ في شأن يخصه ، ليسمعه بالانفراد ، وكأوسمة شرف ، وهذا مما يخلق فوضى ، وليس بإمكان الرسول (ص) أن يقتسم أوقاته بين المتنافسين ، وله مهامّ جماعية ، وأوقاته الشريفة تعم الكل ، فلا تصلح مناجاته إلا في صالح الامة ، وليتضح لهم مدى اهتمامهم بنجواه ، لذلك كله يقرر الله ضريبة لمن يريد نجواه ، كصدقة تصرف في صالح الامة أيضا فقال :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ :

وذلك حينما أكثر الأغنياء مناجاة النبي (ص) وغلبوا الفقراء على المجالس عنده حتى كره الرسول (ص) ذلك ، واستطالة جلوسهم وكثرة مناجاتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، يأمرهم بالصدقة أمام المناجاة.

أما أهل العسرة فلم يجدوا فعفي عنهم ، ولكن الأغنياء بخلوا ، بين عاص في مناجاته دون صدقة ، وبين من ضنّ بها وترك مناجاته ، فنزلت الآية راشقة بسهام الملام ، ناسخة بحكمها حيث أحجم من كان دأبه الإقدام.

وفي هذا الأمر ونسخة تعظيم للرسول (ص) ونفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص

وغيره ، ودفع للتكاثر عليه (ص) من غير حاجة جماعية مدقعة.

﴿ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ : كجماعة المسلمين ، فإنه لصالحكم جماعيا ﴿وَأَطْهَرُ﴾ : لقلوبكم ، إذ تدل الصدقة أن النجوى بعدها خالصة لوجه الله ، ولكن الفقير ماذا يصنع؟ هل يحرم لأنه فقير المال ، فيضاف إليه فقر الحال؟ كلا : ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفران يخص المعدمين دون أن يعم الواجدين ، مما يجاوب الأمر بالصدقة في الدلالة على وجوبها ، فإنها بين أمر وغفر ، كما تجاوبه توبة الله عليهم إذ لم يفعلوا. ولقد تواترت الروايات أنه لم يعمل بهذه الآية إلا الإمام أمير المؤمنين علي (ع) [1] وعلى حدّ قوله : (ان في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي : آية النجوى .. كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي (ص) قدمت بين يدي درهما ، ثم نسخت ، فلم يعمل بها أحد ، فنزلت : ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ﴾ [2].

---

(١) أورده الثعلبي والواحدي وغيرهما من المفسرين والمحدثين ، فمن ذلك ما يقوله الشيخ شرف الدين بعد نقل كثير من أخبار النجوى : «أعلم أن محمد بن العباس ذكر في تفسيره سبعين حديثا من طريق الفريقين يتضمن ان المناجي للرسول (ص) هو أمير المؤمنين (ع) دون الناس أجمعين» وأخرجه ابن بطريق في العمدة بأسانيد كثيرة عن الثعلبي وابن المغازلي ورزين وغيرهم ، وفي المستدرك عن أبي نعيم باسناده عن أبي صالح عن ابن عباس ، وباسناده عن مجاهد وعلي بن علقمة عن علي (ع) وابن مردويه في المناقب بأربع طرق أحدها يرفعه إلى سالم بن أبي الجعد عن علي مثله ، وفي الجمع بين الصحاح الستة قال ابو عبد الله البخاري وروى مثله ، وعن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله ، والحافظ ابو نعيم في كتاب ما نزل من القرآن في علي بسنده عن ابن جريح عن عطاء عن ابن عباس ، وعن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس ، إلى غير ذلك من الأسانيد.

(٢) أخرج سعيد بن منصور وابن راهويه وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه عن علي (ع) قال : وفي بعض الأحاديث انه (ع) استقرض هذا الدينار لنجوى الرسول (ص).

ويروى عنه (ع) : ان آية النجوى ما كانت إلا ساعة ويروى عشر ليال ، وهذه أوفق بفرصة الامتحان ، وغاية الامتهان ، وان ساعة ومثلها لا تكفي للمناجات عشر مرات [1]! ويروى انه سأله (ص) بين الآيتين عن عشر خصال [2] فهل في ساعة واحدة عشر مراجعات في عشر نجوات تحمل كل واحدة استعلام خصلة؟! فقد ناجاه (ص) عشر مرات في هذه الفترة ، فاستعلمه (ص) عشر خصال ، مما يثير العجب من مدى رغبته في نجواه لحدّ تصدق بكل ماله الذي استقرضه ، نجوات تترى دونما انقطاع ، رغم إهمال من سواه إشفاقا أن يقدموا بين يدي نجواهم صدقات ، وليس في ذلك تنديد بالامة أجمع ، إنما بمن كان يناجيه تباعا ثم ترك أو ترك الصدقة قبل مناجاته إذ واصل فيها ، واما من لم يكن يناجيه رعاية للمصلحة الجماعية ، أو تقديما للأصلح في نجواه ، أو لم يحصل له سؤال هام يتطلب النجوى في هذه الفترة ، أما بالنسبة لهؤلاء فلا [3].

فقد تبين هنا للعامل الوحيد بالآية فضيلتان : أنه ما ترك نجواه بل قد زاد فيها ، وأنه الذي يحق أن يناجي الرسول (ص) بما فيها من صالح الامة الإسلامية لأنه باب مدينة علمه والصادر عنه ، وكم له من ميزات أجمعت الامة عليها ، وهذه

---

(١) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن علي (ع) قال : ويروى انه كان عشر ليال كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل.

(٢) أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال نهوا عن مناجاة النبي (ص) حتى يقدموا صدقة فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب فإنه قدم دينارا فتصدق به ثم ناجى النبي (ص) فسأله عن عشر خصال ثم نزلت الرخصة.

(٣) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : ان المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله (ص) حتى شقوا عليه فأراد الله أن يخفف عن نبيه فلما قال ذلك امتنع كثير من الناس وكفوا عن المسألة فأنزل الله بعد هذا «أَأَشْفَقْتُمْ ...» () لدر المنثور ٦ : ١٨٥).

منها [١] رغم ما نقم منه الناقمون لحدّ أضمروا عن اسمه فقالوا : (رجل من المهاجرين) وأشركوا معه في هذه الكرامة غيره [٢] خلافا لإجماع الرواة والمفسرين.

ولما ترك جماعة من المسلمين المناجاة خشية الإنفاق وخيّم عليهم الإشفاق : العناية المختلطة بخوف ، نسخ الله تعالى حكم صدقة المناجاة شفقة عليهم ورحمة ، وتاب عليهم ، فاختصت الفضيلة في تطبيق الآية بالإمام علي (ع) لحدّ يتحسر منه الخليفة عمر [٣].

﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ :

فهنا «نجواكم» توحي بأنهم تناجوا الرسول بعد النهى ولم يقدموا صدقات ، وهكذا يوحي الإشفاق أيضا فإنه عناية مختلطة بخوف ، عناية في مناجاة

---

(١) عنه (ع) يقول للقوم بعد موت عمر بن الخطاب : نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية ... فكنت انا الذي قدم الصدقة ، غيري؟ قالوا : «لا» وكما احتج به على أبي بكر بقوله (ع) فأنشدك بالله أنت الذي قدم بين يدي نجواه لرسول الله (ص) صدقة فناجاه وعاتب الله تعالى قوما فقال : ءأشفقتم ... أم أنا؟ قال : بل أنت (نور الثقلين ٥ : ٢٦٥ عن الاحتجاج للطبرسي).

(٢) كما أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل ينقل القصة إلى أن يقول : فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئا وأما أهل الميسرة فمنع بعضهم ماله وحبس نفسه إلا طوائف منهم جعلوا يقدمون الصدقة بين يدي النجوى ويزعمون أنه لم يفعل ذلك غير رجل من المهاجرين من أهل بدر فأنزل الله «ءأشفقتم ...» (الدر المنثور ٦ : ١٨٥).

(٣) تفسير روح البيان ٩ : ٤٠٦ . لإسماعيل حقي البروسي عن عمر رضي الله عنه : كان لعلي رضي الله عنه ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلى من حمر النعم : تزويجه فاطمة رضي الله عنها وإعطاؤه الراية يوم خيبر وآية النجوى».

الرسول (ص) وخوف من الصدقات ، وخوف من الله في تركها ، فابتلوا بهذه البلية ، ولو استمرت لكانت بلاء لزاما ، ولكنه تعالى : (وضعها عنهم بعد ان فرضها عليهم برحمته ومنّه) وكما يروى عن الرسول (ص) [1].

لذلك تاب الله عليهم : ان غفر لهم إذ لم يفعلوا ، ونسخ الوجوب لكيلا يبتلوا ، توبتان من الله عليهم ، شرط أن يواصلوا في إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله ، فيتركوا الإثم والعدوان ومعصية الرسول المسبق ذكرها ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من صالحات وطالحات.

فلم تكن المناجاة واجبة حتى يتوب الله عليهم في تركها ، ولا الصدقة واجبة لولاها حتى يتوب عليهم إذ لم يقدموها ، وإنما الواجب تقديم الصدقة عند المناجاة ولم يفعلوها : ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ : ناجيتم ولم تقدموا صدقات «فهل تكون التوبة إلا عن ذلك» كما يروى عن صاحب النجوى عليه السلام [2].

وكما أسلفناه لم تكن الخطيئة للجميع ، وإنما للمجموع ، أن جماعة من الأثرياء ضنّوا بالعطاء وتناجوا ، كما كانوا يضنون بإفساح المجال للقادمين الفضلاء لمجلس الرسول (ص) فوبخهم الله تعالى ، دون من ترك المناجاة لعلل مسبقة ، اللهم إلا إشفاق الصدقة ، فتاب الله على من لم يفعل : الصدقة بعد المناجاة ، أو لم يفعل المناجاة خشية الصدقة ، وتاب عليهم في فرض الصدقة ان نسخها.

---

(١) الاحتجاج للطبرسي عن النبي (ص) حديث طويل في مكالمة بينه وبين اليهود وفيه : فأنزل الله عز وجل ألا يكلموني حتى يتصدقوا بصدقة وما كان ذلك لنبي قط (ثم ذكر (ص) الآية وقال) : ثم وضعها عنهم بعد ان فرضها عليهم برحمته ومنه. (نور الثقلين ٥ : ٢٦٤).

(٢) الخصال للصدوق في مناقب أمير المؤمنين وتعدادها قال : وأما الرابع والعشرون فإن الله أنزل على رسوله (وذكر آية النجوى والقصة ثم قال) : فو الله ما فعل هذا أحد من الصحابة قبلي ولا بعدي فأنزل الله عز وجل (وذكر الآية الناسخة ثم قال) : فهل تكون التوبة إلا عن ذلك؟ (نور الثقلين ٥ : ٢٦٥).

وإبدال صدقة النجوى بهذه الواجبات يوحي بأنها لم تكن من مهام الواجبات ، ولا الأصيلة منها ، وإنما هي ابتلائية ، ولذلك نسخت إذ أطاقها المسلمون وأشفقوا منها ، إلا أن طاعة الله والرسول هنا تربطهم برباط التنظيم في نجواهم ، وأن يخرجوا عن فوضاها ، والاستئثار بها دونما ملزم أو مرجح ، فكما الأفضل علما وإيمانا يفسح له وينشز ، كرامة للعلم والإيمان ، فبأحرى يقدم الأفضل فيهما في مناجاة الرسول (ص).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ :

حملة قوية على المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان ويسرون الكفر ، متآمرين في إسرارهم ضد المسلمين ، ف «ما هم منكم» لكفرهم المبطن «ولا منهم» لإظهارهم الإسلام : ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ﴾ (٤ : ١٤٣) وإن كان كلّ متول لقوم ، منهم : ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (٥ : ٥١) : هو منهم فيما به الكافر كافر وهو كفر القلب والضمير ، فالمنافق مؤمن اللسان وكافر القلب ، فهو ليس مؤمنا خالصا ، ولا كافرا خالصا ، وإن كان من حزب الكفار أصالة ، فالآيتان تتجاوبان دون تهافت واختلاف.

إنهم يعيشون نفاقا عارما ، وفيما يفضحهم الله ، أن يخبر الرسول (ص) والمؤمنين بمكائدهم اللئيمة ﴿يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ : أنهم براء مما قيل عليهم ، وأنهم مؤمنون حقا ، ويحلفون على الكذب في صدهم المؤمنين عن سبيل الله ، علّهم يصدقونهم بجنة الحلف ، فهم يعيشون الكذب على الله وعلى الرسول والمؤمنين علّهم يفلحون في كيدهم ، ويفلحون المؤمنين في ميدهم ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بكذبهم ، وهذا الحلف الكذب يعني محاولة استمرارهم في كيدهم ، ويوحي بضعفهم وجاه الدولة الإسلامية آنذاك ، إذ كانت قوية سائدة.

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ :

عذابا شديدا في الدنيا بفضحهم على رؤوس الاشهاد ، وفي الآخرة برضخهم ودقهم يوم تقوم الاشهاد :

﴿اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ :

يهينهم الله بعذابه كما أهانوا دين الله ، وصدّوا عن سبيل الله ، بما اتخذوا أيمانهم جنة: وقاية عما يصيبهم بتجسّسهم ضد المسلمين ، وتحسّسهم لصالح الكافرين ، وهم هنا جماعة من اليهود المغضوب عليهم كما في آيات عدة ، تحالفت معهم جماعة من المنافقين ضد الدولة الإسلامية.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ :

فإنما المغني من الله ـ إضافة إلى فضل الله ـ عقيدة الايمان وعمل الايمان ، فأما الأموال والأولاد فلا ، إلا إذا استخدمت في سبيل الله ... وكما كانوا أصحاب نيران المكائد حياتهم ، ف ﴿أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ﴾ في الآخرة ﴿هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ :

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ :

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ : ﴿وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (٦ : ٢٣) مما يوحي بأن النفاق قد مزج قلوبهم لحدّ لا يفصلهم عنه فاصل البرزخ والقيامة ، وهما يوما بروز الحقائق ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ﴾ من الحياة عن العذاب بهذه القولة الماكرة ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ﴾ كأن الكذب يخصّهم وهم يخصّونه ، فلا كاذب إلا إياهم! كذبا في حلفهم ، وكذبا في زعمهم.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ :

الحوذ أن يتبع السائق حاذيي البعير أي أدبار فخذيه فيعنّف في سوقه ، فاستحواذ الشيطان على حزبه أن يركب أدبارهم معنّفا في سوقهم وكما وعد : ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ (١٧ : ٦٢) والاستحواذ أشد ألوان الاحتناك ، إذا فهم سيّقة الشيطان : يسوقهم حيثما يريد ، فقد يبدأ اللعين بتمشيتهم وراءه : أن يتبعوا خطواته ، ثم يركبهم محتنكا إياهم ، ثم يستحوذ عليهم ، وبهذا الثالوث اللعين يفقدهم مشاعرهم كأنهم ظلاله في ضلاله ﴿فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللهِ﴾ ولحد الإعراض ، ﴿أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ﴾ : خالصين له مخلصين ، واقفين تحت لوائه ، عاملين باسمه ، منفذين غاياته ، وهو الشر الخالص الواصب الذي ينتهي إلى الخسران الخالص.

وللشيطان في كافة الأحزاب ـ إلا حزب الله ـ أعوان بمختلف الألوان وإن كانوا دركات ، كما ان حزب الله درجات ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ﴾ ومن دركات حزب الشيطان التفرقات عن الوحدة الايمانية ، عقائديا وعمليا ، ومنها ترك الجماعات في الصلاة ، وعلى حد قول الرسول (ص) (ما من ثلاثة في قرية ولا بدّ ولا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية) [1]. وكما ان من ظروفها ومصائدها : (أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله ويتولى عليها رجال رجالا) على حد قول الإمام علي (ع) [2].

---

(١) الدر المنثور أخرج ابو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله (ص) يقول :

(٢) اصول الكافي باسناده عن محمد بن مسلم عن الباقر (ع) قال : خطب أمير المؤمنين (ع) الناس فقال : «أيها الناس إنما بدء وقوع الفتن ـ إلى قوله ـ يخالف فيها كتاب الله يتولى فيها.

ان القلوب تحيي وتطمئن بذكر الله ، والشيطان يستحوذ على أوليائه ينسيهم ذكر الله ، يجعل أعينهم في غشاء وغطاء عن ذكر الله ﴿الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ (١٨ : ١٠١) : ذكر الله الذي يذهب بالحجب والأدران عن العقول والصدور والقلوب والألباب ، فيعيش ذووا الألباب ذكر الله إسرارا وإعلانا ، عملا ولسانا ، فلا يعنى من ذكر الله لقلقة اللسان ولا خبر عنه في الجنان ، فإنما اللسان آلة لذكر القلب وليس هو ذاكرا في الحق : ﴿أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وأرفع المقامات في ذكر الله أن ينسى الذاكر من سوى الله حتى نفسه ﴿فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ :

فهناك أذلاء وهم عصاة أمر الله ، على مدى عصيانهم ، وقد يكونون من المؤمنين ، وهناك أذلون وهم الذين ينعزلون الى حزب الشيطان محادّين الله ورسوله : أن له ولرسوله حدّه ، ولنا حدودنا ، كأن لا سلطان له عليهم ، وهم آلهة أنفسهم ، أم الشيطان إلهم! فبمقدار ما يكون الله وحزبه أعز ، فالشيطان وحزبه كذلك ـ أذلّون ـ في كافة الحقول ، مهما كثرت وطاشت شهواتهم ، أذلّون في محكمة الفطرة والعقل والواقع ، في الدنيا والآخرة.

فمهما ذل المؤمنون أحيانا في هجمات الكافرين فهم أعزة بإيمانهم ، تزول عنهم

الذلة الظاهرة : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (٣ : ١٢٣) ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٣ : ٨) ، ولكنما المحادّين لله ورسوله ، الذلة لزامهم إذ لا مولى لهم : ﴿أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ : غريقون في الذل دائبا لا يزول ، ولكنما المؤمن له العز والغلبة مهما بلغت به الصعوبات واصطدمته العرقلات في سبيل الله :

﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ :

«كتب الله» : إن كتابة الغلبة الإلهية لا تغني نقشا على ورق : إنشاء أو إخبارا ، إنما هي تثبيت الغلبة بمثبتاتها ومعداتها : غلبة في التكوين والتشريع ، وفي التشريع غلبة في الحجة والمهجة ، وغلبة في التطبيق ، وكل ذلك نتيجة الارادة الإلهية وتأييده رسله في غلبهم بحجج الرسالات وبيناته.

﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ : لا «لنغلبن» رغم واقع الجمع ، إنما «لأغلبن» لأن الله لا يعد ويردف نفسه المقدسة في عداد خلقه وحتى رسله ، وأن غلب الرسل من غلبه ، فإنهم لا يغلبون إلا بما يحملون من الرسالات وإثباتاتها ومعجزاتها ، ولو لا فضل من الله ورحمة لكانوا كسواهم من الأذلين المغلوبين ﴿إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فرسل الله بقوة الله وعزته يغلبون ، وإلا فهم الفقراء لا يملكون شيئا! ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (٣ : ١٢٦).

أجل «ورسلي» المختصون في تحقيق رسالات الله ، حاصرين طاقاتهم كلها في وجه الله ، لا يبتغون إلا مرضاة الله فلهم سابق كلمة النصر : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ (٣٧ : ١٧٢) كما والمؤمنون كذلك منصورون غالبون بنصر الله على قدر إيمانهم بالله : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ (٤٠ : ٥١) نصرة في الدنيا تناسب الرسالة والإيمان ، ونصرة في الآخرة هي تحقيق وعد الله لهم بالجنة ، ولقد كتب على نفسه نصرهم حقا : ﴿وَكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٠ : ٤٧).

إن الغلب والنصر هنا وهناك للمرسلين والمؤمنين ليس في الشهوات والمغريات ، وإنما في بلاغ الرسالات وتطبيقها ، مهما كانت التضحيات في هذه السبيل الشائكة المزدحمة بالعرقلات.

ففكرة الإله منتصرة في كافة الميادين ، بعساكر الفلسفات العقلية والعلوم التجريبية ، تتقدم على تقدمها قدما الى الأمام ، مهما حاول الملحدون إطفاء نور الله ، ومع صراعهم الطويل ، فإن العقيدة في الله ظلت هي السائدة المسيطرة الثابتة ، رغم أن الإلحاد الى زوال مؤكد مهما أبرق وعربد ، فالبشرية تهتدي كل يوم الى أدلة جديدة تهدي : ان الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ورسل الله والمؤمنون الحقيقيون لا يقفون لحد في تضحياتهم بمبدئهم المجيد :

﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ : نحن من أهل الجنة قاتلين ومقتولين ، وأعدائنا من أهل النار قاتلين ومقتولين ، فثباتهم على الدفاع لا يتقيد بقيد الحفاظ على النفس والنفيس ، دون حزب الشيطان ، فإن مهمتهم التي يعملون لها ويأملونها ، هي الدنيا برغباتها وشهواتها ، فلو أشرفوا على خطورة أو مهلكة انهزموا مدبرين ، أو استسلموا أذلة وآمنوا مقبلين ، كما تشهد بذلك غزوات الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بما أدت اليه من الفتح المبين ، رغم كونها سجالا ، لكنها ما انتهت إلا الى تقدم المسلمين وغلبهم ، إلا فيما ضعف الإيمان ، فامتحان بامتهان الهزيمة لكي يجدد دور الإيمان ، إذا فهم الأعلون : ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣ : ١٣٩) فلم تقف الفتوحات الاسلامية ولا تفرقت جموع المسلمين أيادي سبأ إلا نتيجة ضعف الايمان ، ولا يزال ، إلا أن يستحكموا عرى الإيمان والوحدة الاسلامية فهم الأعلون وأعدائهم هم الأذلون.

فليس حرمان المؤمنين عن ملذات الحياة ، وزجهم في السجون ، وتسفيرهم وتقتيلهم والتنكيل بهم ، ليست هذه العقبات الشائكة الصعبة الملتوية ، ذلّا لهم وغلبا لأعدائهم ، وإنما هي صورة اخرى لانتصار الايمان في معركته مع الكفر ،

كما وأن استسلام البعض منهم ـ وهم ضعفاء الايمان ـ لدولة الكفر والطغيان ، بغية الحفاظ على أنفسهم ونفائسهم ، ليس هذا انتصارا لهم ، فإنما الغلبة الايمانية تظهر في مختلف وجوه المناضلات في مختلف ميادين النضال : إن قتلوا انتصروا ، وان قتلوا انتصروا ، فهم أعزة منتصرون قاتلين ومقتولين ، شاردين ومشرودين ، حاكمين ومحكومين ، فقراء ومثرين ، كما وأن المحادّين لله ورسوله هم في الأذلين ، في ميزان الحق ، في كافة الصور ، وكفى المؤمنين غلبا ـ بين أسبابه ـ : ان للحق دولة وللباطل جولة!.

ترى إن حادثة الطفّ صورة من غلب الفيء الطغيان الأموي على أهل بيت الرسالة المحمدية صلّى الله عليه وآله وسلّم؟ كلا ، فإن قتل حسين وذووه في الجسد ، فقد قتل يزيد وحزبه في كافة الموازين الإنسانية ، يزيد يقتل حسينا في جسده ، وحسين يقتل يزيد في روحه ، إذ إن حادثة الطفّ أثبتت للعالم أن يد الإثم والطغيان فيها لم تك يد انسان ، وإنما أيدي وحوش مجانين وأضل سبيلا ، حيث لم ترحم الأطفال الرضّع والنساء والضعفاء : قد غير الطعن منهم كل جارحة ، سوى المكارم في أمن من الغير.

أجل وان صمود المؤمنين في وجه الطغاة ، إذ يحميهم إيمانهم من الانهيار ، ويحمي زملائهم في حزب الله من ضياع الشخصية ، ومن خضوعها للطغيان ، إن هذا الصمود الصارم غلب لهم وانتصار على الكفار ، بجنب سائر الانتصارات التي تختصهم دونهم.

﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ :

إن الإيمان الصحيح بالله دخول في حدّ الله وحزبه ، وخروج عن محادّة الله وحزب الشيطان ، فلا ملتقى بينهما ، ولا أنصاف حلول ولا موادّة ولا مواربة ولا مسايرة ، فإنهما بين طرفي النقيض فكيف يجتمعان؟.

فأسباب الموادّة بين الحزبين فاشلة ، وإنما الحاكم اللازم بينهما المحادّة ، ولو كانوا من كانوا من الأقارب الأدنين آباء وأبناء وإخوانا وعشيرة ، فإنها المفاصلة القاطعة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والتجرّد من كل جاذب وجامع ، فروابط الدم والقرابة كلها منهارة عند حد الإيمان ، تتقطع هذه الأواصر التي لا ترتبط بعروة الإيمان ولا تنبع منها ، فهناك يقتل علي عليه السلام وحمزة أقاربهما في حروب عدة ، ويقتل أبو عبيدة أباه يوم بدر ، ويقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير ، متحللين من أواصر القرابة إلى آصرة الإيمان ، فتنزل في شأنهم هذه الآية ، ف‍ (إن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله) كما عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم [1].

فما هي حدود هذه الموادة اللاإيمانية الممنوعة للمؤمنين؟ نقول : منها ولاية من يستحبون الكفر على الإيمان : ﴿لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَإِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ﴾ (٩ : ٢٣) هذا ولا سيما إذا كان ابتغاء العزة :

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (٤ : ١٣٩) ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (٥ : ٥١) ولكنما الولاية والموادة توحيان بالمحبة وآثارها ، فأما أن نعاشرهم بحسن الخلق علهم يؤمنون ، أو يميلون إلى الإيمان ، أو نأمن بأسهم ، فلا محظور بالنسبة لمن لم يحاربنا في الدين : ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٨٧ ـ أخرج الطيالسي وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال قال رسول الله (ص) : ... وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال قال رسول الله (ص) : اللهم لا تجعل لفاجر عندي يدا ولا نعمة فيوده قلبي فإني قد وجدت فيما أوحيت إلي : «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ...» الآية.

دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٦٠ : ٩).

﴿أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ﴾ : «أولئك» المؤمنون الصامدون غير الموادّين لمن حادّ الله ورسوله ، «كتب» الله ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ﴾ : ثبّته في قلوبهم وقرّره في ضمائرهم ، فصار كالكتابة الباقية ، والرقوم الثابتة ، ولكنها كتابة إلهية ما لها من زوال ، فإنها بيمين القدرة والرحمة ، فقلبت قلوبهم عن التقلبات إلى الثبات ، وإنما تتقلب تدرّجا إلى الكمال والأكمل ، ولحد تتهيأ لوحي الرسالة الإلهية لو شاء الله ، وليست كتابة الإيمان في قلب فوضى دون شرط ، إنما هي بين الإيمان والعمل وفقه ، ومن ثم تأييد الله فكتابة الإيمان ، وهذه هي زيادة الهدى من الله بعد الاهتداء بسعي المهتدي : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾ (١٨ : ١٣) ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ (٤٧ : ١٧) فليس لهم صنع في زيادة الهدى ، اللهم إلا في سببه بفضل من الله [١].

فهذا الإيمان المكتوب في القلوب ، المؤيد بروح من الله ، إنه صدّ رصين متين يسدّ عن الإنسان هجمات الشيطان ، ويصدّه عن اتباعه في مزالق الشك واللاإيمان ، وكما في زمن الغيبة التامة إذ لا إمام حاضرا نلجأ اليه (فنكفأ تكفّأ السفينة في أمواج البحر ، لا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه وكتب في قلبه الإيمان وأيّده بروح منه) [٢].

---

(١) اصول الكافي عن الصادق (ع) سئل عن هذه الآية : هل لهم فيما كتب في قلوبهم صنع؟ قال : لا.

(٢) اصول الكافي عن مفضل بن عمر قال : كنت عند أبي عبد الله (ع) وعنده في البيت أناس ، فظننت انه إنما أراد بذلك غيري ، فقال (ع) : أما والله ليغيبن عنكم صاحب هذا الأمر وليخملن حتى يقال مات ، هلك ، في أي واد سلك (وتتمة الحديث في المتن) (نور الثقلين ٥ : ٢٦٨).

﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ تشرق قلوبهم بهذه الروح النورانية ، فالروح ـ بوجه شامل ـ ما به الحياة ، نباتية وحيوانية وعقلانية إنسانية ، وإيمانية ، وإلهامية مسددة للإيمان ، وقدسية بالوحي ، فالأخيرة خاصة برسل الوحي ، وهي روح في روح الإلهام ، كما أن هذه خاصة بالرعيل الأعلى من المؤمنين ، وهي روح في روح الإيمان ، وهذه عامة لمختلف درجات المؤمنين ، وهي روح في روح الإنسان ، كما أنها عامة لبني الإنسان العقلاء ، وهي روح في روح الحيوان ، وهذه عامة لمطلق الحيوان كما هي روح لروح النبات ، فالروح القدسية هي روح الأرواح كلها ، وقس عليها ما قبلها لما دونها في المكانة من الأرواح ، فكل روح كجسد لما فوقه ، وهي كروح لما دونه من أرواح.

فالإيمان المكتوب المستقر في القلب هو يستحق روح الإلهام ، دون المستودع : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ (٦ : ٩٨) كما ان الايمان المستقر الملهم قد يصطفى لرسالة السماء فيزوّد صاحبه بروح القدس : روح النبوة وروح الوحي.

وقد يعبر عن روح الإلهام بفرقان من الله نتيجة التقوى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ (٨ : ٢٩) وهو نور في القلب يفرق بين الحق والباطل إذا اختلطا وضاق المخرج : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ (٦٥ : ٣) فهذه الروح ـ دوما ـ شريطتها التقوى وعلى حدّ تفسير الإمام الرضا (ع) [١]. ثم كان عاقبة هؤلاء الأماجد بما آمنوا واتقوا : «ويدخلهم» الله ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها﴾ دخول

---

(١) اصول الكافي بإسناده الى أبي خديجة قال : دخلت على أبي الحسن (ع) فقال لي : «إن الله تبارك وتعالى أيد المؤمن بروح منه تحضره في كل وقت يحسن فيه ويتقي ، ويغيب عنه في كل وقت يذنب فيه ويعتدي ، فهي معه تهتز سرورا عند إحسانه ، وتسيخ في الثرى عند إساءته ، فتعاهدوا عباد الله نعمه بإصلاحكم أنفسكم تزدادوا يقينا وتربحوا نفيسا ثمينا ، رحم الله امرءا هم بخير ففعله ، او هم بشر فارتدع عنه ، ثم قال : نحن نؤيد بالروح بالطاعة لله والعمل له» (نور الثقلين ٥ : ٢٦٩).

الجنة في الجنة وخلودها فيها ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بما اتقوا وتحللوا عن إنياتهم وأنانياتهم ، فنسوا أنفسهم دون مرضاة الله ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حينما اتقوه ، وإذ يدخلون الجنة ف ﴿أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ﴾ جماعته الخاصون به ، الخالصون له ، المتجمعون تحت لوائه ، المنقادون بقيادته ، دون أن يكون للشيطان وحزبه منهم نصيب ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دنيا وعقبى ، مهما اختلفت ألوانه وظروفه ، اختلاف الدنيا والآخرة.

والإفلاح هو شق الطريق الشاق الملتوي ، نحو الهدف المرمي ، فحزب الله يشقون أمواج الفتن في معارك الحياة بسفن النجاة ، فلا يغرقون ، إنما يفلحون هم ويفلجون خصومهم ، ولأنهم حزب الله ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

أجل . ولأنهم أهل معرفته ومحبته وأهل توحيده ، يفوزون بنصر الله من مصارع المحن والمهن ، فالله تعالى أسبل على وجوههم نور هيبته ، وأعطى لهم أعلاما من عظمته وكلأهم بحسن رعايته.

إن حزب الله يلتقون في الرابطة التي تؤلفهم ، في وحدة متراصّة متينة رصينة ، فتذوب كافة الفوارق تحت هذه الراية ، دون أن يتحكم فيهم أحد إلا الله ، أو يبتغون إلا مرضاة الله ، محادين حزب الشيطان.

فهذان حزبان متناقضان لا يختلطان ولا يتميّعان ويستحيل اجتماعهما استحالة اجتماع النقيضين.

(سورة الحشر ـ مدنية ـ وآياتها أربعة وعشرون)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (٧) لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠)

حادث جلل رعيب ، ونفاق عارم رهيب ، ونقض عهد منقطع النظير من بني النضير ، نزلت فيه هذه السورة ، وتعلقت به نصوصها ، مبتدأة بتسبيح الله ومختتمة به ، بدء وختام مسك ، يمسك ويربط ما توسطهما بتنزيه الله عن الظلم

والضيم فيما فعل بالذين كفروا من أهل الكتاب ، دمار وبوار لبني النضير عديم النظير ، وليعلموا أنهم هم الأذلون بما حادّوا الله ورسوله ، والمؤمنون هم الأعزون بما ارتبطوا بحد الله.

تقول الروايات : كان بالمدينة ثلاثة أبطن من اليهود : بني النضير وقريضة وقينقاع ، وكان بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عهد ومدة ، فنقضوا عهدهم شر نقض وأخطره ، والسبب هم بنو النضير [1] فلم ير رسول الله بدا إلا حربهم وإخراجهم لما غدروا وخانوا خيانة مخيفة على كيان الإسلام : ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ (٨ : ٥٩).

وإنهم وعدوه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يخرجوا دون حرب ، ثم تحالفوا مع المنافقين نقضا ثانيا : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ

---

(١) كانت واقعة بني النضير أوائل الرابعة من الهجرة بعد أحد وقبل الأحزاب ، يذهب الرسول (ص) مع عشرة من كبار أصحابه إلى بني النضير طالبا منهم المشاركة في أداء دية قتيلين ، وفق ما كان بينه وبينهم أو مقدمه على المدينة ، وأن لا يكونوا له ولا عليه ، فاستقبلوه بالبشر والترحاب ووعدوه بأداء ما عليهم ، بينما كانوا يدبرون أمر اغتيال الرسول (ص) ومن معه ، ينتدب عمرو بن جحاش بن كعب ليلقي عليه صخرة ، فيلهم الرسول بغدرهم فيقوم كأنما يقضي أمرا ثم علموا انه دخل المدينة ، فأمر الرسول (ص) بالتهيؤ لحربهم ، إضافة إلى ما كان من كعب ابن الأشرف من هجاء الرسول وتأليب الأعداء عليه ، وانه اتصل مع رهط من بني النضير بكفار قريش اتصال تحالف وتآمر ضد الرسول (ص) فلما نبذوا عهدهم هكذا نبذ إليهم الرسول على سواء كما قال الله ، فتجهز (ص) وحاصر محلتهم وأمهلهم ثلاثة أيام أو تزيد ليجلوا عن المدينة على أن يأخذوا أموالهم ويقيموا وكلاء عنهم على الباقية ، ولكن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة كما قال الله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا» فتحصن اليهود في الحصون فأمر الرسول (ص) بقطع نخيلهم والتحريق فيها فنادوه ان يا محمد! قد كنت تنهي عن الفساد فما بالك تفسد هكذا فأجابهم الله «فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ» لا للفساد ، إنما لدفع الفساد ، ولما بلغ الحصار ست وعشرين ليلة يئس اليهود من صدق وعد إخوانهم المنافقين وقذف الله في قلوبهم الرعب فكان كما قال الله في هذه السورة.

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ. لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ (٥٩ : ١٣).

مكر تلو مكر ، وغدر تلو غدر ، يهدفون به المقام في المدينة ثم احتلالها مع إخوانهم المنافقين ، ولكن الله يطلع نبيه عليه ، ويخرجهم لأول الحشر ، وعلّه أول الجمع بين المتحالفين : اليهود والمنافقين ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

إن تسبيح الله وتنزيهه ـ طوعا أو كرها ـ هو لزام ذوات الكائنات ، فكيانهم كخلق الله تسبح الله عن أي نقص في الخلق ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾ ثم وهي تسبح الله عن شعور ولكن لا تفقهون : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١٧ : ٤٤) ثم العقلاء النبلاء منها يسبحون الله كما يعرفون : تسبيحات ثلاث في الكائنات لا يخلو منها حتى الملحدين الكفار ، وان كفروا به في ثالث ثلاثة : التسبيح الاختياري العقلاني ، بما حملوا وخانوا أمانة التكليف.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ :

فلو كانوا مؤمنين بكتاب الله ـ التوراة ـ ما خالفوا بشاراته بحق الرسول الاسماعيلي محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وما نقضوا عهودهم معه بعد ما أحكموها ، ولكنهم كفروا بالكتاب ، رغم أنهم من أهل الكتاب ، يؤمنون ببعض الكتاب ـ لصالحهم كما يظنون ـ ويكفرون ببعض ـ كتجار الشريعة الإلهية!

هؤلاء اليهود الكفار من بني النضير أخرجهم الله تعالى من ديارهم لأول الحشر ، فما هو الحشر هنا؟ وما هو أوله؟.

يقال : الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم ، وإزعاجهم عنه الى الحرب ونحوها ، فما هو معنى إخراج بني النضير من ديارهم لأول الإخراج الى الحرب؟ فقد كان إخراجهم حيادا عن الحرب ، وتخلصا عن كيدهم وميدهم. ثم نرى عشرات من آيات الحشر لا تناسب لا الإخراج ، لا غاية الحرب :

﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢ : ٢٠٣) أفإخراجا لحرب الله؟! وإنما الحشر هو جمع خاص ، في الدنيا أو في الآخرة ، كل حسبه وبحسابه ، أللهم إلا إذا كان معدّى ب «على» : ﴿وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾ (٦ : ١١١) وليست الحرب والإضرار هنا أيضا إلا مدلولة ل «على» دون الحشر ، فالحشر أيا كان وأينما ، هو الجمع عن تفرق ، في الأبدان أو الأرواح أو فيهما ، في العقيدة أو العمل أو فيهما ، في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما ، في الخير أو الشر أو فيهما ، الى خير أو إلى شر أو إليهما.

وحشر بني النضير هنا كان في الدنيا ، وعلّه أو أنه حشرهم وجمعهم مع إخوانهم المنافقين ، وتألفهم وتعاهدهم ضد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فما أن حشروا حشرهم اللئيم ، إلا وأطلع الله نبيه على كيدهم وأخرجهم من ديارهم.

«لأول الحشر» : بداية الجمع المؤلّب على الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وإن كان إخراجهم الأول من بلاد الإسلام أيضا ، ولكنه لا يغير لغة الحشر عن معناه ، وإن وافق واقعه هنا : أخرجهم لأول جمعهم اللئيم ، ولأول مرة في تاريخهم اللئيم ، ومن أول الحشر الأرض التي منها يحشرون (أرض اليهود) على حدّ المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ قال لهم : (اخرجوا ، قالوا : إلى أين؟ قال : إلى أرض المحشر) [1]. ف «لأول الحشر» يحشر الحشرين ، وما أليقه وأنسبه جمعا بين

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٨٧ . أخرجه البزاز وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : من شك ان المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية ... قال لهم رسول الله (ص) ... وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله (ص) بني النضير قال : هذا أول الحشر وإنا على الأثر.

المعنيين ، من حشرهم الشرير في الدنيا ، وإلى حشرهم الشرير في الآخرة ، فمهما يكن الحشر الأول مبتدء يستحق «من» والثاني منتهى يستحق «إلى» ولكن في «ل» إيحاء بهما وإيفاء لهما «لأول الحشر».

فقد حشروا حشرهم هكذا بغية احتلال المدينة وعصيان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والقضاء عليه ، فردّ الله عليهم حشرهم فأخرجهم لأوله ولما ينضج أو ينتج ، وللأرض التي منها يحشرون.

﴿... ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾ :

إنه لم يكن إخراجهم لضعفهم في عدّة أو عدّة حيث ﴿ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ﴾ ولا لقوتكم أنتم في عدّة أو عدّة ، لحدّ : ﴿ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ ولكن الله تولى مهمة هذا الإخراج : ﴿فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ نصرا من الله للرسول والمؤمنين المجاهدين.

فرغم عدم توقع المؤمنين خروج هؤلاء من عاصمة الرسالة الإسلامية ، ورغم المنع المنيعة في حصونهم لحدّ أنستهم قوة الله التي لا تمنعها الحصون ، ورغم أنهم بالتالي كانوا يحسبون أنفسهم بحكم هذه العدد الظاهرية ظاهرين على المسلمين ، رغم هذا كله ﴿فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾.

فهنا حساب واحتساب يستطيعه الإنسان ويعرفه ويتبناه لما يهدف ، وهناك حساب في ميزان الله يغلب كل حساب واحتساب ، لا قبل له بأي حساب ، فأين حساب من حساب؟

فمهما يملك الإنسان ـ كما يزعم ـ كلّ دوافع الغلبة والظهور ، ولكنه لا يملك قلبه الذي هو مصدر أمره ونهيه ، قوته ووهنه ، سقوطه ونجاحه ، فمنه

تصدر الأوامر لعساكر العقول والأفكار ، والحواس والأعضاء ، وعلى حد المروي عن الإمام الصادق عليه السلام.

فهنا نجد بني النضير استعدوا بعدّة عديمة النظير ، ولكنما الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا ، من حيث قلوبهم التي هي بيد الرحمان ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أتاهم من دواخل حصون القلوب فكسرها ، لحدّ ساعدوا المؤمنين في خراب حصونهم في القوالب ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ «بأيديهم» حيث كانوا يخربونها من دواخل حصونها لكيلا تقع في أيدي المؤمنين ، ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ كانوا يهدمونها من خوارج حصونها لكي يخرجوهم ويحتلوها ، ولما كانوا هم السبب لهجوم المؤمنين وهدمهم بيوتهم بما نقضوا عهودهم ، صحت نسبة تهديم المؤمنين إلى اليهود أنفسهم ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا لما وهنوا بما قذف في قلوبهم الرعب ، فسألوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الأسلحة ، فأجابهم صلّى الله عليه وآله وسلّم فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به آبالهم ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه ، فيحمله على ظهر بعيره ، أو يخربه ويكسر الأبواب حتى لا يقع في أيدي المؤمنين. وبما وهنوا استطاع المسلمون أن يهدموا بيوتا وحصونا ، تناصرا من الجانبين في هدم البيوت مهما كانت الأهداف مختلفة ، ولكنما الواقع الذي حصل (هدم البيوت) كان لهم وهنا وللمسلمين قوة وعزا ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾ : (ولا يصح الاعتبار إلا لأهل الصفا والبصيرة) [1].

ومن هذا الاعتبار ألا يعتمد الإنسان ـ أيا كان ـ على أي من معدات الحياة الدنيا ، فليؤمن بالله ، وليؤمنّ حياته ونجاته بحول الله وقوته.

إن الاحتلال والتخريب وعيث الفساد في الأرض ، إنها من صفات اليهود السيئة طول تاريخهم البئيس التعيس ، تأخذ مثالا منه نعيشه اليوم من سلطات

---

(١) في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق (ع).

الاحتلال الإسرائيلي في بلادنا المقدسة الزاهرة الطاهرة ، أنهم ما أبقوا من قنطرة وقنيطرة من باقية ، حينما احتلموها ، وعند ما ارتحلوا عنها ، بلادا كانت من أعمرها ، فأصبحت في الدمار لحدّ إذا زرتها ما عرفتها ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ﴾!.

﴿وَلَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ﴾ :

إن جلاءهم : تسفيرهم عن أرض الوطن دون رجوع ، إنه لون من عذاب الخزي لهم في الدنيا ، عذاب نفسي أصعب من العذاب الجسدي أحيانا ، فلو لا أن كتبها الله عليهم لعذبهم بصور اخرى كما عذب الذين من قبلهم باستئصال ، أو سبي ، أو اقتتال ، كإخوانهم بني قريظة ، ولكنما المكتوب لا يحوّل ، ثم لهم في الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ :

إن مشاقّة الله وهي اعتباره في شق غير شقهم ، هي نكران لربوبيته ، كما وأن مشاقة الرسول نكران لرسالته ، كأنهم آلهة أو رسل! فالعقاب الشديد الناشب إلى الدنيا أيضا ، هو لزام المشاقة هذه وتلك.

﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾ :

صحيح أن اللينة : النخلة الناعمة الجيدة ـ لا ذنب لها لكي تقطع ، ولكنها من خلق الله ، قد تقطع بإذن الله ، لحكم يعلمها الله ، استئصالا لأصحابها ، ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ ليعز المؤمنين ، ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾ ، ففي هذا القطع أهداف حكيمة عدة من أبرزها إخزاء الفاسقين (١).

---

(١) الواو هنا كما في أمثالها تدل على معطوف عليه محذوف ، يستفاد من المقام أو لا يستفاد ، ومن المعطوف عليه هنا إعزاز المؤمنين.

فقد قطع المسلمون لينات عدة من اليهود ، وأبقوا أخرى [١] ، فتحرجت صدورهم من القطع : أنه كان منهيا عندهم لأنه إفساد ، ومن الترك أنه يتنافى وهدف التدمير والخراب ، فهو تناقض من التصرفات الحربية ، هكذا تقوّلوا على المسلمين لما تحرجوا من فعالهم ، ولكي يخسأ هؤلاء الكلاب النابحة ، ولكي تطمئن قلوب المسلمين ، يأتي هذا التصريح هنا : ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ﴾ فقطعها يخزيهم بالحسرة عليها ، وتركها يخزيهم أنهم مضطرون ليتركوها [٢] ، فهذا من إخزاء الله لهم بأيدي المؤمنين.

ومن الإيحاءات الفقهية هنا جواز قطع الأشجار وإفساد الثمار ، إذا اقتضى الأمر ذلك لصالح غلب المسلمين وعزهم وإذلال الكافرين وخزيهم ، وإن كان الأصل الأول عدم السماح في شيء من ذلك ، ولكنما عز المؤمن وذلّ الكافر كذلك هما أصلان أصيلان فوق الأصول من هذا النمط.

﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ :

تتجاوب آية الفيء هذه وآية السعي : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾ في أن الأصل في أية فائدة هو السعي والعمل لانتاجها قدره دون فوضى ، فما أفاء

---

(١) في التفسير الكبير للرازي ٢٩ : ٢٨٣ روى أن رجلين كانا يقطعان ، أحدهما العجوة والآخر اللون ، فسألهما رسول الله (ص) فقال : هذا تركتها لرسول الله ، وقال : هذا قطعتها غيظا للكفار.

(٢) في التفسير الكبير للرازي ٢٩ : ٢٨٣ روى انه عليه السلام حين أمر ان يقطع نخلهم ويحرق قالوا : يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيء فنزلت هذه لآية.

وهذا الشيء في الدر المنثور ٦ : ١٨٨ ـ أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في الآية : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم ، فقال المسلمون قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا فلنسألن رسول الله (ص) هل لنا فيما قطعنا من أجر وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله : ﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ...﴾

الله على رسوله : (الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة ، الراجعة إلى حالة محمودة) إنها ليست للذين كانوا مع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فإن الله هو الذي سلّطه عليهم وعليها ﴿وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ وأن المؤمنين ما حاربوا في هذه المعركة ، وإنما ألقى الله في قلوب أعدائهم الرعب فأخذوا يخربون بيوتهم «فما أوجفتم» : أسرعتم «عليه» : الفيء «من خيل» : أفراس «ولا ركاب» : جمال ، فلا نصيب لكم إلا من ذكره الله.

فالآية تنبه المسلمين ان هذا الفيء الذي خلّفه بنو النضير وراءهم ، لم يركضوا هم عليه خيلا ، ولم يسرعوا إليه ركبا ، فليس حكمه حكم سائر الغنائم التي لهم أربعة أخماسها والباقي لمن قررهم الله ، إنما هو كله للرسول (ص) يصرفه في وجوه وجهه الله لها.

وأحرى من قرية بني النضير فدك وهي انتقلت إلى فاطمة الصديقة إما نحلة أو لا أقل إرثا.

﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ :

ان آية الفيء هذه وآية الأنفال : ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (٨ : ١) تتجاوبان في ضابطة اقتصادية إسلامية حكومية : أن الأموال غير الخاصة ، والتي لم يعمل ولم يسع لها أحد ، بأي من صنوف الأعمال ، إنها أموال عامة تختص برئيس الدولة الإسلامية يصرفها لصالح المسلمين ، دون أن تكون دولة بني الأغنياء منهم ، سواء في ذلك الأراضي والأموال التي ملكت بغير قتال ، والأراضي الموات والغابات ورؤوس الجبال وبطون الأودية والبحار والأنهار ، وميراث من لا وارث له وما شابه ذلك من الثروات العامة [١].

---

(١) وسائل الشيعة ٦ : ٣٦٥ ج ٤ ـ الكافي باسناده عن العبد الصالح موسى بن جعفر (ع) في حديث : وله (الإمام) بعد الخمس الأنفال ، والأنفال كل أرض خربة باد أهلها وكل أرض

لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولكن صالحوا صلحا وأعطوا بأيديهم على غير قتال ، وله رؤوس الجبال وبطون الأودية والآجام وكل أرض ميتة لا رب لها ، وله صوافي الملوك ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود ، وهو وارث من لا وارث له ، يعول من لا حيلة له ، وان الله لم يترك شيئا من صنوف الأموال إلا وقد قسمه فأعطى كل ذي حق حقه (إلى أن قال) والأنفال للوالي ، كل أرض فتحت أيام النبي (ص) إلى آخر الأبد ، وما كان افتتاحا بدعوة أهل الجور وأهل العدل ، لأن ذمة رسول الله (ص) في الأولين والآخرين ذمة واحدة ، لأن رسول الله (ص) قال : المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم.

فالفيء ـ كما أسلفناه ـ الغنيمة التي لا يلحق فيها مشقة ، الراجعة إلى حالة محمودة ، من فاء : رجع محمودا محبورا ، والنفل مقابل الفرض ، وهو هنا الزائد ، زوائد الأموال ، وهي التي لم تفرض للأشخاص ، إذ لم يفرضها أحد لنفسه بسعي خاص ، فالفيء النفل ، لا يفيء ويرجع إلا إلى رئيس الدولة الإسلامية ليصرفه في المصالح العامة والخاصة كما أراه الله ، وتقرّره وتقرّه شريعة الله للحفاظ على الكيان الإسلامي من الانهيار [1].

وفيما إذا سئلنا : إذا كان الفيء والأنفال واحدا ، فلما تختص آية الأنفال أموالها بالله والرسول ، وآية الفيء تعمها وصنوفا أربعة أخرى؟

والجواب : أن الرسول إنما له الفيء والأنفال لأنه رسول ، لا كشخص من أشخاص المسلمين ، إنما كرسول ، ورئيس للدولة الإسلامية ، فما كان له بحجة الرسالة وجهتها يصرف في محاويج الإسلام والمسلمين ، ومنها ما شرحتها آية

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٩٢ ـ أخرج احمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله (ص) خاصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنتهم ثم يجعل ما بقي في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله.

أقول : ومما يدل على وحدة الفيء والنفل ما رواه الحلبي عن أبي عبد الله (ع) انه قال في حديث : الفيء ما كان من أموال لم يكن فيها هراقة دم أو قتل ، والأنفال مثل ذلك هو بمنزلته (الوسائل ٦ : ٣٦٧ ج ١١).

الفيء : ﴿وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ كما وأنه يصرف ما لله في سبيل الدعوة إلى الله ، وشيئا مما له في تحكيم الرسالة الإسلامية.

فليس «لله» هنا تعني ان الله يملك سدسا من الفيء ملكا ذاتيا ، فإن له ملك السماوات والأرض! ولا ملكا عرضيا بالتمليك أو التملك وحاشاه! إنما تعني أنه يصرف في الإلهيات ، كما تعنى «للرسول» أنه يصرف في شؤون الرسالة ، سواء في ذلك شؤون الرسول (ص) الخاصة به ، أو شؤون رسالته ، أو في محاويج أمته ، وكما كان يفعل «كما يحب» [1] ويجب.

ومن شؤون الرسول ذووا قرابته الملتصقون به ، المحرمة عليهم الزكاة والصدقات فإن لهم حقا مما للرسول ، وأقرب القربى هم الأئمة من آل الرسول عليهم السلام.

«وذي القربى» : ذي قربى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فقط ، شريطة الحاجة ، فيمن سوى الأئمة من آله ، ﴿وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وعلّهم أعم من ذرية الرسول ، ثم ولا يشترط في اليتامى وابن السبيل المسكنة وإلا لاكتفى بالمساكين ، ولو اجتمعت عناوين عدة في واحد منهم استحق حقوق العدة ، كهاشمي يتيم ابن سبيل ، فله حقوق ثلاثة.

ولا يعني ذكر هؤلاء اختصاص الأنفال بهم ، إنما هم من المصاديق الأكثرية في استحقاق الأموال العامة ، ولذلك لا تذكر آية الأنفال إلا الله والرسول ، إيحاء أن للرسول ما يحب ويستصلحه.

وإذا كانت الفيء والأنفال لله وللرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وكلاهما في تصرف الرسول

---

(١) الوسائل ٦ : ٣٦٧ عن الإمام الصادق (ع) في حديث : والأنفال لله وللرسول فما كان لله فهو للرسول يضعه حيث يحب.

للمصالح المسبقة ، ثم إلى الخلفاء المعصومين من آل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم [١] فما هو مصيرها بعدهم (ع) زمن الغيبة الكبرى إذ لا نبي ولا إمام ظاهرا؟

أقول : إنها للنواب العامين زمن الغيبة ، يصرفونها فيما يحق لتعزيز شوكة الإسلام وعيلولة من لا حيلة له [٢] وحياطة المسلمين وحيلولتهم عن أعدائهم ، فهم ولاة الأمر على الشعوب المسلمة ، فليست هي ميراثا أو مالا لهم خاصا ، إنما بسبب النبوة أو الإمامة أو الولاية الشرعية ، وتجمعها الزعامة الإسلامية [٣] فلا يحق لهم صرفها لمصالحهم الخاصة ، إلا بقدر ما يصرف لغيرهم من المسلمين ، والأحاديث المحلّلة إياها للمسلمين زمن الغيبة لا تعني الفوضى في تصرفها لمن يشاء كما يشاء ، وإنما عن طريق الوالي العام العادل ، تقسيما عدلا ، دون اختصاص أو زيادة للأغنياء :

﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ﴾ :

قيل الدولة بالفتح والضم واحدة ، وقيل : الأول لما يتداول من الحال ، والثاني لما يتداول من المال والجمع دول ودول ، وعلى أية حال فدولة الأغنياء ودولتهم طبقية عارمة ظالمة لا يقرها الإسلام ولا أية شريعة من شرائع الله ، كما ويندد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بذلك قائلا : «إذا بلغ آل أبي العاص ثلاثين صيروا

---

(١) كما هو الشأن في كل ما للرسول وعليه (ص) من تكاليف رسالية ، وبذلك استفاضت الأحاديث كما رواه في الكافي عن الصادق (ع) (فيما يعد من الأنفال) فهو لرسول الله (ص) وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء(الوسائل ٦ : ٣٦٤ ج ١) ومثله كثير.

(٢) الكافي عن الإمام موسى الكاظم في حديث الأنفال وأهلها : ان الله لم يترك شيئا من صنوف الأموال إلا وقد قسمه فأعطى كل ذي حق حقه ... والأنفال إلى الوالي (المصدر ٣٦٦).

(٣) كما في الفقيه باسناده عن علي بن راشد قال : قلت لأبي الحسن الثالث (ع) أنا نؤتى بالشيء فيقال : هذا كان لأبي جعفر (ع) عندنا فكيف نصنع؟ فقال : ما كان لأبي بسبب الإمامة فهو لي وما كان غير ذلك فهو ميراث على كتاب الله وسنة نبيه (ص) (المصدر ٣٧٤).

مال الله دولا وكتاب الله دغلا وعباده خولا والفاسقين حزبا والصالحين حربا» [1] والواجب تداول الدولة والدولة بين الناس كل الناس إلا النسناس ، كلّ حسب سعيه وقدره واستحقاقه وقدرته على الإصلاح والاستصلاح ، وكما هو صالح الشعوب المسلمة ، واما أن تتنقل دولة المال ودولة الحال بين الأغنياء ، أو الأقوياء ام من ذا؟ فلا!

إنها قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الإسلامي اقتصاديا وجماعيا ، تمثل جانبا عظيما من أسس الحكم العدل ، فرغم ان الملكية الفردية معترف بها فيها ، ولكنها محددة بقاعدة عدم اختصاص دولة المال بين الأثرياء ، ممنوعة عن الفقراء فكل محاولة وكل حالة تفضي إلى دولة المال بين الأغنياء ، او دولة الحال بينهم أو بين الأقوياء ، إنها حالة سيئة ومحاولة سيئة حسب التنظيم الإسلامي الذي لا يؤصّل إلا أصالة الحق والعدل أينما حل ، ومن أي حصل.

وبذلك يوحي تحريم التكنيز وإن كان من الأموال الشخصية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ (٩ : ٣٤) فدولة المال وتكنيزه وتضخم الثروة ، إنها مما لا تتوافق والروح الإسلامية العادلة الفاضلة.

وبما أن النظام الرأسمالي قائم على دولة المال بين الأثرياء ، وعلى الحكرة والرباء ، وعلى عدم الإنفاق للبؤساء العجزة المعوزين ، فالنظام الاقتصادي الإسلامي منه براء.

وبما أن النظام الشيوعي لا يحترم الملكية الفردية العادلة ، ولا يعدل بين السعي والمنتوج تماما ، فاقتصاد الإسلام منه براء ، طالما كان أشبه به في بنود.

---

(١) القمي في تفسيره عن أبيه عن النبي (ص) قال : (نور الثقلين ٥ : ٢٧٨). ومثله ، في العيون في باب ما كتبه الرضا (ع) للمأمون من محض الإسلام وشرائع الدين ، والبرائة ممن نفى الأخيار وشردهم وآوى الطرداء اللعناء وجعل الأموال دولة بين الأغنياء.

وإنما الإسلام نظام خاص فريد متوازن الجوانب ، لا شيوعية ولا رأسمالية مهما تشابهتا معه في جوانب لا محيد عنها في كافة المتخالفات.

فعلى الشعوب المسلمة المحرومة المحطمة المظلومة كفاح صارم ضد دولة الحال ودولة المال على ذوي الاثرة والكبرياء فيهما ، لإيصال كل ذي حق إلى حقه ، ولتسود الجماعات المسلمة دولة الإسلام ودولة لصالح الجماهير كلها ، ولن تتحقق هذه الدولة الكريمة إلا على ضوء إتباع الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والرسالة الاسلامية بكافة بنودها :

﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾:

توحي الآية بأن البعض من المسلمين ما كانوا يرضون بتقسيم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ كان يحرم بعضا ويؤتي بعضا ، وكان يزيد بعضا على بعض حسب ما يراه ، وكما يروى عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قسم الفيء بين المهاجرين ونفر من الأنصار المحاويج ، فاعترضه الباقون وتسائلوه في ذلك ، فصدرت ضابطة عامة أن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم مفوض إليه الأمر في دولة الحكم ودولة المال وكما يروى عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم وعن الأئمة من آله (ع) [1] دون أن تختص الآية بإيتاء المال والنهي عنه ، مهما نزلت بهذه المناسبة.

فهذه هي النظرية الدستورية الاسلامية ان أصل القانون من الله لا سواه ، وتطبيقه من رسول الله ، لا سواه ، خلاف كافة النظريات الدستورية الوضعية

---

(١) الكافي باسناده إلى الميثمي عن أبي عبد الله الصادق (ع) : ان الله عز وجل أدب رسوله حتى قومه على ما أراد ثم فوض إليه فقال عز ذكره ﴿ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ فما فوضه الله إلى رسوله فقد فوضه إلينا.

أقول : وهذا المعنى متواتر عن أئمة آل البيت. راجع تفسير البرهان (٤ : ٣١٤ ـ ٣١٦) ونور الثقلين (٥ : ٢٧٩ ـ ٢٨٤).

طول التاريخ ، التي تؤصل الأكثرية في سنّ القوانين ، أو تحصر حق التقنين برئيس الدولة الذي هو بشر كسائر البشر يخطأ ويسهو ويجهل ويميل.

نحتج بهذه الآية فيما نحتج لحجية سنة الرسول قولا وعملا وتقريرا ، أنها من سنة الله ، وان ما سنه ليس إلا بما أراه الله.

ثم تختم الآية بذيل يربط هاتين القاعدتين الرئيسيتين بتقوى الله : ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ : تقوى في دولة المال ودولة الحال ، فلله الدول على أية حال ، يؤتيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء ، فدولة المال عامة لجميع الشعوب حسب الحقوق والمساعي بما قررها الله ، ودولة الحال وهي الحكم بين الناس ، إنها لله ولرسل الله الحاملين المبلغين رسالات الله ، ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا.

ثم آية الأنفال تختصها بالله والرسول ، وآية الفيء تعمهما والأربعة الباقية ، ثم الآية التالية تختص بالذكر الفقراء المهاجرين ... مما يوحي بتفويض الرسول في الفيء والأنفال ، وأن النسب ليس شرطا أصيلا في استحقاقها :

﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ :

«للفقراء» علّه بدل عن ﴿الْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ كما اللام توحي بذلك ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى ...﴾ : وللفقراء مهما كانوا من يتامى الهاشميين ومساكينهم وأبناء سبيلهم ، أم من المهاجرين والأنصار ، كما يروى أن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قسم فيء بني النضير بين المهاجرين وثلاثة من فقراء الأنصار ، مما يبرهن على عدم اختصاص الفيء بالهاشميين ، وللرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وأولي الأمر فيه الخيرة.

﴿لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ﴾ الذين هاجروا أرض الوطن في سبيل الله ﴿الَّذِينَ

﴿أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ﴾ : من وظائفهم وأشغالهم ومصالحهم وأموالهم ، تركوها كلها حفاظا على شريعة الله بدافع الإيمان بالله ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً﴾ لا يبتغون من غيره جزاء ولا شكورا ، وإنما ﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ﴾ أن يعيد إليهم مسكة الحياة الدنيوية ، ﴿وَرِضْواناً﴾ وهو الأصل فيما يبتغون ، ﴿وَيَنْصُرُونَ اللهَ﴾ بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الحالات ، لا ملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ حيث يتبعونه فيما يفعل أو يقول ، دون تحرّج مما قضى ﴿أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم دون شائبة ولا عائبة.

فهؤلاء الكرام لهم نصيب من الفيء ، للفقر والإيمان والجهاد ، وهم أفضل من يستحقون الفيء ، وكذلك من بوّء لهم دار الهجرة ، بواء المكانة والمكان قبل أن يهاجروا :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ﴾ : دار الهجرة ، المدينة المنورة ، فإنها من أسمائها العشرة كما يروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم [1] ﴿وَالْإِيمانَ﴾ تبوّءا لهما على سواء ، فكما يطمئن الإنسان إلى داره ، اطمأن هؤلاء الأماجد إلى إيمانهم الرصين الحصين واستوطنوه ، وطنا أليفا أمينا للروح ، كما الدار مأمن للجسم.

فالتبوّء من البواء : مساواة الأجزاء في المكان ، خلاف النبوة وهي منافاة الأجزاء ، فالتبوّء هو التكلف في البواء للراحة والطمأنينة ، سواء أكان بواء في

(١) الدر المنثور ٦ : ١٩٥ ـ أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله (ص) : (للمدينة عشرة أسماء هي : المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة وتبدد ويثرب والدار).

المكان والدار ، أو المكانة والإيمان ، ف (الإيمان بعضه من بعض وهو دار ، وكذلك الإسلام دار والكفر دار كما في الصادقي عليهم السلام [1]).

فهؤلاء الأنصار تبوّءوا مكانا يناسب الإيمان ، عمّروهما وتهيئوا لاستقبال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والمهاجرين فيها ، مكانا تتساوى أجزاؤه لهم وللوافدين المهاجرين ، وهذه هي التبوئة الحقيقية العادلة ، فإن المهاجرين المضطهدين كانوا بحاجة إلى هكذا بواء الذي فيه كل رواع قلبا وقالبا ، بعد ما اضطهدوا ولاقوا ما لاقوا من الأذى طيلة المقام بمكة ، فإن أهلها كانوا يدمرون الدار والإيمان ، فهاجروا إلى من يعمرون الدار والإيمان ، لهم ولمن سواهم سواء ، يملكهم الحب في الله ويملكونه (وهل الدين إلا الحب؟) [2].

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حبا لهم واستقبالا عديم النظير في التأريخ ، فقد كانوا يتسابقون إلى إيوائهم ، واحتمال إعبائهم ، لحدّ كان المهاجرون يقترعون لأنفسهم لدور الأنصار ، إذ كانت مفتحة لهم الأبواب أكثر من الحاجة ﴿وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ هم ، مهما كانوا محاويج في متطلبات عيشتهم ، ولا سيما مع الضيوف : الواردين ، ولكن نفوسهم الأبيّة ، وصدورهم المنشرحة ، لم تكن توجد فيها حاجة مما أوتوا من بلغة العيش رغم حاجتهم المدقعة اليه ، ولا حاجة مما أوتي المهاجرون من الفيء ، بل ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ﴾ الفقراء المهاجرين ﴿وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾ : حاجة مدقعة ، والخصاصة في الأصل هي الفرجة ، وهم لم يكن لهم ما يسدّ فرج الحياة ، ورغم ذلك ، ومع حياتهم المعيشية المختلفة ، هؤلاء الأنصار المحاويج آثروا المهاجرين على أنفسهم مرتين : فيما أوتوا من الفيء ، وفي أموالهم الخاصة ، تشجيعا لجنود الهجرة ،

---

(١) الكافي بإسناده الى أبي عبد الله الصادق (ع) في حديث طويل يقول فيه : ...

(٢) محاسن البرقي بإسناده الى باقر العلوم (ع) في حديث : (الدين هو الحب والحب هو الدين) يعني الحب في الله.

وترغيبا للتضحية في سبيل الله ، والإيثار على النفس ، رغم شحّها أو حاجتها ، إنه القمة العليا من الإنفاق ، وقد بلغها الأنصار في تلك الظروف الصعبة الملتوية ، وكم من بون بينهم وبين من يؤثرون الحياة الدنيا وهم أغنياء : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقى﴾ (٨٧ : ١٦).

ولقد قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم للأنصار : (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم ، فقالوا : لا ، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة ، فأنزل الله ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾.

وهذه الآية تعمّ جميع الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، إلى يوم الدين ، دون اختصاص بمن نزلت في شأنهم من الأنصار وسواهم كما في أسباب التنزيل [١].

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ : بخل نفسه وتضيّقها ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فإن شح النفس ، وهو الحالة الرديئة التي تبخل الإنسان في العطاء وتحرصه فيما بأيدي الناس [٢] ، إنه من اصول موانع الفلاح ، فواقعه يفلج وزواله يفلح ، وداؤه العضال حاضر الأنفس : ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ (٤ : ١٢٨) ، وحاضر الداء هو دوما حاضر البلاء ، إلا لمن توقى فوقاه الله ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وحينما يمدح الله تعالى من يوق شحّ نفسه ، بوقاية صاحبها وتأييد الله ، يندد

---

(١) التفسير الكبير للرازي ج ٢٩ : ٢٨٧ ، عن ابن عباس.

(٢) من لا يحضره الفقيه روى الفضل بن أبي قرة السمندي انه قال : قال لي ابو عبد الله أتدري من الشحيح؟ قلت : هو البخيل ، فقال : الشح أشد من البخل ، إن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئا إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام ، ولا يقنع بما رزقه الله.

بمن لا يوق ، فهو شحيح على المؤمنين وعلى الخير أينما حلّ وارتحل : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً. أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمالَهُمْ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (٣٣ : ١٩).

وكما أن لشحّ النفس دركات ، كذلك لوقايته درجات ، منها ألا تشح عن أداء الواجبات من زكاة وسواها ، وكما عن علي عليه السلام (١) ، كما وأن منها ألا تشح عن المندوبات كقري الضيف كما عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (ثلاث من كنّ فيه فقد برىء من الشح : من أدى زكاة ماله وقرى الضيف وأعطى في النوائب) (٢) ، وكلمة الفصل عن الشح بصيغة شاملة قول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (ما محق الإسلام محق الشحّ شيء قط) (٣) ، و (شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع) (٤) ، وإلى غير ذلك من كلماته صلّى الله عليه وآله وسلّم حول خطورة الشح (٥).

وحدّ الإيثار أن يتجاوز نصف ما عنده ، فالنصف سواء وليس إيثارا ،

---

(١) الدر المنثور ٦ : ١٩٦ ـ أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب (ع) قال : من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه.

(٢) المصدر ـ أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله (ص) يقول : ...

(٣) المصدر ـ أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله (ص) : ... وفي من لا يحضره الفقيه : ثم قال (ص) : (إن لهذا الشح دبيبا كدبيب النمل وشعبا كشعب الشرك).

(٤) المصدر ـ أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي (ص).

(٥) كما في المصدر أخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (ص) قال : (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).

فضلا عما دون النصف ، وكما في الصادقي عليه السلام [1] وأرقى الإيثار ما فعله من ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ كما شرحناه في سورة الإنسان.

ولا يعني الإيثار أن يترك الإنسان نفسه وعياله جياعا عراة ، فإن ذلك تهلكة وليس إيثارا ، وكما في الصادقي عليه السّلام نقلا عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه ، ثم الثانية على نفسه وعياله ، ثم الثالثة على قرابته الفقراء ، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء ، ثم الخامسة في سبيل الله وهو أحسنها أجرا) ، وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم للأنصاري ، حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار : (لو أعلمتموني أمره ما تركتم تدفنوه مع المسلمين بترك صبية صغار يتكففون الناس) [2].

أجل ، وكما قال الله : ﴿وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً﴾ (٢٥ : ٦٧).

---

(١) الكافي عن ابان بن تغلب عن أبي عبد الله (ع) قال : سألته فقلت : اخبرني عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال : يا ابان! دعه لا ترده ، قلت : بلى جعلت فداك ، فلم أزل أرد عليه ، فقال : يا ابان! تقاسمه شطر مالك ، ثم نظر إلي فرأى ما دخلني ، فقال : يا ابان! أما تعلم أن الله عز وجل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ قلت : بلى جعلت فداك ، فقال : أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد ، إنما أنت وهو سواء ، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف.

وفيه أيضا عنه (ع) عن الرجل ليس عنده إلا قوت يومه أيعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شيء ، ويعطف من عنده قوت شهر على من دونه؟ والسنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كله الكفاف الذي لا يلام عليه؟ فقال : هو أمران أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة والاثرة على نفسه ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ﴾ ، والأمر الآخر لا يلام على الكفاف ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول.

(٢) علي بن ابراهيم القمي عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة في حديث طويل عن أبي عبد الله الصادق (ع) يشرح فيه حدود الإيثار والإقتار (نور الثقلين ٥ : ٢٨٨).

هؤلاء المهاجرون والأنصار الذين مدحهم الله على سواء ، وأشركهم في قسمة الفيء والأنفال ، فهل إن هذا وذاك يختصهم؟ كلا! بل :

﴿وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ :

هذه الآية تلقي ضوءا عاما لجميع هؤلاء الذين حياتهم حياة المهاجرة والنصرة في سبيل الله والمحبة والإيثار في الله ، من كانوا وأيا كانوا وأينما كانوا ، فإنما الأصل الأول والأخير هو الإيمان والعمل الصالح ، دون اختصاص بسابق أو لاحق ، وإن كان للسابقين . بما هم حجر الأساس . لهم فضلهم ، ولكنما السبقة والسباق في الإيمان أيضا قد يحصلان بعد البداية ، أو كأفضل منها أحيانا ، وفي ظروف أشد خطورة ، وأجواء أظلم وأطغى.

﴿وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ : من بعد المهاجرين والأنصار الأولين ، جاءوا للإيمان كما هم ، أم جاءوا إلى الوجود ونشؤا في جو الإيمان ، بعدية كونية أم كيانية يجمعهما أنهم مؤمنون ، وهذا عطف على الفقراء المهاجرين ، يعطفهم على ﴿ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ للعطف بهم في تقسيم الفيء والأنفال ، مما يدل على شمول الفيء لكافة المؤمنين الفقراء ، وإن كان بنو هاشم أولى إذا ساووهم في الإيمان أو سابقوهم.

فهذه صورة ثالثة ووضيئة عن المؤمن الحقيقي ، تطمئنه أنه لو حرم الهجرة والنصرة الاولى ، ولكنه لا يحرمهما بعدهما ، فلتكن حياة المؤمن حياة الهجرة والنصرة في الله دون أن يخاف أحدا إلا الله.

هؤلاء تشبه حالهم مقالهم : ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ﴾ : سبق الزمان أو سبق الإيمان في درجاته ، فهم مهما انفصلوا عن إخوانهم المؤمنين ، الأنصار والمهاجرين ، زمانا ومكانا ، ولكنهم لا ينفصلون عنهم أخوّة وإيمانا ، فقد تتجلى فيهم الاصرة الباهرة التي تربط هذه الامة

بعضها ببعض ، والتي تتخطى الزمان والمكان ، وكل ما سوى الإيمان ، فلا يحبون لأنفسهم ويطلبون ، إلا ويطلبونه ويحبونه لإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان ، وليس تقديم أنفسهم في الدعاء إلا تبوءا لها لكي تستجاب دعوتهم لإخوانهم ، ومن ثم لأنفسهم ، وهذا لون من ألوان الإيثار ، بالنسبة لمن سبقوهم أحياء وأمواتا.

﴿وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ : الغلّ هو العداوة والضّغن من الغلّ : القيد ، فكما الغل قيد للأجسام ، كذلك الغل قيد للصدور والأرواح ، يجعلها ضيّقة ضنكا ضغينة ، فالله تعالى ينزع الغل من صدور من ينتزعه بسعيه :

﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ﴾ (٧ : ٤٣) ﴿... إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ﴾ (١٥ : ٤٧) ، كما وأنه يجعل فيها الغل لمن يغلّ ، فيذره في غلّه يعمه ، وفي طغيانه يتردد ، فالمؤمنون العاملون لانتزاع الغلّ عن صدورهم يلتمسون من الله تعالى أن يعينهم لزوال الغل ، إذ كلّ سعيهم وقلّت حيلتهم في تواتر الأغلال ﴿رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا

يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (١٣) لا
يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً
وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ
وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (١٦) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ
الظَّالِمِينَ (١٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ
خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ
(١٩) لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنا
هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (٢٢)

هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٤)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ :

﴿الَّذِينَ نافَقُوا﴾ من المسلمين المستسلمين الذين لم يؤمنوا بقلوبهم ، هؤلاء يقولون لإخوانهم في الكفر : يهود بني النضير ، فليست الأخوّة في الدم والقرابة فحسب ، فالأعمق منها هي الأخوة في العقيدة ، فكما أن المؤمنين إخوة فيها ، كذلك الكافرون إخوة في الكفر ، مهما اختلفت أواصر القرابة والعنصرية واللغة وما شابهها هنا وهناك.

إن الأخوة على ألوان يجمعها الوجه المشترك بين جماعة ، يربطهم برباط واحد كجامع الوطن ، إذ آخى بين عاد وهود (٧ : ٦٥) وصالح وثمود (٧ : ٧٣) ومدين وشعيب (٧ : ٨٥) ولوط وسدوم (٥٠ : ١٣) مهما تناقضوا في العقيدة أو تباعدوا في النسب.

وجامع النسب كما هو ظاهر ، وجامع الإيمان : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (٤٩ : ١٠) وجامع الكفر : ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ (٧ : ٢٠٢) وهذه الآية :

﴿يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ﴾ : بني النضير ، لما قرر إخراجهم من قريتهم لما خانوا ونقضوا عهدهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ إيحاء لهم بشدة رباط الاخوة بينهم لحدّ : ﴿وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً﴾ حتى الرسول الذي آمنا به بألسنتنا ، فقد نجاهره بالخلاف لصالحكم ، وإيحاء ثان هو أشد وآكد : ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ بالنفس والنفيس ، فقلوبنا معكم ، وأسيافنا لكم ، ولكن الله يفضحهم أن نفاقهم مزدوج ، ينافقون إخوانهم كما نافقوا المسلمين ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ وهذه الشهادة أصبحت ملموسة لبني النضير عن نفاق مدروس من إخوانهم المنافقين.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ :

فقد كان لا بدّ للمنافقين أن يفوا لإخوانهم بوعدهم في هذا الثالوث المنحوس : فيخرجوا معهم إن أخرجوا ، وينصروهم إن قوتلوا ، ولا يوّلوا الأدبار إن نصروهم ، تطبيقا لوعدهم ، أو ليكذبوا نبأ القرآن عنهم ، ولكنهم ما فعلوا من ذلك شيئا ، وكيف بالإمكان تكذيب القرآن رغم واقع الإختيار لهؤلاء الذين يتربصون بالإسلام الدوائر ، ولكن عليهم دائرة السوء وكلمة الله هي العليا ، فلقد وقع ما نبّئ النبي من كيد المنافقين ، كما وقع مئات ومئات من هذه الأنباء الغيبية ، التي هي حجج دامغة على الناكرين.

إنهم يجمعهم : ألا عزم لهم ولا حزم إذ لا مولى لهم عليه يعتمدون ، فهم يرهبونكم ولا يرهبون الله ، رغم حصونهم بعدتهم وعدتهم :

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ :

هؤلاء الإخوة في الكفر يرهبونكم ولا يرهبون الله كرهبتكم أنتم عبيده! و «ذلك» : هذا البعيد البعيد من الحالة النفسية الرديئة ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ :

الحقائق فيثبتوا لها ، فلم يعرفوا الله حتى يهابوه حق مهابته ، ولم يعرفوكم حتى لا يهابوكم «ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» [1] أجل وإن المرتبط إيمانيا بمصدر القدرة والجبروت يرهب منه كما يرهب من الله! ولا يجتمع في قلب خوف من الله وخوف من شيء سواه ، إذ لا إله إلا الله ، ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله ، أو لا يخافونه أبدا ، ولذلك تراهم يخالفون وعودهم لإخوانهم رهبة منكم.

﴿لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ :

ومن رهبتهم إياكم أن «لا يقاتلونكم» : الكافرون والمنافقون سواء بنو النضير وإخوانهم أم نظرائهم «جميعا» : حال أنكم جميع في قلوبكم ، جميع في اتجاهاتكم ، وجميع في دفاعكم وهجماتكم في سبيل الله بدافع ﴿إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ كذلك ﴿لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً﴾ : وهم جميع بكافة صنوفهم ، تجمعوا على قتالكم أو تفرقوا ، ﴿إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ﴾ فلا يتكلون إلا على العدة والعدة ، إذ لا ايمان لهم به يثبتون ، ولا مولى لهم عليه يتوكلون ، فهم يقاتلونكم متكلين على هذه المعدات الحربية ، وأما في غير حصار ولا جدر فهم يهربون ويتساقطون رهبة منكم وخوفا ، وكما نلمس هذه الحالة البئيسة من الكفار طوال التاريخ ، نلمسها في حروبهم مع المؤمنين الحقيقيين ، مهما كانوا قلة وأولئك كثرة ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ وفيما نرى غلب الكافرين على المؤمنين ، نجده من تفرق المؤمنين وابتعادهم عن مبدئهم ، كما يشهد بذلك التاريخ.

تشهد الاشتباكات المتواصلة بين الفدائيين والصهاينة بصدق هذه الملحمة

---

(١) عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا (ع).

القرآنية ، فما يقاتلون إلا بتحصنات ومعدات حربية ، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولّوا الأدبار كالجرذان ، ومن ثم لم تكن نكسات المسلمين العرب إلا قدر انتكاساتهم عن الروح الايمانية وتفرقهم بينهم.

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ : قوتهم فيما بينهم شديد ، كما أن : بؤسهم بينهم شديد [1] ومن بؤسهم في بأسهم : ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ فمظاهرهم تخدع إذ نراهم كأنهم متضامنون ، وفي معسكرات قوية متوحدة ، ولكنما الواقع خلاف الظاهر فإن ﴿قُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ لتشتت أهوائهم وأهدافهم ، فهم يقاتلون ما ظنوا أنهم يقتلون ويحتلون ، فإذا ظنوا أنهم يغلبون أو يقتلون يولون الأدبار ثم لا ينصرون خلاف المؤمنين الحقيقيين الذين هم جميع في قلوبهم ، فإنهم يرونهم منتصرين ، قاتلين ومقتولين فلا يوّلون.

فمهما انتصر الكفار في حربهم مع المؤمنين ، لم يكن ذلك إلا لتشابههم في قلوب شتى ، فتغلب من تزيد عدته وعدّته ، وإنما يظهر حق هذا النبأ القرآني فيما قلّت عدة المؤمنين وعدتهم ، أو تساوت مع الكافرين ، فانتصر المؤمنون ، كما في معارك عدّة ، ويعاكسه عكس الأمر أحيانا ، فيما كانت القلتان بجانب الكفار دون المسلمين فانتصر الكفار ، فليس إلا بتماسكهم بها اكثر من المسلمين. رغم شتاتهم جميعا. كما في الحروب الإسرائيلية الأخيرة ، اللهم إلا حرب رمضان ، إلا لمن رفضها عن دوامها حتى النصر.

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ : فتشتت قلوب العساكر هو الحماقة الكبرى ، وعدم الاكتراس بالطاقات المعنوية مع العناية بالمعدات الحربية ، من عدم العقل.

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾.

مثل هؤلاء الحماقى كمثل من قبلهم كالمشركين يوم بدر ، وكبني قينقاع

---

(١) بأسهم : على أنفسهم هو بؤسهم وعلى غيرهم هو قوتهم ، فالمعنيان هما هنا معنيان.

وأضرابهم من الخونة الناقضين عهودهم مع المسلمين ، فقد كانت وقعة بني قينقاع قريبة من وقعة بني النضير بين بدر وأحد ، إذ حقدوا على المسلمين لما انتصروا في بدر ، إذ خافوا أن يؤثر على موقعهم في المدينة بزوال معنوياتهم وجاههم ، فبلغ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تحسّسهم وتهامسهم ضده ، فحذرهم من ذلك فاستكبروا قائلين : إنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب؟ والله لئن حاربناك لتعلم أنا نحن الناس! فأخذوا يتهرجون متحرشين بالمسلمين حتى جردوا امرأة مسلمة عن ملابسها في سوقهم ، فاندلع الحرب بينهم وبين المسلمين وحاصرهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى استسلموا وعرفوا من هم الناس ومن هم النسناس! وكان ما كان من خداع المنافقين معهم نظير بني النضير ، فأجلاهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن المدينة ، على أن يأخذوا أموالهم إلا أسلحتهم ، فانجلوا إلى الشام ف ﴿ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الاولى ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ في الاخرى ، هؤلاء الكفار مع إخوانهم المنافقين.

ومثل عام شامل عن عمليات المنافقين الخادعة اللئيمة المشئومة :

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ. فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ﴾ :

مثل حزب الشيطان هؤلاء ، المضلّلون والمضلّلون ، كمثل زعيمهم الأول ، دائبا في تضليلهم ، آئبا عنهم أخيرا ، متبرئا منهم ، وكما فعل بالمشركين يوم بدر : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَقالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ. إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ (٨ : ٤٩).

وهذا هو دأبه الدائب : يعد ويخلف ، نفاقا عارما يعيشه ، وعجب من

هؤلاء الذين يتبعون خطواته وهم يبصرون ، وكما فعل بالمنافقين يوم بدر ، وبني النضير ، وكم لهما من نظير.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطانِ﴾ : شيطان الجن والإنس بنوعيهما ﴿إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ﴾ : نوع الإنسان ، يأمره بالكفر بما يزين له ويزخرف فيتبعه من عميت بصيرته وضلت سيرته ، يعده في كفره ألوان الوعود الحلوة ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ وحصل ما أراد منه نكص على عقبيه و ﴿قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ كأنه أشطن منه وألعن وهو يتقي الله : ﴿إِنِّي أَخافُ اللهَ رَبَّ الْعالَمِينَ﴾ فقد يكذّب في قولته : ﴿إِنِّي أَخافُ﴾ كما في أكثر الأحايين ، وقد يصدّق كما في بدر إذ رأى الملائكة النازلين لتعزيز المؤمنين قائلا : ﴿إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾ (٨ : ١٢).

﴿فَكانَ عاقِبَتَهُما﴾ : الشيطان المضلّل ، والإنسان المضلّل ﴿أَنَّهُما فِي النَّارِ﴾ ابتداء من دار الفرار إذ عاشوا في نار التضليلات ، وإلى دار القرار ﴿خالِدَيْنِ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ﴾ : ظلم التضليل وظلم التضلّل ، مهما اختلفا في مداه ، فإنهما ائتلفا في معناه.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ :

إن عقائد التقوى وأعمال التقوى لبنات لتبني شخصية الإنسان للحياتين ، فلتنظر نفس إنسانية ما قدمت من صالحات أو طالحات لغد ، تقوى تتبنى حياته الطيبة ، أو طغوى تتبناها مرذولة نجسة ، تهدم صرح إنسانيته ، فلتنظر لتقدم ما يقدمه دون تأخير ، وتنكير «نفس» يوحي بقلة المراقبين لأحوالهم وأعمالهم كما هو الواقع ـ وبين المتقين أيضا ـ فالمعروف الساري بين الناس عدم المراقبة ، والإهمال بشأن «غد» ، لذلك فلتزوّد نفس التقوى العقائدي والعملي

بتقوى النظرة والرقابة لما تقدمه نفسه. فواجب الإنسان أن يقدم كل يوم لغده ، وكل غد لما بعده ، فيتخطى ـ هكذا ـ حياته الدنيا ، إلى غد الاخرى ، متبنيا صرح الحياتين دائبا «فمن ساوى يوماه فهو مغبون» مقدما من كل يوم لغده هنا ، ومن أيام الدنيا جميعا لغد الآخرة ، سلسلة تقدمية من حياة التقوى ليعيش مع الله حياته كلها ، وعلّ تثنية التقوى في الآية بدء وختما ، توحي بمفعول التقوى لغد الدنيا وغد الآخرة مهما كانت الاخرى هي الأحرى [1] ، وتشيران كذلك إلى تقوى العمل وتقوى المراقبة والمحاسبة كما وان تنكير «غد» يوحي بعدم اختصاصه بغد الآخرة.

---

(١) فبالنسبة لغد الآخرة يروى عن رسول الله (ص) قوله : «تصدقوا ولو بصاع من تمر ، ولو ببعض صاع ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، ولو بتمرة ، ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن أحدكم لاقى الله فيقال له : ألم أفعل بك؟ ألم أفعل بك؟ ألم أجعلك سميعا بصيرا؟ ألم أجعل لك مالا وولدا؟ فيقول : بلى ، فيقول الله تبارك وتعالى : فانظر ما قدمت لنفسك ، قال : فينظر قدامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يجد شيئا يقي به وجهه من النار(نور الثقلين ٥ : ٢٩٢) عن اصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله (ع) قال : قال رسول الله (ص) وفي الدر المنثور ٦ : ٢٠١ ـ أخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن جرير قال : كنت جالسا عند رسول الله (ص) فأتاه قوم مجتابي النمار متقلدي السيوف ، ليس عليهم أزر ولا شيء غيرها ، عامتهم من مضر ، فلما رأى النبي (ص) الذي بهم من الجهد والعرى والجوع تغير وجه رسول الله (ص) ثم قام فدخل بيته ، ثم راح إلى المسجد فصلى الظهر ، ثم صعد منبره فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ذلكم فإن الله أنزل في كتابه : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿الْفائِزُونَ﴾ تصدقوا قبل أن لا تصدقوا ، تصدقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة ، تصدق امرؤ من دينار ، تصدق امرؤ من درهمه ، تصدق امرؤ من بره من شعيرة من تمره ، لا يحقرن شيء من الصدقة ولو بشق التمرة ، فقام رجل من الأنصار بصرة في كفه فناولها رسول الله (ص) وهو على منبره فعرف السرور في وجهه فقال : من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ومثل وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا فقام الناس فتفرقوا فمن ذي دينار ومن ذي درهم ومن ذي طعام ومن ذي ومن ذي فاجتمع فقسمه بينهم.

فواجب النظر إلى ما تقدمه أن يكون عميقا أنيقا ، من نظر البصر والبصيرة نظر العقل والفطرة والسريرة ، على ضوء الشريعة الإلهية ، دون أن تتخطاها إلى ميول الهوى ، والعقل المتحلل عن وحي السماء ، وهذه هي المراقبة التي أمرنا بها لكي لا نخسر الحياة [١] ، فرب غفلة وغفوة يسيرة تخسرك كثيرا ، وتوكل على الله ليكون لك نصيرا ﴿أَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ :

﴿نَسُوا اللهَ﴾ : نسيان الفطرة بما حجبت ودرنت ، فألحدوا في الله ، أو أشركوا به ، أو نسيانا في عقولهم وفكرهم فشكّوا فيه رغم يقظة الفطرة ، أو نسيانا لعهده ألا يعبدوا الشيطان ولا يطيعوه ويغتروا به : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (٢٠ : ١١٥) ، أو نسيانا للقائه : ﴿فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا﴾ (٧ : ٥١) ، أو نسيانا لذكره : ﴿وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكانُوا قَوْماً بُوراً﴾ (٢٥ : ١٨) عصيانات بنسيانات تجمعها نسيان الله عقائديا وفكريا وعمليا ، ثالوث منحوس يخلف الفسق والبوار ، مهما كانت دركات عدة : من خلاف الاولى والفسق والكفر والإلحاد ، كما أن ذكر الله درجات ، من الإسلام والإيمان والعصمة الإلهية.

ومن عقبات وعقوبات نسيان الله أن ينسيهم أنفسهم ، ف (من عرف نفسه فقد عرف ربه) كما أن من ذكر نفسه كما هي ، ذكر ربه ، بما في النفس من آيات ربوبيته وملزمات عبوديته ، فمن ينسى ربه ينسيه ربّه نفسه

---

(١) عن النبي (ص) : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا قبل أن توزنوا وتجهزوا للعرض الأكبر. وفي الكافي بإسناده إلى أبي الحسن الماضي (ع) قال : ليس منا من لم يحالب نفسه في كل يوم فإن عمل حسنا ازداد شكرا وان عمل سيئا استغفر الله وتاب إليه.

﴿فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ فلما نسي نفسه فسق عما يحق له وعليه ، وخرج عن طوره : ﴿أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ ينسيهم أنفسهم بما نسوه فنسيهم : ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ (٩ : ٦٧).

وليس نسيان الله لمن ينساه أن يجهلهم أو يغفل عنهم ، وإنما أن يعاملهم معاملة الناسي لرعيته فيذرهم في طغيانهم يعمهون وفي غيّهم يترددون ، ويكلهم إلى أنفسهم ، فهم إلى بوار يتردّون ، وإلى شر دار ينهارون ، وهذا هو اسّ البلاء الذي يخافه حتى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم قائلا : (ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا).

إن البليّة كلها ، والرزيّة كلها أن يجهل الإنسان نفسه وينساها ، فيحسب فقره غنى ، وجهله علما ، وتعلقه بالله استقلالا بجنب الله ، إذ نسي أنه فقير الذات والصفات والأفعال إلى الله ، فهو يطغى أن رآه استغنى! وهذا هو الفسق المطلق : الخروج عن الطاعة ، لما أخطأ نفسه فخرج عن طوره.

﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ :

أصحاب النار هم الناسون الله فالناسون أنفسهم ، وأصحاب الجنة هم الذاكرون الله فالذاكرون أنفسهم ، نار النسيان وجنة الذكر ، فهل تستويان ، وإنما الفائزون : الظافرون بالخير مع حصول السلامة ، هم الذاكرون ، فذكر الله جنّة عن النار ، فجنّة ونعم القرار : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ﴾ (٣ : ١٨٥) ونسيانه نار وبئس القرار.

ليس بين الفريقين المتفارقين مفرق طريق ولا أنصاف حلول ، لا يلتقيان في أي مفرق ولا أية سمة أو خطة أو سياسة ، في أي من عوالم الوجود! ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ :

«لو» توحي باستحالة مدخوله حيث الجبل ما دام جبلا ليس ليعى القرآن ،

فلو كان يعي القرآن ويعرف البيان لخشع في سماعه قلبا وقالبا ، ولتصدّع من عظم شأنه على غلظ أجرامه وخشونة أكنانه [1] ، فالإنسان الواعي أحق بذلك وأحرى ، إذ كان واعيا لقوارعه ، عارفا ببوارعه ، عالما بصوادعه ، فيا للإنسان غير الخاشع ولا المتصدع من قلب قاس دون حراس ولا اكتراس : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢ : ٧٤) فما أعجب وأخرى حال أهل المشاقة والعناد ، وما أكثرهم من عتاد ، لا تلين قلوبهم لذكر الله ، فلا يخشون ولا يخشعون! ﴿فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ. اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ (٣٩ : ٢٣) فالذين يحسون ويلمسون شيئا من مس القرآن في كيانهم ، هؤلاء يتذوقون تلك الحقيقة المشعة التي لا يعبر عنها إلا هذا النص القرآني المجيد ، فإن لهذا القرآن سلطانا على القلوب غير المقلوبة ، لا تثبت له إلا أن تتفتت وتهتز هزات وتحوّلات لا قبل لها ، يحوّلها عن قلب التراب إلى مجلى أسماء وصفات رب الأرباب ، تخلية لها عما سواه ، فتجلية بالله ، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتذكرون بها لما يتوجب عليهم أن يكونوا وجاه هذا القرآن.

إن هذا القرآن شفاء للقلوب وللقوالب أيضا وكما يروى عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إن جبرئيل لما نزل بها قال لي ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السأم والسأم الموت» [2] ومن أشفى الشفاء لما في الصدور الآيات التي تحمل التعريف

---

(١) فالفرق بين الخشوع والخشية ان الأول للقوالب والثاني للقلوب ، فلو كانت للجبال قلوب كما للإنسان لخشعت وخشيت.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٠١ ـ اخرج الخطيب البغدادي في تاريخه قال أنبأنا أبو نعيم الحافظ أنبأنا أبو الطيب محمد بن احمد بن يوسف أنبأنا إدريس بن عبد الكريم الحداد بإسناد عن النبي (ص) : .

بالله وتوصيفه وتعديد أسماءه الحسنى :

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ﴾ :

فإنها والآيتين بعدها تسبيحات مديدات بصفات مجيدة عديدة تمثل صفاته العليا كلها ، وكما يختمها بايحاء عام لها : ﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾.

﴿هُوَ اللهُ﴾ هو : الذات الغائبة من كافة الجهات ، محجوبة لأبعد أغوار الحجب ، لا يرجى ظهورها لا للبصائر ولا الأبصار في أيّ من عوالم الوجود ، ف «هو» هو الاسم الأعظم المحجوب ، كما «الله» هو الاسم الأعظم الظاهر [1].

ف ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ في أيّ من ذات الالوهية وصفاتها ومتطلباتها أجمع ، تذكر منها هنا ثلاث : ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ : كل غيب لنا وشهادة عندنا ، يعلمه علما يعتبر الكل بالنسبة له شهادة ، فإنما الغيب والشهادة ، بالنسبة لمن يجهل بعضا ويعلم بعضا ، وأما الذي لا يعزب عن علمه شيء فلا غيب عن علمه ، فالكل له شهادة ، يشهد الغيب الكائن ، والذي لم يكن بعد فإنه من أغيب الغيب لحدّ كأنه الغيب فقط [2]. وعلّه لأن الغيب الكائن هو في مظان الشهود بعضا للبعض من أهل الشهود ، ولكنما الغيب الغيب : غير الكائن ، مختص بالله ، وإن كان يظهر على

(١) راجع تفسير سورة التوحيد في ج ٣٠ ص ٥١٣ ـ ٥١٤.

(٢) مجمع البيان عن أبي جعفر الباقر (ع) قال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان.

بعضه من ارتضى من رسول ، وفي تقديم الغيب على الشهادة ايحاء لطيف ألا فرق بينهما عنده تعالى لحدّ كأنه أعلم بالغيب من الشهادة!

﴿هُوَ الرَّحْمنُ﴾ بجميع خلقه فإنها الرحمة العامة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين خاصة فإنها الرحمة الخاصة ، وهما تشملان كافة الصفات الإلهية ذوات الفاعلية والعلاقات العامة أو الخاصة بالكون ، على علم نافذ فيهما دون عزوب عن أية خافية.

توحي هذه الصفات الثلاث بعد تصريحة التوحيد ، بوحدانيته تعالى في علمه ورحمانيته ورحيميته ، ما يشمل توحيده في كافة صفاته وأسماءه الحسنى.

ومن ثم تبرز هذه الثلاث ، بعد الحياة العقلانية العقيدية للإنسان ، تبرز في حياته العملية ، في كمال منهجه تفكيرا وشعورا وسلوكا ، أنه مراقب من الله ، وغريق في رحمانيته ورحيميته ، فلا يغفل ولا يطغى.

﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ :

أسماء أخرى ثمان بعد الثلاث ، وهي كلها بعد توحيده الذي هو أم الأسماء ، وهذه الثمان تفاصيل لتلكم الثلاث ، إذ إنها من شؤون علمه ورحمانيته ورحيميته ، كما انها كلها بسائر الأسماء لزامات توحيده تعالى. ف ﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وعلّ هذه الثمان حملة عرش الأسماء والصفات ، وكما أن لعرشه تعالى يوم القيامة حملة ثمان.

﴿الْمَلِكُ﴾ : وحيد في ملكيته ومالكيته ، لا يشركه فيها أحد : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ (١٧ : ١١١) ولا يشبهه ﴿فَتَعالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (٢٣ : ١١٦) فهو مالك الملك لزاما لألوهيته لا سواه : ﴿قُلِ اللهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ﴾ (٣ : ٢٦) ملك المبدء : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما

﴿يَشاءُ﴾ (٥ : ١٧) وملك المصير : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٥ : ١٨) إذا فليس للخلق سيد سواه.

﴿الْقُدُّوسُ﴾ : مبالغة في القدس ، حقا في الله الملك ، فلا قدس يحق ويجب في الملك إلا وفيه حقه غير المحدود ، لا يملك إلا بقداسة ، ولا يحكم ويحاسب إلا بقداسة ، ولا يعذب إلا بقداسة ، فالقداسة المطلقة اللانهائية مشعة في الملك الإله دون من سواه ، ومن قدوسيته سلامه : ﴿السَّلامُ﴾ : سلام في ذاته ، عن كل نقص ورين ، وفي صفاته عن كل ظلم وشين ، سلام في دعوته : ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ﴾ (١٠ : ٢٥) وفي هدايته لمن يتقبل دعوته : ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ (٥ : ١٦) وفي جزاءه للسالكين سبل السّلام : ﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (٦ : ١٢٧) ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ (١٠ : ١٠) لذلك يحق له التسليم : ﴿بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (٢ : ١١٢) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣ : ٨٣).

أجل انه سلام دون سأم ، وليس السأم إلا بما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير فعذابه السأم سلام في حساب الحق والعدل ، وكما ان سلامه لغير أهله ـ والعياذ به ـ سأم في هذا الحساب ، فالخير كله بيديه والشر ليس إليه ، فإنه يؤمن ولا يؤمن عليه : ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ : يؤمن بذاته المقدسة الملك القدوس السّلام ، ويؤمن خلقه أجمع مما تتعرض لهم من بواعث البوار ، به وبما يرسل عليهم حفظة : ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ (٦ : ٦١) ويؤمن المؤمنين ويؤمّنهم عن الزلة والانحراف يوم الدنيا ، وعن ذلة العذاب والانجراف في النار يوم الدين ، فهو مؤمن بعد له وفضله من يستحق الأمن أو لا يستحقه ، فضلا منه لمن يستحقه.

﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ : سلطان على خلقه رقيب ، كما وان كتابه مهيمن على ما قبله

من كتاب : ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (٥ : ٢٨) هيمنة حكيمة لا نفاذ فيها ممن سواه ولا نفاد ، وإنما سيطرة الملك القدوس السّلام المؤمن : ﴿الْعَزِيزُ﴾ : الغالب ـ عزيز في ملكه وقدسه وسلامه وهيمنته ، عزيز في ذاته وصفاته وأفعاله ، عزيز في حكمته (٢ : ٢٢٠) عزيز في انتقامه (٣ : ٤) عزيز في قوته (١١ : ٦٦) عزيز في رحمته (٢١ : ٩) عزيز في غفرانه (٦٧ : ٢) فلا عزة إلا له وبه ومنه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٦٣ : ٨).

﴿الْجَبَّارُ﴾ : والجبر هو إصلاح الشيء بضرب من القهر ، فالجبّار هو كثير الجبر لكل كسر من كل كسير ، كسرا في الخلق أو الخلق ، في القلب أو القالب ، فهو جبار في الإصلاح ، لا تحمله إلا هذه الآية ، ثم أهل الطغوى جبارون في الإفساد ، بين جبار عصي (١٩ : ١٤) وجبار شقي (١٩ : ٣٢) وجبار عنيد (١١ : ٥٩) في بطشة جبارة : ﴿وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (٢٦ : ١٣٠) فهذا الجبار العصي العنيد الشقي يقابل الجبار المصلح الوفي : ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٢٨ : ١٩) فهناك جبار يجبر الكسير [1] ، وهنا جبار يكسر الجبير ، فأين جبار من جبار سبحان العلي القدير ، ولا يوجد جبار في الإصلاح إلا الله ، حتى ولا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلا في بلاغ الرسالة ، لا في التكوين ولا التشريع! ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ (٥٠ : ٤٥).

وكل جبره تعالى إصلاح ، سواء جبره الخلق في ذواتهم والبعض من أفعالهم ، أو في أحوالهم المنكسرة التي تتطلب الجبر ، وللعارفين نصيب من هذا الاسم المجيد لأنفسهم مهما حرموا عن كامله [2].

---

(١) من أدعية الإمام علي (ع) : «يا جابر كل كسير ومسهل كل عسير».

(٢) من حظه أن يقبل على نفسه ، مجبرا نقائصها باستكمال الفضائل ، فيحملها على ملازمة التقوى ومجانبة الطغوى ، ويكسر منها الهوى الطائشة والشهوات الفاحشة ، ويترفع عما سوى الله ، متخليا عنهم متحليا بالله ، لا يزلزله تعاور الحوادث.

﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ : ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ﴾ (١٣ : ٩) ﴿الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٢ : ٦٢) فلا كبير إلا الله ، فمن سواه صغار في صغار

(والكبرياء ردائي فمن شاركني في ردائي ألبسته ثوب الذلّ) [١] ، فهنا تكبّر بالحق بمعنى التعظم وإظهار الكبرياء ، وآخر بالباطل لمن ليس له : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (٧ : ١٤٦) والمتكبر من يرى غيره حقيرا صغيرا بالنسبة لنفسه وهذا لا يحق إلا لله [٢]. وكما الجبار في الله تحمله فقط هذه الآية ، كذلك المتكبر ، فسائر الآيات تعبر عنه بالكبير ، فالمتكبر الكبير غير المتكبر الصغير ، فهذا باطل يتظاهر بالكبرياء وليست له ولن تكون ، وذلك حق تظهر الكبرياء في صفاته وأفعاله ، مما تدل على كبرياء الذات ، دون تكلّف ولا ادّعاء ، فهو متكبر : يظهر الكبرياء ، لأنه كبير عليّ متعال ، وإنما التواضع كمال لغير الكبير ، ونقص للكبير ، وبديله فيه هو العدل والفضل والرحمة ، متكبرا عما لزامه الصغار ، وعلى من سواه فإنهم كلهم بجنبه صغار.

﴿سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به في هذه الأسماء والصفات.

﴿هُوَ اللهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

صفات اخرى ثلاث ، تمثيلا عن أسمائه وصفاته الفعلية الظاهرة في خلقه ، صفات مترتبات في المظاهر الخارجية ، خلقا ، ثم برءا لما خلق من : برء العود ، فهو يخلق عود الخلائق ثم يبرئها : بريئا هو من تفويت وتنقيص ، وبريئة هي كخلقه من التفاوت والتهافت ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾ والتخلق

---

(١) حديث قدسي.

(٢) الكبير خاص بمن له حق الكبر أيا كان ، والمستكبر خاص بمن لا يتكلفه ولا يستحقه ، والمتكبر أعم منها ويتبع في معناه القرينة كما هنا.

بهذا الاسم هو أن يبرئ العبد أعماله عن الاتجاهات غير الإلهية ، وعن التناقضات والاختلافات ، ثم تصويرا بإعطاء الملامح المميزة ، والسمات المتميزة التي تمنح لكلّ شخصيته الخاصة المائزة له عما سواه : ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾ (٨٢ : ٨) فالتسوية والتعديل من البرء والتقدير وقبلهما الخلق وبعدهما التصوير ، سبحان العليّ القدير.

ومهما كانت هذه الصفات مترتبات زمنيا في الخلق ، ولكنها موحدة في ذات الله ، فإنه خالق إذ لا مخلوق ، وبارئ إذ لا مبروء ، ومصوّر إذ لا صورة!

﴿لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ : وهي هي صفاته العليا ، صفات الذات وصفات الفعل ، وحسنى الأسماء والصفات هي التي تليق بهذه الذات ، والقبيح كل القبيح أن ندعوه بغيرها : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧ : ١٨).

والإلحاد في أسماء الله أن تختلق له أسماء لم يسمّ بها نفسه ، أو تفسر أسماءه بما لا يليق بذاته المقدسة ، وعلى المؤمن أن يستوحي من أسماء الله الحسنى فيصوغ نفسه وفق إيحاءاتها واتجاهاتها ، تخلّقا بأخلاق الله ما أمكن ، لا تشبّها إذ لا يمكن ، وفي المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمة من آل الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أن الأسماء الحسنى مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة [١] ، إحصاء في القلب

---

(١) التوحيد للصدوق بإسناده الى علي بن أبي طالب (ع) قال قال رسول الله (ص) : إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة ، وهي : (الله. الإله. الواحد. الأحد. الصمد. الأول. الآخر. السميع. البصير. القدير. القاهر. العلي. الأعلى. الباقي. البديع. البارئ. الأكرم. الظاهر. الباطن. الحي. الحكيم. العليم. الحليم. الحفيظ. الحق. الحسيب. الحميد. الحفي. الرب. الرحمان. الرحيم. الذارئ. الرازق. الرقيب. الرءوف. الرائي. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر. السبوح. الشهيد. الصادق. الصانع. الظاهر. العدل. العفو. الغفور. الغني. الغياث. الفاطر. الفرد. الفتاح. الفالق. القديم. الملك. القدوس. القوي. القريب. القيوم.

وإحصاء في القالب ، في عقيدة الإيمان وعمل الإيمان ، ويروى عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنها أربعة أرباع على حدّ قوله : (أسألك بكل اسم سمّيت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب) [١].

﴿يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

فألسنة الكائنات من الأرض والسماوات ناطقة . بيانا أو برهانا . عما لا يليق بالالوهية ، وعن أن يكون له شريك في الملك أو ولي من الذلّ فكبّره تكبيرا.

---

(١). تفسير روح البيان للآلوسي ج ٩ ص ٤٦٨.

(سورة الممتحنة [1] . مدنية . وآياتها ثلاث عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا

(١). تسمت السورة ب «الممتحنة» بمناسبة آية النساء المؤمنات المهاجرات ، فللامتحان مكانته ، كما للنساء مكانتهن ، فسورة النساء ومريم والممتحنة والمجادلة ، إنها مما توحي بعطف الله ولطفه الخاص بالنساء ، بدل ما أهينوا طوال التاريخ ، وكما لا نرى سورة تتسمى باسم الرجال إلا بعض رجالات الوحي : محمد . نوح . إبراهيم . يوسف . هود . يونس . ثم واسم يشملهم أجمع «الأنبياء».

أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا
بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ
لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنا لا
تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللهُ أَنْ
يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ
الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ
الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا
عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٩)

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾ :

ملامح هذه الآية وما بعدها ، ومصارحها أيضا ، تشهد أنها نزلت تنديدا ببعض المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم وأهليهم ، وظلت نفوسهم مشدودة عالقة إلى بعض من خلفوا هناك من الأهلين ، فاتخذوا مشركي مكة أولياء ، يعتاضون بولايتهم الحفاظ على أهليهم ، ومنهم ـ كحاطب بن أبي بلتعة ـ من ألقى إليهم بالمودّة ، فلم يكتف هذا الذليل الهزيل الإيمان بموادتهم ، فقد تخطاها إلى إلقاء أسرار النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم إليهم بالمودة ، يتسقطهم أسراره ذات الخطورة ، فإلقاء المودة شيء ، والإلقاء بالمودة شيء آخر يتطلب مفعولا به محذوفا ، وما هو إلا أسرار النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وكما تقول الروايات [1] ، كما وأن نفس

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٠٣ ـ أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معا في الدلائل عن علي (ع) قال : بعثني رسول الله (ص) أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به ، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة ، فقلنا : اخرجي الكتاب ، قالت : ما معي كتاب ، قلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي (ص) فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي (ص) ، فقال النبي (ص) : ما هذا يا حاطب؟ قال : تجد الجواب في المتن.

وروى القمي أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر الى المدينة وكان عياله بمكة وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله (ص) ، فصاروا الى عيال حاطب وسألوا أن يكتبوا الى حاطب يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا الى حاطب يسألوه عن ذلك ، فكتب إليهم حاطب : إن رسول الله (ص) يريد ذلك ، ودفع الكتاب الى امرأة تسمى صفية فوضعته في قرونها ومرت ، فنزل جبرئيل على رسول الله (ص) وأخبره بذلك ، فبعث رسول الله (ص) أمير المؤمنين (ع) ...

الإلقاء إيحاء بكيان هذه الولاية ، أنها ملقاة مفصولة عن القلب ، بمكتوب أو سواه بعث لهم سرا.

ف ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ و ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ تقتضيان أدبيا أن جماعة منهم ألقوا إلى المشركين مسرّين شيئا من الأسرار ، وقد فضحهم الله كما يفضح المنافقين ، لأنهم اعتملوا عملية النفاق ، وإن لم يكونوا منافقين ، ولكنه ضلال عن سواء السبيل ، فما دور الأرحام والأولاد بجنب الإيمان إلا دور الأغارب البعيدين سواء ، فلما ذا الاعتياض بإلقاء الأسرار بهم بالمودة؟ إعلانا أو إسرارا ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ﴾؟.

يقف الإنسان هنا حائرا من فعلة حاطب وأضرابه ، وهو مسلم مهاجر ، فيا للنفس البشرية من منحنيات عجيبة ، قد يحتمي لمن يعانده حفاظا على قرابته وأحمّته ، وبينه وبين الذين يلقي إليهم بالمودة ثالوث المفارقات : ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ ﴿كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ﴾.

إنهم عادوا الله إذ أشركوا به ، وعادوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ كذبوه ، وكفروا بالحق الذي جاءكم من الله يحمله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأخرجوا الرسول والمؤمنين مغبّة إيمانهم بالله ومحبة إدخالهم في الكفر كما هم : ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾ لا تتخذوهم أولياء ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي﴾ فمفاصلة أعداء الله من شروط الإيمان الذي يدفعكم للخروج عن الأموال والأهلين جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله.

فكيف يوادهم ويلقي إليهم بالمودة أسرارا ، من هم رجال الله المنتسبون اليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض المغبرة ، ويمثلون شاشة الحق في مصارح ومسارح المجتمع المتصارعة؟ .. إنه ليس إلا ضعف الإيمان ولما ينضج ، وإنه من عقبات رواسب الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، والقرابات التافهة ، التي يجب أن تذوب في بوتقة الإيمان ولما تذب!

ولئن سأل سائل : إذا كان هؤلاء أعداء الله وأعداء المؤمنين فكيف بالإمكان موالاتهم والإلقاء إليهم بالمودة ، والقلب لا يتحمل المتناقضين؟ فالجواب : ان الموالاة هنا ليست هي القلبية ، وإنما ظاهرية دفاعا عن شرّ يزعم ، وشاهدا عليه. إضافة إلى شاهد الإلقاء. ترجّي المودة في المستقبل إذا زال الكفر : ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾.

ثم هذه الآيات وإن كانت تنديدا شديدا من زاوية بمن اعتمل هذه العملية النكراء الخائنة ، ولكنها من زوايا اخرى بين محذرة الكفار المستغلين ، ومربية البعض من المؤمنين المستغلين الضالين هنا سواء السبيل.

فهنا لك نقف مرة اخرى وقفة الحائرين أمام عظمة العطف الرباني بشأن هؤلاء إذ يخاطبهم خطاب المؤمنين ، لا المنافقين ، رجاء رجوعهم عما فعلوا ، وندمهم عما افتعلوا كما فعلوا ، وكذلك العطف النبوي المعطوف إلى العطف الرباني بخلقة العظيم إذ لا يعجل بحاطب حتى يسأل : (ما حملك على ما صنعت؟) بكل رحابة صدر وحنان ، فلما صارحه بما قصد مجيبا عتاب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (لا تعجل عليّ يا رسول الله! إني كنت امرءا ملصقا من قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني) (والله يا رسول الله ما نافقت ولا غيّرت ولا بدّلت ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقا) [(١)].

هنا يكف الصحابة عنه بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : (صدق ، لا تقولوا إلا خيرا) ، ولينتهضه من عثرته من فوره ، دون مطاردة ومشاردة.

ونجد خلاف هذا الحزم في الخليفة عمر ، إذ ينظر إلى العثرة ذاتها ، دون أن

---

(١). الفقرة الاولى في الدر المنثور ، والثانية في تفسير القمي.

يفكر في علاجاتها قائلا : (إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني أضرب عنقه) ، فأين علاج من علاج فيه كل فجاج وحراج! وفي أحاديث عدة أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أجاب عمر : (إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) ، ولكنه لا يوافق الأصول الإسلامية لا كتابا ولا سنة ، فمن أعجب العجاب أن يرفع قلم التكليف عمن أتى بواجب الجهاد! ولا يرفع عن النبي الذي كلّ حياته جهاد! ومن أقرب ما يعارض هذه الفرية الفاتكة نفس الآية ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم هذا الخطاب اللطيف العتاب يجعل من هذا المؤمن الجاهل الضعيف مؤمنا عارفا قويا نادما على ما افتعل ، وينبّه سائر المؤمنين ألا يفعلوا فعلته ، مبينا مع الآيات التالية أخطارها :

﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ :

إن عداء هؤلاء الأعداء لكم مركوز في كيانهم وقلوبهم المقلوبة ، مهما تظاهروا بالولاية ، بغية مساندتكم إياهم ، إلقاء بالمودة لهم أسرار الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ولكنه يظهر لكم ببسط أيديهم وألسنتهم بالسوء إليكم ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ﴾ : يظهروا عليكم ، وهذه الصيغة المضارعة بعد أداة الشرط «إن» تشير الى التحذير من مستقبل الثّقف الذي يعدّه المؤمن على نفسه بجهالة التصرفات الفوضى ، كما أن مضيّ «ودّوا» إيحاء الى تعمّق هذا الودّ قديما في نفوسهم ـ دون رباط بشرط الثقف ـ ، إلا أن «لو» الدالة على امتناع مدخولها ، تكافح هذا الخطر الكامن ، ما دام المؤمنون متمسكون بعروة الإيمان.

وبما أن البسط مقابل القبض ، فبسط الألسن هو إظهار الكلام السيئ فيهم بعد زمّ الألسن عنهم ، فيكون الكلام كالشيء الذي بسط بعد انطوائه واظهر

بعد إخفائه ، وكذلك بسط الأيدي ، وإن كان هذه ضررها بالإيقاع وتلك ضررها بالسماع.

والثّقف : الحذق في إدراك الشيء وفعله ، فإذا أدركوكم وسيطروا عليكم بحذقهم الكافر الماكر ، حينذاك يظهر لكم مدى عدائهم لكم لحدّ : ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ : جمعا بين العداء في القلب وفي القالب ، وعداء القلب ان : ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ هي أمرّ وأدهى ، إذ توحي بكافة ألوان المحاولات والحيل ليردّوكم ويرجعوكم عن الإيمان ، ولحدّ المستحيل الموحى به ب «لو».

فهم دائما ينتفعون ولا ينفعون مهما تظاهروا بالوداد ، وإنما هم شداد في عدائهم العارم ، فكيف تتولونهم؟.

ثم ولو يتولونكم في التخفيف عن أرحامكم وأولادكم ولن يخففوا ، ف :

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

إنهم لن ينفعوكم وإن كانوا مؤمنين ، فكيف ينفعونكم وهم كافرون؟ فوشائج القرابة المتأصلة في كيانكم ، المشتجرّة في زوايا قلوبكم ، إنها قد تنسيكم ما يتوجب عليكم في ظل الإيمان بالله ، فإنه الوشيجة الدائبة التي لا انقطاع لها ولا فصال ، لا بد أن تنسي المؤمن سواها من الوشائج على طول الخط ، فكل وصال إلى فصال ﴿يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ إلا وصال في الله واتصال بالله ، وعلى المؤمنين أن يتأسوا في صمود وشيجة الإيمان بالرعيل الأعلى ليذيبوا سائر الوشائج ولا يذابوا فيها.

﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ

وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ :

الأسوة كالقدوة ، هي الحالة التي يكون عليها الإنسان في اتباع غيره ، إن حسنا أو قبيحا ، ولذلك تقيد هنا وأشباهه ب «حسنة».

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ[1] كَثِيراً﴾ (٣٣ : ٢١) فالأسوة الحسنة في الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تعمّ أحواله وأفعاله وأقواله ، وهي أشمل وأكمل من الأسوة بإبراهيم ، وإنما أمرنا هنا باسوة حسنة في إبراهيم بما كان منه في آزر (عمه أو جده لأمه) ، ولم يكن هكذا للرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وأسوة إبراهيم ـ هذه الخاصة ـ تخصص بغير قوله لأبيه :

﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ ربي ، وأسوة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم تلكم الشاملة نافذة المفعول دون استثناء ، فأين أسوة من أسوة؟! ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ ..﴾ توحي بأن هذه الاسوة لها كينونة عريقة مسبقة في المؤمنين ، حسب التشريع الإسلامي ، وكما هي شريطة الإيمان دوما وخريطة مستملكات الإيمان كذلك : «التولي في الله ـ التبري في الله» وشيجته مشيجة بقلوب المؤمنين.

﴿فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ : الإبراهيميون في هذه السنة السنية ، سواء أكانوا معه في عصره ، أم بعده بعصور ، وإلى زمننا ، وإلى يوم الدين ، فإن النص ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مما يوحي بالمعية غير المتقيدة بزمان ولا مكان ، لا «والذين كانوا معه» لكي يختص بالغابرين ، وبهذا المعنى يكون محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمون الذين معه ابراهيميين ، مهما سبقه الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذه السنّة حقها ومظاهرها ، فإن المعية لها درجات ، قد يكون المعطوف أقوى من المعطوف عليه ، كما ان آية الاسوة في محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم. الشاملة ، تشهد ـ بقرنها بآية الاسوة في ابراهيم الخاصة المقيدة ـ تشهد له بهذه الأفضلية ، إنها شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور

كثيرة الفروع وارفة الظلال غرسها شيخ النبيين ابراهيم الخليل عليه السّلام مهما سبقه البعض ممن لحقه كالرسول الأقدس محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم!

﴿إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ براءة بريئة عن كل شين ورين ، صامدة في وجه القرابات الكافرة ، قاطعة وشائجها مهما تشجرت واستطالت وحتى الأبوة والعمومة ، لحد الكفر بهم ونكرانهم كأن لا قرابة ﴿كَفَرْنا بِكُمْ﴾ كفر البراءة [1] والنكران والمفاصلة ، لا كفر الايمان ، إذ ما كانوا مؤمنين بهم مسبقا حتى يكفروا بهم عن إيمانهم لا حقا ، ﴿وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾ فالإيمان هنا هو نهاية العداء وبداية الولاء ، فإذا آمنوا زال هناك كفران : كفرهم بالله ، وكفر المؤمنين بهم براءة وعداء.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ..﴾ قاله قبل أن يتبين له انه عدو لله ، لا تحتمل هداه ، إذ أمره بهجره مليا : «قال أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا» (١٩ : ٤٦) هنا يستلهم ابراهيم من هجره مليا : مدة طويلة ، لا دائما ، انه يتروى في أمره فيها ، فقد تجوز هدايته ، لذلك يسلم عليه ويعده الاستغفار : ﴿قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا﴾ (١٩ : ٤٨) فوعد الاستغفار مربوط باحتمال الاهتداء ، فلما طال الأمد وظن ابراهيم انه اهتدى حقق وعده : ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ استغفر له وهو بعد حي ظن انه اهتدى ، أو سوف يهتدي ، وكان فيما مضى من الضالين المعاندين ، ولما تبين له انه عدو لله تبرء منه كما في آية الاعتذار حيث تفسر آية الاستغفار : ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

---

(١) اصول الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله (ع) قال : قلت له : أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله عز وجل ، قال (ع) : الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه (إلى أن قال) والوجه الخامس من الكفر كفر البرائة وذلك قول الله عز وجل يحكي قول ابراهيم ﴿كَفَرْنا بِكُمْ ..﴾.

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ. وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (٩ : ١١٤).

فليس وعد الاستغفار في آيته ، إلا نتيجة احتمال الاهتداء المشيرة إليه آية الاعتذار : ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ﴾ : موعدة آزر التي وعدها ابراهيم بقوله :

﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ لا التي وعدها ابراهيم آزر بدافع القرابة فإنها محظورة قطعا كما في آيتي الاعتذار والاستغفار.

فالمحرم قطعا هو الاستغفار ووعده للمشركين من بعد ما تبين انهم أصحاب الجحيم ، ولا يتبين هكذا إلا ممن ثبت عداءه للحق بعد ما جاءه كمن صرح بهم القرآن ومن تثبتنا عليه ذلك ولا نحتمل هداه.

وأما المشرك المرجو هدايته ، كآزر في ظن ابراهيم ، إذ أمره بهجره مليا ، الملهم لتروّيه فيه ، فقد يجوز الاستغفار له قبل هدايته ، وكما فعل ابراهيم.

وإذ لم يكن في استغفاره لآزر محظور ، فلما ذا الاستثناء فيه عن أسوة ابراهيم؟ علّه رعاية الواقع ، فإن آزر كان عدوا لله لا يستحق الاستغفار ، مهما أخطأ ابراهيم في ظنه وكان معذورا ، ولم يكن استغفاره محظورا ، فالأسوة تشمل حق العلم والواقع ، وحاشا الله أن يأمرنا بأسوة تخالف الواقع ، مهما كان صاحبها معذورا ظنّ الواقع ، ولكنها محظور حسب الواقع.

ابراهيم يعد أباه الاستغفار مشفّعا له بأنه لا يملك من الله إلا الافتقار : ﴿وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ : لا قبول الاستغفار ، ولا أن تأهل الاستغفار ، إنما دعاء معه رجاء : ﴿رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ تسليم لله بلا حدود ، وتسلّم لأمره بلا قيود ، سمة إيمانية بارزة في ابراهيم طول حياته ، ولأنه يحتمل مكيدة أبيه في ملامح وعده من هجره الملي ، يلوذ بربه أن ينجيه :

﴿رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

يستغفر ربه لو جعل فتنة للكافرين كما جعل في فتنته لآزر في استغفاره ، فسنادا الى عزته تعالى يسأله الخروج عن الفتنة ، وإلى حكمته المغفرة لو افتتن ، فيا لهذه العبودية الخالصة من سمّو وعلوّ! ومع ذلك كله تستثنى هذه الفتنة المغفورة ، غير العامدة ، عن اسوته : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ ..﴾ فيا للرسالة الإسلامية من نزاهة تفوق الرسالة الإبراهيمية! إذ لا ترضى من الأسوة إلا الحسنة علما وواقعا ، لا السيئة ـ ولم تكن في إبراهيم ـ ولا بينهما : حسنة في ظنه ، سيئة معذورة كما فعله إبراهيم ، إنما حسنة خالصة :

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ :

فيا لها من تربية رابية على الابراهيمية الحنيفة ، تختص الأمة الإسلامية ، إذ تستخلص لهم خالص التربيات عبر الرسالات كلها ، كما ان رسالتها خالصة الرسالات كلها ، أو انها الرسالة الإلهية وحدها ، وما سواها إنما تحضّر لها وتهيئ كبذرات لإنماءاتها ﴿لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ﴾ أن يلاقيه في الدنيا والآخرة معرفيا ورضوانا ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ وهو آخر المطاف وغايته ، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن هذه الرسالة ، فيتولى مناوئيها ممن يتربصون له ويترصدون ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ : غني عن إيمانكم ، وهو يحمد على أية حال ، توليتم له أو توليتم عنه ، سواء ، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر [1].

---

(١) من صحاح الأحاديث القدسية : «يا عبادي! انكم لن تبلغوا ضرري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي! لو ان أولكم وآخركم وإنكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي! لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي! لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما .

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ :

تلميح بفتح مكة المكرمة بصيغة الترجي : «عسى الله» : هنا موضع رجاء لكم ، لا ان الله يرجوا ، وإنما يرجي المؤمنين بما كانوا يأملون علهم لتحقيقه يعملون ، وهو بشارة لفتح مكة ، الذي سبب دخول الناس في دين الله أفواجا :

طوعا أو كرها ، ف «عسى» هنا وفي أمثاله حتم من الله ، يكلّل بالرجاء ، ولكي يحيى المؤمنون حياة الرجاء ، ليكونوا دائبي الحراك والسعي لتحقيق الرجاء ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾! عسى الله أن يعوضكم عن أرحامكم المشركين ، بأرحام لكم مؤمنين في مكة ، منهم ، ومن سواهم بقرابة مستقبلة ، فيجعل بينكم مودة ﴿وَاللهُ قَدِيرٌ﴾ على تحقيق هذه الأمنية ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ للمشرك إذا آمن ﴿رَحِيمٌ﴾ له ، وللمؤمن ، المتقاربين نسبا أو صهرا.

ولقد وقع هذا الأمل بعد أمد قصير ، ان فتحت مكة ، فأسلمت قريش ، ووقفت مع المهاجرين والأنصار تحت لواء التوحيد ، مهما كان فيهم منافقون.

وهكذا يعالج الإسلام وشائج القرابات ، ولكي يتخطاها إلى وشيجة الإيمان ، خطوات وخطوات ، ولكي يجتمع الجميع في حزب الله ، والاخوة في الله ، في جو عطر رائع لا خبر فيه عما سوى الله ﴿وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾! من مظاهر المودة الموعودة بفتح مكة تزويج النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ام حبيبة بنت أبي سفيان حيث أصبحت من أمهات المؤمنين ، رغم ما كان من أبيها من عداء عارم ،

إلا أنه الآن عريكة أبي سفيان ، فاسترخت شكيمته في عداء الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم [١].

ان المفاصلة بين المسلمين والكفار قاطعة شاملة ، ثم بينهم وبين المستسلمين المنافقين قلبية فحسب ، ثم بينهم وبين فرقاءهم في الإيمان مواصلة شاملة دون أية مفاصلة ، والمودة الموعودة تشمل المواصلتين.

ان حرمة الموادة تتركز على المعادين المحاربين ، دون الكفار المسالمين ، فعاشروهم بالمعروف وأقسطوا إليهم علّهم يؤمنون :

﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ :

فهؤلاء ، برهم ، والأقساط إليهم غير محظور ، بل هو محبوب ، وانها من أسس شرعة الحق والعدل ، ان الأصل للمسلم مع من سواه البر والخير والعدل إلا مع المحاربين المعتدين ، دفاعا عن الحق ، وحفاظا على الحقوق.

﴿إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ :

إنها مقاتلة في الدين وتشريد ومظاهرة على إخراجكم في الدين ، هي التي تمنعكم عن موادتهم ، وتفرض عليكم عداءهم ، لا أصل الكفر وكما تشهد له الروايات [٢] ، ولا أية مقاتلة ولا أي إخراج ، فلو قاتلك الكافر على نفسه وماله

---

(١) قد أسلمت أم حبيبة من قبل وهاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى الحبشة فتنصر وراودها على النصرانية فأبت وصبرت على دينها ومات زوجها فبعث رسول الله (ص) إلى النجاشي فخطبها عليه وساق إليها اربعمائة دينار وبلغ ذلك أباها فقال : ذلك الفحل لا يفدع أنفه.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٠٥ ـ أخرج الطيالسي وأحمد والبزاز وأبو يعلي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن.

وحقه ، وأخرجك من داره التي اغتصبتها ، فلا عليك ولا لك معاداته ، ولا تحرم لك موالاته.

انه نظام سياسي ثابت صامد للمسلمين ما عاشوا ، دون اختصاص بمن مضى من مشركي العرب ، فهناك كانت امبراطوريتان قويتان الفارسية والرومانية تحيطان بأرض الإسلام ، بدأتا تجمعان له ، إذ تشعران بخطورته ، تؤلبان عليه الإمارات العربية وسواها ، من مستعمراتها ، كذلك واضرابها من الدول المستعمرة المعادية للإسلام طول التاريخ ، فلم يكن بد من تطهير المعسكر الإسلامي من أعدائه الجهال أو المعاندين ، وتخليصه من المرتزقة ، ولكي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

لا فحسب الرجال في عسكر الإسلام هم الذين يجب امتحانهم ، فامتهانهم وتأنيبهم أو تأديبهم ، بل النساء كذلك يدخلن في هذه البوتقة.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣)

أحكام عدة بشأن المؤمنات المهاجرات ، تبتدئ بامتحانهن وتحرّي أسباب هجرتهن ، ألا تكون وراء حب فردي في دار الإسلام ، أو تخلصا عن زواج مكروه في دار الكفر ، وإنما هجرة في الله ، خالصة في دين الله ، وتنتهي بشرط قبول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مبايعتهن ، وبذلك يكمل إيمانهن.

تقول الروايات إن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه :

(على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا) زعما من المشركين أنه يشمل النساء أيضا [1] ، أو إذا شملهن يرضى الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بردّهن الى الكفار فيرجعن كافرات! فلما كان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ والمسلمون معه ـ بأسفل الحديبية ، جاءته نساء مؤمنات يطلبن الانضمام إلى دار الإسلام في المدينة ، فجاءت قريش تطلب ردّهن ، زعم تنفيذ المعاهدة ، فنزلت الآيتان تمنعان ردّ المهاجرات المؤمنات بعد الامتحان والعلم بإيمانهن كيلا يكنّ منافقات فترجع هجرتهن بالخسار على دار الإسلام.

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ : وكيف الامتحان؟ هل انه الإقرار بالشهادتين [2]؟

وليس امتحانا ، فإنه محنة ولا محنة في لفظة القول ، وقد أقرّ بهما المنافقون ، ثم النص تفرض الإيمان موضوعا للهجرة قبل الامتحان ﴿إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ﴾ ، والشهادتان من أقل الإيمان! لحدّ قد لا تسمّيان إيمانا ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا﴾.

أو انه التحقق من واقع الشهادتين في قلوبهن؟ فهذا حق ، ولكنه كيف

---

(١) عن الجبائي : لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء ، ولم يجر للنساء ذكر ، وأن ام كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها الى المدينة وسالا رسول الله (ص) ردها عليهما ، فقال (ص) : إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما ، وفي الدر المنثور ٦ : ٢٠٦ ـ أخرج ابن سعد عن ابن شهاب ـ مثله ـ وفيه : جاء أخواها يريدان أن يخرجاها ويرداها إليهم ، فانزل الله ... أقول : وفي أحاديث عدة (ان الله نسخ العقد بالنسبة للنساء) ولكنها تخالف جوهر الإسلام الذي يفرض رعاية العهود مع من لم ينقضوها ، وان رد النساء المؤمنات خلاف المصالح الاسلامية جماعية وفردية ، فكيف يعاهدهم الرسول (ص) هكذا ، ويمضيها الله تعالى ثم ينقضها؟ رغم التصريح في الآية : ﴿ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ ...﴾ ، إذ تلمح بانه حكم ثابت على طول الخط.

(٢) خلافا لما في الدر المنثور ٦ : ٢٠٧ ـ أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ..

يتحقق؟ فهل بالاشتراط عليهن : «ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف» فذلك حق كله وهي من اصول الإيمان العملي الذي يدل على تعرّق الإيمان في قلوبهن ، ولكن مجرد قبول الشرط لا يكفي شاهدا على الالتزام به وبواقعه!.

إذا فليكن الامتحان في أمثال هذه عمليا بعد الاشتراط ، ليجمع بين عمل الإيمان وعقيدة الإيمان ، طالما لا يحصل منه اليقين ، وإنما العلم العادي ، وقد اكتفى الله للمؤمنين به : ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ﴾ دون أن يحمّلنا العلم الحقيقي كما الله يعلم :

﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ﴾ :

إن حصيلة الامتحان هذا هي العلم بأنهن ما خرجن طامعات ، وإنما مؤمنات ، فليركز الامتحان ـ أيا كان ـ على ركيزة الهجرة ، امتحان الحلف : (بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله) ثم يتمم بامتحانهن عمليا فيما هي شريطة قبول بيعتهن ، فقبل البيعة بشروطها لا يمكن العلم بإيمانهن ، إذا :

﴿فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ..﴾ :

إن رجع المؤمنات المهاجرات ، بعد العلم بإيمانهن ، إنه محرّم عليكم وعليهن وعلى أزواجهن ، عليكم لأنه قد يسبب رجوعهن الى الكفر ، وعليهن كذلك ، ولأنه سبيل للكافر على المؤمن ، وعليهم إذ انقطعت الصلة بينهم وبينهن ، والزوجية حالة اندماج فاستقرار ، ولا اندماج بين الكفر والإيمان فلا استقرار ، فلا الشرع يسمح بهكذا رجع ، حفاظا على صالح الإيمان ، ولا الواقع يجاوبه إذ لا سكن ولا اطمئنان بين المؤمن ومن ليس له إيمان.

وهل الكفر المانع من زواج المؤمنة هو الشرك فحسب؟ كما المشركون فقط هم شأن نزول الآية ، إذ كانوا هم فقط في مكة المكرمة ، أم إن الكفر هو المانع إطلاقا ، كفرا بالله أو كفرا بالإسلام ، كما هو موضوع الحكم بالحرمة هنا ﴿فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فلم يقل «إلى المشركين» ، وهو كالصريح في موضوعية مطلق الكفر ، وشأن النزول لا يخص الآية بنفسه.

وتدل عليه آية البقرة أيضا ، إذ تعلل حرمة نكاح المؤمنة للمشرك ب :

﴿أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ فعموم الكفار هنا وفعلة الدعوة الى النار في المشرك ، المعممة له الى مطلق الكافر أيضا ، يثبتان عموم التحريم على الكافر مشركا أم كتابيا ، فسبيل الكافر على المؤمن ، الممنوعة ، ودعوته الزوجة المؤمنة الى النار ، يساندان عموم التحريم على الكفار ، دون المؤمن والكتابية ، إذ تعكس بينهما الدعوة والسبيل ، وآية المائدة تسمح بزواج الكتابية للمؤمن ، دون زواج الكافر بالمؤمنة كما يأتي.

وهل ان المؤمنة المهاجرة أو غير المهاجرة ، غير العريقة في الإيمان ، الساقطة في الامتحان ، هل يحل رجعها الى الكفار ، أو زواجها به بدوا؟ هنا الآية لا تحرّم ، وعلّه للظروف الخاصة السياسية آنذاك ، التي تتطلب تخليص دار الإسلام عن عناصر غير صالحة ، حفاظا على صالح الدولة الإسلامية ، إلا أن رجعها الى الكافر لا يجوز مبدئيا ، بسند دليل الدعوة والسبيل ، وعموم آية البقرة في تحريم المؤمنة على الكافر ، إذ تشمل كافة مراتب الإيمان ، كما تشمل كافة مراحل الكفر ، ولا أقل من نسخ آية البقرة في عموم التحريم ، آية الممتحنة في خصوصها على المؤمنات الممتحنات ، ولنا إلقاء خصوصية الامتحان وكمال الإيمان للأدلة المسبقة ، وأن ﴿لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ حكم مستقل عن ﴿فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ ، ففي رجع الممتحنة حرمة مغلّظة ،

وفي رجع غيرها من المؤمنات حرمة عادية ، وقد تؤيده السنة [1].

إذا فلا تحلّ المسلمة ـ وحتى المقرّة بالشهادتين فحسب ـ على الكافر ، وحتى الكتابي الموحد ، لا استدامة ، ولا ابتداء.

وإذ لا يحلّ رجعهن إلى الكفار فكيف يجبر خسارهم فيما أنفقوا ، فهل تذهب أزواجهم بما أخذن منهم هدرا؟ كلا! إن الإسلام أعدل من هذا ولو بالنسبة للكفار المعاهدين :

﴿وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا﴾ : سواء أنكحتموهن أم لا ، ما أنفقوا في أصل الزواج ، دون النفقات الاخرى ، فقد أخذوا حقوقهم منهن مضاجعة وسواها بدل ما أعطوا من هذه النفقات ، وإنما على المسلمين رجع نفقات الزواج الى الأزواج ، ثم وما هو دور نكاحهن :

﴿وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ﴾ : لا محظور في نكاحهن شرط أن تؤتوهن أجورهن ، دون أن تحاسبوا عليهن ما آتيتم أزواجهن من أجورهن ، فإنه زواج ثان لا يحكم عليه بحكم الأول وقد مضى.

إن إيمان زوجة الكافر يفصلها عنه دون طلاق ، فهل تعتد عدة الطلاق ، أم عدة الوفاة ، أم لا عدة وإنما تريّث لاستبراء رحمها ، أم ولا تريّث إطلاقا؟

إن آيات العدد وفاة وطلاقا مختصة بهما ، لا تتخطاهما الى غيرهما إلا بحجة قاطعة ، وآيتنا هذه تنفي الجناح عن نكاحهن شريطة المهر دون ذكر عدة ولا تريّث ، إذا فلا عدة هنا لعدم الحجة ، اللهم إلا لاولات الأحمال منهن :

---

(١) في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال : قلت لأبي عبد الله (ع) : ان لامرأتي أختا عازمة على ديننا وليس على ديننا بالبصيرة إلا قليل ، فإن زوجها لا يرى رأيها ، قال (ع): لا ـ ولا نعمة ، ان الله عز وجل يقول : ﴿فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (٦٥ : ٤) اللهم إلا أن يختص الحكم بالمطلقات ، لأن الآية بما قبلها ، في بيان أحكام الطلاق ، ثم التربّث أيضا لا دليل عليه ، إلا أن لحوق الولد بالفراش أقل ما يفرضه هنا هو التربث ، لكي لا يختلط أمر الولد بين الزوجين ، طالما لا حرمة للزوج الكافر تعتد هي لأجلها ، ففي العدة حكم عدة ، منها حرمة الزوجية وقد انتفت هنا ، ومنها عدم اختلاط المياه ، والحفاظ على النسب ، ويكفيه التربث للتعرّف الى كونها حاملا أم لا.

والخبر الدال على عدة الطلاق [1] ، إضافة الى أنه من الآحاد ، يختص بالنصراني ، فلا ينهض حجة لإثبات حكم لا يلائم القرآن ، إلا أن الأحوط هنا الأخذ بأقل العدد : عدة الطلاق.

وكما ان المرأة المؤمنة تنفصل عن الكافر دون طلاق ، كذلك الكافرة تنفصل عن المؤمن دون طلاق ، لانفصام العلاقة هنا وهناك :

﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾ : فلا يحل إمساك نساءكم اللاتي بقين على الكفر ، والعصمة ما يعتصم به ، وهي بين الزوجين علقة الزوجية الحاصلة بالعقد ، ف : لا تقيموا على نكاح الكافرات وخلاطهن كأزواج ، بعد ما انقطعت عصمة الإيمان وعلقته بينكم ، بإيمانكم وبقائهن على الكفر.

وحرمة الإمساك بعصمة الكافرة ـ وقد كانت زوجة ـ تتخطاه إلى حرمة النكاح البادئ ـ وأحرى ـ فلا تحل الكافرات للمؤمنين على أية حال ، بداية واستدامة.

---

(١) فروع الكافي ج ٢ ص ١٣٣ والتهذيب ج ٢ ص ٢٧٤ حمران عن الباقر (ع) في ام ولد لنصراني أسلمت أيتزوجها المسلم؟ قال : نعم ، وعدتها من النصراني إذا أسلمت عدة الحرة المطلقة ثلاثة قروء ، فإذا انقضت عدتها فليتزوجها إن شاءت. ورواه الشيخ بإسناده عن الحسن ابن محبوب مثله.

وهل ان الكافرات هنا المشركات ، كما الآيات نازلة فيهن وفي المشركين؟ أم هن والكتابيات ، لأن شأن النزول لا يخص الآية بموردها ، وإنما المتبع فيها عموم اللفظ : «الكوافر» لا خصوص المورد : «المشركات»؟ وجهان أشبههما ثانيهما ، فلا تحل ـ إذا ـ نكاح الكتابيات على أية حال لعموم هذه الآية.

اللهم إلا أن آية البقرة تخص الحرمة بالمشركات ، فعلّها ناسخة عموم الكوافر هنا ، وآية المائدة تصرح بحلّ الكتابيات ، فهي ناسخة آية الكوافر ، ومؤكدة ان المشركات في البقرة لا تعم الكتابيات ، أو إذا عمت بما تعلّل فهي أيضا منسوخة بآية المائدة ، فتحل الكتابيات على المؤمنين ، وتبقى حرمة المؤمنات على الكافرين مشركين أم كتابين ، على قوتها ، في عموم آيتي الممتحنة والبقرة.

فآية الممتحنة حرمت المؤمنات على الكافرين : ﴿فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ مشركين وكتابيين ، وحرمت الكافرات على المؤمنين ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾ كذلك فإن موضوع الحرمة فيها هو الكفر لا خصوص الشرك ، رغم أنه مورد نزولها.

ثم آية البقرة ، وإن كانت تختص الحرمة بالشرك دون مطلق الكفر : ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢ : ٢٢١).

هذا ـ ولكن الغاية التي تزيل الحرمة : (حتى يؤمن .. حتى يؤمنوا) إنها تضم الكتابيين والكتابيات إلى جماعة الشرك ، إذ لم يؤمنوا ولم يؤمن ، واحتمال ان الإيمان هنا هو الخروج عن الشرك فيعم الكتابي ، انه ـ على بعده ـ تدفعه حكمة الحكم أو علته : ﴿أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ مهما اختلفت نار الدعوة بين المشركين والكتابيين ، وعلّ اختصاص المشرك بالذكر بحساب أنه الأصل في الحرمة ، التي لا علاج لها ولا استثناء فيها ، دون الكتابي.

وأخيرا تأتي آية المائدة ـ وهي آخر ما نزلت ، ناسخة غير منسوخة ـ تأتي ناسخة لعموم الحرمة في الكتابيات فقط : ﴿وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ..﴾ (٥ : ٥) فصدرها يدل على سابق الحرمة : ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَطَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَناتُ﴾.

فإنما خرجت عن حرمة الزواج الكتابيات ، على شروط فصلت في الروايات دون الكتابيين على المؤمنات ، فهم باقون على قوة الحرمة بعمومها في آية الممتحنة ، وبما يقرب النص في آية البقرة : ﴿أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ فسيطرة الزوج على الزوجة في مختلف الطاقات والإمكانيات والمتطلبات تجعل لدعوته إياها تأثيرا ، دون العكس ، إلا بالمغريات والملهيات ، فدعوة إلى النار لها زوجها المؤمن ، أو ولدها ، فهذا الزواج أيضا محظور ، وكما تؤيده الروايات.

وما ألطف التشريع في هذه الآيات الثلاث ، ان الاولى تعم الحرمة في الكافرات ، مشركات أم كتابيات ، والثانية تعتبر موضوع الحرمة المشركين والمشركات ، مع التلويح ـ لمكان الغاية والتعليل ـ إلى حرمة الكتابيات ، والثالثة الناسخة تحلل الكتابيات ، وتبقي الكتابيين في عموم التحريم ، والروايات الناظرة إلى الآيات ، والمفسرة لها متضاربه ، بين ما يوافق هذه الآيات الثلاث وما في مجراها فمقبولة [1] أو لا توافقها ، أو تخالفها فمضروبة عرض

---

(١) الوسائل ١٤ ب ٢ ص ٤١٣ ج ٦ علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه نقلا عن تفسير النعماني باسناده عن علي (ع) قال : وأما الآيات التي نصفها منسوخ ونصفها متروك بحاله وما جاء من الرخصة في العزيمة فقوله تعالى : ﴿وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ وذلك ان المسلمين كانوا ينكحون في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وينكحوهم حتى نزلت هذه الآية نهيا أن ينكح المسلم من المشرك أو ينكحونه ثم قال تعالى في سورة المائدة : ﴿وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فأطلق الله مناكحتهن بعد ان كان نهى وترك قوله : ﴿وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ على حاله لم ينسخه.

أقول : وهو مقبول على تأمل في سابق حل الكتابي ذكرا وأنثى. ومما يلائم الآيات الأحاديث المعللة لمنع نكاح الكتابيات كما رواه عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (ع) في حديث قال : (وما أحسب للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية ولا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يتنصر).

وما رواه معاوية بن وهب وغيره جميعا عن أبي عبد الله (ع) في الرجل يتزوج اليهودية والنصرانية فقال : إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقلت له : يكون له فيها الهوى ، قال : إن فعل فليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، واعلم أن عليه في دينه غضاضة.

الحائط [1] أو مردودة إلى أهلها.

وحكمة الحرمة أو علتها في آية البقرة ﴿أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ ليست بالتي تنسخها آية المائدة أو أي ناسخ ، وإنما تنسخ أصل الحرمة كضابطة عامة ، مع بقاء الحرمة في موارد الدعوة إلى النار ، فلا تحل الكتابية التي تدعوه للضلالة أو أولاده [2] ، ولا تزويجها على مسلمة ، فإن لزامه سبيل الكافرة عليها بالمشاركة في حقوق الزوجية ، وتسوية بينهما فيها [3] ، ولا أن يتزوج مسلمة على كتابية وهي

. نهى وترك قوله : «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» على حاله لم لسخه. أقول وهو مقبول على تأمل في سابق حل الكنائي ذكرا وأنثى ومما يلائم الآيات الآحاديث المعلة لمنع نكاح الكتابيات كما وراه عبد الله بن سنان عن ابي عبد الله (ع) في حديث قال ، (وما أحسب) للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية والا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو يقتصر).

وما رواه معاوية بن وهب وغيره جميعا عن أبي عبد الله (ع) في الرجل يتزوج اليهودية والنصرانية فقال ، إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقلت له : يكون له فيها الهوى ، قال ان فعل فليمها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، واعلم أن عليه في دينه غضاضة.

(١) كما ورد في أن آية المائدة منسوخة بآية الممتحنة ، ففي الوسائل ج ١٤ ص ٤١٠ عن زرارة بن أعين قال : سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز وجل : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فقال : هي منسوخة بقوله : ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ﴾ ، وآية المائدة خاصة وناسخة ، لأن المائدة آخر ما نزلت ، وإلا فكيف تنسخ بآية الممتحنة وهي من اوليات المدنيات؟.

(٢) انظر صفحة ٢٨٨ هامش رقم (١).

(٣) المصدر ص ٤١٨ . محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال : لا تتزوج اليهودية والنصرانية على المسلمة. وعن أبي عبد الله (ع) في رجل تزوج ذمية على مسلمة قال : يفرق بينهما ويضرب ثمن حد الزاني اثنا عشر سوطا ونصفا ، فإن رضيت المسلمة ضرب ثمن الحد ولم يفرق بينهما.

لا تعلم لأنه مس من كرامتها ، اللهم إلا برضاها [1] ، فلو أمن كل ذلك جاز نكاحها على كراهية ، إلا البله المستضعفة ، فلا كراهية [2] ، وإلا التي يرجى إسلامها فراجح أو واجب ، والضابطة العامة هي حرمة نكاح المشركين والمشركات إطلاقا ، وكذا الكتابيين ، وحلّ الكتابيات كحكم ثانوي على الشروط المسبقة ، وعلة الحرمة ﴿أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ تتخطى غير المسلمين إلى فساق المسلمين الذين يدعون إلى الفسق ، أو لا يؤمن عليهم ، ففي الحرمة هنا وهناك مراتب عدة حسب مراحل الأخطار التي يجلبها الزواج المتخلف.

وبعد إجراء هذه التفاريق بين المؤمن والكافر في الزواج يأتي دور إجراء التعويض على مقتضى العدل والمساواة :

﴿وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا﴾ : فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي فارقته لإيمانها ، كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي ظلت كافرة أو ارتدّت ، وهكذا يكون حكم الله بعيدا عن الجور حتى بالنسبة للكافرين ، ضامنا للعدل حتى مع الظالمين : ﴿ذلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفيما إذا لم يدفع الكافر مثل نفقة زوجة المؤمن ـ الفائتة ـ اليه ، فعلى الدولة الإسلامية أن تدفع ولا سيما إذا أراد الزواج :

---

(١) المصدر ص ٤٢٠ ـ أبو بصير المرادي في حديث عن أبي جعفر (ع) : فإن تزوج عليها (يهودية ونصرانية) حرة مسلمة ولم تعلم أن له امرأة نصرانية ويهودية ثم دخل بها فإن لها ما أخذت من المهر ، فإن شاءت أن تقيم بعد معه أقامت ، وإن شاءت أن تذهب إلى أهلها ذهبت ، وإذا حاضت ثلاثة حيض أو مرت لها ثلاثة أشهر حلت للأزواج ، قلت : فإن طلق عليها اليهودية والنصرانية قبل أن تنقضي عدة المسلمة ، له عليها سبيل أن يردها الى منزله؟ قال : نعم.

(٢) المصدر ص ٤١٤ ـ عن زرارة قال قلت لأبي جعفر (ع) : إني أخشى أن لا يحل لي أن أتزوج ممن لم يكن على أمري ، فقال : وما يمنعك من البله؟ قلت : وما البله؟ قال : هن المستضعفات من اللاتي لا ينصبن ولا يعرفن ما أنتم عليه.

﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ :

فقد تفوت زوجات المؤمنين إلى الكفار بانفلاتهن إليهم كافرات ، أو أسرهن عندهم مؤمنات ، ثم تحصل المعاقبة ، فعلى الآخرين ـ ممن بأيديهم أزمة امور المسلمين ـ أن يعوضوا المحرومين عما أنفقوا مثل ما أنفقوا ، فما هي المعاقبة؟ وممن هي؟

إنها قد تكون معاقبة الزواج لمن فاتتهم أزواجهم ، فإنها الوصول إلى عقبى الشيء وهي هنا زواج بعد الاولى تعقبها ، وكما عن الإمام الرضا عليه السّلام : (أن يتزوج اخرى) [1] ، أو معاقبتهم أزواجهم دون أن يقدروا على رجعهن ، أو معاقبتهم ـ بسائر جنود الإسلام ـ الكفار ، ولكي يحصلوا على ما أنفقوا ولم يحصلوا.

ولفظ الآية يتحملها جمعاء ، والقدر المتيقن منها وجوب إنفاق ما أنفق ، إذا لم يحصل عليه من الكفار ، وأراد معاقبة الزواج ، سواء غنم المسلمون منهم شيئا أم لم يغنموا ، والمتيقن من عدمه أو عدم جوازه من بيت المال ، ما إذا حصل

---

(١) وفي علل الشرائع بإسناده عن يونس عن أصحابه عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) قال قلت : رجل لحقت امرأته بالكفار وقد قال الله عز وجل في كتابه : ﴿وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا﴾ ما معنى العقوبة هاهنا؟ قال : إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة اخرى غيرها يعني تزوجها ، فإذا هو تزوج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام ان يعطيه مهر امرأته الذاهبة ، فسألته : فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها؟ وعلى المؤمنين ان يردوا على زوجها ما أنفق عليها مما يصيب المؤمنين؟ قال : يرد الامام عليه أصابوا من الكفار أم لم يصيبوا ، لأن على الامام ان يجبر حاجته من تحت يده وإن حضرت القسمة فله ان يسد كل نائبة تنوبه قبل القسمة وإن بقي بعد ذلك شيء قسمه بينهم وإن لم يبق لهم شيء فلا شيء لهم.

على ما أنفق ولم يرد الزواج ، وأما إذا لم يرد الزواج ولم يحصل على حقه ففيه تردد ، وإطلاق المعاقبة يشمله فيؤتى من بيت المال.

ثم الخطاب الأول «فاتكم» للأزواج ، والثاني «فعاقبتم» يعمّهم وغيرهم حسب المحتملات ، والثالث «فآتوا» يخص غيرهم ، فان الإنسان لا يؤتي نفسه ولا يعوض عن نفسه ، ومزج الخطاب هنا وهناك يوحي بأن المسلمين إخوة لا يفرق بينهم أي فارق.

ثم يأتي مرة ثانية مكملة للأولى ، دور المؤمنات في تفاصيل البيعة وموادها الأساسية :

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ﴾ (١) : مهاجرات وغير مهاجرات ، مجيئا إليك لغاية المبايعة الإيمانية ، المسرودة إليهن موادها الأصيلة مسبقا :

﴿عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ﴾ : كحلقة اولى من مقومات الحياة الجديدة ، وهي كلها هنا سلبية توحي بأن لترك المنكرات عقائدية وعملية سبقا على فعل واجباتهما ، فتلك تزكية وهذه تحلية ، والاولى هي أساس للثانية.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢١١ ـ أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله (ص) أمر عمر بن الخطاب فقال : قل لهن ان رسول الله يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا ، وكانت هند متنكرة في النساء ، فقال لعمر : قل لهن ولا يسرقن ، قالت هند : والله إني لا صيب من مال أبي سفيان الهنة ، فقال : ولا يزنين ، فقالت : وهل تزني الحرة؟ (في نقل آخر : فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية) فقال : ولا يقتلن أولادهن ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر ، قال : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ... وأخرج عبد الرزاق في المصنف وأحمد وابن مردويه عن انس قال : أخذ النبي (ص) على النساء حين بايعهن ان لا ينحن ، فقلن يا رسول الله ، ان نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن في الإسلام؟ فقال النبي (ص) : لا إسعاد في الإسلام ولا شطار ولا عقر في الإسلام ولا خبب ولا جنب ، ومن انتهب فليس منا.

﴿وَلا يَسْرِقْنَ﴾ الأموال والنفوس والأعراض ، من أزواجهن وسواهم.

﴿وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ﴾ كما كان من دأب الجاهلية وأد البنات مخافة العار أو خشية إملاق أم ماذا؟

﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَ﴾ : من حمل عن زنا يحمّلنه أزواجهن زورا وافتراء ، فقد كانت المرأة في الجاهلية تبيح نفسها لعدة رجال شهوة وتجارة ، فإذا حملت ألحقته بمن تهواه وهي تعلم من أبوه ، وعلّ بهتان «بين أرجلهن» يختص بإزالة البكارة إذا كانت بغير زوجها ، ثم هي تفتريها على زوجها.

﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ : ف «ك» هنا تصريح وتلميح ، تصريح للرسول خاصة ، ف «في معروف» قيد توضيحي ، فان كل أوامره معروفة ، فلا يتقيد أمره بشيء لأنه يصدر عن الله ، وكما لله طاعة مطلقة دون شرط ، اصالة ، كذلك للرسول طاعة مطلقة ولأولي الأمر المعصومين (ع) الصادرين عنه دون قصور أو تقصير ، رسالة عنه.

ثم وتلميح الخطاب يعمّ غير الله والرسول وأولي الأمر ، الذين يحكمون بين المسلمين ، فلا تجب طاعتهم إلا «في معروف» ، وهذا الشرط هو أحد القواعد الأساسية في نظام الإسلام : ان لا طاعة عمياء لأحد على المسلمين إلا في المعروف الذي تقرره شريعة الله ، إلا في الله ورسوله وآله ، فطاعتهم مطلقة إذ لا خطأ ولا جهل ولا جور فيها إطلاقا.

وإنما نسب العصيان الى الرسول ﴿لا يَعْصِينَكَ﴾ دون الله ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ﴾ وإن كانت طاعة الرسول هي طاعة الله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ ، لأن طاعة الرسول تعني ما سنّة ، كما أن طاعة الله تعني ما فرضه في كتابه ، فللرسول أوامر بالولاء بما خوّله الله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ (٤ : ١٠٥) فلا يطلب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما يأمر أو ينهى كولي الأمر ، بحجة من كتاب الله ، لأن سنته

حجة بعد كتاب الله ، والكل راجع إلى الله مهما اختلفت كيفية الصدور عن الله [1]. ومن ثم ، إذا أكملن هذه الشروط : ﴿فَبايِعْهُنَّ﴾ كما تناسبك ، (وقد قالت ام حكيم : يا رسول الله! كيف نبايعك؟ قال : إنني لا أصافح النساء ، فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال : أدخلن أيديكن في هذا الماء) [2]. بايعهن حتى يستقبلن حياة جديدة طاهرة زاهرة ، وأما بالنسبة لما مضى :

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ : فلاستغفار الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم . حيث يشفع باستغفار المذنبين . أثر عظيم في الغفران ، شفعا عزيزا لا يردّه الله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (٤ : ٦٤).

وهنا السورة تنتهي بما بدأت به من النهي الشديد عن تولي المغضوب عليهم :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ﴾ :

---

(١) لذلك ذكرت في الأحاديث من المعروف هنا ما لا يعرف من كتاب الله ، فقد سألت ام حكيم رسول الله (ص) : ما ذاك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه؟ قال : لا تلطمن خدا ولا تخمشن وجها ولا تنتفن شعرا ولا تشققن جيبا ولا تسودن ثوبا ولا تدعين بويل ... فبايعن رسول الله (ص) على هذا. وفي بعضها أضيف البعض من أوامر الله ليدل على شمول ﴿وَلا يَعْصِينَكَ﴾ لما أمر الله به ، كما رواه عبد الله بن سنان قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ قال : هو ما فرض الله عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير.

(٢) في الكافي بإسناده عن ابان عن أبي عبد الله (ع) قال : لما فتح رسول الله (ص) مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ ...﴾

علّ القوم المغضوب عليهم هنا هم اليهود وكما في آيات عدة ، وقد يشهد له تنظيرهم في يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور ، وهم المشركون الناكرون للآخرة ، ولقد حرّم توليهم على المسلمين لأنهم تماشوا المشركين في نكران يوم الدين ، أو عدم المبالاة به : ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ : من ثوابها بما قدمت أيديهم : ﴿قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ (٢ : ٩٦).

فهذا يأس بحساب عدم الثواب ، ولهم يأس آخر بنكران الحساب ، وهو أشبه بيأس الكفار من أصحاب القبور ، إذ يئسوا من حياتهم ومن حسابهم بعد موتهم ، فكما يئس المشركون الناكرون لحياة الحساب من أصحاب القبور كذلك اليهود يئسوا من الآخرة ، رغم أن المعاد من اصول دينهم.

(سورة الصف ـ مدنية ـ وآياتها أربع عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ
(٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قالَ مُوسى
لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ
مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ
بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى
الْإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧)

يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ﴾ (١٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

مضي التسبيح في فعله : «سبح» للتدليل على أنه لزام الخلائق في ذواتهم منذ

خلقوا ، كما ان مضارعه : «يسبح» في سواها ، للدلالة على استمراره دون انقطاع ما وجدوا ، فالخلق ، بما انه فعل الله ، انه تسبيح لله بذاته وصفاته الخلقية ، يسبحه عما ينافي العزة والحكمة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ومن ثم فهذه التسبيحة الشاملة من الكون كله في مطلع السورة توحي بأن شريعة الإسلام ـ وهي الأخيرة من شرائع الدين ـ انها تشمل كل ألوان التسابيح لله العزيز الحكيم ، فالأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي ـ إذا ـ أمانة الكون كله ، وانها تتجاوب ما في السماوات وما في الأرض إذ سبح ويسبح لله كله ، فالتنديد بالمؤمنين بهذا الدين ، لو تركوه أو بعضه ، يكون أشد مما على الخلق كله ، وهنا التنديد بآية شاملة :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ :

تقول الآيات والروايات إنها نزلت في جماعة من الذين آمنوا ، يتمنون ان لو كتب عليها القتال ، فلما كتب كرهوه وتمنوا خلافه : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً. أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ (٤ : ٧٨) ﴿وَيَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ (٤ : ٨١).

هذا وكما توحي به التالية لآية المقت أيضا : آية البنيان المرصوص ، ولكنما النصوص القرآنية أبعد مدى من الحوادث المفردة الماضية التي تنزل الآيات لمواجهتها ، فعلينا أن نسير في مسيرات مدلولاتها العامة والمرسلة ، دون أن

تختصها بمناسبات نزولها فنموّت القرآن بموتها وهو كتاب الحياة الخالدة يجري كجري الشمس.

فآية المقت تعلمنا ضابطة عامة أن القول المنافق للفعل مقت كبير ، كما أن القول الموافق له واجب كل مؤمن ، فليكن المعني من القول هنا هو المطلوب فعله ، سابقا أو لاحقا أو على أية حال ، فمن الأقوال ما يطلب تركها كالمنكرات ، ومنها ما لا فعل لها ، فليساهما داخلين في نطاق الآية التي تندد بالذين يقولون ما لا يفعلون.

ثم القول هنا يشمل الوعد الحسن فيجب الوفاء به ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيجب على الآمر الائتمار بما يأمر به ، وعلى الناهي الانتهاء عما ينهى عنه ، وكذلك سائر الأقوال الحسنة الواصفة للحسنات ، أو المخبر بها ، فلتصدّق في فعلها من قائلها ، فإذا كان القول الحسن هنا وهناك وهنالك لا يجاوبه الواقع ، فليترك هذا القول فإنه تقوّل انقلب سيئا ومقتا كبيرا عند الله إذ ينافق فعله ، مهما كان حسنا عند الله لو يوافق فعله ، إذ لا قيمة لقول لا يسنده ويسانده فعله ، فإما السكوت عن هكذا قول ، أم ضم الفعل إليه كما يستطاع.

فخلف الوعد مقت ولو مع الكفار غير الناقضين عهودهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقت لمن لا يأتمر فيما يأمر أو لا ينتهي عما ينهى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (٢ : ٤٤) فهذا النفاق في الأمر والنهي إفساد ، وإن كان القصد منهما الإصلاح ، وكما يشير إليه شعيب عليه السّلام : ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ..﴾ (١١ : ٨٨) فتارك المعروف المأمور من قبل تاركه ، وفاعل المنكر المنهي من قبل فاعله ، انهما يزدادان جرأة وهتكا في حرمات الله ، ووهنا في عقيدة الإيمان إن كانت لهما ، وان ذلك يكشف عن أن الآمر الناهي كأنه

مستهزء بشريعة الله ، فهو «كالذابح نفسه» على حدّ المروي عن الإمام الصادق عليه السّلام [(١)] كما ويذبح غيره.

وحاشا الله أن يأمر ، او يسمح بأمر ونهي فيهما الفساد ، وهو يصرح انه خلاف العقل : ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ وانه ممقوت عنده مقتا عظيما ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ فهو يستجر اللعنة بدل الرحمة كما عن الإمام علي عليه السّلام : «لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به» و :

«فانهوا عن المنكر وتناهوا عنه فإنما أمرتم بالنهي بعد التناهي».

فالتقوّل في عدم اشتراط وجوب أو جواز الأمر والنهي بفعل ما يأمر وترك ما ينهى ، إنه خلاف العقل ، وخلاف النقل كتابا وسنة ، ونشبع البحث كما يجب في آياته الخاصة إن شاء الله.

كذلك وسائر الأقوال الحسنة المخبرة عن أفعالك ، أو الواصفة لحسنات الآخرين ، يجب أن تجاوب أفعالك أنت ، أو تكون كذبا ومقتا كبيرا عند الله [(٢)] ، فإنما القول تعبير عما في الضمير ، أو ما تضمر من نية أو عقيدة أو فعل ، فليجاوبها كما يمكن ويرام ، وهو لزام الإيمان ، ولذلك يخاطب به المؤمنون :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ إيحاء بأن عقيدة الإيمان تستلزم عمل الإيمان ، وإلا فلا إيمان ، إلا صورته وخياله ، وهذا مقت كبير عند الله : ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ﴾ فمهما كان ترك الفعل الحسن لمن لا يقول مقتا ، فهو ممّن يقول أشد مقتا.

---

(١) البرهان ج ١ ص ٩٣ العياشي عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله (ع) قال قلت له : «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ..» قال : فوضع يده على حلقه . قال : كالذابح نفسه.

(٢) ومن ألطف ما ورد في نفاق الكذب ما رواه أحمد بن حنبل وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله (ص) وأنا صبي فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت امي : يا عبد الله تعال أعطك ، فقال لها رسول الله (ص): «وما أردت أن تعطيه»؟ فقالت : تمرا ، فقال (ص): «أما انك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة».

وفي تقسيم حاصر بين القول والفعل ، قد يفعل الإنسان قبل أن يقول ، ففعله هو قوله قبل قوله ، وإذا يقول فليس بدافع التشهر والفخر ، وإنما توجيها للآخرين ، فهذا هو العليين من القول والفعل ، وقد يقول ولا يفعل ، بل ويضاد فعله قوله ، وهذا هو السجين منهما ، ثم بينهما متوسطات من زيادة القول على الفعل دون رئاء ، أو قول يجاوب الفعل ولكنه رئاء ، أم ماذا ، فإنما يحسن من القول ما يعتقده القائل ويفعله تماما.

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ :

ان سبيل الله في كافة مجالاتها ، هي سبيل مرضاة الله ، وهي سبيل مصلحة الإنسان دينا ودنيا ، مجتمعات وأفرادا ، وفي كل متطلباته كإنسان ، فسبيل الله - إذا - هي سبيل صالح الإنسان ، والله هو الغني عن عباده وهم الفقراء إليه ، وهكذا يفسر نصرة الله وصراط الله ، وكلما لله مما يؤمر به الناس.

ثم المقاتلة في سبيل الله ليست فوضى دون نظام وقيادة صالحة ، فكما لا قتال إلا في سبيل الله ، متحللا عن الأطماع التوسعية ، كذلك لا قتال في سبيل الله إلا ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ في تضامن عن قيادة ونظام بين الجماعة المسلمة ، داخل صفوف متراصة : برية وبحرية وجوية ، متضامنة منضمة كل مع بعض ، كما يتضامن كلّ مع صفيفه ، وكلّ صف واحد ، فإنهم يقاتلون تحت قيادة واحدة ونظام واحد ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ تتضامن أبعاضه في صميمه ، مهما اختلفت شكليا ومن حيث الوظائف في تصميمه.

ولو كان المسلمون أجمع ، أو المسلمون العرب على أقل تقدير ، لو كانوا هكذا في مواجهة ثالوث الاستعمار الصيهوني الانكلو أمريكي ، والاستحمار الروسي المناوئ له شكليا ، والمساند إياه ضد المسلمين واقعيا ، لو كانوا مقاتلين في سبيل الله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، لما انهزموا واصطدموا من دويلة العصابات الصهيونية وعملائها المرتزقة داخل البلاد.

وكما الله يحب هكذا مقاتلين ، فإنه كذلك يبغض غيرهم ، ممن لا يقاتل هكذا في ظروفها الموجبة ، بين من يترك القتال الواجب ، أو يقاتل في غير سبيل الله ، أو في سبيل غير الله ، أو يقاتل في سبيله منعزلا عن صف كبنيان مرصوص ، كالهجمات والمدافعات الفوضى ، دون نظام وقيادة ، اللهم في الدفاع الفردي ، دون الجماهيري ، فمنذ اليوم الأول قام مجتمع إسلامي ذو قيادة مفترضة الطاعة هي قيادة الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وقبل أن تقوم دولة الإسلام في المدينة المنورة ، فتلك القيادة الجزئية الصغيرة الحجم ظاهرا ، كانت حجر الأساس للدولة الإسلامية في المدينة وعلى طول الخط.

والقرآن ـ دائما ـ يبني أولا أفرادا ، كما لمسناه من الآيتين الأوليين ، أن يكونوا مؤمنين صادقين غير منافقين ، وأن تكون حياتهم تسبيحات لله ، ثم يتبنى هؤلاء ـ كلبنات لبناء هيكل الإسلام ـ يتبناهم جماعة موحدة مسلمة رزينة رصينة متراصة ، فطالما الشر عارم ، والباطل متبجح ، والشيطان يقود ، من ثم يتعين على حملة الإيمان وحرّاسه أن يكونوا نبهاء أقوياء ليغلبوا عملاء الشيطان ، ولكي يقاتلوا في سبيل الله وحده ، فيما لا سبيل للحراس على كيانهم إلا القتال وحده ، فالله سبحانه وتعالى لا يتشهّى القتال ، ولا يشهّي المؤمنين ـ فيه ، وإنما يفرضه فيما يحتمه الواقع ، ولدافع مدقع ، حفاظا على الكرامة ، وحسما لمواد الفساد التي لا يحسمها إلا القتال ، ممن يقاتلون في سبيل الله ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ : بنيان تتعاون لبناته ، وتتضامّ متماسكة ، تؤدي كل لبنة دورها وتسد ثغرتها ، ولكي يسدوا ثغور الإسلام عن هجمات الكافرين.

﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ :

﴿وَإِذْ قالَ ..﴾ علّها عطف على أذى الرسول من بعض المؤمنين ، وهم الذين يقولون ما لا يفعلون ، أم وعلى سائر الأذى طوال تاريخ الرسالات من قبل

المناوئين ضد رجالات الله ، وفي هذه التذكارات تسلية لخاطر النبي الأقدس محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه ليس وحده يؤذى بين المرسلين ، وثانية بما يزيغ الله قلوب الزائغين ، ثم في آية البشارة التالية يبشره أنه مبشر به من قبل السيد المسيح ، ويخبره بكيد الفاسقين المتخلفين عنها ، ذاكرا فيها رسالة عيسى التي هي امتداد لرسالة موسى ، وممهد للرسالة الأخيرة المحمدية.

﴿وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ..﴾ : فقد آذوه ألوان الأذيات ﴿وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ وأذية رسول الله هي أذية لله ، وهي تستجر اللعنة في الدنيا كإزاغة القلوب ، وفي الآخرة بألوان العذاب : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾ (٣٣ : ٥٧).

﴿فَلَمَّا زاغُوا﴾ : مالوا وانحرفوا عن حق الطاعة ، وانجرفوا إلى باطل العصيان ، ﴿أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ : ان ترك هدايتهم ، إذ أبعدهم عن جنابه وخلاهم وما يختارون ، ووكلهم إلى أنفسهم ، كما ويجاوبه ذيل الآية كتعليل للإزاغة : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ : فالذي يفسق عن أمر ربه ، ويزيغ بعناد وعتاد عن طاعته ، انه لا يستحق الهداية الإلهية ، التي هي جزاء لقبول الهداية واستقبال الهداة ، اللهم إلا تسييرا للهداية وهو مذموم ، كما التسيير للضلالة مذموم.

فإذ ينسب الله الإزاغة بعد الزيغ إلى نفسه ، لا يعني منها الدفع إلى ضلال اكثر ، وإنما ترك التوفيق والهداية الثانوية ، فانها خاصة بالمهتدين : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾ (١٨ : ١٣).

وإذ يسترجي الراسخون في العلم أن لا يزيغ الله قلوبهم : ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا﴾ (٣ : ٨) فالمعني منه : أدم لنا ألطافك وعصمك لتدوم قلوبنا على الاستقامة ، ولا تزيغ عن مناهج الطاعة ، دعاء مستجاب للمؤمنين بفضل الله ورحمته وكما وعدهم ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وكان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : «ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا».

فالهداية الاولى : دلالة الطريق ـ أوجبها الله على نفسه عدلا ، والثانية : إيصال الطريق فضلا ، فهذه تستوجب الدعاء دون الاولى الحاصلة دون دعاء.

﴿وَإِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ :

آية بينة عديمة النظير في القرآن من حيث البشارة الصريحة التي تحملها عن السيد المسيح عليه السّلام ، تؤيدها عشرات من آيات البشارات العامة في القرآن ، وفي سائر كتابات الوحي ، تنقبنا عنها في مؤلفنا الخاص بها [١].

ومما يجلب النظر في هذه الآية أنها تحصر رسالة السيد المسيح في مهمتين اثنتين أو أنهما من أهمها : تصديق التوراة ، التبشير بخاتم النبيين ، وفي الحق لم تكن الرسالة الإنجيلية مستقلة عن شريعة التوراة ، وكما يصرح في آيات أنه بعث بشريعة التوراة وزيادات أخلاقية وتحليل بعض ما حرّم على اليهود تأديبا [٢] ثم البشارة الأحمدية ـ التي يلمح لها في الإنجيل ببشارة الملكوت ـ هي المهمة الثانية ، طالما هي الاولى في الدعوات الرسالية لأنها الأساس في الرسالات الإلهية من آدم إلى السيد المسيح ومن بينهما.

وبما ان التبشير هو الاخبار السارّ ، وليس مجيء رسول بذهاب آخر بشرى سارة إلا إذا كان أفضل منه ، وشريعته أكمل من شريعته ، فآية البشارة هذه تفضل المبشّر به على المبشّر ، وكما ان «أحمد» في نص البشارة تدل على ذلك :

---

(١) رسول الإسلام في الكتب السماوية وهو يضم تسعة وخمسين بشارة من الكتب السماوية بصورة المناظرة مع علماء أهل الكتاب ، ولقد بشر فيها ب : «أحمد ـ محمد ـ بمئد مئد ـ قدوس» كما ذكر مولده وصفاته ودعوته وسائر ميزاته.

(٢) راجع سورة الجن في الآية «إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى».

انه أحمد وأفضل من المسيح ومن قبله من حملة الرسالات.

«و» أذكر بين ذكريات الرسالات المعرقلة من قبل المناوئين، والبشارات المكذوبة بهم ﴿إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ وطالما النبيون وغيرهم لا يذكرون بنسبة الآباء والأمهات في القرآن، لأن بناء شخصية الإنسان ما يتبناه هو لا سواه، نرى السيد المسيح ينسب إلى امه، لا لإثبات شخصية روحانية له من قبلها، وإنما لإثبات آية خارقة إلهية هي ولادته دون أب، وللذود عن ساحة مريم (ع) إذ نسبت إلى الزنا، فليس المسيح ابن رجل لا حلالا ولا حراما، إنما ابن باكرة طاهرة!

﴿إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ﴾ ولا تعني «إليكم» تخصيص الرسالة الإنجيلية ببني إسرائيل، وإنما هم المحور والمنطق الأول لهذه الرسالة، يجب أن تتخطاهم إلى العالم كله، كما تناصرت بذلك الآيات القرآنية والإنجيلية سواء ﴿مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ﴾ لا ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ فأين ما بين أيديهم من التوراة المحرفة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (٢: ٧٩)، أين هو مما بين يدي المسيح من خالص وحي التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللهِ﴾ (٥: ٤٤) وإن كان فيما بين أيديهم الشيء الكثير مما بين أيدي السيد المسيح، وبذلك يحتج عليهم، وبذلك يستقر بهم الى دعوته.

﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾:

ان (أحمد) هو (محمد) في نص البشارة ومعناها، فإنها حسب النص اليوناني (بيركلتوس): كثير الحمد. المترجم إلى (أحمد ومحمد) سواء، فإن

الأفعل والمفعّل من مادة الحمد ، أو أية مادة ، يفسران بمعنى واحد رغم اختلاف الصيغة ، وإن كان أحمد أفضل بحكم (أفعل) ومن القريب ان اسم المبشر به على لسان السيد المسيح كان (أحمد) ثم يوحنا الذي ألف انجيله باللغة اليونانية ، ترجمه إلى ما يفيد معناه في لغة (بيركلتوس).

هذا . وإن كان المحرفون الكنسيون حرفوا (بيركلتوس) أيضا إلى (باراكلتوس) ليحولوا محمدا إلى المسلّي ، ولكنما ألفاظ البشارة نفسها تتأبى إلا أن تكون بشارة برسول بعد السيد المسيح عليه السّلام هو أعظم منه وأكمل . كما وأن البشارة لغويا تلمح بأنه أكمل منه وممن قبله أيضا ، فهو إذا رسول ، لا روح القدس الذي كان معه ، وهاكم نص البشارة حسب الأصل السرياني المترجم عن الأصل اليوناني : في يوحنا ١٤ : ١٦ (وأنا بت طالبن من ببي وخين پارقليطا بت يبل لو خون هل أبد).

(وأنا أطلب من الآب (الخالق) فيعطيكم (بيركلتوس) آخر ليمكث معكم إلى الأبد . روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم).

وفي يوحنا ١٥ : ٢٦ (إين إيمن دأتي پارقليطا هود أنا شادو رون لكسلو خون من لكس بيّي روخاد سر ستوتا هود من لكس بيّي پالت هو بت يبل سهدوت بس ديّي).

(ومتى جاء (بيركلتوس) الذي سأرسله أنا إليكم من الآب (الخالق) روح الحق من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء).

وفي يوحنا ١٦ : ٧ . ١٥ (إلا أن سر ستوتا بمرون إلّو خون وصپايلا قتوخون دأن لا أزن سبب د أن لا أزن پارقليطا لي أتى

لكسلو خون إين إن أزن بت شادرنّه لكسلو خون).

«لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن انطلق. لأنه إن لم انطلق لا يأتيكم (البيركلتوس) ، ولكني ان ذهبت أرسله إليكم ، ومتى جاء يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأني ذاهب إلى خالقي ولا ترونني أيضا. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين : ان لي أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ويمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. كل ما للأب هو لي ، لهذا قلت انه يأخذ مما لي ويخبركم» [1].

ان (بيركلتوس) هنا وهناك ، نصا ومواصفات ، لا تنطبق إلا على الرسول الأقدس (أحمد) محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مهما حاول المحولون المحرفون الكلم عن مواضعه ، ان يحرفوها عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم فالحق يتجلى كالشمس بين ظلمات الأباطيل وزخرفات الأقاويل.

ولقد صرح بعض الخبراء باللغة اليونانية من المستشرقين [2] ومعهم بعض

---

(١) نقل الترجمة عن اللغة اليونانية سنة ١٩٠٦ ـ الكتاب المقدس ـ ونحن نقلناها هنا حرفيا إلا ترجمة البار قليطا ، والترجمة هنا تزيد عن الأصل السرياني ، إذ المقصود من نقل الأصل الإشارة إلى نص «بار قليطا» وإلا فالأصل الأولي يوناني ، وقد ترجمنا «الآب» ب «الخالق» حسب ما تعنيه في اللغة اليونانية خلاف الترجمات الإنجيلية التي تطلب من (الآب) أن يكون (الأب) لكي يصبح المسيح ابنه.

(٢) كالدكتور (كارلونلينو) المستشرق الطلياني إذ يسأله فتحي عثمان ـ كما في كتابه (مع المسيح في الأناجيل الأربعة ص ٣٤٨) قلت له : ما معنى بيركلتوس؟ فأجابني بقوله : ان القسس يقولون معناها المعزي ، فقلت : إني اسأل الدكتور (كارلونلينو) الحاصل على شهادة الدكتوراه في آداب اللغة اليونانية القديمة ، فقال : ان معناه : الذي له حمد كثير ، فقلت : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل حمد؟ فقال : نعم ـ فقلت ان رسول الإسلام من أسمائه احمد!

الكتاب المسيحيين المبشرين [١] ان (بيركلتوس) اليونانية تعني : الذي له حمد كثير : (أحمد . محمد) ، مهما حاول الآخرون أن يجعلوها (باركلتوس) لكي تعنى المسلي حتى يتخلصوا عن محمد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ويتسلوا إلى روح القدس المزعوم الذي يوحي لهم كما يشتهون ، فيصبحوا أنبياء يوحي الكنيسة من الروح ، إلا أن تواجد الاولى في الترجمات الإنجيلية قبل الإسلام ، ثم تحرّفها إلى الثانية بعد الإسلام مما يكشف عن مدى ميدهم عن حق البشارة إلى باطل يهوونه ، غلطة عامدة تجرهم إلى غلطات.

ومما يدلنا تاريخيا ان المبشر به هنا نبي بعد السيد المسيح لا روح القدس المسلي دعوى جماعة من المسيحيين انهم (بيركلتوس) الموعود المنتظر [٢].

ومن ثم مواصفات المبشر به في آياتها تحيل أن يكون هو روح القدس المسلي ، فإنه : (بيركلتوس آخر) (يوحنا ١٤ : ١٦) وروح القدس واحد ليس معه ولا بعده آخر ، فانما هو نبي آخر ، حيث الحمد الكثير يحمله النبيون أجمع فهم كلهم معنويا : (بيركلتوس) : أحمد ، وإن كانوا في ذلك درجات ، ثم النبي الآخر له من معناه النصيب الأوفر ، لحدّ خص باسمه دونهم (أحمد . محمد) مهما شاركوه في درجات أدنى من معناه : الحمد الكثير!

---

(١) كعبد المسيح في ينابيع الإسلام ص ١٥٢ حيث يقول : زعم العرب ان فار قليطا معرب بريكليطوس ولكنه من بار اكليطوس ، وكالاستاذ الحداد في كتابه مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي.

(٢) يقول وليم ميور في كتابه لب التاريخ ط ١٨٤٨ . ان «منتنس المسيحي الذي كان رجلا تقيا شديد الرياضة ادعى في آسيا الصغرى اني فارقليط موعود المسيح الذي تنتظرونه فآمن به طائفة منهم ، ويقول أيضا : ان اليهود والنصارى زمن محمد كانوا بانتظار النبي الموعود فار قليطا فاتخذه محمد ظرفا صالحا للادعاء اني أنا فار قليطا موعود المسيح.

وفي التواريخ والآثار : انه لما كتب الرسول محمد (ص) كتاب الدعوة إلى الإسلام للنجاشي ، انه لما وصله الكتاب قال : أشهد بالله انه هو النبي الذي ينتظره أهل الكتاب وكتب في جوابه : أشهد انك رسول الله (ص).

ولئن سئلنا لماذا بشر بأحمد؟ ومحمد أشهر! فالجواب : ان (بيركلتوس) اسم وصفي عني به محمد وصفا في : (بيركلتوس آخر) : نبي آخر ، فان النبيين كلهم محمّدون أوصافا إذ يحملون الحمد الكثير ، مهما حمله محمد الأخير اسما ووصفا وكما في نص سليمان عليه السّلام (وكولو محمّد يم) : وكله محمد : اسما ووصفا وخلقا ودينا وفي كل شيء [1] ، ثم وعني به أحمد في سواه [2] إذ قصد تفضيله على السيد المسيح وسواه كما في النص الثالث الآتي شرحه ، فأحمد هو الأفضل إطلاقا في حمل الحمد ، وكما هو حامل لواء الحمد يوم القيامة.

ومما يفضل به هذا المحمد الآخر انه الأخير من مواكب الرسالات الإلهية أيضا : «فيعطيكم بيركلتوس آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا ١٤ : ١٦) ف (كم) هنا لا يعني. ومحال أن يعني. الجماعة المخاطبين زمن المسيح فقط ، إذ لم يكونوا مؤبدين بأشخاصهم ، وكما أن أبدية المحمد الآخر هي أبدية الشخصية الرسالية لا الشخص ، فهو خاتم النبيين.

وسمة أخرى ل (بيركلتوس) يعنى فيها (أحمد) «انه خير لكم أن أنطلق لأنه ان لم انطلق لا يأتيكم (بيركلتوس)» فهل ان روح القدس خير من السيد المسيح حتى يصبح ذهابه لمجيء الروح خيرا لهم؟ أم وإذا كان خيرا منه ، أينفصل عنه ولحد استحالة الجمع بينهما؟ «إن لم انطلق لا يأتيكم» وهذه تصريحة بينة ان المبشر به كائن مستحيل الاتصال بالسيد المسيح ، وإذا كان هو روح القدس المتصل بالنبيين أجمع ، استحالت نبوة السيد المسيح ، فالذين يحاولون في

(١) في نشيد الأناشيد ٥ : ١٥ «حكو ممتقيم وكولو محمد يم زه دودي وزه رعى بنت يرشالام ، أي : فمه حلو وكله محمد هذا محبوبي وهذا ناصري الذي يرعاني يا بنات أورشليم.

(٢) إذا فلا يتم في «احمد» رغم ما يتقوله الأستاذ حداد في (مدخل إلى الحوار الاسلامي المسيحي) بقوله : اسم النبي العربي في القرآن هو محمد كما يرد في أربع آيات : (٣ : ١٤٤) (٣٣ : ٤٠) (٤٧ : ٢) (٤٨ : ٢٩) لذلك فوروده بلفظ احمد مرة يتيمة مشبوه ولا يعرفه الواقع التاريخي.

تحويل أحمد إلى روح القدس ، انهم يحيلون نبوة السيد المسيح في الوقت ذاته ، إذ أحال المسيح مجيء (بيركلتوس) لو لم يذهب هو ، وجنّد ذهابه لمجيء (بيركلتوس) فهل هو إذا روح القدس ملازم النبيين ، وملازم السيد المسيح طوال رسالته؟! إنه أفضل من السيد المسيح إذ اعتبر ذهابه خيرا لغاية مجيء (بيركلتوس) ولأنه (أحمد) أفضل منه محامد وممن سواه ، فليكن من أفضل أولى العزم من الرسل ، ومن شهود هذه الأحمدية : «ولكن متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يوحنا ١٦ : ١٣) مما يوحي أن السيد المسيح لم يرشد إلى جميع الحق ، ولأن حامل هذا الإرشاد الشامل ، شرطه أن يحمل الحمد الشامل : أن يكون (أحمد) ليرشد العالم مع الأبد إلى كل خير ، كما وأن لفظ البشارة (أحمد) يوحي بهذه الأفضلية الأحمدية.

لذلك ، وأن المبشر به يحمل الرسالة الأخيرة التي هي الرسالات كلها وزيادة نرى السيد المسيح يردد تأكيده به في توصيات : «الآن قلت لكم قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون» (يوحنا ١٤ : ٢٩).

وأنه يعتبر حفظ وصاياه من شروط مجيء (بيركلتوس) : «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي. وأنا أطلب من الخالق فيعطيكم (بيركلتوس) آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا ١٤ : ١٥ ـ ١٦).

ولقد عبر عن أحمد في نص يوناني آخر ب (ايودكيا) كما في (لوقا ٣ : ١٤) : «وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماويين يسبحون الله ويقولون : الحمد لله في الأعالي وعلى الأرض (إسلام) وللناس (احمد) ، رغم ان التراجم تقول : «وعلى الأرض السّلام للناس الذين بهم المسرة» وكما هو دأبهم في تحريف الترجمات عن البشارات المحمدية.

فهم يترجمون (ايريني) ب (سلام) و (ايودكيا) ب (مسرة) رغم انهما

(إسلام واحمد) حسب الأصل اليوناني واقعيا ولغويا.

واقعيا لأن الأرض لا تحمل السّلام التام ما دام فيها تضارب العقائد والأحكام.

فهذا هو السيد المسيح عليه السّلام يقول عن سلام الأرض : «ما جئت لألقي سلاما على الأرض بل سيفا» (متى ١٠ : ٣٤) «جئت لألقي نارا على الأرض أتظنون أني جئت لألقي سلاما؟ كلا! أقول لكم بل انقساما» (لوقا ١٢ : ٥٣).

إذا ف (ايريني) على الأرض ليس سلامها ، وإنما هو إسلامها الذي سوف ينتهي إلى سلامها التام في دولة القائم المنتظر عليه السّلام : ملكوت الله الذي يلتمسه المسيحيون في صلواتهم ليل نهار ، والملائكة تعني بهذا الهتاف ان (أحمد) سوف يؤسس الإسلام على الأرض فيشملها كما الحمد لله شامل في الأعالي.

ولغويا : الحق ان (ايودكيا) مركبة من (ايو ـ دكيا) ايو بمعنى : حسن ، جيد ، صالح ، مرحي ، حقيقي ، حسن ملاحة ـ و (دوكيا) لم نجدها هكذا في كتب اللغة وإنما (دو كوئه) أي : الحمد ، الاشتهاء ، الشوق ، الرغبة ، البيان ، الفكر ، ثم الصفات المشتقة من (دوكسا) : وهي ، حمد ، محمود ، ممدوح ، نفيس ، مشتهي ، مرغوب ، مجيد ، والمركب من هذين هو «محمد وأحمد».

كما وان الأصل العبراني (شلم حمد) هو الإسلام وأحمد ، لا السّلام والمسرة ، وإن كان الإسلام وأحمد سلاما ومسرة للمؤمنين [(١)].

هذان الأحمدان طرف من البشارات الإنجيلية بجنب العديد من البشارات المحمدية في التوراة والإنجيل نتحدث عنها في طيات آياتها إنشاء الله تعالى ومنها ما في كتاب أشعياء (٤٢ : ١٠) «يسبحون الرب تسبيحا جديدا ويبقى أثر

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه تفصيل القول حول «بيركلتوس» و «ايريني ايودكيا» ، ننقله عن الأب عبد الأحد الآشوري العراقي من كتابه «الإنجيل والصليب» ط القاهرة ١٣٥١ ه نقله عن التركية إلى العربية مسلم عراقي.

سلطانه بعده واسمه (أحمد)» [(١)].

هكذا يترجم الآية القسيس أو سكان الأرمني ، بعد الآيات السابقة لها ، المبشرة برسالة عالمية من نسل قيدار بن إسماعيل ، وأحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم من ولده.

وهكذا يبشر السيد المسيح بني إسرائيل والحواريين بالرسالة الأحمدية المحمدية ، مفضلا له على نفسه وسواه ، وانه يستقل بشريعة عالمية خالدة فيها تبيان كل شيء : كما بشر به النبيون من قبل :

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ : بينات فيما بشر به من اسمه وسماته وصفاته ، وآيات بينات في كتابه تبين بوضوح انه من عند الله العزيز الحكيم ، وبينات في تشريعاته وتصرفاته ، بحيث أصبح كله بينات ، ولكنهم لحقدهم العصيب ﴿قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ترى كيف تكون الحقيقة إذا كانت البينات الأحمدية سحرا؟! ان صيغ البشارة بالنبي الآتي ، التي نعهدها من حملة الرسالات الإلهية ، تصور لنا حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهي وحدة متماسكة في أصلها واتجاهها ، مهما اختلفت في شكلياتها حسب المقتضيات ، انها ممتدة من السماء إلى الأرض ، وبشارة السيد المسيح ثابتة بهذا النص ، سواء تواجدت في الأناجيل الحالية أم لا ، ولكنها موجودة كما عرفناه وإن كان عليها سمة التحريف فإن نور الله لا يطفئ مهما حاول الكافرون في إطفائه.

وبشارة السيد المسيح لا تختص باسم (أحمد) وإن كانت أفضلها إذ يحمل تفضيله صلّى الله عليه وآله وسلّم .. فالنص «وإذ قال» مما يدل على انه من بشاراته ، لا «إذ كان يقول» حتى تدل على انه كان (أحمد) دائما ، بل و (محمد) أيضا.

هنا نلفت أنظار الذين يقولون : اننا مسيحيون ، ثم لا يؤمنون بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم

---

(١) راجع (رسول الإسلام) ص ٥٨ ـ ٦١.

انهم ليسوا بمسيحيين أيضا إذ رفضوا بشارته وتركوا وصيته في محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وأما الذين آمنوا به فهم حقا مسيحيون ومسلمون إذ آمنوا به تطبيقا لوصية السيد المسيح عليه السّلام.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ :

المفترون على الله الكذب فرق شتى ، بين مفتر لا يعلم ، ومتجاهل يعلم ، وعالم لا يجهل ولا يتجاهل ، وإنما يفتري علما وعنادا فلا أظلم منه ، ومنهم من يدعى إلى الإسلام ، بحجة البشارات الصادقة لرسول الإسلام ، وبسائر الحجج القاطعة للأعذار ، ورغم كل ذلك يفتري على الله الكذب ، في تكذيب رسوله المبشر به من قبل ، وتكذيب رسالته التي تحمل كافة بينات الصدق ، فمن أظلم منه ﴿وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إذ لا يريدون الهداية ويرفضون الهداة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ :

نور الله هنا هو الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فإنه نور الأنوار الرسالية ، وهو القرآن :

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٧ : ١٥٧) ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾ (٩ : ٣٢).

والفرق بين «ليطفئوا» و «أن يطفئوا» أن في الأول الإرادة واجهة لأمر يتوصلون به إلى إطفاء نور الله ، كنكران البشارات ، وتسحير المعجزات ، ولكي يطفأ النور المحمدي ، وفي الثاني القصد إلى إطفاء نور الله بالقضاء على النبي ودعوته قصدا بالذات.

فرغم محاولات الكافرين وحيلهم في إطفاء نور الله ، ان الله حتم على نفسه

إبقاء نوره وإتمامه ، وكما نرى البشارات المحرّفة بأيدي الدس والتحريف ، انها تدلّ على تحرّفها ، وتدلّ من خلاله دلالات بيّنة على صاحب الرسالة السامية محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وتفضح المحرفين ، فالذين حوّلوا (بيركلتوس) : أحمد ـ إلى (باركلتوس) : المسلي ، لكي يحوّلوه عن أحمد الرسول إلى مسلي الروح ، فهل باستطاعتهم تحويل صفاته وسماته إلى غيرها؟ لذلك ظلّت هذه البشارة الأحمدية مشرقة دائبة خارقة ظلمات التحريف والتجديف! وهي الإرادة ليطفئوا نور الله ، وكذلك إطفاءه بالقضاء على الدعوة الإسلامية ، فإنها مطلّة على العالم أجمع وطالعة ما طلعت الشمس وغربت ، لا تطفئ نوره ولا ذاته وصفاته.

إنه نص يرثي الكافرين مستهزئا بهم ، فما قولهم بأفواههم ﴿هذا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ إشارة الى المعجزة التامة الكافلة ، إلا كمن يحاول إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه ، فما أفضحه وأعجزه من هؤلاء الضعاف المهازيل!.

فالنار هي التي تطفأ مهما طالت زبانيتها ، ولكنما النور ، المستمدة من نور الله وإرادته ، إنها ليست بالتي تطفأ ، وإنما تزداد إشراقا وتماما رغم تطاول الإطفائيات الطائلة الجاهلة ، مهما يخيّل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصطنعين بأيدي وعلى أعين الصليبيين والصهاينة المجرمين ، أنهم بالغوا هذا الهدف البعيد.

ترى ان الله تطفأ ذاته النورية بإطفاء الكافرين؟ فكذلك نوره ، فإنه طالع من مطلع ليس له أفول وهو الحضرة الإلهية : ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ. رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ﴾ (٢٤ : ٣٧).

ومن أرجل وأبطل هؤلاء الرجال الأنوار ، الرسول الأقدس محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته الطاهرون المعصومون كما وردت بذلك متواتر الآثار.

إنه ليس إتمام النور المحمدي بإبقاء شخصه حيّا ، ولا ببقاء دينه حينا سليما عن النقص والنقض ، وإنما هو إظهاره على الدين كله : أن يحكم العالم أجمع ولو كره الكافرون والمشركون :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي ... وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ (٤٨ : ٢٨).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ : كأنه الرسول لا سواه ، فمن هكذا إضافة يستفاد الحصر ، ولأنه يحمل الرسالات الإلهية وزيادة خالدة ﴿بِالْهُدى﴾ : كل الهدى التي تتطلبها وتحتاجها الحياة العقلانية وأضرابها على طول الخط ، دون نقص أو نسخ ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ : دين للحق : الثابت. لا «الدين الحق» لأن رسل الله كلهم مرسلون بالدين الحق ، ف «دين الحق» هو الثابت من الدين الذي ليس له دور خاص ولا جماعة خاصة ، فدوره شامل ما دامت هذه الحياة قائمة ، وجماعته هم المكلفون أجمعون ، حق بكافة معانيه : ثبوتا وجاه زلازل التشويهات والتمزيقات والتحريفات ، وثبوتا تجاه النسخ بشريعة اخرى إلهية ، فإنه لا شريعة بعده ، فهو حق يجري في مجاري الحياة جري الشمس.

فلقد حرفت الكتب الإلهامية الاخرى ، وانتهت لحال لا تصلح معها لشيء من قيادة الحياة ، وحتى لو ظلت سليمة عن التحريفات ، فهي نسخة سابقة مؤقتة لأدوارها المحددة لها ، لا تشمل كافة طلبات الحياة المترامية الأطراف ، المتجددة دائبة ، فليست هي «دين الحق» مهما كانت «الدين الحق».

و «دين الحق» هكذا يستحق الظهور على الدين كله ، وكما جعل غاية لحقه : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ : على الدين الباطل كله : الطاعة الباطلة ، وهي شرعة

الشيطان ، وعلى الدين الحق كله [1] ، إذ ينسخ الشرائع كلها ، ويكمّلها ، فلا يبقى دين إلا دين الإسلام ، وكما وعدناه في دولة القائم المهدي محمد بن الحسن العسكري عليه السّلام الذي به يملأ الله الأرض قسطا وعدلا بعد ما ملئت ظلما وجورا.

إن جذور ومؤهلات هذه الغاية متواجدة في شريعة الإسلام ، مهما لم تتحقق زمن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وخلفائه حتى الآن ظهورا على الأديان ، ولكنها سوف تتحقق في الدولة المحمدية الأخيرة التي يبتدء بها مؤسسا لها حفيده المهدي المنتظر عليه السّلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ : ظهورا وغلبا شاملا بدينه وكتابه ، وبشخصيته الرسالية ، مهما قضى شخصه نحبه ، وانقضى دوره كشخص ، ولكنه مستمر في دعوته ، في كتابه وكيانه ، في خلفائه الأوصياء الأوفياء ، فيمن تخضع له الأمم كما بشرنا به في كتابات السماء [2].

إن الديانات الاخرى ، من حق وباطل ، ليست لها مؤهلات الغلبة الشاملة ، وتأسيس دولة موحدة عالمية ، لا في ذواتها ، ولا في زعاماتها ، ولكنما الإسلام يملك هذه الأهلية فيهما معا ، فدستوره العالمي هو قرآنه الكامل ، الحافل لكافة متطلبات الحياة ، وقيادته العالمية هي الظاهرة في رسوله وأوصيائه ، والباهرة أخيرا في القائم المهدي عليه السّلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ : الذين يشركون بالله في طاعته وعبادته ، في دينه وحكمه ، فليحكم دين الله وحده ، ظاهرا على الدين كله ﴿وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ إذ يشهد في كتاباته ببشارات تتلاحق بحق هذا الدين وهذا الظهور ، وإذ يشهد بما يؤيد أهل هذا الدين فيما يأملون ، من كانوا يعلمون ويعملون ، ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى﴾.

---

(١) تفسير البرهان ٤ : ٣٣٠. عن أبي الفضيل عن أبي الحسن الماضي (ع) في الآية قال : يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم (ع).

(٢) راجع (رسول الإسلام في الكتب السماوية) تجد فيه بشارات عدة بشأن القائم المهدي (ع).

إن الإسلام ليس فكرا أو نظرية في بطون الكتب ، تترسمها الأجيال فيعيشوا الخيال بعيدا عن الواقع ، إنما هو دين الحياة الواقعة ، حقيقة في عالم الواقع ، ما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين حين وآخر ، وتنبض وتنتفض قائمة على جذورها المجردة عن الأباطيل ، رغم كل ما جرّد على الإسلام والمسلمين من كيد وحرب وتنكيل ، وظهرت قوة وحقيقة ونظاما على سائر الدين قدر ما أظهرتها جماعتها ، فدانت لها معظم الرقعة العامرة مدى قرون من الزمن .. وإلى أن يدين لها كل المعمورة طوعا أو كرها بقوة النور والنار ، طوع الأبرار وكره الأشرار ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

إن إتمام نور الإسلام ليس إلا في زمن يشمل العالم كله ، فيرتفع فيه علم الإسلام مرفرفا لا ندّ له ولا ضد ، وكما سمع علي عليه السّلام يقول تفسيرا لهذه الآية : (كلا والذي نفسي بيده حتى لا يبقى قرية إلا وينادى فيها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله بكرة وعشيا) [1].

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ :

---

(١) تفسير العياشي بالإسناد عن عمران بن هيثم عن عباية انه سمع أمير المؤمنين (ع) يقول في الآية : أظهر ذلك بعد؟ قالوا : نعم. قال : كلا ...

وعن ابن عباس في الآية قال : لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا صار الى الإسلام ، حتى تأمن الشاة والذئب والبقرة والأسد والإنسان والحية ، حتى لا تقرض فارة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، وهو قوله تعالى : «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» وذلك يكون عند قيام القائم (ع).

وعن جابر بن يزيد عن أبي جعفر (ع) في الآية قال : يظهره الله عز وجل في الرجعة(تفسير البرهان ٤ : ٣٣٠).

هنا إيمان أول هو رسمه وصورته قبل أن يتعرّق في القلوب ، وهو الإيمان التقليدي ، فهو لا ينجي ـ بمجرده ـ من عذاب أليم ، إنما هو رأس مال يتجر به ، والتجارة تصرف في رأس المال طلبا للربح ، وهذا الإيمان الأول هو رأس مال لربح الإيمان العريق بالله ورسوله والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس ، ثم هذا الربح أيضا رأس مال لتجارة ثانية وربحها النجاة من عذاب أليم ، تجارة متسلسلة ترجع لآخر المطاف الى نجاة قاطعة عن حياة بئيسة في الدنيا وفي الآخرة ، دون اختصاص بالأولى ، مهما كانت في الآخرة أتمّ وأولى.

إنها تجارة من رأس مالها أنفس المؤمنين وأموالهم ـ وهي من الله ـ : ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ... فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ﴾ (٩ : ١١١).

فبأنفسهم يؤمنون بالله ورسوله ثانيا ، ويفتدون بهما في سبيل الله مجاهدين ، وبأموالهم كذلك يجاهدون صرفا لها في سبيل الله ، ولكي تصبح حياتهم المؤمنة كلها قنطرة وسبيلا لله دون أن يكون لغير الله فيها نصيب.

في آية التجارة تقدّم الأموال لتقدّمها في تقديم المجاهدين بالعدد المكافحة ، ثم إذا نفدت الأموال أو ما كفت أو ما أفادت لحسم جذور الفساد ، فلتقدّم الأنفس فداء بعد الأموال في سبيل الله ، وفي الآية الثانية تقدّم الأنفس لأنها الأصل في الجهاد ، وإذا قدّم الأصل فتقديم الفرع ـ وهو المال ـ سهل.

ومن عوائد هذه التجارة غفر الذنوب ودخول الجنة ، إيجابا للرحمة بعد البعد عن العذاب :

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ :

فغفر الذنوب كلها «ذنوبكم» الغابرة والحاضرة ـ وهي صغائر المعاصي ـ إنه رهين هذا الإيمان العقائدي والعملي التام ، فإنه يضم كبائر الطاعات فعلا :

﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ (١١ : ١١٤) وكبائر المعاصي تركا : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (٤ : ٣١) ، ثم بقية حاضرة بجنب أمثالها والمستقبلة :

﴿وَأُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ :

وتجارة وعائدة أخرى ، تحبونها هنا ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ﴾ إذ تنصرون دينه ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ : فتح مكة المكرمة وهو فتح الفتوح فيما مضى ، وفتح القائم المهدي عليه السّلام [1] ، وهو أشمل ، وإن كان متأخرا بزمن ، فكل آت قريب. فقد تربحكم هذه التجارة في الحياتين ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذه الفتوحات والأرباح الدائبة ، وإنما المؤمنين المجاهدين بكل ما لديهم من إمكانيات ، لا القاعدين.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ﴾ :

هذه المقالة من السيد المسيح هي لما أحسّ منهم الكفر : «فلما أحسّ عيسى منهم الكفر قال من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون. ربنا آمنّا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين. ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ (٣ : ٥٤).

كون الإنسان من أنصار الله والأنصار إلى الله لا يعني أن الله بحاجة إلى نصرة في ذاته أو صفاته أو أفعاله إلى عباده الضعفاء المهازيل ، وإنما يعني نصرة الإنسان نفسه في صالحه الحيوي بكافة مجالاتها ، الذي لا يصلح إلا بإرادة الله ودلالته ، فليس بإمكان الإنسان أيا كان أن ينصر نفسه إلا على ضوء شريعة الله

---

(١) القمي أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في الآية : يعني في الدنيا بفتح القائم (ع) ، وأيضا فتح مكة.

المسنونة لصالح الإنسان ، وتوفيقه الذي يرافقه فيه : ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٦ : ١٥٣).

ومن نصرة الله نصرة رسوله الدال عليه ، السالك سبيله : ﴿قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (١٢ : ١٠٨) كما والتنظير : ﴿كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ﴾ يوحي بأصالة هذه النصرة في نصرة الله ، فكونوا أنصارا لرسول الله في الدعوة والاتجاه الى الله ، وتطبيق ونشر شريعة الله ، في صفوف متراصّة رزينة رصينة صامدة لا تنفصم : ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٧ : ١٥٧) وتعاكس نصرة الله هكذا أن ينصر ناصريه ، مما يدلّ على أن نصرته تعالى هي نصرتهم أنفسهم بدلالته وتوفيقه : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ (٤٧ : ٧) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٢ : ٤٠).

والحواريون الأنصار هم تلاميذ السيد المسيح ، الأخصاء ، منطلق دعوته الذين كانوا يلوذون به ويأخذون عنه ، منقطعين عمن سواه من معلمين ﴿قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ﴾ أنصارك الى الله ، بما أنك وسيط في هذه السبيل ، لا أصيل ﴿فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ بالمسيح أو بنصرته الى الله ﴿وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ﴾ كذلك ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ﴾ الكافرين والتاركين لنصرته «فأصبحوا» بإيمانهم بالله ومن ثم بتأييد الله «ظاهرين» غالبين على عدوهم ، ومن ذلك أنهم ﴿مَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ في محاولة صلبه إذ صلب من ألقي عليه شبهه ورفع هو الى سماء رحمة الله ، وهكذا يكون دور الإيمان والمناصرة في الله ، عاليا ظاهرا على الأعداء مهما كانت جولة الباطل ، فإن للحق دولة!.

والعبرة المستفادة عبر نصرة الحواريين والذين حذوا حذوهم ، هي استنهاض همّة المؤمنين بالشريعة الأخيرة من دين الله ، المختارين لهذه المهمة الكبرى ، أن يقوموا قومة رجل واحد لنصرة صاحب الرسالة السامية الأخيرة ، ليؤدّوا هذه

الأمانة الكبرى الى الأمم سليمة عزيزة ، ولكي تحكم العالم أجمع في جولته الأخيرة.

ولعمر الله إن نصرة المؤمنين بهذه الرسالة كانت عالية غالية ، إذ نصروا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وآله (عليهم السلام) في مختلف الأخطار الحاسمة [1] ، خلاف ما نبّئنا عن أنصار السيد المسيح ، إذ كانوا قلة وهم لم ينصروه إلا قليلا حتى رفعه الله!.

---

(١) اصول الكافي عن أبي عبد الله (ع) قال : إن حواري عيسى كانوا شيعته وإن شيعتنا حوارينا وما كان حواري عيسى بأطوع له من حوارينا لنا ، وإنما قال عيسى للحواريين من أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ، فلا والله ما نصروه من اليهود ولا قاتلوهم دونه ، وشيعتنا والله لا يزالون منذ قبض الله عز وجل رسوله ينصروننا ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشردون من البلدان ، جزاهم الله عنا خيرا. وقد قال أمير المؤمنين (ع) : والله لو ضربت خيشوم محبينا بالسيف ما أبغضونا ، والله لو آويت مبغضيه أو حبوت لهم من المال ما أحبونا.

(سورة الجمعة ـ مدنية ـ وآياتها إحدى عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ
حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ
وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ
النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي

تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١١)

سورة تسمى باسم أفضل أيام الله الذي يؤتى فيها بأفضل فريضة من فرائض الله ، المشرف بها المسلمون ، المفضلون بها عمن قبلهم كما يروى عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، كما وأن سورة الحج تسمّت باسم هذه الفريضة العظمى التي تزامل صلاة الجمعة في فرضها وفضلها ، بل وهي أفضل منها فإنها مؤتمر سنوي عالمي تشكل مملكة الحج ، وهذه مؤتمر اسبوعي بلدي.

ثم لا نجد سورة اخرى تتسمّى باسم أية فريضة إسلامية سواهما ، مما يوحي بمدى أهمية هذين الفرضين الجماعيين اللذين هما كمفتاح لسائر الفرائض ، يجمعان بين شتات القطاعات المسلمة التي تفصلها فصالات الأمكنة واللغات والطائفيات والقوميات.

فصلاة الجمعة سيدة الفرائض ، كما يوم الجمعة سيد الأيام وأعظم عند الله من

يوم الأضحى والفطر ، فإن له من سابق الفضل وواقعه ولاحقه عبر الزمن ما ليس لغيره من الأيام :

فإنه يوم جمع الله فيه الخلق بعد الأدوار الستة للخلق ، فالجمعة في هذا الأسبوع العالمي هو يوم الجمع العام ، كما أنها لغويا كثير الجمع ، ولذلك جعل عيد الإسلام الاسبوعي لأنه جماع الشرائع ، ولكثرة الجمع المفروض في فرضها.

ثم هو يوم خلق الله فيه آدم حيث أتمّ جمع روحه الى جسمه ، وفيه جمع له زوجته ، وفيه أسجد له ملائكته ، وفيه أدخله وزوجه جنته ، وفيه تاب الله عليه عن خطيئته ، وفيه أهبطه الى الأرض ، وفيه قال الله للنار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ، وفيه فدى الله إسماعيل بذبح عظيم ، وفيه كشف الله عن أيوب كربه ، وفيه استجاب الله ليعقوب دعاءه ، وفيه حملت السيدة مريم السيد المسيح ، وفيه خلق الله تعالى الأنبياء والأوصياء ، وفيه جمع الله تعالى لمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم أمره ، وفيه قام الإمام الحسين عليه السّلام قومته الثائرة ، وفيه يقوم القائم المهدي عليه السّلام ، وفيه ـ بين الظهر والعصر ـ تقوم القيامة الكبرى.

ليلتها غرّاء ، ويومها زاهر ، وليس على وجه الأرض يوم تغرب فيه الشمس أكثر معافى من النار منه ، يضاعف الله عز وجل فيه الحسنات ، ويمحو فيه السيئات ، ويرفع فيه الدرجات ، ويستجيب فيه الدعوات ، ويكشف فيه الكربات ، ويقضي فيه عظام الحاجات ، ما دعا الله فيه أحد من الناس وعرف حقه وحرمته إلا كان حتما على الله أن يجعله من عتقائه وطلقائه من النار ، فمن وافق منكم يوم الجمعة فلا يشتغلن بشيء غير العبادة ، كما وردت بذلك الأخبار عن الرسول الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمة الأطهار (عليهم السلام) [1].

ولأن صلاة الجمعة هي القمة في فرائض الله ، جعل وقتها هذا اليوم المبارك

---

(١) راجع البحار الجديد المجلد ٨٩ ص ٢٦٣ ـ ٢٨٦ ، فإن ما نقلناه متون الأحاديث مع زيادات شارحة.

الميمون ، طالما تكسب الجمعة من صلاة الجمعة فضلا عظيما على فضائلها.

ان فريضة الجمعة مؤتمر اسبوعي يهيئ الجو للمؤتمر العالمي السنوي ـ الحج ـ تجمع من المسلمين لأدائها والاستماع إلى خطبتيها السياسيتين الإسلاميتين آلافا من المسلمين العائشين في الدائرة التي تقام في مركزها الجمعة ، وقطرها على أقل تقدير (٢٢) كيلومترا.

الآيات الاولى في هذه السورة هي تقدمات وتهيئات لآيات فرض الجمعة ، فإنه ذكر الله الجامع مجامعه ، الحافل محامده ، ولذلك نرى مطلع السورة كيف يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من الكائنات كلها ، فإنها جمعة في تسبيح الله ، فلتكن الجمعة جمعة في ذكر الله وتسبيحه :

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ :

«يسبح» لمضارعتها توحي باستمرارية التسبيح لله من كائنات الأرض والسماوات ، والصفات الأربع هي كدعائم لهذا التسبيح الشامل :

فلأنه «الملك» : يملك الكائنات مدبرا لها ـ يسبّح ، فما كل ملك يسبح ، إنما «القدوس» الذي كله قداسة ونزاهة : ذاته وصفاته وأفعاله ، ولا كل ملك قدوس يسبح ، إنما «العزيز» الغالب على أمره ، فإن المغلوب على أمره قد يضطر لما لا يسبّح وينزه ، ولا كل ملك قدوس عزيز يسبح ، فقد لا يكون حكيما في ملكه وقدسه وعزته ، وإنما ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ : الذي هو حكيم في ملكه ، حكيم في قدسه ، حكيم في عزته ، فهو الذي تسبحه الكائنات وتنزهه ، ذاتا وصفات وأفعالا ، عن كل شين ورين ، تسبحه طوعا أو كرها ، فإن الكائنات بما هي مخلوقة ، إنها بألسنة الذوات والصفات تسبح خالقها من كل نقص وتفاوت ﴿ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ﴾.

هذا الإله العظيم يبعث لخلقه رسولا ، ترى كيف يكون هذا الرسول وهو البقية الباقية من رسالات الله واللامتناهية من رحمات الله :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ :

ترى من هم الأميون هنا ، والرسول منهم ومبعوث فيهم؟ أهم غير الذين أوتوا الكتاب من موحدين ومشركين وماديين ، فالكتابي ليس محط الدعوة الإسلامية؟ : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ﴾ (٢ : ٧٨) وهؤلاء الأميون من أهل الكتاب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، ومن سواهم الذين لم يؤتوا الكتاب ، هؤلاء وهؤلاء تشملهم الدعوة الإسلامية! : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ (٣ : ٢٠) استفهام تقرير لمن أسلم وإنكار على من لم يسلم ، فلا تخص الرسالة الإسلامية هؤلاء الأميين! أم هم العرب من ام القرى «مكة المكرمة» ولأنها سميت ام القرى :

﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى﴾؟ ولكنهم اللبنة الاولى في بناية هذه الدعوة ومنطلقها إلى من حولها : ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾ (٦ : ٩٣) : الجنة والناس أجمعون ، والمكلفون سواهم إن كانوا ، فإن «القرى» جمع محلى بلام الاستغراق تستغرق كافة القرى والمجتمعات ، فهي المكلفون أجمع ، المحتفون حول العاصمة الرسالية الام ، مهما كانوا بعيدين مكانا وان في السماوات ، فضلا عن هذه المعمورة الصغيرة :

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (٦ : ١٩) : من بلغه القرآن ، إنسانا وغير إنسان ، و ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (٧ : ١٥٨) ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ (٣٤ : ٢٨) لا تختصه بالناس ، وكما تدل ثنائية الخطابات في الرحمان ، ثم و «من بلغ» تعمها وسائر من يبلغه.

ف «الأميين» في آية الجمعة قد تعني المكلفين أجمع والرسول منهم ، لأنهم أجمع أميون بالنسبة للقرآن قبل نزوله ، كما الرسول كذلك : ﴿ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ﴾ (١١ : ٤٩) فقومه هم المرسل إليهم أجمع : طول العالم وعرضه! ثم وله خاصة وبأحرى لغيره : ﴿وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ (٤ : ١١٣) ﴿ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ﴾ (٤٢ : ٥٢) ﴿ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ

كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٩ : ٤٨).

ان الامية ـ وهي النسبة إلى الام ـ تعني الجهل واقعيا أو نسبيا ، واقعيا لمن يجهل كل شيء وحيا وسواه : أن ظل لا يعلم شيئا كما ولد من أمه : ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (١٦ : ٧٨) وهذه هي الامية المحضة.

ثم النسبية فهي درجات : ممن درس علوما غير كتابية ، فإنه أمي بالنسبة للوحي الكتابي مهما كان مثقفا في سواه ولأعلى درجات الثقافة ، فهو من الأميين وجاه الذين أوتوا الكتاب وإن لم يدرسوا ما درسه : ﴿قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾.

ومن أوتي الكتاب ولا يفهمه إلا أماني : ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ﴾ فهو أمي في علم الكتاب رغم أنه كتابي.

ومن أوتي الكتاب وعلمه ، ولكن لم يؤمن بالوحي الأخير «ام الكتاب : القرآن الكريم» فإنه أمي بالنسبة لعلم القرآن مهما كان عبقريا في سائر الوحي قبل القرآن ، وفي سائر العلوم سوى الوحي ، وهذه هي حالة المكلفين أجمع ومنهم الرسول الامي ، ومعه ملائكة الوحي وجبريل ، حالتهم قبل وحي القرآن : انهم كلهم أميون ، الموحدون منهم والمشركون.

فالرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم أمي كسائر الأميين بالنسبة للقرآن قبل وحيه ، إضافة إلى أنه لم يقرء على أي مقرئ ولم يكتب عند أي كاتب قبل نزول القرآن ، وإن كان موحدا يلهم بواسطة أفضل ملك من ملائكة الوحي ليلة ونهاره يرشده سبيل المكارم ويعلمه أحسن أخلاق العالم.

انه امي مبعوث في الأميين وهم كافة المكلفين في الطول التاريخي والعرض الجغرافي ، في السماوات والأرضين : ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها﴾!

ولئن كان الأميون في آية الجمعة هم أهالي ام القرى ، فهو رسول فيهم ، لا إليهم خاصة ، وإنما «فيهم» وهو رسول العالم أجمع ، لأنه ولد فيهم ، وانهم

محط الدعوة الاولى ومنطلقها إلى العالم أجمع.

ثم وبعد ان نزل عليه القرآن زالت أميته وأصبح أقرء القراء بما يقرء ام الكتاب حافظا له غير ناس ، معلما فيه للجنة والناس ، ومن اكتب الكتاب ، حيث الامية هذه خاصة بما قبل نزول القرآن : ﴿وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٢٩ : ٤٨) وأما بعده فأنت تتلو وتخط بما اوحى الله [١]! كما وزالت الامية ممن أرسل إليهم ، كل حسب وعيه ، فأهل القرآن درجات في علمه والإيمان به ، كما ان غيرهم دركات في أميتهم علما وإيمانا به.

ف «هو» الله «الذي بعث» : في الذين أماتتهم الجهالة الجهلاء ، وأرقدتهم عن النهوض بأعباء الحياة : «في الأميين» : العالمين أجمع ، ولقد كانت أميته عن أي علم اكثر من بعضهم كتابة وقراءة : وحي الكتاب وسواه ، أللهم إلا في معرفة الله وطاعته بإرشاد مباشر من ملك الوحي «رسولا منهم» في البشرية والامية ام ماذا : «يتلوا ..» : ثم المهمة من هذه الرسالة السامية في المرسل إليهم ثلاثية هي : تلاوة آيات الله ، وتزكيتهم ، وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وكما في دعوة إبراهيم عليه السّلام :

﴿رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (٢ : ١٢٩) ولذلك يقول الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (أنا دعوة أبي ابراهيم) ولقد سمع الله دعوته في

---

(١) بصائر الدرجات عن الامام الصادق (ع) : ان النبي (ص) كان يقرء ويكتب ويقرء ما لم يكتب وفي علل الشرائع عن الامام الباقر (ع) لقد كان رسول الله (ص) يقرء ويكتب باثنين وسبعين لسانا(نور الثقلين ٥ : ٣٢٢) أقول : يعني بعد وحي القرآن.

محمد واثني عشر إماما من عترته كما في التوراة [1].

وهل تتقدم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في الأهمية ، أو في واقع التربية؟ اختلاف الترتيب بينهما في الآيتين يوحي بعدم التقدم وهو الحق ، فإنهما معا يتساوران متعاونين في التربية الإسلامية ، دون أن تكون لكلّ مدرسة على حدة ، فالتزكية التي لا تحمل التعليم جاهلة دنسة ، والتعليم الذي لا يحمل التزكية جاهل دنس ، فرب عالم لا عقل له ، فالإسلام لا يريد علما بلا تزكّ ولا تقوى بلا علم ، فليس بإمكان المسلم أن يحلّق على المثل العليا إلا بجناحي العلم الحكيم والتقوى ، وكل منهما يساند الآخر ، كلما ازداد العلم والحكمة بآيات الله ازداد التزكي كالعكس تماما.

ثم التلاوة لا تعني القراءة اللفظية فحسب ، فإنها من الرسول المعلم المزكي قول بليغ في الأنفس : ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (٤ : ٦٣) ولا يبلغ القول الأنفس إلا إذا خرج من حاق النفس ، مازجا فطرة القائل وفكرته وعقله وأعماله ، وهذه هي التلاوة حقا ، وكما هي لغويا : المتابعة : ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحاها ، وَالْقَمَرِ إِذا تَلاها﴾ تلاها : تبعها ، فالرسول يتلو القرآن اتباعا له في كافة المجالات ، ويتلوه عليهم كما تلاه هو في نفسه ، اتّباعا له ، واتباعا لهم ، وهكذا تلاوة له عليهم تجعلهم علماء حلماء حكماء أزكياء ، إضافة إلى ما يعلّمهم ويزكيهم.

ثم تعليم الكتاب ـ القرآن ـ له درجات ، لفظيا وتعبيريا وفي إشاراته ولطائفه وحقائقه ، على حد قول الإمام علي عليه السّلام : (كتاب الله على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق ، فالعبارة للعوام ، والإشارة للخواص ، واللطائف للأولياء ، والحقائق للأنبياء) فقرينة الإشارة التي هي بعد

---

(١) سفر التكوين الفصل ١٧ ـ الآية ٢٠ ـ تجده بالنص العبراني في تفسير دعاء ابراهيم في البقرة.

المعنى تفسر العبارة ، بالمعنى الأولي الحرفي للآيات ، وقبله علم ألفاظها ، وبعده الثلاثة الاخرى ، الناتجة عن التأنق والتعمق والحكمة في نضد معانيها ونضج مواضيعها.

هكذا يعلمهم الكتاب ، كلّا حسب فهمه ووعيه ، و (يعلمهم) كذلك (الحكمة) : في علم الكتاب ، كيف يفسر بعضه ببعض ، والحكمة في هذه المعاني الحكيمة من الكتاب ، والحكمة العقلية ، والحكمة العلمية ، والحكمة الاخلاقية ، والحكمة العملية ، والحكمة النظرية ، والحكمة عن كل فصل يفصل الإنسان عن الصواب.

إن الحكمة هي الوصل الحكيم : كيفية خاصة في وصل المفصول ، توصل الإنسان إلى الغاية المطلوبة ، فمجرد علم الكتاب ، بألفاظه ومعاني آياته فرادى لا يغني ، إلا بحكمة في ترتيب آياته ، لكي تفسر بعضها بعضا ، وينطق بعضها على بعض ، فإن الفوضى في تفسير الآيات ، جهلا عن ارتباطاتها ، تخلق ارتباكات وتظهر تناقضات ، وكما نراها من الكثير ممن لا حكمة له في تفسير الكتاب ، فلا سبيل ناجحة في تفسير الكتاب إلا تمسكا بالكتاب ، بالحكمة التي علمنا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إياها : ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (٧ : ١٧٠) فمن الإفساد في الكتاب التمسك بغيره في تفسيره ، من أهواء ضالة ، وآراء فاسدة ، وأقاويل مبعثرة ، أللهم إلا الكتاب كأصل ، وما روي عن حملة الكتاب كفرع إذا وافقه كما تواتر عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (لقد كثرت عليّ الكذابة وستكثر فمن كذب عليّ متعمدا فليتبوء مقعده من النار فما جاءكم من حديث يوافق كتاب الله وسنتي فأنا قلته ، وما جاءكم من حديث يخالف كتاب الله ـ وسنتي ـ فلم أقله).

ان هذه الحكمة وسواها من الحكم هي كلها في القرآن ، وقليل من يعرفونها ف (ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال) أللهم إلا رجالات الوحي ومن يحذو حذوهم : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ

عَلَيْكُمْ وما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (٢ : ٢٣١).

نرى الكتاب والحكمة مقرونين في عشرات من الآيات ، مما تؤكد أن الكتاب المنفصل عن الحكمة فيه ، أو الحكمة في تفسير معانيه ، هذا الكتاب لا يكفي هدى ، بل وقد ينقلب ضلالا ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً﴾ (١٧ : ٨٢) والقرآن ﴿حِكْمَةٌ بالِغَةٌ﴾ (٥٤ : ٥) لكل فصل فيه تباب ، وبعد الحكمة في تفهم الكتاب يأتي دور الحكمة في سواها مما يتوجب على المسلم في صالح الحياة ، علمية وعملية وأخلاقية ، سياسية واقتصادية ، وكل ما تتطلبه الحياة الحكيمة السليمة كأفضل ما يمكن.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ : في الحق ليست التزكية إلا من الله : ﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ﴾ (٤ : ٤٩) إلا أنه لا يزكي إلا من تزكى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ (٩١ : ٩) ﴿خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (٢٠ : ٧٦) .. ولكنما التزكية من الله والتزكي من المكلفين لا يكونان إلا بوسيط وهو رسول الوحي ، إذ يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة فيزكيهم : تزكية للضمير والشعور ، تزكية للعمل والسلوك من الأساطير الغامضة الحمقاء ، إلى اليقين الواضح ، ومن رجس الفوضى الاخلاقية إلى طهارة الإيمان السليم ، تزكية للفرد والجماعة المسلمة سواء :

﴿وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ : فانه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد ، وهم من بعث فيهم وإليهم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم من الأميين ، لا ونفسه المقدسة ، فانه كان قبل القرآن مسترشدا بأعظم ملك من ملائكة الله ، منذ كان فطيما ، إلى أن اهتدى بهدي القرآن.

فمهما كان ضلالهم مبينا ، كان هداه صلّى الله عليه وآله وسلّم مبينا لحد سمي بمحمد الأمين ، وإن كان ضالا عن هدي القرآن قبل وحيه ، ولكنه لم يكن ضلالا عن أصل الحق ، وإنما عن كمال الحق وتمامه ، والأنبياء كلهم ـ على هداهم ـ كانوا ضالين عن وحي الكتاب قبل قضاءه ، فضلالهم هذا أهدى من هدى من سواهم ، فان كلا درجات.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ الأميين ﴿آياتِهِ﴾ .. ويتلوا على ﴿آخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ، كما ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بعثه صلّى الله عليه وآله وسلّم فيهم ، وإن جاءوا بعده ، حيث البعثة ابتدأت به ، ثم استمرت بحملة رسالته [١].

فمهما كانت تلاوته وتعليمه وتزكيته مدى حياته بنفسه القديسة ، اصالة ، وبوكلاءه وكالة ، فهذه المهمة الإسلامية الخالدة يحملها أولوا الفضل والعلم بعده والى يوم القيامة الكبرى ، دون وقفة عن هذه المسيرة الفاضلة ، فمن حمّلها ولم يحملها فمثله كمثل الحمار يحمل أسفارا وأولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ. إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٢ : ١٦٠).

ان أئمة الدين ـ المعصومين ـ والعلماء الربانيين ، هم ـ على درجاتهم ـ خلفاء الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذه المهمة الثلاثية الإسلامية ، فمن يتركها ولم يفعل ذلك يلق أثاما ، ويلاقي ربه مهانا.

﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ لحوقا في الامية وفي التكليف كما هم ، وفي الزمن وهم الجنة والناس أجمعون الى يوم يبعثون ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما يعرقل السير عن هذه المسيرة ﴿الْحَكِيمُ﴾ في غلبه وفي إتقان هذا الكتاب والحكمة والتزكية لحد تشمل طول العالم وعرضه [٢].

---

(١) ف «آخرين» عطف على كلا «بعث» و «يتلو».

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢١٥ ـ أخرج الطبراني وابن مردويه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله (ص) : ان في أصلاب وأصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالا ونساء يدخلون الجنة بغير حساب ثم قرء ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أقول هؤلاء من الآخرين وليسوا كلهم ، فالأميون كما قلناه هم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين ، وإنما ذكرهم الرسول بغية ترغيب أصحابه.

ومن ثم فهذه الرسالة السامية الخالدة من نسل إسماعيل أورثت ضغينة وشكيمة في إسرائيل الذين كانوا ينتظرون النبي الموعود ، مؤولين بشاراته بنبيّ إسرائيلي ، ظانين ان فضل الله يختصهم ، لا يتخطاهم الى سواهم ، رغم ان الله تعالى أنذرهم في التوراة بزوال النبوة عن بيت إسرائيل ، واستقراره في محمد الاسماعيلي ، وقد كادوا له مكائد ، وتربصوا به دوائر ومن مكائدهم : ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٣ : ٧٤) :

﴿ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ :

«ذلك» الرحمة التامة البعيدة المحتد والمدى «فضل الله» : كل فضله الممكن ايتائه للخلق ، فلم يقل (من فضل الله) حتى يفيد التبعيض ، ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ وقد شاءه لمحمد وسائر الأميين ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ على محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمين برسالته العالمية.

انهم ظنوا متجاهلين ، خلود النبوة في إسرائيل ، وضنوا عن انتقالها الى إسماعيل ، كأنهم المقتسمون فضل الله ، المختصون بأفضله لأنفسهم! وقد خاب أملهم كما خاب عملهم :

ففي التوراة (التكوين ٤٩ : ١٠) (لا تنهض عصى السلطنة من يهودا ولا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم).

والأنبياء الاسرائيليون كلهم من نسل يهودا ، فليكن شيلوه غير إسرائيلي ، فان به تنهض عصى السلطنة من يهودا [1].

---

(١) راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) ص ٢٣ ـ ٣٢ ـ ففيه تفاصيل الآيات الدالة على انتقال الشريعة من إسرائيل إلى غيره.

وفي (التثنية ١٨ : ٧) حسب الأصل العبراني (نابىء آقيم لا هم مقرب إحيحم كموشه وناتتّي دباري بفيو ويدبر إلوهيم إت كال أشر أصّونو).

(نبي أقيم لهم من أقرباء أخيهم وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به).

ف (أخيهم) هم ـ حسب نص التوراة [1] ـ بنو عيص أخو إسرائيل ، وأقرباء بني عيص هم بنو إسماعيل ، لمصاهرة بين عيص وإسماعيل ، وقد بعث محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم من بني إسماعيل ، وكما تؤيده آيات أخرى [2].

وقد صرحت باسمه الآية التوراتية التي تحمل إجابة دعوة ابراهيم في إسماعيل كما في الأصل العبراني.

(وليشمعيل شميعتيخا هينّه برختي أوتو وهيفرتي أوتو وهيربتي أوتو بمئد مئد شنم عاسار نسيئيم ونتتيّوا لغوي غادل).

(ولإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها أنا أباركه كثيرا وأنمّيه وأثمره كثيرا وأرفع مقامه كثيرا بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم واثني عشر اماما يلدهم إسماعيل وأجعله امة كبيرة) [3].

فما أحمق المحمّلين التوراة ، التاركين المؤولين لها ، الماحقين بشاراتها ، التاركين شريعتها :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ :

بنو إسرائيل هم ﴿حُمِّلُوا التَّوْراةَ﴾ : تكليفا بهذه الأمانة الإلهية ، حفظا

---

(١) وأمر القوم وقل لهم انكم لحد إخوانكم بني عيص .. (تثنية ٢٨ : ٨).

(٢) راجع (رسول الإسلام) ٣٣ ـ ٤٠).

(٣) المصدر ص ٤٠ ـ ٤٣.

وعلما وعملا ونشرا ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها﴾ : ضيّعوا هذه الأمانة وخانوها إذ لم يحفظوها ، حيث حرفوها ولا سيما بشاراتها بحق النبي الإسماعيلي ، ولم يتعلموها ، أو تجاهلوا عما علموا منها ، ولم يعملوا بها ولا نشروها سليمة ، وهذا تكذيب شامل بآيات الله وظلم فاحش بحقها.

فمثل هؤلاء الخونة الظالمين كمثل الحمار يحمل أسفارا : كتبا سافرة ظاهرة مسفرة عن الحقائق دون ستار ، كما أن كتب السماء كذلك كلها ، ولكنه حمار سافر لا يفهم ماذا يحمل مهما كان سافرا ظاهرا ، فلا يدرك من حمل الأسفار إلا حملا ، وأما هم فكان بإمكانهم تفهّم ما حمّلوه ، وحمله كما أمروا ، فهم أضلّ سبيلا من الحمار ، ضلالا عامدا عن تقصير ، مهما كان ضلال الحمار عفويا عن قصور ، فالإنسان الحمار يحمل حمل الأسفار على ظهره كزميله الحمار ، والإنسان الإنسان يحملها في قلبه وقالبه وعمل الواقع ، فأين حمل من حمل ، وأين حمار من حمار؟! ومن ميزات هذا الحمار عن زميله أنه ذلول سلس القياد ، لين الانقياد ، يوصل حمله إلى ذويه ، والحمر الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها ، حرّفوها وخانوها شرسين شمسين ، وغيّروها كما اشتهوا ، وشروا بها ثمنا قليلا.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أيّ قوم كانوا ، هودا أو نصارى أو مسلمين ، وكلما كانت الآيات المحمّلة أعظم وأرقى ، فتاركوا حملها أظلم وأطغى ، إذا ـ فمثل الذين حمّلوا القرآن ثم لم يحملوه كمثل الحمار وأضلّ منه مضاعفات بمئات المئات ، مدى أفضلية القرآن من التوراة ، فليس مجرد الانتساب بكتاب وشريعة بالذي يفضل منتسبيه على غيرهم ، اللهم إلا بحمله كما حمّلوا.

ومن ضلالات اليهود أنهم ـ على تكذيبهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وبغيهم وظلمهم كثيرا ـ كانوا ولا يزالون يزعمونهم ﴿أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ : شعب الله المختار :

﴿قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ :

إنها مباهلة باهل بها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم اليهود فنكلوا عنها خوف نكال الموت الذي بعده العذاب ، ولم يقبلوا التحدي فيها ، كما نكل نصارى نجران ، ويروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : (لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار) فلو لم تكن هذه مباهلة لتمنوا الموت ليكذبوا كلام الله : أنهم ليسوا من أولياء الله ، ولكنهم ما فعلوا.

﴿الَّذِينَ هادُوا﴾ : لقد ذكروا بهذه الصيغة في آيات عشر ، وسموا أنفسهم هودا متفاخرين : ﴿وَقالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى﴾ (٢ : ١١١) ﴿وَقالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا﴾ (٢ : ١٣٥) وسمّوا أيضا يهودا : ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (٥ : ١٨).

والهود هو الميل ، سمّوا أنفسهم هودا إذ مالوا عن عبادة العجل إلى الله ، ولكنهم في الحق مائلون عن الله كما تشهد بذلك حياتهم ، و ﴿الَّذِينَ هادُوا﴾ عله تعريض لهم أنهم لو كانوا مائلين إلى الله فلما ذا هذا الميل البعيد إلى غير الله؟ ومن خلاله تعريض أنهم في الحق مائلون عن الله لا إليه! وهكذا يعنى من «هادوا» فيما يسميهم الله.

﴿إِنْ زَعَمْتُمْ﴾ فطالما يتقولون هذه القولة الجاهلة الجوفاء ، لكنها لا تتخطى الزعم ، وزعمهم كذلك داحض بهذه المباهلة التي هادوا عنها محيدا بعيدا.

﴿أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ : ولاية تخصهم دون سواهم ، فهم أولياؤه وأبناؤه وشعبه المختار ، فلو صحّت هذه المزعمة فلتحبوا لقاء الله ، والانتقال إلى دار كرامة الله ورحمته عن هذه الفانية الزهيدة الظالمة الفاتكة! ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ في زعمكم هذا ، تمنيا في أعماق الضمائر

كمبدء ، وكبداية للحياة ، إن كنتم صادقين في ولايتكم ، فإن الموت سبب للقاء مولاكم!.

﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ :

لا يتمنون الموت أبدا ، خوفا مما فرط منهم من الطالحات ، وما انفرط عنهم من الصالحات ، وتنسب الأفعال إلى الأيدي لغلبة الأيدي عليها ، وإن كان فيها ما يعمل بالقلب واللسان ، وسواهما من جوارح الإنسان.

وهذه الأبدية المنفية عنهم هي من ملاحم الغيب القرآنية ، فمن ناحية تثبت صدق القرآن ، ومن ناحية اخرى كذب الذين هادوا في زعمهم المدعى ، فلا وحسب أنهم لا يتمنون الموت ، بل ومن أمنياتهم البعيدة خلود الحياة لكي يزحزحهم عن العذاب : ﴿قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ. وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ (٢ : ٩٦) ، فهم أحرص الناس على حياة بئيسة تعيسة وأحرص من المشركين ، فإنهم ناكروا الحياة الحساب ، واليهود يقرّون بها ، فخوفهم من الموت أكثر من المشركين ، فحرصهم على حياة أشد من المشركين! أية حياة كانت كما يوحي بها تنكير الحياة «حياة».

وطالما هم يفرّون من الموت إلى الحياة ، ولكن الموت لاقيهم لا محالة : ف (كل امرئ لاق في فراره ما منه يفرّ ، والأجل مساق النفس إليه ، والهرب منه موافاته) [1] :

---

(١) القمي في تفسيره عن أمير المؤمنين (ع).

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ :

أنتم تفرّون منه وهو راكض وراءكم ، وهو أسرع ركضا مهما أسرعتم فرارا ﴿فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾ لقاء مثلثا : ثالثها الموت إلى الحياة البرزخية ، ومن ثمّ بعد الموت ، وبعد انقضاء الحياة البرزخية ﴿تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ﴾ غيب النيّات وغيب الطويّات ﴿وَالشَّهادَةِ﴾ والكون كله له شهادة ، لا يغيب عنه غائبة : تردّون إلى الله مولاكم الحق ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ علما وجزاء ﴿بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإنها لفتة لطيفة تلفت الفالتين عن الله أن مردّهم لا محالة إلى الله ، فلا ملجأ إلا إليه ، ولا مهرب عنه إلا إليه ، حقيقة يتناساها الناس ، فيتذكرها من سوى النسناس.

ثم لقاءان آخران أحدهما لزام كل أحد ، فإن الإنسان ـ أيا كان ـ هو كل يوم في نقصان من الحياة ، وزيادة من بواعث الموت ، يلاقيه طول حياته ، ولقاء آخر هو موت الروح والضمير الإنساني ، وهو لزام من يفرّ من الموت الثالث بما قدمت يداه ، يفرّ من موت هو يعيشه طول حياته الشرّيرة [1] ، والفرق بين الموتين أن أحدهما في عاجل التكليف ، والآخر في آجل الجزاء.

وهل إن تمني الموت من صالحات التمنيات ، فليعرّض وليّ الله نفسه للموت بغية لقاء الله؟ وإلا فهو من أعداء الله! أقول : نعم وكلا!.

نعم : في الموت الذي يأتي ببواعثه الخارجة عن خيرة الإنسان بإذن الله ، أجلا محتوما ، أم معلقا على ما ليس له فيه عمل ولا أمل ، يتمناه المؤمن تمنيا للقاء الله ، وكما يروى عن علي عليه السلام : (والله لابن أبي طالب آنس بالموت من

---

(١) هذا التوسع مستفاد من «ملاقيكم» الدال بصيغة الفاعل على الاستمرار ، لا «يلاقيكم» الدالة على المستقبل.

الطفل بثدي أمه) فهو يأنس الموت أنسه بألذ الحياة فإن فيه لقاء الله ، ولكنما الفاسق لا يتمنى هكذا موت ، لأنه له لقاء عذاب الله!.

وكلا : في الموت الذي يأتيه باختياره إياه فالمؤمن لا يتمناه. اللهم إلا في الدفاع والجهاد في سبيل الله. إذ يأمل أن يسعى ويعمل من الصالحات أكثر مما مضى ، حتى تزيده درجات ، فيلاقي ربه عند موته بنفس مطمئنة راضية مرضية ، داخلة في عباد الله وفي جنة الله. والفاسق لا يتمناه خوفا من استعجال عذاب الله ، أو رجاء أن يعمل صالحا فيما ترك ، ويترك ويجبر طالحا فيما فعل ، للفساق الذين يرجى رجوعهم إلى الله.

وأما الذين هادوا فلن يتمنوه أبدا ، لا هذا ولا ذاك ، وإنما يفرّون منه ، معلقه ومحتومه ، فرارا بما قدمت أيديهم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ :

الآيات المسبقة بعمومها في تسبيح الله ، وشمول الرسالة المحمدية ، والتنديد بمن حمّل الشريعة ثم لم يحملها ، إنها تقدمات وتنبيهات لفريضة الجمعة ، أنها جامعة شاملة للمكلفين أجمع من تواجد زمن الوحي ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، إلا المعذورين. الى يوم الدين.

تبدء الآية بخطاب شامل للذين آمنوا بهذه الرسالة. أجمع. اللهم إلا من لم يؤمن ، فكيف يخاطب بما هو من فروع وملازمات الإيمان؟!.

وفي هذه البداية تنبيهات ثلاث : «يا» «أيّ» «ها» ولينتبه المؤمنون في مثلث التنبيه مدى أهمية هذه الفريضة الإلهية.

و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم المؤمنون كافة ، وجاه الكافرين كافة ، المؤمنون في كل عصر ومصر ، طول العالم وعرضه ، من الجنة والناس أجمعين ، ومن معهم من

المكلفين ، وإلى يوم الدين ، فالسعي إلى فريضة الجمعة هو من لوازم الإيمان ، وكما في خطبة لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم الجمعة : (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه بالجمعة : يوم الجمعة) [١].

كما وأن هذا الشمول هو من طبيعة الفرائض الإسلامية. ف (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة ، وحرامه حرام إلى يوم القيامة) ، ثم لا توجد أية حجة تختص فريضة الجمعة بالمؤمنين زمن حضور المعصومين ، ولو كانت لضربت عرض الحائط لمخالفتها الكتاب والسنّة الثابتة ، ومنها ما رواه الفريقان عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه خطب لأول جمعة أقامها في المدينة المنورة فقال : (إن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا ، في يومي هذا ، في شهري هذا ، في عامي هذا ، إلى يوم القيامة ، فمن تركها استخفافا بها ، أو جحودا لها ، فلا جمع الله له شمله ، ولا بارك له في أمره ، ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صيام له ، ألا ولا برّ له ، ألا ولا بركة له حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه) [٢]. ولم يستثن ـ في من استثني ـ المؤمنون زمن غيبة الإمام المعصوم رغم استثناء المجنون والصغير اللذين لم يشملهما قلم التكليف [٣].

---

(١) بحار الأنوار ج ٨٩ ص ٢١١ نقلا عن شرح النهج لابن أبي الحديد.

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣١٨ ، وسائل الشيعة ج ٣ ص ٧ ح ٢٨ ، وعوالي اللآلي عنه (ص) مثله ، والشيخ أبو الفتوح الرازي في تفسيره عن جابر عنه (ص) ، ورواه الشهيد الثاني في رسالة الجمعة ، وفي سنن ابن ماجة ج ١ ص ٤٣٣ باب فرض الجمعة. وروى القطب الراوندي في لب الألباب أن النبي (ص) خطب يوم الجمعة وقال فيها : واعلموا أن الله فرض عليكم الجمعة إلى يوم القيامة ...

(٣) ففي الخصال وغيره بأصح الأسناد عن أبي جعفر الباقر (ع) قال : إنما فرض الله عز وجل من الجمعة إلى الجمعة خمسا وثلاثين صلاة فيها صلاة واحدة فرضها الله في جماعة وهي الجمعة ووضعها عن تسعة : عن الصغير والكبير والمجنون والمسافر والعبد والمرأة والمريض والأعمى ومن كان على رأس فرسخين ـ الحديث.

﴿إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ : فما هي الصلاة من يوم الجمعة والنداء لها؟

هل إنها صلاة غير فريضة الظهر أو الجمعة؟ ولا نعرف إسلاميا صلاة أخرى غيرهما يوم الجمعة ، فهي إذا بينهما ، فهل هي الظهر؟ ولا يختص فرضها بيوم الجمعة ، ولا يجب الاجتماع فيها بنداء أو غير نداء! إذا فهي صلاة الجمعة ، كل ذلك إضافة إلى الإجماع والضرورة أن آية الجمعة نزلت بشأن صلاة الجمعة ، وكما يؤيده متواتر السنة من طريق الفريقين عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وعن آله الكرام عليهم السلام.

وأما النداء لها ـ فهل هي القول : (الصلاة)؟ وليست إلا لصلاة الأموات والعيدين! أو (إلى صلاة الجمعة)؟ ولا نعرف إسلاميا نداء كهذه لصلاة الجمعة ، ولم تسبق من أئمة الجمعات هكذا نداء!.

أو أنها إقامتها كما عن بعض المتفقهين المشترطين في وجوب الحضور لها إقامتها بشروطها؟ ثم يأتي دور البحث عن المقيم لها ، هل هو المعصوم؟ أم والمأذون من قبله خاصا؟ أم العدول القادرون على إلقاء الخطبتين؟ وكل هذه الترديدات في : المقيم لها ، نابعة من مجهولية الفاعل ﴿إِذا نُودِيَ﴾ فعلّه المعصومون لا سواهم ، أو علّهم والمأذونون أم ماذا؟.

وهذه الاحتمالات المسلسلة غريبة في نوعها من الحلقة الاولى : ﴿إِذا نُودِيَ﴾ أي : إذا أقيمت! وليست إقامتها نداء لها ، وإنما هي تطبيق لفرضها ، والنداء لشيء غير المنادى له بالضرورة ، فهل تقام الجمعة نداء لنفسها ، تحصيلا للحاصل! إضافة إلى أن شرط إقامتها لوجوب حضورها خلاف الضرورة : فإن الجمعة كانت منذ بزوغها واجبة دون هذا الشرط ، قبل نزول الآية وبعدها ، فكيف

ـ أقول : لو كان حضور المعصوم أو إذنه من شروط الجمعة لكان يذكر هنا ، والحديث في مقام بيان كافة الشروط ، ويؤكده ذكر الصغير والمجنون غير المكلفين ، فالذي لا يحضر الجمعة لا يخلو حاله عن الصغر أو الكبر أو الجنون أو السفر أو أنه مملوك لغيره أو امرأة أو مريض أو أعمى أو هو على رأس فرسخين ، ثم لا يوجد استثناء بعدها عن فرض الجمعة إطلاقا.

دخل زمن الغيبة فأصبحت الجمعة مشروطة بإقامتها بعد إطلاقها؟! إذا ف «إذا» هذه ليست شرطية ينتفي جزاؤها بانتفاء فعلها ، إنما وقتية توحي بأن صلاتها يوم الجمعة تفرض عند الأذان ، ولا صلاة هكذا إلا صلاة الجمعة.

ثم لو كانت هي إقامتها ، فمجهولية المقيم لها في «نودي» تجهّل وتسفّه المترددين في : من يقيمها؟ فلو كانوا أشخاصا خصوصا لأشير إليهم ، فالفعل المجهول هنا علامة الإطلاق ، وأن المقيم لا شرط فيه ، اللهم إلا الشرط العام لأئمة الجماعات : (العدالة) إضافة إلى الخاص بالجمعة : (القدرة على الخطبتين).

أقول : إنما النداء هنا كما في غيرها من الصلوات اليومية هي : الأذان ، ولا نعرف إسلاميا نداء للصلوات سواه إلا للعيدين والأموات ، فهو نداء حقا ، ولمكان الحيعلات الثلاث ، التي تحيّي وتحرّض المسلمين لحضور الصلاة وإقامتها ، وبالضرورة الإسلامية لم يعهد نداء لصلاة الجمعة غير الأذان ، وضرورة اخرى ان الأذان ليس شرطا لوجوب الصلاة.

ولكي يخفق الكفار هذا الصوت المدوي العالي من على المآذن ـ كانوا ولا يزالون ـ يتخذونه هزوا ولعبا ، (وَإِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَلَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ) (٥ : ٥٨) وقد أطبق المفسرون على أنها الأذان ، يتخذه الكفار هزوا ولعبا إهانة لها وللصلاة ، ومهانة في تصميم المسلمين لها.

فآيتا النداء ـ إضافة إلى إجماع المفسرين والروايات ـ تدلاننا أن ليس النداء هنا إلا الأذان المؤذن لوقت فريضة الجمعة عند الزوال ، فهل إن الأذان شرط لوجوب السعي إلى صلاة الجمعة لمن يسمعه؟ أم الشرط هو واقع الأذان ، وإن لم يسمعه ، إذا علم بدخول الوقت؟ أم الشرط هنا ليس إلا دخول الوقت ، وليس الأذان إلا إيذانا له ، سواء أكان بنية فريضة الجمعة أو سواها؟ ف «إذا نودي» لا يعني إلا حلول الوقت المعلوم بالأذان غالبا ، إذ لم تكن الشواخص وقتئذ منصوبة في كل مكان ، ولا أية وسيلة اخرى تؤذنهم بحلول الوقت إلا الأذان ، والجاهل بالوقت لا يكلف بالفريضة الوقتية ، ولا أظن فقيها يظن أن واقع الأذان أو سماعه أو نية كونه للجمعة ، شرط لوجوبها ، فلم يقل «إذا نودي

لصلاة الجمعة» ولكي لا تختص النداء بها ، نية أو هيئة خاصة للنداء ، وإنما نداء للصلاة ، الكائنة يوم الجمعة : أذانا للإيذان بدخول وقتها ، وقد اتفق عليه الجمهور (١) وإلا الشاذ منا.

فلا يعقل أن يفرض الله تعالى فريضة هامة كهذه ، شرط خيرة المكلفين ، فإن أذّنوا وجبت وإلا فلا! فضلا عن نية الجمعة في الأذان ، فكيف يعرفها السامعون؟!.

ثم المؤمنون المخاطبون بالسعي هم الأئمة والمأمومون أجمع ، ف «إذا نودي» : أذّن : دخل الوقت ، فليسع الأئمة لإقامة الجمعة ، وليسع الباقون لحضورها؟ فعلى الأئمة جمع المأمومين ورعايتهم في أداء فرض الجمعة ، كما عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيّته ، الإمام راع ومسئول عن رعيّته ...) (٢).

فليس وجوب الجمعة مشروطا بأيّ من شروط : إقامتها ، أو نداء خاص لها ، ولا الأذان ولا الاجتماع ، وإنما بدخول وقتها ، فيجب السعي إليها على المؤمنين أجمع ـ أئمة ومأمومين ـ إلا المعذورين كما يأتي.

فهنا نداءان لفريضة الجمعة ، إلهي هو نداء الله ، وبشري هو الأذان

---

(١) فتح الباري ٣ : ٣٦ ـ وقال عطاء : إذا كنت في قرية جامعة فنودي للصلاة من يوم الجمعة فحق عليك أن تشهدها ، سمعت النداء أو لم تسمعه ، وقال : وبهذا صرح أحمد ونقل النووي انه لا خلاف فيه.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري ٣ : ٣١ ـ عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته).

للتحريض لها والإيذان بدخول وقتها ، ومن أسخف الأقاويل إناطة الفرض في الاولى بالثانية ، أصالة نداء المؤمنين وفرعية نداء الله!.

فواجب السعي إلى فريضة الجمعة ـ إقامة وحضورا ـ لا يناط إلا بحلول وقتها : ولماذا لم يقل «إذا نودي لصلاة الجمعة»؟ إذ ليست لها نداء خاص! ولماذا لم يقل «للصلاة في يوم الجمعة»؟ لأن «يوم» ظرف يفيد ما تفيده «في»! ولكن «من» هنا ، لها موقعها : فهل انها تبعيضية ، أو بيانية ، أو نشوية ، أو اختصاصية؟ .. ثم الظرف : «من يوم الجمعة» هل هو مستقر يتعلق ب «نودي» أم لغو ب (كائن) المقدر؟ احتمالات تتحملها الآية ، إلا ما تجعل الصلاة بعضا ليوم الجمعة ، ولا تباعض بين الفعل والزمان! أو ما تختص النداء بصلاة الجمعة ، ولا نداء يختصها!.

ثم بقية الاحتمالات تحرّر النداء إلا عن كونها أذانا كائنا يوم الجمعة ، وتحرر صلاتها إلا أن تكون بنية الجمعة ولها كالتالي :

«إذا نودي للصلاة ـ نداء بعض يوم الجمعة : ظهرا ، لا كل نداء لصلواتها كلها ، أو نداء يوم الجمعة : أن تكون «من» بيانا لموقع النداء ، أو نداء ناشئة يوم الجمعة ، للصلاة الكائنة للجمعة ، الناشئة للجمعة».

نداء محررة إلا عن وقتها الخاص (ظهر الجمعة) ، وصلاة محررة إلا عن كونها صلاة الجمعة.

إذا فلا صلاة ظهرا يوم الجمعة إلا صلاة الجمعة ، هي ركعتان بعد خطبتين مع شرائطها ، وهي هي أربع ركعات كصلاة الظهر لو لا الشرائط أو إمكانيتها ، يجهر في الأوليين كما في ركعتي الجمعة ، بنيّة الجمعة لا الظهر ، وكما في المعتبرة

المستفيضة [1].

إذا فالنداء : الأذان ـ الكائن ظهر الجمعة ، هي نداء لصلاة الجمعة على أية حال ، نويت أم لا ، نودي لها بغير الأذان أم لا ، إلا أن السعي إلا ذكر الله فيها ، والاجتماع فيه ، ليس إلا عند اجتماع الشرائط : عددا ومسافة ، وعدالة للإمام ، وقدرة على إلقاء الخطبة ، ثم ما دونها هراء مختلق كاشتراط حضور المعصوم أو إذنه الخاص ، فلا أثر له إسلاميا عندنا.

وعند فقد الشرائط أو بعضها فأربع ركعات ، بنيّة الجمعة أيضا كما سبق.

﴿فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ : فما هو السعي هنا؟ وما هو ذكر الله؟.

السعي هو عدو دون شدّ ، وعمل مقصود مهتم به ، وهو العمل الذي يؤتى به على همامة وعناية ، سواء أكان في إصلاح : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ (٢١ : ٩٤) أو كان في خراب : ﴿وَسَعى فِي خَرابِها﴾ (٢ : ١١٤) أي : المساجد.

فالسعي إلى الجمعة ـ خطبة وصلاة ، إقامة وحضورا ـ هو القصد والعناية الخاصة لها ، دون أن يشغل الإنسان عنها أيّ شاغل دنيوي أو أخروي ، أن يعدّ لها عدتها ، فيستعد ، دون إهمال ولا إمهال ، فتكون هي بين أشغاله كلها أصلا يقصد ، فيسعى في إزالة الموانع عنها ، وفي كمال الاستعداد لها ، فلا يسافر يومها [2] ، ولا يتعب نفسه بما يضعفها عنها ، بشرب دواء أو

---

(١) منها موثقة سماعة قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن الصلاة يوم الجمعة ، فقال : أما مع الامام فركعتان ، وأما من يصلي وحده فهي أربع ركعات بمنزلة الظهر(وسائل الشيعة ج ٣ ص ١٣ ـ ١٤) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

(٢) ففي المغني ج ٢ ص ٣٦٢ عن النبي (ص) : من سافر من دار إقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة لا يصحب في سفره ولا يعان على حاجته ، وفي وسائل الشيعة ج ١٨ ص ٧٣١ والمستدرك ب ٤٤ من صلاة يوم الجمعة مثله.

صوم أو حجامة [1] أو سواها ، ولا يشغلها بما يؤجلها ، بل يعجل فيها قاصدا لها بهمام بالغ ، وقلب فارغ عن سواها.

والسعي إلى الجمعة درجات ، كما التكاسل عنها دركات ، فلكلّ سعي لها حسب ظروفه ومكانه وزمانه وإمكانه ، وقد يحسب الإعداد لها قبل يومها ، كما وأن أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كانوا يتجهزون للجمعة يوم الخميس لأنه يوم مضيق على المسلمين [2] ، وقد لا يجب إلا وقتها كمن حضرها ، أم هو جار لها قريبا إياها.

فواجب السعي تأكيد لوجوب الجمعة ، وتحصيل مقدماتها ، وإزالة موانعها دون اختصاص بالعدو أو الركض إليها.

ثم السعي هنا ـ كما أسلفناه ـ لا يخص المأمومين أن يحضروها ، بل يعمّ كافة المؤمنين غير المعذورين ، أئمة ومأمومين ، فعلى كلّ أن يسعى سعيه ، فالإمام يحضّر حاله لإقامتها ، ويحرّض المؤمنين لحضورها ، والمأموم يستعد لحضورها ، ويعدّ غيره لها ، فتحصيل العدد (خمسة أو سبعة) هو أيضا داخل في نطاق السعي ، كما وأن تحريض من سوى العدد واجب ثان.

---

(١) وسائل الشيعة ج ٣ ص ٤٧ عن علي (ع) : لا يشرب أحدكم الدواء يوم الخميس ، فقيل يا أمير المؤمنين! ولم ذلك؟ قال : لئلا يضعف عن إتيان الجمعة.

ونهى النبي (ص) عن صوم يوم الجمعة (صحيح البخاري صوم ٦٣ ـ مسلم صيام ١٤٥ ـ ١٤٦ ، سنن ابن ماجة صيام ٣٧ ، ترمذي صوم ٣٩) وكذلك نهى عن الحلق قبل صلاة الجمعة (سنن أبي داود صلاة ٢١٤ ـ ابن ماجة إقامة ٩٦) ، وعنه (ص): «اجتنبوا الحجامة يوم الجمعة» (سنن ابن ماجة طب ٢٢).

(٢) وسائل الشيعة ج ٣ ص ٤٦ عن الامام الباقر (ع) : (والله لقد بلغني أن أصحاب النبي «ص» ...)

فعلى الأئمة والمأمومين التواصي بحق صلاة الجمعة ، فلو تكاسل الإمام عنها ، وجب على المأمومين السعي في دفعه إليها ، ولو تكاسل واجب العدد من المأمومين أو الزائد عليه ، فعلى الإمام السعي في دفعهم إليها ، تعاونا في هذا البر العظيم والتقوى الهامة من المؤمنين أجمع.

وما يزعم دلالته على اشتراط حضور المعصوم بين ضعيف مخالف للكتاب والسنة المتواترة ، التي أنهيت إلى مائتي حديث [1] وبين ما لا يدلّ عليه أبدا [2] ويعترف الفقهاء غير القائلين بالوجوب التعييني بقطعية دلالة الكتاب والسنة عليه ، وإنما ذهبوا إلى التخيير جمعا بينهما وبين الإجماعات المنقولة ، وهذا غريب من نوعه ، فإنه خروج عن الكتاب والسنة وعن الإجماعات المزعومة [3].

﴿إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ : وهل إنه ركعتا الجمعة فحسب؟ لأن الصلاة أفضل الذكر ،

---

(١) المولى محمد تقي المجلسي والد صاحب البحار في رسالة الجمعة : «فصار مجموع الأخبار الدالة على الوجوب مائتي حديث ، والذي يدل على الوجوب بصريحه من الصحاح والحسان والموثقات وغيرها أربعون حديثا ، والذي يدل على المشروعية في الجملة تسعون حديثا ، والذي يدل بعمومه على وجوب الجمعة وفضلها عشرون حديثا ، والذي يدل على عدم اشتراط الاذن بظاهره ستة عشر حديثا.

(٢) منها ما يروى عنهم (ع) : (لنا الخمس ولنا الأنفال ولنا الجمعة ولنا صفو المال) وقد جمع فيها ضعف السند والدلالة ، فلو أن (لنا) تختص الجمعة بهم ، فالخمس إذا خاص بهم أيضا ، فهل يلتزم به هؤلاء الناكرون لوجوب الجمعة زمن الغيبة؟. ثم وما يذكر فيه الامام يعنى به إمام الجمعة لا الامام المعصوم ، ففي صحيحة زرارة (قال قلت لأبي جعفر (ع) : على من تجب الجمعة؟ قال : تجب على سبعة نفر من المسلمين ، ولا جمعة لأقل من خمسة أحدهم الامام ، فإذا اجتمع سبعة ولم يخافوا أمهم بعضهم وخطبهم) (الوسائل ج ٣ ص ٨ ح ٤) ، فقد أهمل البعض الذي يؤمهم هنا تدليلا على عدم اشتراط العصمة ، وكما في صحيحة فضل بن عبد الملك قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : (إذا كان قوم في قرية صلوا الجمعة أربع ركعات فإن كان من يخطب لهم جمعوا إذا كانوا خمس نفرات) (المصدر ص ٨ ح ٦).

(٣) كما في الجواهر أن أحدا لا يشك في دلالة الكتاب والسنة القطعية على وجوب الجمعة ، وإنما الذي يحملنا على القول بالتخيير وجود الإجماعات المنقولة على حرمتها زمن الغيبة ، والجمع بينهما يقضي بالتخيير بينها وبين الظهر. أقول : وهذا رفض للكتاب والسنة والإجماعات جميعا ، مع أن معارضة الإجماع ـ ولا سيما المنقول منه ـ لدليل الكتاب والسنة ، هذا أمر غريب!.

والنداء هي (للصلاة من يوم الجمعة)؟ فواجب الحضور هو حضور الصلاة دون الخطبتين! كلا ، فإن الخطبتين من الصلاة ، ف (إنما جعلت ركعتين لمكان الخطبتين)! وذكر الله أعمّ من الصلاة ، فقد ذكرت الصلاة بلفظها فيما عنيت بخصوصها : ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لا (فإذا قضي ذكر الله) ولأن القيام ليس من شرط الصلاة كلها ، والآية تندّد بالذين تركوا الرسول قائما ـ لا مصليا ـ : ﴿وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً﴾ وليس المحظور ترك الصلاة والإمام قائم فيها ، بل فيها كلها ، فليس القيام هنا إلا في الفرض الذي يجب فيه القيام كله وهو الخطبتان ، فليكن ذكر الله هنا شاملا للخطبتين.

وليس المعني من ذكر الله هنا خصوص الخطبتين ، لأنه يعمهما والصلاة ، وهي أهمه ، ولأن الأمر بالسعي لو كان يخصهما لانتهى الفرض بانتهائهما ، والآية المحددة لانتهائه تنهيه بانقضاء الصلاة : ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾!.

فالصلاة أولا ﴿لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ وهي أخيرا ﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ﴾ تعني مجموع الخطبتين والركعتين ، كما وذكر الله في هذا البين تشملهما جميعا ، وهو إجماع المفسرين والروايات ، فقد ذكر ذكر الله بين الصلاتين مع واجب القيام فيه للتدليل على أن خطبتي الجمعة من صلاتها ، وقد يجب فيهما كثير مما يجب فيها ، كوجوب السكوت في الخطبتين ، ويوحي به ﴿فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ فما فائدة السعي إلى الخطبتين من دون إصغاء ، ويؤيده مستفيض الأحاديث [1].

---

(١) ففي حديث المناهي عن النبي (ص) أنه نهى عن الكلام يوم الجمعة والامام يخطب ، فمن فعل ذلك لغى ومن لغى فلا جمعة له (الوسائل ج ٣ ب ١٤).

وفي الفقه الرضوي قال أمير المؤمنين (ع) : لا كلام والامام يخطب ، ولا التفات إلا كما يحل في الصلاة ، وإنما جعلت الجمعة ركعتين من أجل الخطبتين جعلتا مكان الركعتين الأخيرتين فهي صلاة حتى ينزل الامام (المصدر) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة) ص ١٠١ ـ ١٠٧.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ : وهل البيع هنا يعني المعاملة الخاصة ، فهي المحرمة وقت النداء والصلاة لا سواها؟ فلو اشترى ، أو آجر واستأجر ، أو رهن وارتهن لم يفعل محظورا؟! ونحن نعلم بيقين ان النهي عن البيع هنا ليس إلا لمنافاته فريضة الجمعة ، وهذا يعم كلّ مناف فعلا أو تركا ، بيعا أم سواه.

أو أن البيع رمز إلى كل ما يشغل عن الفريضة ، وإنما ذكر كأهم ما يرام من الأشغال الدنيوية ، فغيرها أحرى بالمنع ، وإن كانت من الأمور الاخروية وأحرى ، إذ لا دافع لها إذ تمانع فرضا أهم منها ، أللهم إذا كانت أهم منها كحفظ النفس والناموس والدين ، فالمؤمن المأمور مؤكدا بصلاة الجمعة ، المنهي عن أهم مهامه الدنيوية ، أحرى له دينيا ألا ينشغل عنها بسائر الأمور حتى الاخروية التي هي أدنى منها إن كانت مضيقة ، أم تساويها أو هي أهم منها إن كانت موسعة ، فالوقت خاص بالجمعة لا تعدوها إلى سواها.

فهنا دلالتان على حرمة ما سوى الجمعة : الأمر بالسعي إليها ، والنهي عما يمانعها ، فلا تجوز ـ إذا ـ صلاة الظهر والجمعة مقامة ، أو يمكن إقامتها على شروطها ، ولا سائر الفرائض ، ولا تركها إلى بدل أو لا إلى بدل ، فالذي يصلي الظهر مقارنة الجمعة ، وهو على بعد منها أقل من فرسخين ، وهو على علم من إقامتها ، وهو لا يرى الإمام فاسقا بسند مقبول شرعا ، كانت صلاته باطلة ، أللهم إلا المعذورين.

﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : وهل يعني الخير هنا الأفضل ، أن صلاة الجمعة خير من تركها ، أو خير من اللهو ومن التجارة؟ ولا فضل في اللهو حتى تكون الجمعة أفضل منها! وليس «خير» افعل التفضيل دائما : ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (٢ : ٢٢) فلا خير في مشرك ، إلا الشر و ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌمِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً﴾ (٢ : ٢٦٣) ولا خير في هكذا صدقة ، هذا ، رغم وجود «من» هنا فيهما ، الدالة بطبعها على أفضلية ما قبلها ، فضلا عن خير الجمعة هنا ، الخالي عن «من» التفضيل ، ثم و «من» في : ﴿ما عِنْدَ

﴿اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ﴾ أيضا لا تثبت أفضلية الجمعة على اللهو والتجارة ، لمكان اللهو الذي لا فضل فيه بل هو حرام ، ولأن «خير» وان عديت ب «من» ليست ظاهرة في التفضيل ، أللهم إلا إقناعيا وادعائيا ، ان لو كان غير الجمعة خيرا فهي أفضل منه.

إذا فلا مقابل لهذا الخير إلا الشر ، بل التقابل بينهما دائما مما تعنيه اللغة ، فليس الخير موضوعا للتفضيل ، فاستعماله فيه مجاز إطلاقا ، ولو كان فهنا مستثنى لوجود اللهو الذي لا خير فيه ، وهو شر كله.

﴿فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ :

إذا قضيت الجمعة بخطبتيها اللتين هما منها ، رجع ما كان يمانعها إلى حكمه قبلها ، إن واجبا أو مستحبا أو مباحا ، فالأمر بالانتشار لا يعني وجوب الانتشار ، وإنما رفع الحظر عن ابتغاء فضل الله بعدها ، ثم تتبع الأحكام السابقة على الجمعة ، فعطلة الجمعة ليست من الواجبات ، وإنما قدر من وقتها تشغله الجمعة بمقدماتها ومتطلباتها ، ثم ليأخذ المؤمنون حرياتهم في ابتغاء فضل الله ، أيا كان من مبتغيات الحياة ، وليذكروا الله كثيرا بعد الانتشار ، كاستمرار لذكر الله في فريضة الجمعة ، فحري بالجمعة أن تعيشها بذكر الله وإن كنت في شغل دنيوي بعد الانتشار ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في الحصول على فضل الله ، وتفلجون من يصدكم عنه.

﴿وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ :

تنديد شديد بهؤلاء الذين كانوا ينشغلون عن فريضة الجمعة بتجارة ، وإن كانت تربحهم دنيويا ، ولكنها تخسرهم بترك الجمعة ، وأضل منهم هؤلاء الذين ينشغلون عنها بلهو لا يربحهم ولا دنيويا وإنما خياليا وشهوانيا ، فقد منعوا عن

التجارة وهي من العبادات لو لا الجمعة ، فكيف باللهو وهو من المحرّمات ، ولو لا الجمعة ﴿قُلْ ما عِنْدَ اللهِ﴾ : الذي تخلفه فريضة الجمعة ﴿خَيْرٌ مِنَ اللهْوِ﴾ الذي لا خير فيه وكله شر ، ﴿وَمِنَ التِّجارَةِ﴾ وإن كان فيها خير ﴿وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وليس هو اللهو ، وليست هي التجارة.

هناك تتقدم التجارة لتقدّمها على اللهو فيما يبتغيه الإنسان لصالح حياته ، وهنا تتأخر ، لكي تثبت أن ما عند الله خير ، وحتى من التجارة ، لا من اللهو فقط.

وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي ، ويمتاز عن سائر المناهج ، توازنا بين متطلبات الحياة الأرضية ، الجسدانية ، وما يتوجب من الحياة الروحية السماوية ، متداخلين مع بعض ، ومتآزرين مع بعض ، أو متلاحقين ، فذكر الله واجب أثناء ابتغاء المعاش ، ثم هناك ذكر آخر متحلل متجرد عن المعاش : صلاة الجمعة وسائر الصلوات.

إن أحاديث الحث على الجمعة تجعلها قمة في الفرائض وكما استوحيناها من آيات الجمعة ، ولحدّ فرضت قراءة سورة الجمعة في الركعة الاولى ، حثا على فرضها ، وسورة المنافقين في الثانية تنديدا بتاركها : ان عليه وصمة وطبعة النفاق [1] ، وكما عن باقر العلوم عليه السّلام : (من ترك الجمعة ثلاث جمع متوالية طبع

---

(١) مستدرك الوسائل ج ١ ص ٤٠٧ عن الشيخ الفقيه أبي محمد جعفر بن أحمد بن علي القمي في كتاب العروس عن زرارة عن أبي عبد الله (ع) ، وفي الكافي والتهذيب عن أبي جعفر (ع) قال : (إن الله أكرم المؤمنين بالجمعة فسنها رسول الله (ص) بشارة لهم وتوبيخا للمنافقين ، ولا ينبغي تركها متعمدا ، فمن تركها متعمدا فلا صلاة له).

وفي الدر المنثور ٦ : ٢٢٢ . أخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة قال : كان رسول الله (ص) يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة فيحرض بها المؤمنين ، وفي الثانية سورة المنافقين فيقرع بها المنافقين. وهنا أحاديث عدة تدل على وجوبهما في صلاة الجمعة ، كما في الكافي قال أبو عبد الله (ع) : من صلى الجمعة بغير الجمعة والمنافقين أعاد الصلاة في سفر أو حضر ، وعنه (ع) : من لم يقرأ في الجمعة الجمعة والمنافقين فلا جمعة له.

الله على قلبه) [1] ، وليس ترك الجمعة بين الشيعة ، وذهاب جماعة من المتأخرين إلى التخيير بينها وبين الظهر ، ليس ذلك مسنودا إلى أي دليل شرعي ، اللهم إلا التقية في تركها ، وقد تسرّبت التقية فعلا إلى الفتاوى ، فأصبحت كأنها ليست فريضة تعيينية! رغم النصوص القاطعة من الكتاب والسنة عليها ، وما شرط حضور الإمام إلا خيالا خيّل إلى جماعة ، لا نجده في نصوص الجمعة إطلاقا ، ولفظة الإمام في البعض منها لا تعني إلا إمام الجمعة كما في غيرها من الصلوات ، أو يشترطوا حضور المعصوم في صلاة الجماعة إطلاقا! على سواء ، فإن الإمام فيها على سواء ، إضافة إلى صراحة الكثير من النصوص أن ليس المقصود من الإمام المعصوم ، والأحكام الإسلامية تعمّ المسلمين أجمع إلى يوم القيامة دون نسخ أو اختصاص بجماعة أو شروط ، إلا عامة لهم.

فلعمر الله لا نجد مبررا لهؤلاء الذين يتركون الجمعة ولا تقية فيها ، أو يفتون بعدم فرضها التعييني سنادا إلى ما يزعمون من إجماعات منقولة ، ولو كان لها أصل فهي معارضة للكتاب والسنة! وقد أطبق الفقهاء والمحدثون القدامي على وجوبها التعييني ، إلا من يشذ عنهم غالبا كالسلّار ، وأفتى به كثير من متأخريهم [2].

إن الجمعة تضاهي الحج في أنها مؤتمر إسلامي ثان : اسبوعي . يدفع المسلمين للاجتماع في مؤتمرهم السنوي : الحج ، فهي الصلاة الجامعة التي تعني صلات بين بين مختلف الطبقات ممن آمنوا بالرسالة الإسلامية ، فلا تصح إلا جماعة ، فهي ذات دلالة منقطعة النظير ، على طبيعة العقيدة الإسلامية.

فليست أهميتها . إذا . لأنها صلاة كسائر الصلوات ، وهي تنقص عن أكثرها ركعتان! وإنما لخطبتيها الهامتين التوجيهيتين السياسيتين ، اللتين توطدان

(١) وسائل الشيعة ج ٣ ب ٤ صلاة الجمعة ، ومثله أحاديث كثيرة كما يروى عن أمير المؤمنين (ع) قال : من ترك الجمعة ثلاثا متتابعة لغير علة كتب منافقا(المستدرك ج ١ ص ٤٠٧).

(٢) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

أركان الدولة الإسلامية ، وتوجّهان الامة إلى ما يتوجب عليهم كسادة العباد ، وقادة البلاد ، وأمناء الرحمان وأركان الرشاد والسداد.

فإمام الجمعة يمتاز عن سائر الأئمة بميزات معرفية وعقائدية وأخلاقية ، ومن حيث بلاغة الكلام وفصاحته ، وأن يكون شجاعا صارما صامدا قويا في دين الله ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وخبيرا عارفا مطّلعا متضلعا فيما جرى ويجري للمسلمين وعليهم.

ذلك الإمام الخطيب دون الموظفين وعّاظ السلاطين ، الذين يستغلون هذه الفريضة الإلهية لتوطيد أركان عروش الظالمين المستبدّين ، المسيطرين على الشعوب بالسيف والنار.

ودون الخطباء الضعفاء الذين يحسبون الجمعة اجتماعا للبكاء والدعاء ، رغم أنها للبكاء على حالة المسلمين المتخلفة ، ولإبكاء من يتدخل في شئونهم مستعمرا لهم ومستحمرا إياهم.

فلبس البرد وشبه الأكفان لخطيب الجمعة رمز للاستماتة في سبيل الله ودحر الشياطين ، كما الاتكاء على سيف أو قوس ، أو سلاح اليوم ، رمز لإماتة الأعداء ، كما ويجب على كل مسلم أن يعيش مميتا مستميتا ، ولكي تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى [1].

---

(١) راجع كتابنا (على شاطئ الجمعة).

(سورة المنافقون . مدنية . وآياتها إحدى عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ
إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ
(٣) وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ
لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ
أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا
تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ

رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ (١١)

سورة تحمل اسم المنافقين ثم وصماتهم وسماتهم ، كما أن سورة اخرى تحمل اسم المؤمنين ، ثم لا تحمل ثالثة اسم المسلمين ، ولأنهم بين مؤمنين ـ بمختلف درجاتهم ـ ومنافقين ـ بشتات دركاتهم ـ فالمسلم إما منافق : ينافق ويناقض باطنه ظاهره ، أو مؤمن يوافق باطنه ظاهره ، هذا يعيش وفاقا وذاك نفاقا ، فأين منافق من موافق؟.

فالمنافقون يندد بهم في مئات الآيات القرآنية بمعاصيهم وأخطارهم ومكائدهم ومآسيهم ضد الإسلام والمسلمين ، منها سبعة وثلاثون آية ، مصرّحة بنفاقهم ،

أكثرها في ثلاثة عشر سورة [1] تكر عليهم كرات عنيفة بتكرار مخازيهم والفتن التي أقاموها ضد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والرسالة الإسلامية ، وتحذّر المؤمنين عنهم اكثر من سائر الكفار والمشركين ، إذ كانوا عملاء وهمزات وصل بين مختلف الفئات الكافرة ، ولحدّ تحصر العداء فيهم «هم العدو» كما هنا ، وتخلدهم في الدرك الأسفل من النار في غيرها.

فقد انسلّوا من الجند الإسلامي يوم أحد ، التحاقا بعدوهم ، وتوهينا لعزمهم ، وعقدوا أحلافا مع اليهود استنهاضا على المسلمين ، وبنوا مسجد ضرار تفريقا بينهم وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ، واختلقوا وأشاعوا حديث الإفك ، وأثاروا الفتنة في قصة السقاية والعقبة ، وأرجفوا المدينة ضد الرسول والمؤمنين ، وإلى غير ذلك من تحركاتهم المنافقة ضد الرسالة الإسلامية ، فهم كانوا أصلاء في هذه المؤامرات من جهة ، وعملاء من أخرى ، قاتلهم الله فأنى يؤفكون.

إن كفار مكة لم يكونوا لينافقوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ لم يكن المسلمون

فيها من القوة بحيث يرهبون ، فيتملّق لهم في الظاهر ، فإنما كانوا يناوئونهم جهارا ، ويقاومون الدعوة بكل ما لديهم من طاقات دونما تحرز أو تحفظ ، وأما في المدينة فقد كان للنبي أنصار أقوياء إضافة إلى من هاجر من المؤمنين الأصفياء ، فلم يكن ـ إذا ـ من الهيّن أن يقف البقية الباقية من الكفار ، في وجه الدعوة ، إلا بألوان النفاق والمكيدة ـ وكما هي شأن التغلب وجاه الأسد ـ لذلك تجد آيات المنافقين مدنية كلها ، إلا ما يلمح للنفاق بمعنى أوسع.

ولكي يكيدوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنين ، ويشاركوهم فيما يدر عليهم الإسلام ويحذروا عما يتحذّرون ، كانوا إذا جاءوا الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم يشهدون بأنه رسول الله :

---

(١) وهي سورة البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنفال ، التوبة ، العنكبوت ، الأحزاب ، الفتح ، الحديد ، الحشر ، التحريم ، المنافقون.

﴿إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ﴾ : شهادة السر والعلن وهي أثبت لهم من العلم (نعلم انك لرسول الله) فإن المنافق يعلم الرسالة وينكرها وقولة الشهادة منهم تعني اننا لسنا بمنافقين : أن نعلم الحق ثم نخالفه ، ومما يشهد لميزة الشهادة هذه اتخاذ أيمانهم جنة ، إذ كانوا يرمون بالنفاق.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ : فإنه الذي بعثك برسالته فعلمه بها كاف لك كرسول ، وإن كان الله يشهد لمن أرسل إليهم بهذه الرسالة السامية ، بمختلف الشهادات القاطعة ، فما لك وشهادتهم الزور والغرور.

﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ : يخفون ما لا يبدون ، ويبدون ما لا يخفون ، فعلمه تعالى في نفسه بكذبهم لا يكفي تكذيبا لهم ، وإنما يشهد ، وكما في آيات تفضحهم ، فهم حذرون دائما أن تنزل آية أو سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، وهذه هي الحكمة الموسّطة للعلم بين الشهادتين : ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ ..﴾ (٩ : ٦٤) ولعلها هذه السورة «المنافقون».

فالقول الكذب هو المخالف المنافق ، إما للواقع ، أو للعقيدة ، أو لهما ، ثالوث الكذب والنفاق وجاه الصدق والوفاق ، فمن صدق مطلق وهو الموافق لهما ، ومن كذب مطلق يخالفهما ، ومن صدق من جهة وكذب من اخرى ، فالمقالة الموافقة للواقع ، المنافقة للعقيدة ، وإن كانت صدقا وجاه الواقع ، ولكنها كذب لمنافقة العقيدة ، وهي من أخطر الكذب : كذب المنافقين ، والمقالة المنافقة للواقع ، الموافقة للعقيدة ، إنها دونها في الخطر ، سواء من الكافر الذي يشهد بعقيدته الكافرة ، أو المؤمن الخاطئ الذي يشهد بما يؤمن به ولكنه خلاف الواقع ، وإن كان بين الكاذبين بون ، كذب كافر عامد ، وكذب مؤمن غير عامد ، فأحرى أن يسمى هذا جهلا لا كذبا.

فالقولة غير الموافقة لواقعي العقيدة والحقيقة معا ، وإنها قولة منافقة كاذبة تماما ، والموافقة لهما صادقة تماما ، ثم بينهما متوسطات ، وإن كانت المنافقة للعقيدة ، الموافقة للواقع أخطرها مسّا من كرامة الحقيقة.

فموقع الجملة المعترضة ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ هو الحفاظ على صدق شهادة المنافقين وجاه الواقع ، فشهادته ثانية بكذبهم المؤكد بأداته : «ان .. ل» لتثبت كذبهم بالنسبة لواقع العقيدة ، لا واقع الحق. وهكذا يكون دور المنافقين في كذبهم أنه أخطره إذ يغرّ غير النابهين.

ولأن المؤمن ينظر بنور الله فلا يصدّق قولة الزور المنافقة ، لذلك يتشبث المنافقون بأيمانهم المغلظة علّهم يصدّقون فعن سبيل الله يصدون ، نفاقا على نفاق وكذبا على كذب :

﴿اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ :

توحي الجنة أن نفاقهم كان يظهر أحيانا من صفحات الوجه وفلتات اللسان أو بما يظهر الله ـ نبيه والمؤمنين ـ عليه ، فيضطرون إلى جنة : ترس ـ يدافعون بها عن أنفسهم ، وكما تصرح بذلك آيات : ﴿إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً. فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَتَوْفِيقاً. أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (٤ : ٦٣) ﴿لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ (٩ : ٤٢) ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (٩ : ٥٦) ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٩ : ٦٢) ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا ..﴾ (٩ : ٧٤) ﴿ما هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٥٨ : ١٤).

وهكذا نرى حياتهم الشريرة المنافقة حياة الكذب ، والحلف الكذب ، ليتخذوه جنة ، فيصدوا عن سبيل الله بجنة الله (الحلف) ولا يصدون إلا

أنفسهم ، وجهّالا بلها لا يعرفون ، والله يعرّفهم كيانهم ليفضحوا على رؤوس الأشهاد ، ولكي يستوي المؤمنون النابهون والبله في التعرف إلى كذب هؤلاء المناكيد ، ولذلك نراهم حذرين عن الآيات والسور التي تفضحهم : ﴿يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ (٩ : ٦٤).

وقد أخرج الله ما كانوا يحذرون بهذه السورة ، حاملة الثورة الماحقة كيانهم الساحقة معنوياتهم ، الفاضحة مكائدهم : ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ .. إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ :

«ذلك» الكذب البعيد البعيد في شهادتهم ، وذلك السوء البعيد في عملهم «بأنهم آمنوا» إذ أظهروه ، أن عقد به قلوب البعض منهم ، وأن طبّقه عمليا كذلك البعض منهم ، «ثم كفروا» ارتجعوا عما تقدموا فيه من الإيمان ، أيا كان ، وهذا الكفر العامد المعاند بعد الإيمان طبع على قلوبهم المقلوبة ، طبع الله عليها بكفرهم ، «فهم لا يفقهون» بعد الطبع ، وقد كانوا يفقهون قبله ، وإنما زال عنهم فقه الحق وإدراكه فالتعلق به ، بما اختاروه من الكفر بعد الإيمان ، فجازاهم الله بذلك الطبع المظلم في قلوبهم ، امتناع للفقه بالاختيار ، دون تسيير وإجبار : أجل : ﴿فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿.. فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٩ : ٩٣) ﴿.. فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (٧ : ١٠٠) فكما القلب إمام لسائر المدارك والحواس والأعضاء ، كذلك طبعه طبع عليها جمعاء ف ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

ان الكفر بعد الإسلام هو الخروج عن الشهادة باللسان بإنكاره كذلك باللسان ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ (٩ : ٧٧) وهو بعد الإيمان خروج عنه ، إما

إلى الكفر المطلق ، أم إلى الكفر النفاق ، وهو المعني هنا ، فمن المنافقين من يسلم منذ البداية نفاقا ، أو هو غير مؤمن بقلبه : ﴿قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (٤٩ : ١٤) والمسلم الخاوي قلبه عن الإيمان قد يتدرج إلى الإيمان ، فهو مسلم غير منافق ولا مؤمن ، وقد يثبت على الكفر على علمه بالإيمان ، فهو منافق ، وقد يؤمن ثم ينافق ، وهو أخطر النفاق ، فإن ايمانهم الأول يطمئن المؤمنين انهم منهم ، ثم خروجهم خفية إلى النفاق يرجع لهم بأخطر الأضرار وهم لا يعلمون ، ثم خروجهم إلى الكفر المطلق يوهن ضعفاء الإيمان عن ايمانهم. وإنهم إضافة إلى مظاهرهم الخلابة الجلابة ، ومقالاتهم الحلوة البراقة ، التي تغر من لا يعلم السرائر :

﴿وَإِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ :

إن حياتهم الظاهرة ، بأجسامهم : أعمالهم الجسدانية وأقوالهم وأموالهم وأولادهم ، إنها حياة الإعجاب والإغراء : ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾ (٩ : ٥٥) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ﴾ (٢ : ٢٠٤).

فأجسامهم هي التي تعجب ، دون أرواحهم وضمائرهم الخاوية من كافة معاني الحياة والإنسانية ، أجسام وقوالب نضرة ، كأنها على قلوب رائعة عطرة ، ولكنها خشب مسندة خاوية ، وحتى كأنها عن الأرواح النباتية أيضا ، ولا يعنى من عجاب أجسامهم سمنها وجمالها فقط ، فكثير من المؤمنين لهم أجسام حسنة ، وإنما يعنى أن المعجب فيهم ـ إذا كان ـ ليس إلا أجسامهم وأعمالهم الجسدانية.

ثم وأقوالهم التي تنبئ عن الضمائر والحقائق ، هي أيضا معجبة لحدّ تسمع ـ أنت الرسول ـ لقولهم ، لفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامهم ، إضافة إلى أيمانهم الجنة التي تصد عن سبيل الجنة ، فكلامهم يوحي الصم الصلاب ،

وفعلهم يطمع فيكم زملائهم الأعداء ، ولكنما الظاهرتان هاتان ليس ورائهما إلا كل خواء وبلاء ، كالخشب المسندة : فهم أشباح بلا أرواح ، وتجار بلا أرباح ، ونساك بلا صلاح ، قوالبهم قوالب الآدميين ، وقلوبهم قلوب الشياطين.

فكما الخشب المسنّدة . وهي الخشب النخرة المتآكلة البالية الجوفاء ، كثيرة السناد [1] إلى غيرها لتقوم كالأخشاب السليمة أو كالأشجار . كما انها يحسبها الجاهل أشجارا كأنها مثمرة ، رغم موتها وجمودها عن الروح النباتية ، وحتى عن الفوائد الجمادية أيضا ، فالخشب السليم ينتفع به في سقف أو جدار ، ولكن الخشب المسنّد لا نفع فيه أللهم إلا حرقه ، أو يسند إلى أسناد ليخيّل إلى الجهال أنه خشب أو شجر ، كذلك هؤلاء المعجب بأجسامهم ، المسموعة أقوالهم ، يحسبون أوتادا وأوتارا للحركة الحيوية الإنسانية ، وإذا بقلوبهم نتنة ميتة ، لا تحكم فيها أرواح الحياة وحتى النباتية ، فإنها تنمو لصالح الحياة ، وهم ليسوا إلا عراقيل دون الوصول إلى الحياة!

فهم أجسام تعجب ، لا أناسي تتجاوب ، هم خشب مسنّدة ملطوعة بسواها من جدار وسواه ، لا حراك لها ، وإنما حياتهم التجسس عن كل حركة ، والتوجّس من كل صوت عال ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ لما ترقبهم من فضيحة بأعمالهم ، وما يفضحهم الله به ، كالقصبة المرتجفة في مهب الريح ، التي تجعل كل ريح عابرة صوتا في قلبها ، كذلك هؤلاء الخشب المسندة الجوفاء ، يحسبون كل صيحة ضدهم.

وإذا أردت أن تعرف العداء كل العداء ف ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ : العدو الأكثر خطورة ، الكامن داخل المعسكر الإسلامي ، ومجتمعه السامي ، وهو أخطر من العدو الصريح الخارج ، فكأنما العداء محصور فيهم [2] ، ثم هم على كثرتهم كأنهم

---

(١) كثرة السناد مستفادة من «مسندة» فإن التسنيد تكثير الاسناد بكثرة المحال.

(٢) الحصر مستفاد من تقديم «هم» على «العدو» ولمكان «ال» الاستغراق.

عدو واحد «العدو» ، لتحالفهم على عداء الحق دون تخالف ، عداوة موحدة تصدر عنهم في كافة مواردهم ومصادرهم ، حلّهم وترحالهم ، حالهم ومقالهم «فاحذرهم» بكل ما يستطاع من وسائل وأسباب «قاتلهم الله» قتالا نفسيا بسحق معنوياتهم ، وتكذيب مدعياتهم ، وفضحهم على رؤوس الأشهاد ، وكما يستحقون دعاءك والمؤمنين : أن يقاتلهم الله على طول الخط هكذا.

ف «قاتلهم الله» كأمثالها ، ليست دعاء من الله ، وإنما إخبار انه يكفيهم قتالا ، وإن كانت تتحمل بضمن الإخبار دعاء : ان الله ينقل حال المؤمنين وجاه هؤلاء المنافقين أن يقولوا : «قاتلهم الله».

«أنى يؤفكون» هذه المقاتلة الواقعية ، والمستدعاة أيضا ، هي دائبة «أنى يؤفكون» : أي زمان وفي أي مكان يعيشون الإفك والزور والغرور ، وقد تكون «أنى» استفهاما توبيخيا : أنى يصرفون في الإفك؟ فمن يكرس حياته في سبيل الإفك والصرف عن الحق ، فالله هو مقاتله ، وجملة الإفك تتحمل كليهما.

ثم انهم ـ بعد فضحهم ـ يطالبون بالاستغفار ، وأنى لهم الغفر؟ وهم مستهزءون مستكبرون :

﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ :

ان الاستغفار يتطلب حالة خاذلة بجنب الله ، راجعة عما فرّط في جنب الله ، وإذا كان أمر الذنب متفاقما فليشفع باستغفار رسول الله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ (٤ : ٦٤).

ولكنهم على تفاقم كفرهم بنفاقهم العارم ، وأنهم طولبوا بالاستغفار وأن يستغفر لهم الرسول ، يلوون رؤوسهم مستهزئين ، إشارة الصدّ والاستكبار ، صدّا وإعراضا عن الاستغفار ، واستكبارا على الله ، وعلى إتيان رسول الله ،

رغم اتخاذهم أيمانهم جنة عما يعرف عنهم من الكفر والإدبار ، وكان لزام تلكم الايمان تقبل الاستغفار وان في نفاق ، ولكي يستحكموا وثائق مكرهم وأوتاد نفاقهم ، ولكنهم قوم لا يفقهون ، وبما ان قبول الاستغفار هداية إلهية ، والله لا يهدي الفاسقين المصرين على فسقهم ، لذلك :

﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ :

سواء عليهم استغفار الرسول وعدمه فلن يغفر الله لهم ، وإن استغفر لهم ما يشاء : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ﴾ (٩ : ٨٠) فسواء هذا وذاك عليهم ، أللهم إلا المنافق التائب ، كغيره من الكافرين ، أو الفاسقين التائبين ، فإن الله يتوب عليهم ان شاء: ﴿لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ﴾ أو يتوب عليهم ان شاء» (٣٣ : ٧٣) ولكن منافقي هذه السورة ليسوا منهم ، فإنهم الثابتون على نفاقهم ويزدادون عتوا ونفورا ، ف ﴿سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ، : فهل إنه سواء على الرسول أو له ، أيضا؟ فهل يسمح له بالاستغفار لقوم منافقين مستكبرين ، وهم أخطر وأشر من المشركين بعد ما تبين له أنهم أصحاب الجحيم؟ كلا! ف : ﴿ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ (٩ : ١١٣) ولم يكن المطالب منهم ، أن يستغفر لهم رسول الله هو الرسول نفسه ، حتى يكون طلبا للمحظور ، وإنما هم «عشائر المنافقين إذ قالوا لهم : لقد افتضحتم ويلكم فاتوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يستغفر لكم فلووا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار» [1].

---

(١) القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع).

وعموم التعليل في عدم قبول توبة «الفاسقين» يعمه لكل من ثبت على فسقه وان أتى بلفظة الاستغفار ، من كافر أو منافق أو فاسق غيرهما ، دون اختصاص الحرمان بالمنافقين ، فكل خارج عن طور العبودية ، منفلت عن طاعة الله ، انه لا يهديه الله بغفر ذنوبه ، ما دام ثابتا على فسقه لا يغيّر ، فالخروج عما يستغفر عنه ، هو من اصول قبول التوبة ، وهي التوبة النصوح.

ثم ومن مكائدهم ضد الرسول محاولة انفضاض المؤمنين عنه بالضغط المالي :

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ :

هذه الخطة المنافقة في المدينة سبقتها خطة كافرة في مكة ، وهي تقاطع بني هاشم في شعب أبي طالب ليظلوا جياعا حرجين في لزامات الحياة ، حتى ينفضوا عن رسول الله ، ولكنها كانت خطة خاسرة ، ما استطاعت أن تزلزل من إيمان المؤمنين قيد شعرة وهم تحت وطأة الضيق والجوع وألوان النكال العضال.

فليس المؤمنون بالرسالة حقا ممن ينفضون عن الرسول فرارا عن الجوع ، وطلبا للشبع ، طالما قدموا أنفسهم وأموالهم وهاجروا معه في سبيل الله ، أللهم إلا منافقون أسلموا مغبة المال ، كهؤلاء الأوغاد.

ثم هذه المقالة الخسيسة اللئيمة من المنافقين لمن تتجه؟ أمثالهم؟ وهم لم يكونوا من المنفقين على من عند رسول الله! أم للمؤمنين الأثرياء؟ فأقويائهم في الإيمان لا يتأثرون بمقالات المنافقين! أم الضعفاء منهم؟ علّهم! ولكن عدم إنفاقهم لا يؤثر إلا في ضعفاء كأمثالهم ، ثم الله الذي له خزائن السماوات والأرض : من مواضع أرزاق العباد ، ومدارّ السحاب ، ومخارج الأعشاب وما يجري مجراها من الأرفاق : ما خزن فيهما وبطن ، والله مخرجه بقدر معلوم ، وينزله بقدر معلوم ، إنه لا يعجز عن جبر كسرهم وفقرهم ، وعن تأييدهم في صبرهم ، وهو الرازق لمن آمن وكفر ، فهل يحصر رزقه للمؤمنين بالأثرياء الضعفاء في

الإيمان؟ ومن خزائن الله يرتزق هؤلاء وهؤلاء ، فليسوا هم رازقي أنفسهم ، وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين! ﴿وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ فالذي يعطي أعدائه لا ينسى أوليائه ، فليست هذه الخطة اللئيمة إلا لأنهم لا يفقهون : ان خزائن الأرزاق بيد الله ، وان الله ناصر المؤمنين ، وانه خاذل المنافقين ، وانه موهن كيد الكافرين ، ولأنهم لا يفقهون بما طبع على قلوبهم ، فهم لا يزالون يحاولون في إطفاء نور الله ، والله متم نوره ولو كره الفاسقون.

فالفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد ، ولم يتوصل المنافقون بشاهدهم على غائب معرفة الله ، وان له ما في السماوات وما في الأرض.

ثم هم من غيّهم واستكبارهم ، وأن حسبوا أنفسهم أعزة غالبين ، والمؤمنين أذلة مغلوبين :

﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ :

هناك «لا يفقهون» لفقدهم العلم الغائب ، وهنا «لا يعلمون» لفقدهم العلم الحاضر أيضا إذ لا يشعرون ، وكأنهم لا يحسون أنهم الأذلة وهؤلاء الأعزة ، والعلم أعم من الفقه وهم يفقدونهما بما طبع على قلوبهم.

أهؤلاء الخشب المسندة ، والحمر المستنفرة أعزة ، ثم أولئك الأولياء المكرمون أذلة؟! كلا! ولكن المنافقين لا يعلمون ، جهلا عن تقصير.

توحي الآية بأن جماعة من المنافقين كانوا وقتئذ خارج المدينة ، فأخذوا عدتهم ـ في زعمهم ـ لإخراج المؤمنين عنها لئن رجعوا هم إليها ، معتبرين أنفسهم الأعز ، والمؤمنين الأذلّ ، والعزة هي الغلبة بحق بالمنعة التي تمنع أن يمسه ذلّ ، فليست إلا للحق وأهله ، دون ناكريه والمكذبين به ، وأية عزة لمن ينافق ويماكر كالثعلب لضعفه وخوفه؟ وأية ذلة للمؤمن الصامد الصريح الذي لا يخاف إلا الله ، فيخافه ويهابه من لا يعبد الله ، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ

لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ (٤ : ١٣٩) ولقد أراهم الله تعالى عكس ما ادعوا ، فلم يدخلوا المدينة هؤلاء الأذلة المنافقون ، إلا بإذن الأعزة المؤمنين وقد سلّ مؤمن عزيز سيفه على منافق بباب المدينة ـ وهو أبوه : رأس المنافقين ـ قائلا : والله لا تدخل المدينة أبدا حتى تقول : رسول الله الأعز وأنا الأذل [١]! وما أعز المؤمن إذ يثني بعزة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وما أعز الرسول والمؤمنين إذ يقرئها الله بعزته ، ولأن عزتهم مستمدة من عزته ، فلا تهن ولا تهون ، ولا تزايل صاحبه في أحرج العقبات ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾.

(وإن الله تعالى فوّض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه ، فالمؤمن يكون عزيزا ولا يكون ذليلا ، المؤمن أصلب من الجبل ، إن الجبل يستفلّ منه بالمعاول ، والمؤمن لا يستفلّ من دينه شيء) [٢] ، (ومن إذلاله نفسه أن يتعرض لما لا يطيق) [٣] ، (ويدخل فيما يعتذر منه) [٤] ، وليس من الذلّ أن يؤخذ ماله ، أو يضيق على معيشته ، أو يقتل في سبيل الله ، وإنما ذلّه خروجه عن طاعة الله.

ولتستحكم عرى الإيمان في المؤمنين وجاه عراقيل الأموال والأولاد التي تلهي عن ذكر الله ، يوصيهم الله ألا تلهيهم :

---

(١) ان رأس المنافقين هؤلاء هو عبد الله ابن أبي بن سلول إذ أراد أن يشعل نيران الحرب بين المهاجرين والأنصار وهم خارج المدينة في غزوة بني المصطلق بقيادة الرسول (ص) فأخذ ابنه سيفه بمدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل ليعكس مقاله : ليخرجن الأعز منها الأذل ، فيوقفه خارج المدينة حتى يأذن الرسول (ص) بدخوله.

(٢) الكافي بإسناده الى الحسن الأحمسي عن أبي عبد الله (ع) في تفسير آية العزة.

(٣) الكافي بإسناده الى داود الرقي قال قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : ...

(٤) الكافي بإسناده الى مفضل بن عمر قال قال أبو عبد الله (ع) : ...

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ :

فمن الملهيات عن ذكر الله ما تلهي على أية حال كالغناء والرقص وموسيقاه ، فهي لا تستعمل بحال ، ومنها ما تلهي بطبيعة الحال ، وللإنسان أن يحوّلها إلى أحسن حال ، كالأولاد والأهلين والأموال التي تعتبر جسرا يعبر عليه في سبيل الله ، وهكذا يكون دور المؤمن مع المغريات والملهيات أنه يحوّلها إلى مذكرات بالله ، ويخطو بها خطوات في سبيل الله ، فليست الأموال والأولاد ملهاة لمستيقظي القلوب الناهين ، الذين ينظرون الى الدنيا نظرة عبرة وعابرة ، يبصرون بها الحياة الآخرة ، وإنما هي ملهاة ومزلات لمن يبصرون إليها نظرة قاصرة لا يعدوها الى مغزاها ومنتهاها.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ﴾ التصرف البعيد البعيد في أمواله وأولاده ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾ : يخسرون سمتهم الإنسانية ، فيخسرون كل ما للإنسان في دنيا الحياة وعقباها ، مهما ربحوا حيوانيا لفترة قصيرة زهيدة!.

ومن آثار الأموال والأولاد غير الملهية عن ذكر الله ، إنفاقها في سبيل الله ، دونما ابتغاء جزاء أو شكور ممن سوى الله ، بإزالة كافة التعلقات بالأموال والأولاد ، إلا ما يحصل بها مرضاة الله :

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ :

وطالما الإنسان بنفسه ونفيسه ، بما له وأولاده ، وبكافة معطياته ، انه هو من رزق الله ، فليكن كله كذلك إنفاقا في سبيل الله ، فلا يملك هو لنفسه شيئا ، وإنما هو مستخلف فيما رزقه الله ، فإذا أنفق فإنما ينفق من مال الله : ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (٥٧ : ٧).

وليكن الإنفاق قبل أن يأتي الموت ، فإن الإنفاق عنك بعد الموت ، وإن كان بوصية منك ، هذا لا يزيل تحسّرك بعدم الإنفاق ، إلا قليلا لا يغني ، وإن كان الوصي والمنفق عنك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بمئات الأضعاف مما لو كنت تنفقه.

فإذا أتى أحدكم الموت ولم ينفق واجبه ، طلب متحسرا تمديد أجله ، بقدر ما يتصدق فيكون من الصالحين ، ﴿رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ لكي أصلح ما أفسدت ، وبقدر ما أنفق واجبي ، فلتتصدق أنت بنفسك قبل الموت تكن من الصالحين دون تحسّر بعده ولا تأثّر.

أنت تموت ولم تنفق ما عليك؟ وتترك كل شيء وراءك؟ فتنظر بعد الموت أن ليس معك شيء مما ادّخرت؟ وهذا من أحمق الحمق وأخسر الخسران! وأنت تطلب تمديد أجلك :

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ :

فالأجل المحتوم المسمّى لن يؤخر لأيّ كان ، صالحا أم طالحا ، والأجل المعلق لن يؤخر للطالحين الذين ﴿إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ﴾ فيجاب ﴿كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها﴾ (٢٣ : ١٥٥) ﴿رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٣٥ : ٣٧) فالعادلون لهم نصير ، ينصرهم الله إن شاء في تأجيل آجالهم المعلقة ليزدادوا خيرا ، فعدم الإجابة في تأجيل الأجل المعلق ليس إلا لعدم أهلية المستأجل وأنه كاذب فيما يقول ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾ أن عملكم لا يصلح ما عمّرتم وأجّلتم ما شئتم.

وبما أن المخاطبين هنا المؤمنون ، فهنا إيحاء أن المقصرين منهم في الإنفاق

سوف يطلبون الرجعة ولن يرجعوا ، وكما يروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم [1] ، وإن كان بين هؤلاء وبين الكفار بون بعيد.

وكما أن هنا إيحاء أن المؤمن الصالح ، غير المقصر ، قد يستجاب له في تمديد الأجل المعلق ، لا ليعمل صالحا فيما ترك ، بل ليحقق الأمل في تكميل الإيمان ، وكما أن الراجعين بالاستدعاء ، في دولة المهدي عليه السّلام يجابون في إحيائهم بعد موتهم ، وليستكملوا بمناصرة المهدي عليه السّلام.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢٦ ـ عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص) : (من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت).

(سورة التغابن . مدنية . وآياتها ثماني عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ
الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِما
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ
(٣) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ
(٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٥) ذلِكَ بِأَنَّهُ
كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
(٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ
يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ

وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٠)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ :

«يسبح» دائما لزام الذات تسبيح الحال والمقال ، الإشارة والعبارة ، «لله» لا سواه ﴿ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ : كل الكائنات العلوية والسفلية سواء فهي كلها كخلق لله تسبيحات لله طوعا أو كرها ، «له الملك» عليها دون ضد ولا ند ولا وكيل ولا شريك ، فلا ملك لغيره إلا ما هباه ، ملكا ضئيلا زائلا ، «وله الحمد» إليه يرجع الحمد كله ، فإنه الثناء على الوصف الجميل والفعل الجزيل ، ولا جميل ولا جمال ولا جزيل إلا من الرب الجليل وإليه ، أينما كان ، فلا ثناء إلا له ، رغم ما ينكره الناكرون ، ويمكره الماكرون ، وكما التسبيح لله يعمّ الإختيار واللااختيار ، التكوين وسواه ، كذلك الحمد ، فسواء بلسان التكوين الحال بمحامد الصنع في الخلق ، أم بلسان المقال ممن آمنوا بالله ، فالكائنات كلها تحت ملك الله ، وكلها تسبيح وحمد لله ، إذ لا قصور في ملكه ولا تقصير ، ﴿وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ دون حد ولا تقدير ، وإن كان خلاف

العدل والفضل والحكمة ، ولكنه لا يفعله رغم قدرته ، وهو اللطيف الخبير [1].

فمن عرف هذا الملك الحميد القدير ، خشي من سطوته ، وأمل لطائف نعمته من كرمه ومنّته ، وفي حين يركن المؤمن إلى الله ، فإنما يركن إلى الملك المسبّح المحمود ، القادر على كل شيء ، فيطمئن في الحياة كل الحياة ، وبعد الممات.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فلا خالق إلا هو ﴿فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ والفاء هنا لا تعني تفريع الكفر والإيمان على الخلق ، أنهما من خلق الله كما سائر الخلق ، وإنما تعني تأخرهما عن الخلق : الكفر والإيمان الاختياري منذ التكليف.

ومهما كان الإيمان الفطري مخلوقا مع المكلفين أجمع : ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾ (٣٠ : ٣٠) فلا يعقل أن الاختياري منهما ، أو الكفر المجبول ، مخلوق مع الإنسان ، إذ لا تكليف قبل حدّه حتى يكون كفر أو إيمان قبل حدّه ، ولو كان معقولا فهو ظلم وتسيير «وما الله بظلام للعبيد».

فالخلق كلهم خلقوا على فطرة الإيمان ، وكما في الحديث القدسي : (خلقت عبادي كلهم حنفاء) [2].

ومهما كان الإيمان مبدئيا أقدم على الكفر ، ولأن الإنسان مفطور عليه منذ يخلق ، ولكنما الكفر أقرب اليه واقعيا ، تقدم واقع اللاإيمان في الأكثرية الساحقة من الناس النسناس ، على مبدء الإيمان الفطري ، ولذلك قدم الكافر هنا على المؤمن ، لأن الآية بصدد استعراض صنفي الخلق بعد الخلق ، فيما هم صائرون اليه من الكفر والإيمان ، ثم نرى الآيات المستعرضة لما يتوجب اختياره منهما ، تقدّم

(١) راجع الجزء ٢٩ من هذا التفسير ص ٥ ـ ١٠ كلام في القدرة.

(٢). مجمع البيان عن الامام الصادق (ع).

الإيمان ، ولأنه قضية الفطرة وأمان من العذاب : ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (١٨ : ٢٩) تقديما لمشيئة الإيمان.

﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ : تصريحة بعد تلويحة أن الكفر والإيمان ، هما من أعمالنا ، لا من خلق الله ، ولكن الله لا يخفى عليه شيء منهما ، والعمل هنا يعمّ عمل القلب والقالب ، فهو بصير بهما ، وأنتم فيهما أمام بشير نذير.

هذا ـ فما يروى أن الإيمان والكفر من خلق الله ، إنه مخالف لكتاب الله ودليل العقل والواقع وأحاديث الفطرة ، فيضرب عرض الحائط أو يؤوّل [1].

وكما الله خلقكم ، كذلك أحسن صوركم في الخلق ، ومنها صورة الفطرة ، فلتؤمنوا استجابة لنداء الذات الحسنة :

﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ :

إن خلقهما حق وللحق وبالحق ، لا باطل فيهما من حيث الخلق : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٣٨ : ٢٧) ذلك لأنهم ليست لهم ألباب ، فمقالة أولي الألباب : ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾ (٣ : ١٩١) فلا باطل في الخلق من لهو أو لعب أم ماذا : ﴿لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ﴾ (٢١ : ١٧) ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ. ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤ : ٣٩).

---

(١). الدر المنثور ٦ : ٢٢٧ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ص): (العبد يولد مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا ، والعبد يولد كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا ، وإن العبد يعمل برهة من الزمان بالشقاوة ثم يدركه الموت بما كتب له فيموت شقيا ، وإن العبد يعمل برهة من دهره بالشقاوة ثم يدركه ما كتب له فيموت سعيدا).

أقول : حاشا الرسول من هكذا قولة تخالف كتاب الله!.

ومن حق الخلق تصويركم بالصورة الإنسانية قلبا وقالبا خلقيا وشعوريا ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ في أحسن تقويم ، قوام الروح والجسم ، فلا صورة في الخلق أحسن من صورة الإنسان ، مهما تماثلها صور لا نعرفها ، وقد توحي بها آيتان متجاوبتان : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ (١٧ : ٧٠) فمن هذا القليل الذي لم يفضّل عليه الإنسان ، فتقويمه كالإنسان أحسن تقويم؟ لا ندري!.

ومن ثمّ فهذا الخلق الحق ، وهذه الصورة الحسنة ، مصيرهما الى الله ، فهو المبدء ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ولو لا الرجوع إلى الله في حياة الحساب لكان خلق الكون لغوا ولهوا وباطلا ، أفهذا الخلق العريض الطويل لا يهدف إلا هذه الحياة الزهيدة الهزيلة؟ فهذا هو اللهو والباطل ، سبحان الرب الجليل!.

﴿يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ :

إن المرجع ومن إليه المصير ، هو عليم خبير بما تكنّ صدوركم وما تعلنون ، لا يعزب عنه ما نخفي وما نعلن ، ولا يغرب عنه ما علم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ : صاحب الصدور ، وإذ هو عليم بذوات أصحاب الصدور فأحرى أن يكون عليما بالصدور ، فهل يخفى عليه ـ إذا ـ ما تكنّ الصدور؟ كلا! ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ (٢٠ : ٧) : السرّ الخفي الكامن ، والأخفى غير الكائن ، الذي يستقبل ذوات الصدور وهم عنه غافلون ، فما ذا يصنع هذه الحشرة الصغيرة ، الهزيلة الذليلة ، في مصيرها إلى الله ، الملك القدّوس العليم ، العليّ القدير ، الخبير البصير ، الذي إليه المصير.

إن للإنسان مذكرات لو تنبّه عن غفوته ، منها حاضره كالمسبقة من مذكرات خلق الله وعلمه وقدرته ، ومنها غابرة حلّت في التأريخ وقد أتتنا في كتابات الوحي :

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ :

إن نبأهم هذا كسائر الأنباء : خبر ذو فائدة ، تفيدكم عن جهلكم إذ تفيقكم عن غفلكم ، وإنه ينبئكم بما ذاقوا ولاقوا من عذاب ﴿وَبالَ أَمْرِهِمْ﴾ : تبعة السيئة : كالوابل : المطر الثقيل القطار ، مقابل الطلّ وهو خفيفه ، فذوق الوبال هو نيل الطلّ ، فعذاب الاستئصال هو طل من العذاب ، ثم يليه وابله منذ الموت ، فهم ذاقوا في الدنيا وبالهم بعذاب الاستئصال ، فإنه ـ حقا ـ دون ما يستحقونه ، فذوق العذاب غير نيله ـ كما أن ذوق الموت غير الموت ـ ثم لاقوا في البرزخ عذابا برزخيا ، وسوف يلاقون عذاب النار يوم القرار ولات حين فرار ، فالعذاب الأليم يعني الأخيرين ، كما أن ذوق الوبال يخصّ الأوّل.

ألم يأتهم هذا النبأ؟ بلى! فلما ذا استغفلوا عنه؟ لأنهم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها! وقد كانوا يتناقلون أنباء بعض الهلكى كعاد وثمود وأصحاب الرسّ وقرونا بين ذلك كثيرا ، ولكن لا حياة لمن تنادي! ولماذا هلكوا هنا ويتألمون بالعذاب هناك؟ :

﴿ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ :

فالأصل هو تكذيب الرسل برسالاتهم ، رغم البيّنات القاطعة الظاهرة الزاهرة لمن يعرف لغة الإنسان ، ويسمع ويبصر كإنسان ، فكانوا يعتذرون بعذر غير عاذر ، وبكفر غادر : ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾؟ ﴿أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ﴾ (٥٤ : ٢٤).

وليست هداية الرسل إلا هداية الله ، بما يحملون من رسالات الله ، فهل ينظرون أن تأتيهم ملائكة : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ (٦ : ٩) أو ينظرون أن يأتيهم الله بنفسه؟ أم ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾؟ كلا .. وإنما هي الحجة القاطعة الإلهية يجب

أن تتّبع ، وإن حملتها أشجار أم أحجار ، فكيف وقد حملها أبرار مصطفون أخيار!.

فعجب من هؤلاء الأوغاد أنكروا أن يكون الرسول بشرا ، ولم ينكروا أن يكون معبودهم حجرا! وفي هكذا معبود مهانتهم ، وبهؤلاء الرسل كرامتهم ، ولكنهم دوما يعترضون ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا﴾ كأنما الهداية الإلهية لا تتمثل في البشر ، لأنه لا يؤهل لهذه الكرامة! وقد يرفضها الجاهل النكد ، فيعبد الحجر ويترك الرسول البشر ، جهلا أو تجاهلا بحقيقة الرسالة وكرامة الإنسان : ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ (١٧ : ٩٤). رغم أن الرسالة منهج إلهي لا بد أن تتمثل للبشر في ذوي نوعه ، ليصوغهم على مثاله قدر المستطاع ، ولكي لا تكون للناس حجة على الله بعد الرسل.

«فكفروا» بالله «وتولوا» عن الله «واستغنى الله» : عنهم وعن إيمانهم : أن أظهر غناه وفقرهم ، وقوته وضعفهم ، بما دمّرهم تدميرا حيث أذاقهم وبال أمرهم ، فلو كان بحاجة الى إيمانهم لألجأهم إليه ، أم لو كان فقيرا إليهم على كفرهم لأبقاهم ، ولكن : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (٣٩ : ٧).

﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ عن إيمانكم ﴿حَمِيدٌ﴾ في كفركم ، فليس حمده بإيمانكم ، لأنه حميد بذاته ، مجيد بأفعاله وصفاته ، فلا يرجع عائد الإيمان الى الله ، ولا مضرّة الكفر إليه ، وإنما الى أهله وعليهم.

والكفر بالله ورسالاته يعني دائما التحلل عن أسر شريعة الله ، ومما يريحهم ويحوّلهم الى إباحية مطلقة هو نكران البعث والحساب زعما على زعم :

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ :

إن الزعم دائما كنية الكذب وزاملته ، سواء أكان خلاف الإعتقاد أو خلاف الواقع أو خلافهما ، والظن ـ إذا ـ لزامه ، إذ لا يركن الى أيّ دليل ، فهم يزعمون إحالة بعثهم «لن يبعثوا» وليس سنادهم في زعمهم إلا استبعادات ، فلا جواب إذن إلا تأكيد البعث قسما بربّ محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم : ﴿قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ فالتربية الإلهية الظاهرة في محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم الزاهرة بأخلاقه وتصرفاته وتفكيراته ، إنها دليل لا مردّ له أن ربه قادر على بعث هؤلاء ﴿ثُمَّ﴾ بعد بعثهم ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ﴾ : حسيّا وعلميا وجزاء وفاقا ﴿وَذلِكَ﴾ البعث والإنباء ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ إذ فعل ما هو أقوى منه وأولى كأن صنع محمدا وربّاه ، الذي يوازي صنع العالم كله وأعلى!.

ف ﴿بَلى وَرَبِّي﴾ ليس قسما خاويا عن الدليل ، مقابلة اللادليل باللادليل! وإنما تعليل لطيف واستدلال بأقربية الغائب (البعث) من الحاضر (واقع التربية المحمدية) بواقع رسالته الإلهية المبرهنة ، فليصدّق قوله عن الله ، فبعثهم أيسر على الله من صنع محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وهو بشخصه الكريم هو العالمون أجمع وزيادات لا يعلمها إلا الله هذا ـ وكذلك ربوبيته العالمية تقتضي البعث للحساب ، فلولاه لكان تسوية بين المطيع والعاصي ، بل تفضيلا للظالم على المظلوم ، إذ لا نرى هنا انتقاما كما يجب ، فالظالم يظلم ويتبختر ، والمظلوم يظلم ويكسر ، فهل إن رب العالمين جاهل بما يحصل؟ أم عاجز عن الانتقام هنا؟ أم سوف يفصل بين عباده يوم الفصل؟ وهو الحق! وهذا مقتضى ربوبيته! ﴿قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ..﴾ وهو قدير بما تقتضي ربوبيته.

نرى دائما أن نكران وجود الله وتوحيده ، ونكران الرسالة والبعث ، لا يستند الى أي دليل ، ثم نرى الآيات البينات كيف تعالج ما يخالج في صدورهم من ظن وزعم ، بمختلف البراهين القاطعة : فطرية ، فكرية ، عقلية ، حسية واقعية ، ولكنهم ما كانوا ﴿لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ﴾ (٧ : ١٠١) و ﴿عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٠ : ٧٤).

ومن لطيف التعبير عن قولتهم الكافرة ، هو الابتداء بتكذيبهم : ﴿زَعَمَ﴾ والانتهاء الى تزييفهم بالبعض من براهين البعث.

ومن ثم ، بعد هذه التنبيهات ، والتذكيرات بما فعل الذين كفروا وما فعل بهم ، يأمرهم أن يؤمنوا :

﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ :

هنا إيمان بالله كأصل الإيمان وموضوعه ، وهناك إيمان برسول الله هامشيا لرسالته الإلهية ، وهنالك إيمان بالنور المنزل مع الرسول لينير الدرب على متحرّي الحقيقة ، وليتثبت إيمانه الكامل فيثبت عليه ، وليسترشد الى مغزى الإيمان الأصل بالوحي الذي يحمله الفرع.

فالنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره ماديا ، وأحرى منه معنويا ، ف ﴿اللهُ نُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢٤ : ٣٥) ظاهر بآياته للقلوب غير المقلوبة ، والبصائر غير الكليلة ، ومظهر لسواه ، من العدم الى الوجود ، ومن الظلمات الى النور.

فرسول الله نور من الله ، إذ يحمل نورا ويصدر عن نور وكله نور : ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ﴾ (٥ : ١٥) ، فإنه حجة بأفعاله وتصوراته ، ومعجزة في ذاته ، كما في كتابه المبين.

وهناك استمرارية نور الرسول نجدها في عترته الطاهرة ، الذين هم إشعاع من تلكم الشمس [1] و (كلهم نور واحد) ، وكما عن صادق آل محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم : (أولنا محمد ، آخرنا محمد ، أوسطنا محمد ، كلنا محمد).

---

(١). قد وردت أحاديث أن الأئمة من آل محمد هم النور ، وهذا من التأويل والجري ، لأنهم يحملون النور : القرآن ، ونور الرسالة المحمدية بالخلافة الحقة :

وكتاب الله نور : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (٤ : ١٧٤) ، فبرهان الرب هو الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، والنور هو القرآن الذي يزداده برهانا ونورا ، فانه يهتدى به في ظلم الكفر والضلال ، كما يهتدى بالنور الساطع ، والشهاب اللامع ، وضياء القرآن أشرف من ضياء سائر الأنوار ، لأنه يعشو إليه القلب ، وهي يعشو إليها الطرف ، والقرآن النور ظاهر بنفسه أنه إلهي ، ومظهر لغيره ولرسالة من أوحي إليه : نور على نور من نور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢٤ : ٤٠).

ترى من يترك النور الى الظلمات هل له بصر؟ أو هل يبصر وهو ينكر؟ : ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢٢ : ٤٦) ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ (١٣ : ١٩) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ (٤٣ : ٤٠) ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ﴾ (٢٧ : ٦٦).

﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ﴾ بالجوانح كفرا وإيمانا ، وبالجوارح طاعة وعصيانا ﴿بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه عازبة ، فأنتم مكشوفون له يوم الدنيا ، ومكشوفون له يوم يكشف عن ساق ، يوم التغابن ، وأين كشف من كشف؟ :

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ [1]﴾ ﴿عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ :

. ففي الكافي سئل الباقر (ع) عن «النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا» فقال : النور ـ والله ـ الأئمة ، لنور الإمام في قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار ، وهم الذين ينورون قلوب المؤمنين ويحجب الله نورهم عمن يشاء فتظلم قلوبهم ويغشاهم بها.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ : وقد تكرر هذا الجمع في القرآن ، وإنه لفصل القضاء: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ (٤٢ : ٧) : يجمع الله فيه المكلفين بمختلف درجاته ، بكل الدواب ، سواء من هذا النسل الأخير ، إنسانيا وسواه ، أم سواه من الأنسال المنقرضة قبله.

وهنا يومان وجمعان كما في النص ، يوم جمع أول هو جمعهم في الإحياء : قيامة الإحياء : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ ، ويوم جمع ثان هو الهدف الأصيل للأول ، جمع الأحياء للحساب والجزاء الوفاق ، فالقيامة أيام ثلاثة : قيامة الإماتة ، وقيامة الإحياء ، وقيامة الحساب الجزاء ، وفي كلّ منها جمع.

﴿ذلِكَ﴾ اليوم العظيم الممتد ، البعيد المدى ، الذي لا حاكم فيه إلا الله ﴿ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ﴾ والغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينكما بضرب من الإخفاء ، فالتغابن هو التباخس خفيا ، فمن هم المتغابنون يوم الجمع ، وكيف يتغابنون؟

هل إنهم رؤوس الضلالة وأتباعهم ، أن يحاول كل أن يبخس صاحبه فيتبرء؟ : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ. وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (٢ : ١٦٧) ﴿وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ (٤٠ : ٤٨).

فهذا يوم التغابن بينهم في النار يوم القرار ، كما تغابنوا يوم الدنيا ، إذ أضل المضلون أتباعهم غبنا وحيلة ، وأضلهم أتباعهم باتّباعهم فازدادوهم استكبارا وغيلة ، فكانت حياتهم بينهم حياة التغابن ، ولكنه يظهر يوم الدين دون خفاء ، مهما كان خفيا يوم الدنيا.

أو أنه التغابن بين الله والكافرين به؟ فهم كانوا مبتهجين يوم الدنيا بتخلفاتهم ،

حاسبين أنفسهم أنهم السابقون؟ ﴿فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ (٥٩ : ٢) ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (٣٩ : ٤٧) ، فهم أرادوا أن يبخسوا الحق وأهله ، فبخسوا وخسر هنالك المبطلون.

أو انه التغابن بين الأخيار والأشرار ، إذ يحاول الشرّير غبن الخيّر ، ويخفي عليه خيره وشرّ نفسه ، فيحسب أنه يحسن صنعا ، ثم يوم القيامة يظهر الخافي من أمرهما؟ : ﴿وَقالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ. أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ. إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٣٨ : ٦٤) ، وكأنما الفريقان كانا متعاقدين ومتبايعين ، المؤمنون ابتاعوا دار الثواب ، والكافرون اعتاضوا منها دار العقاب ، فتفاوتوا في الصفقة ، وتغابنوا في البيعة ، فكان الربح مع المؤمنين ، والخسران مع الكافرين.

أقول : كل محتمل ، والجمع أجمل ، مهما كان الغبن من الله والمؤمنين حقا ، ومن الكافرين باطلا ، ولكن الكل مباخسة على خفاء ، خفاء المبطل حيلة وغيلة ، وخفاء المحق نتيجة كفر المبطل ، أو جزاء كفره : غبنا بغبن ، جزاء وفاقا.

وقد تلمح الآية نفسها بالتغابن الأخير في تقسيمها الثنائي ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ... وَالَّذِينَ كَفَرُوا ...﴾ فحياة الإيمان والكفر مغابنة ، فان حالة الكافر المريحة المرحة تغبن ضعفاء الإيمان ، وحياة المؤمن الملتوية الصعبة تغبن حمقاء الكفر والطغيان ، ثم تظهر حقيقة الأمر في الحياتين يوم التغابن.

وقد يزعم الكفار أن المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، سوف يدخلون النار كما هم يدخلون ، فهم يغتنمون مزيد الكفر والطغيان ، ويسخرون من هؤلاء المؤمنين الضعفاء : ماذا يفيدكم هذا الإيمان ، وأنتم كأمثالنا من أهل النار؟

فالجواب : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ و «صالحا» تعني فعل كبائر الصالحات وترك كبائر الطالحات : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ وهذا الصالح العظيم سلبا وإيجابا ، يكفر السيئات : الأعمال السيئة غير الكبيرة ، وترك الحسنات الصغيرة ، وهذا غبن من المؤمنين على الكافرين الظانين بهم ظنّ السوء الظالم : أنهم وإياهم سواء.

كما وأن الكافرين ليسوا على سواء ، فمنهم من يخلّد في النار أبدا ، ومنهم من لا يؤبّد ، وبما أن ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تعمّ الفريقين ، لم يذكر أبد النار لهم ، رغم ذكره للمؤمنين فإنهم في الجنة آبدين.

فهذه الفوارق بين المؤمنين الخاطئين ، وبين الكافرين المختلفين في الكفر ، إنها تغابن بينهم ، لمن يجهلون موقف الحساب وميزانه ، تغابن في الدنيا بجهالة الشاردين ، وفي الآخرة بظهور حقيقة الغبن وباطله وأهلهما ، لأنها يوم الدين.

﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ (١٤) إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)

﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

إن المصيبات كلها لا تصيب أهليها إلا بإذن الله ، وإن كانت بما كسبت أيدي الناس ، المصابين وسواهم : ﴿وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٤٢ : ٣٠) ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾ (٥٧ : ٢٣) مما كسبت أيديكم ، أم ما تستحقونه دون كسب كمصيبة الموت في أجله المحتوم : ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ (٥ : ١٠٦) أو ما كسبت أيدي غيركم فتصيبكم ظلما ، لا جزاء ، وإنما ابتلاء سيئا ليزدادوا أجرا وغفرا.

فإذن الله هنا وهناك هو السماح تكوينا بالإصابة ، فلو لاه لاستحالت ، سواء أكانت بحق ، من موت محتوم ، ومن سيئة بما كسبت أيديهم أنفسهم ومنه بعض الآجال المعلقة ، أم بظلم ، كالحوادث الظالمة التي لا نصيب للمظلوم في أصلها ،

وهي الصادرة عن الظالمين ، فما لم يأذن الله لا يصاب المظلوم ، وإذ يصاب فليس ظلما من الله أو جزاء ، وإنما تحقيقا للتخيير ، ورفضا للتسيير في الخير وفي الشر سواء.

فليس الإذن ـ كما يزعم ـ هو السماح التشريعي فحسب ، او لفظة القول التكويني فحسب ، وإنما هو التنفيذ عن علم ، الشامل للقول المؤذن بالسماح ، او الآمر به ، والفعل المنفّذ له : تكوينا ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ﴾ (٨٤ : ٢) او تشريعا ﴿عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ (٩ : ٤٣).

فالألوهية المطلقة الشاملة لكل مألوه ، لزامها أن لا يصدر شيء من الأمر إلا بإذن الله ، دون استقلال لسواه ، ثم الإذن تكوينا فيما نهى الله عنه ، يعني أنه لا يحول بينه وبين فاعله ، ويريد حصوله منه بعد ما اختاره ، دون إجبار ، فهو أولى بسيئاته من الله ، والله أولى بحسناته منه ، إذ يأمر بها ويريدها ويوفق لها ويزيد ، ولكنه ينهى عن السيئات ولا يوفق لها ولا يزيد.

والصبر المأمور به في المصائب لا يشمل تلك التي تصيب ظلما من الظالمين ، فالواجب مكافحتها قدر المستطاع ، وإنما يختص بالتي أذن الله بها جزاء وفاقا ، أم حتم الله كالأجل المحتوم ، وهذا هو مقتضى الإيمان الصحيح ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ﴾ هكذا ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ للشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، ويشرح صدره ، ويفتحه على الحقيقة اللدنية المكنونة ، ويصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى مناشئها وغاياتها ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ومن ثم يطمئن فيزداد إيمانا ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيزوّد المؤمن من علمه ، ويطمئنه من فضله.

وهداية القلب هنا هي زيادة الإيمان جزاء من الله على الإيمان الاختياري ، وما أحلاه جزاء في الدنيا ، وليستعد لجزائه الأوفى في الآخرة!.

وفي عموم إذن الله للإصابات كلها إيذان للكافرين القائلين : لو كان ما عليه

المسلمون حقا لصالحهم ربهم عن المصائب ، إيذان بأن الإصابات كلها بإذن الله وحكمته ، لا يعرفها إلا من هدى قلبه ، وإيذان للمؤمنين أيضا أن لا حول لهم ولا قوة إلا بالله ، وليؤمنوا بقضاء الله في إصاباتهم ، بحكمها المجهولة او المعلومة لديهم بما يعرفون بنور الإيمان.

وبما أن أغلب إصابات المؤمنين مادية في قوالبهم ـ وهي محسوسة ـ والأغلب في غيرهم معنوية في قلوبهم ـ وهي غير محسوسة ـ ففي نوعي الإصابة تغابن بين الفريقين يوم الدنيا ، يظهر حقه يوم الدين ، وأين إصابة من إصابة؟ بلاء لا يلمس فيغتر صاحبه كأنه غير مبتلى على كفره ، وبلاء ملموس يدفع صاحبه للعلاج ، او يصبر على قضاء الله فيزداد أجرا ، او يعرف انه جزاء وتنبيه على سيئاته ، ولكي ينجو عن بلاء الآخرة ، ويقدم على التوبة في الدنيا!.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ :

هنا طاعة الله ، وهناك طاعة رسول الله ، تجتمعان أنهما طاعة الله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ (٤ : ٨٠) وتفترقان أن الأولى هي الأصل والمبدء ، والثانية فرع ، فلا يطاع محمد إلا كرسول يصدر من الله ، ثم الاولى تتمثل في تطبيق كتاب الله ، والثانية في سنة رسول الله ، الثابتة غير المفرقة ، وفي أوامره ونواهيه الولائية والسياسية كقائد للدولة الإسلامية ، فإنه الحاكم بين الناس بما أراه الله ، فمن اختص الطاعة بكتاب الله ورفض سنة رسول الله فقد غوى ، ومن أطاع الرسول تاركا لكتاب الله فقد هوى ، فهما متلازمتان لا تفترقان ولا تتفارقان ، الكتاب الأصل ، والسنة المفسرة الموافقة له.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الطاعتين او إحداهما ﴿فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾

- وعلينا الحساب - فإذا بان بلاغه أنه من الله ، فمن يعصيه إذا فإنما يعصي الله ، ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٦ : ٣٣).

فهذا تهديد شديد للذين يتولون ، وتسكين لخاطر الرسول الأقدس ، كيلا يحزن ، بلاغا من :

﴿اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ :

يتوكلون عليه في كل قليل وجليل ، ما يستطيعونه وما لا يقدرون عليه ، فالفاء في أمر التوكل تفرّعه على الألوهية الموحّدة ، ولا بد لهذا الإنسان الضعيف الهزيل أن يتوكل في الحياة الفوضى ، فمن هو أحرى وكالة من الله؟

ثم من هنا تختص الخطابات في السورة بالمؤمنين ، خطابات تحذرهم عما يفتنهم ويلهيهم ويضلّهم :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ :

الأزواج هنا يعمّ الزوج والزوجة ، كما أن الذين آمنوا يعمّ الذكر والأنثى ، فقد يكون الزوج عدوا لزوجته في سبيل الإيمان ، كما قد تكون الزوجة عدوة لزوجها في هذه السبيل.

فعلى المؤمن ان يعيش الإيمان بكل دوافعه ووقائعه ، مواصلة من يعينه في قضيته ، ومفاصلة من يفصله عنها وإن كانوا من أزواجه وأولاده ، فالأزواج والأولاد الذين يعادونك في سبيل الإيمان ، لا سبيل لهم إلا مفاصلتهم والحذر عنهم كجزاء عما يقترفون ، بعدا عنهم في العشرة والصحبة ، او - إذا لا يخاف ضرّهم ، او يرجو خيرهم - أن يعفو عنهم ويصفح ويغفر ، حتى يغفره الله ويرحمه.

إن دور العلاج المثلث (العفو والصفح والغفر) ليس إلا ظرف رجاء الإصلاح ، او ـ على أقل تقدير ـ عدم خوف الإفساد : أن يمشّوه معهم في صرفه عن الإيمان.

فالعفو هو قصد إزالة الذنب صارفا عن المذنب ، وأفضل منه الصفح وهو ترك التثريب والتعييب ، ولذلك يأتي بعد العفو ، فقد يعفو الإنسان دون صفح ، ثم يأتي دور الغفر وهو إلباس ما يصونه عن الدنس.

إن هذه الآية ونظائرها تعالج مشاكل وعقبات وعرقلات في سبيل الإيمان ، تدفعها عواطف القرابة ، وعواصف النسبة ، فقد يتخلص الإنسان عن الأغلال المتصلة به في سبيل الإيمان ، ثم تبقى أغلال منفصلة عنه صعبة الفكاك ، كالأزواج والأولاد الأعداء في سبيل الحق ، إذ يدفعون ذويهم للتقصير في واجبات الإيمان ، يقفون له في الطريق فيمنعونه عن النهوض بواجبه [1] ، عداء للإيمان ، او اتقاء لما يصيبهم من جرّائه ، فهذه الحالة المعقدة المتشابكة تقتضي إثارة اليقظة في قلوب المؤمنين ، والحذر من تسلسل عواطف القرابة ، المانعة من مواصلة التضحية في سبيل الله ، فاحذروهم ، او عالجوهم.

﴿إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ :

والفتنة ـ وهي الامتحان ـ أعم من فتنة الخير وفتنة الشر

---

(١) تفسير القمي عن أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) في الآية : وذلك ان الرجل إذا أراد الهجرة تعلق به ابنه وامرأته وقالوا : ننشدك الله ان تذهب عنا فنضيع بعدك ، فمنهم من يطيع أهله فيقيم ، فحذرهم الله أبناءهم ونساءهم ونهاهم عن طاعتهم ، ومنهم من يمضي ويذرهم ويقول : أما والله لئن لم تهاجروا معي ثم جمع الله بيني وبينكم في دار الهجرة لا أنفعكم بشيء أبدا ، فلما جمع الله بينه وبينهم أمر الله ان يسوق بحسن وصله فقال : ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (٢١ : ٣٥) ومن فتنة الخير الولد الخيّرون ، كما يروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بحق الحسنين (ع) [١].

فليبتغ المؤمن النابه من الله الأجر العظيم ، فيجعل أمواله وأولاده وحياته كلها ذريعة للوصول الى مرضاة الله ، فيعيش تقوى الله كما يستطيع :

﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ :

والتقوى المستطاعة هي حق التقوى بحساب العبد ، دون حساب الله : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٣ : ١٠٢) ترى ان الله يأمرنا نحن الضعفاء فوق المستطاع ، المستحيل الحصول : حق تقوى الله بحساب الله؟ و ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها﴾ و ﴿... إِلَّا ما آتاها﴾ ، والرسول الأقدس وهو أول العابدين يقول : (ما عبدناك حق عبادتك)! فما اسطورة التناسخ بين الآيتين إلا اكذوبة وقصور فهم ممن لا يفهمون مرادات الله ، فهل يعقل التناسخ بين الممكن والمحال؟.

فالآيتان تتجاوبان في حقيقة واحدة : تقوى الله المستطاعة حقها ، فالتقوى الحقة ـ دون الباطلة ـ المستطاعة ، دون ما لا يستطاع ـ هي التي يؤمر بها المؤمن : أن يكرس طاقاته كلها في التقوى ومكافحة الطغوى ، وأن يسلك سبيل الحق فيها دون ملل ولا فشل.

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢٨ ـ أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم وابن مردويه عن بريدة قال : كان النبي (ص) يخطب فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله (ص) من المنبر فحملهما واحدا من ذا الشق وواحدا من ذا الشق ثم صعد المنبر فقال : صدق الله إذ قال : ﴿إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ، إني لما نظرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما.

وكما أن التقوى الواجبة هي المستطاعة الحقة ، كذلك مخلفاتها من سماع الحق وطاعته وإنفاق الخير في سبيله دون شح وبخل :

﴿وَاسْمَعُوا﴾ من الله ورسوله ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْراً﴾ في سبيل الله ، فلا يرجع إلا ﴿لِأَنْفُسِكُمْ﴾ ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ... يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (٢ : ٢٧٢) ﴿فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ . والله غني عن عباده . فسبيل الله هنا وهناك ليست إلا سبيل مصلحة الإنسان ، الحقيقية ، على ضوء وحي الله ، فهي سبيل الله لأنها بأمر الله ودلالته ، وهي سبيل الإنسان لأنها بفعله ومصلحته ، وإن كانت بتوفيق الله ، فإنفاق الخير وإن كان إفناء للمال حسب الظاهر ، ولكنه نفقة مباشرة لذواتهم وفيها مزيد هو وعد الرحمة الإلهية لمن أنفق خيرا لنفسه.

والنفس الإنسانية وأضرابها ، هي دائما شحيحة في الإنفاق ، فمفلجة صاحبها عن سلوك سبيل الله ، إذا فلا فلاح إلا بوقاية شح النفس : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ... «يوق» لا «يقي» لأن الواقي ليس الإنسان فحسب ، كما ليس هو الله دون سعي من الإنسان ، فمبدء الوقاية في توقّي النفس وسعيها أن تقي شحها ، وهي لا تكفي! ثم الله يتمم له الوقاية : ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ (٤٧ : ١٧) فلنسأل الله تعالى كما سأله الطاهرون (اللهم قني شح نفسي) [١].

إلى هنا أمر المؤمنون بالإنفاق خيرا لأنفسهم ، ومنعوا عن شح النفس ، ثم نرى تزويدهم رغبة في الإنفاق برحمة وعناية تتخطى التصور ، إذ يسمى إنفاقهم لأنفسهم قرضا حسنا لله فيعدهم المضاعفة! :

---

(١) القمي عن الفضل بن أبي مرة قال : رأيت أبا عبد الله (ع) يطوف من أول الليل الى الصباح وهو يقول : اللهم قني شح نفسي ، فقلت : جعلت فداك ما رأيتك تدعو بغير هذا الدعاء! فقال : وأي شيء أشد من شح النفس؟ إن الله يقول : ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ. عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ :

فتبارك الله ما أكرمه وأرحمه ، ينشئنا ، ثم يرزقنا ، ثم يسألنا فضل ما أعطاه ، خيرا لأنفسنا ، ثم يسميه قرضا لنفسه رحمة بنا وتشجيعا لنا ، ثم يشكرنا! سبحان الله العظيم! فحق لهذا العبد الهزيل الذليل أن تزهق نفسه شوقا للقاء هذا الرب الجليل ، فضلا عن ماله القليل القليل ، سبحان الرب الجليل!.

وكما الإنفاق هو الإفناء ، أن يؤتي ماله دون ابتغاء شيء ممن سوى الله ، فيرى كل شيء عند الله ، كذلك الإقراض هو الإقطاع ، أن تقص وتقطع وتختص من مالك ومالك : الله ، قرضا حسنا : بنية حسنة ، من مالك الحسن دون الرديء : ﴿لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٣ : ٩٢) ﴿وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ (٢ : ٢٦٧).

والقطع الحسن : دون رئاء ولا منّ ولا أذى : ﴿لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ﴾ (٢ : ٢٦٤) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ﴾ (٢ : ٢٤٥).

إن تنفقوا هكذا وتقرضوا ﴿يُضاعِفْهُ لَكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ من سيئاتكم ﴿وَاللهُ شَكُورٌ﴾ لما أنفقتم ﴿حَلِيمٌ﴾ عما أسأتم ﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ فالكل له شهادة ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل شيء ، فلا يغلبه شيء ، ولا يحتاج الى شيء من إنفاق وقرض ﴿الْحَكِيمُ﴾ ومن حكمته ورحمته يسمي إنفاقكم خيرا لأنفسكم ، قرضا لنفسه.

(سورة الطلاق ـ مدنية ـ وآياتها اثنتا عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (١)
فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا
الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢)
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣) وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ
وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ

يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (٤) ذلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضآرُّوهُنَّ
لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ
فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ
مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ ما آتاها سَيَجْعَلُ اللهُ
بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ (٧)

هنا يختص النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بالخطاب في البداية ، رغم أن الحكم عام للمسلمين ، لأنه أمر هام ، بالغ الأهمية والخطورة ، لحدّ كأنه بحاجة الى رعايته باهتمام جماهيري من المسلمين ، يرأسهم صاحب الرسالة ، ففيه من الترغيب والتأكيد ما ليس في سواه ، وفيه من توعيد المتلكئين المضارّين ما ليس في سواه ، مما يدلّ على أن الطلاق أبغض الحلال عند الله ، والمحرمات فيه أبغض الحرمات عند الله.

إنها سورة كاملة في القرآن ، كلها موقوفة على تنظيم حالة الطلاق وقبله ومتخلفاتها ، حالة تهدّم وانتهاء ، كأنها أضخم من هدم دولة ، ولأن دولة الإسلام

متشكلة من التجمعات الجزئية ، فالانفصام والفراق فيها يتخطى إلى تهدّم الدولة ، ولذلك ترى ان فراق الطلاق إسلاميا نظّم بحيث كأنه وفاق آخر بعد الطلاق يخلفه ، وفاق هو من مخلفات العدل في الفراق ، لحدّ يحبب بعضهم إلى بعض رغم الطلاق : «وائتمروا بينكم بمعروف».

وبما أن الإسلام يعني من التقاء جسدين في الزواج خلق الخلية الاولى من جسد الامة أي : التقاء قلبين ، لا قالبين فحسب ، إنما التقاء إنسانين كأنهما إنسان واحد ، لذلك يراعي في باب الطلاق أن يبقى الالتقاء الإنساني بوحدة القلبين باقيا ، رغم فراق القالبين ، كأنهما شريكان مسلمان متسالمان في تجارة ، عرفا بعد التجربة ردحا من الزمن أن ليس بينهما انسجام فيها ، لعلل خارجة عن طوقهما ، ففضلا الفراق فيها ، لكيلا تتخطاهما إلى الفراق عن الاخوة الإسلامية ، أو التخلف عن شرعة الله ، فإنهما الأصلان الجذريان في كافة القوانين والأنظمة الإسلامية.

لذلك ترى الآيات في باب الطلاق هنا وفي البقرة وسواهما ، تتشدد على من يستغل الطلاق للمضارة : ﴿وَلا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ ﴿لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ (٢ : ٢٣٣) وإنما «إمساك ﴿بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ﴾ (٢ : ٢٢٩) ثم بعد الطلاق لهن زيادة حق في المعروف ليزيل عنهن بغض ووصمة الفراق : ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢ : ٢٤١) ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (٢ : ٢٢٩). كما في طلاق الخلع والمباراة. ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢ : ٢٣٦) ﴿وَلا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (٢ : ٢٣٧).

مضارة ممنوعة على أشراف الطلاق ، ومتاع بالمعروف حينه ، ثم يستمر المعروف بعده متجليا في تحريرهن في الزواج : ﴿وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَ

فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ﴾ (٢ : ٢٣٢) زواجا بمن طلقهن ، فأحرى! أو زواجا بغيرهم فلا جناح ، ولماذا العضل؟! هذه جولة مختصرة في شروطات الطلاق ومخلفاته ، تجعله فراقا قالبيا ، مع الحفاظ على الوفاق قلبيا قدر المستطاع ، وهذا هو الطلاق في الإسلام ، لا الذي يهدم البيوت ، ويهدر النفوس والنفائس والأعراض ، ممن لا يتقيدون بحدود الله ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾.

تنزل سورة الطلاق [1] هنا وآيات الطلاق هناك ، لا لثورة نسائية عربية أو عالمية ، ولا لأن المرأة دخلت الندوات أو الشوراءات ، ولا لأنها سيطرت زمنيا على الزمن ورجاله ورجّاله ، وإنما كانت هي شريعة الإسلام وعدالته وإرادته بحق المرأة المظلومة المنكوبة التي كانت حيوانة وأردئ منه ردحا بعيدا من الزمن ، فأصبحت على ضوء الشرعة الإسلامية : وليدة لا توأد ولا تهان ، ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ، وزوجة لها حقوقها وكراماتها ، وأمّا لها ضماناتها الكريمة ، فارتفعت حياة هذه الهزيلة الذليلة ، من تلك الهوة والوهدة ، إلى حياة عزيزة أمينة رفيعة.

ترى ان هذا الدين المتين الأمين يعرض عنه أو ينكره إلا مطموس منكوس موكوس ، وفيه ضمانات الحياة كلها! وكراماتها كلها! ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ :

تجعل الآية من النبي وأمته وحدة متماسكة ، كأن النبي هو هو ومن معه ،

---

(١) وتسمى أيضا سورة النساء القصرى ، قال ابن مسعود في حديث العدة : من شاء باهلته ان سورة النساء القصرى نزلت بعد قوله : والذين يتوفون منكم.

ولأنه لا يستقل عنهم ، فكيانه هو الرسالة ، والسفارة الإلهية لهم : لا يأخذها إلا ليعطي.

وطلاق النساء هو فراقهن عن نكاح دائم ، دون المنقطع وملك اليمين ، فإنه الهبة فيهما دون طلاق ، و «طلقتم» وإن كانت تدل بمفردها على مضي الطلاق ، وهو ينافي إمضائه بعده : «فطلقوهن» ولكن «إذا» : الشرطية الزمنية يسلخها عن المضي إلى المشارفة : عند تصميم الطلاق فطلقوا هكذا .. إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن لعدتهن ، ليس إلا ، فالطلاق لغير العدة لا يجزي ولا يجوز للائي لهن العدة ـ إذا ـ فلا تشمل «النساء» هنا غيرهن ، لمكان ذكر العدة ، فما هي العدة؟ وما هو الطلاق للعدة؟

العدة هي هيئة خاصة من العدد ، وبينهما عموم مطلق ، فكل عدة عدد ولا عكس ، فمن الأعداد ما هي مجهولة غير محصيّة ، ولكن العدة هي المعلومة من العدد ، سواء أكان المعدود زمانا ، أو مكانا أو أشخاصا أم ماذا؟

ومن عدة النساء أشهر تربصهن بأنفسهن نظرة زواج جديد ، أو التحلل عن الأول ، كذلك وتريث أزواجهن رجاء الرجوع إليهن قبل انقضائها ، إلا في عدة الطلاق البائن فإنه تربص بهن للزواج ورعاية لحرمة الزوجية ، أللهم إلا في المختلعة والمباراة إذ تصبح رجعية باسترجاع حقها. ومنها عدد الطلاق المسنون في الإسلام ، وهو من الواحد إلى التسعة ، دون زيادة ولا نقيصة [1] ، و «لعدتهن» تتحمل العدتين : أن يطلّقن العدد المعلوم ، ولزمن معلوم : عدة الدفعة وعدة الزمن ، وعدة الزمن هي مجموعة زمن التربص بداية ونهاية ، ف «لعدتهن» دون : من عدتهن ، أو إلى عدتهن ، أو في عدتهن ، إنها تشملها بدء وختما.

---

(١) اصول الكافي عن جعفر بن محمد (ع) قيل له : أخبرني عن رجل قال لامرأته أنت طالق عدد نجوم السماء؟ فقال : ويحك؟ أما تقرء سورة الطلاق؟ قلت بلى ـ قال : فاقرء ، فقرأت : فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة ، قال : أترى هاهنا نجوم السماء؟ قلت : لا ..

فليس الطلاق بذلك الفوضى في العدد ، ولا في تطبيق العدد ، ولا في العدة الزمنية بداية ونهاية ، وكما نعرف عدة المرات وكيفية تطبيقها من السنة : أنها واحدة إلى تسعة ، لا تتحقق إلا واحدة لوقت واحد ، كذلك نعرف العدة الزمنية أن بدايتها في المدخول بها ، غير الحامل ولا الصغيرة أو اليائسة ، هو طهر غير المواقعة ، فالطلاق لا يجوز ولا يجزي في طهر المواقعة ، وفي حيض غير الغائب ولا الجاهل ، لأنه خلاف عدتهن المفسرة في السنة الثابتة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم [1] ومن الحكمة في هذا التوقيت ، إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي ثارت فيها النفس للفراق ، فقد تسكن إن كانت طارئة وتعود إلى الوئام ، فليتربص حتى تطهر ، ثم إن ملك نفسه وأراد الطلاق قبل الوقاع ، فهذا دليل تمكن الإرادة ، وقليل هؤلاء ، وكثير أولاء الذين تتوق أنفسهم إلى الوقاع بعد ما صبرت أيام الحيض ، فتؤجل الطلاق لطهر آخر إذا كان تصميما غير تام ، ومن

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٢٩ . أخرج مالك والشافعي وعبد الرزاق في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وأبو يعلي وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر انه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك لرسول الله (ص) فتغيظ فيه رسول الله (ص) ثم قال (ص) ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء وقرأ النبي (ص) ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وفي وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٢٧٢ ح ١ باسناده عن أبي بصير قال سمعت أبا جعفر (ع) يقول : والله لو ملكت من أمر الناس شيئا لأقمتم بالسيف والسوط حتى يطلقوا للعدة كما أمر الله عز وجل وفي ج ٣ عنه (ع) لو وليت الناس لعلمتهم كيف ينبغي لهم أن يطلقوا ثم لم أوت برجل قد خالف إلا أوجعت ظهره ومن طلق على غير السنة رد إلى كتاب الله وان رغم أنفه وفي ج ١ ص ٢٧٣ عن عمرو بن رياح عنه (ع) قال قلت له : بلغني انك تقول من طلق لغير السنة انك لا ترى طلاقه شيئا فقال (ع) ما أقوله بل الله يقوله ... وفي ص ٢٧٤ الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال : الطلاق لغير السنة باطل.

أقول : فما ورد من صحة الطلاق لغير العدة زخرف يضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب الله وسنة رسول الله (ص) المتواترة الثابتة عنه.

ثم ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ وهذه أولى المحاولات لدفع المعول عن ذلك البناء الرصين : الزوجية ، ثم تتلوها محاولات أخرى.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ : طلاقا ، وعدة للطلاق ، وإنما يؤمر الأزواج بإحصائها ، مع أنه لصالح الزوجات أيضا ، نظرة الزواج الثاني ، لأن مصلحتهم هنا اكثر من مصلحتهن ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ فأراد الرجوع ، فإذ لم يحص العدة لم يضبط معه الرجوع ، وكذلك النفقة الواجبة عليه زمن العدة ، فهنا مصلحة المنفق تقتضي ضبط العدة ، لكيلا تزيد عن الواجب عليه ، ومن مصالحها في الإحصاء ألا يطول عليها الأمد فيطول الانتظار للزواج الثاني ، فإنه يضم النفقة أيضا ، وألا ينقص الأمد فتقل النفقة ويكون النكاح الثاني نكاحا بالمعتدة وهي من المحرمات الأبدية.

﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ في طلاقهن لعدتهن ، فلا يكن لغيرها ، وفي إحصاء العدة ، فلا تزيدوا فيها نظرة الرجوع ، أو المضارة ، ولا تنقصوا عنها تنقيصا للنفقة ، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ كذلك في اخراجهن أو خروجهن عن بيوتهن :

﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ﴾ : «بيوتهن» لكي تعم البيوت التي سكنّها كبيوت الزوجية ، لا «بيوتكم» فليست النساء كلهن في بيوت أزواجهن ، فبيت الزوجية المقرر لها بنفقة الزوج ، هو حق لها إلى نهاية العدة الرجعية ، فإن كان هذا البيت عارية أو مستأجرا وانتهت مدته ، كان عليه تبديله بغيره ، كل ذلك رجاء الرجوع ، فإخراجهن عنه محرّم مهما كلف الأمر ، وكذلك خروجهن ، وليس لهما المصالحة على خروجها لأن بقاءها ليس حقا لهما فحسب ، إنه حكم الله ، لا يقبل المصالحة ، وحق المجتمع ، وحق الزوجين ، فإن أردن الخروج كان عليهم المنع نهيا عن المنكر ، فأحرى للزوج هذا النهي لأنه لصالحه ، وإن أراد إخراجه كان لها النهي والتمنع ، وإلا فعلى الحاكم الشرعي منعهما عن ذلك ، كما على كل مسلم ، ولها أن تتزين وتتجمّل لزوجها وتحاول في جلب نظره كما وردت به

أحاديث سنادا إلى الآية [1].

فلا يجوز إخراجهن ولا خروجهن لأي أمر اللهم إلا الواجب المضيق شرعا كالحج ، أو لضرورة أخرى يتطلب خروجها وتفوت بمضي العدة ، فتخرج قدر الضرورة.

وهل الإخراج والخروج الممنوعان هما إخلاء بيت الزوجية عنهن للنهاية؟ أم وخلوه اكثر من العادة الجارية قبل الطلاق؟ أم مطلق الإخراج والخروج ولو ساعة؟ أقول : إن الإخراج قرينة على المعني من الخروج أنه لا يشمل القليل ، فالأول هو القدر المتيقن ، ويلحقه الثاني استيحاء من حكمة البقاء ، والثالث غير محتمل ، إذ لا يصدق عليه الإخراج ، ولا يضر برجاء الرجوع ، فلا إخراج ولا خروج هكذا إلا لضرورة قدرها ، وإلا : ﴿أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ : مبينة أنها فاحشة : تجاوزت الحد ، ومبينة للبينة ، أو للزوج ، ومبينة أنها لا تصلح للعودة : مثلث التبيين : من زنا ومساحقة ، أو نشور لا يتحمل ، أو إيذاء ، الأمور التي تبين ألا رجاء للرجوع ، وأما الفاحشة غير المبينة ، من الثلاث أم سواها ، أو غير الفاحشة من المعاصي والتخلفات ، وبصيغة جامعة ، التي لها علاج عاجل أو آجل ، فهي لا تسمح للإخراج أو الخروج ، بخلاف المبينة التي تصارح ألا علاج إلا الفراق ، فالحكمة في إبقاء المطلقة في بيت الزوجية هي إتاحة الفرصة للرجوع ، واستثارة عواطف المودة ، وذكريات الحياة المشتركة ، وقد زالت كلها بفاحشة مبينة ، إذ ارتكست في حمأة الزنا وهي بعد في بيت الزوجية ، أو بغيرها من فاحشة : معصية متجاوزة حدها ، مبينة أنها تتعمدها لكي تتحلل ، وهل يبقى بعد هذا البيان الصريح مجال لرجاء الرجوع؟

---

(١) وسائل الشيعة ج ١٥ ص ٤٣٧ عن أبي عبد الله (ع) قال : المطلقة تكتحل وتختضب وتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب لأن الله عز وجل يقول : ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ المحددة للطلاق والعدة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أيا كان التعدي ، كمن يطلق حالة الحيض ، أو في طهر المواقعة ، أو يخرجها عن بيت الزوجية دون مبرّر ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ إذ قطع عنها رجاء الرجوع في الفترة المسموحة له ، وظلم زوجه التي هي كنفسه ، ظلما مزدوجا هنا ، وسوف يراه في الاخرى.

﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾ وإن كنت دريت من نفسك عدم ميل الرجوع ، ولكن مقلب القلوب قد يحدث في هذه الفترات أمرا مرغوبا ، فتتغير الأحوال البئيسة إلى هناءة ورضى ، فالنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وتغلق عليها منافذ المستقبل ، فتزعم اللحظة سرمدا ، رغم أن المستقبل قد يحمل ما لم يكن بحسبانه ، يحمل أمر الله المقلب للقلوب والظروف والملابسات ، فيجعل الله بعد عسر يسرا ، فربّ محتوم عندك بما تراه ، متغير عند الله بما يراه ، فغيّر حتمك في نظرك القاطر ، إلى ما يراه الله القادر ، ولا تمض فيما حكمت إلا متربصا متريثا راجيا رحمة الله ، فطلاقك حالة الحيض ، وهي حالة كريهة ، وفي حالة طهر المواقعة ، وقد قضيت حاجتك منها ، وإخراجك زوجك عن بيت الزوجية ، زمن العدة ، كل ذلك استعجال لما رأيت ، وصدّ عن استئناف الرأي ورجاء الرجوع ، وعن أن يحدث الله بعد ذلك التصميم العاجل الجاهل ـ أمرا ، هو لصالحك وزوجك!

هذه الحكم والعلل في تأجيل الفراق تأتي برهانا بينا على بطلاق الطلقات الثلاث في مجلس واحد ، وكذلك كل لعبة تزيل رجاء الرجوع ، فانها استهزاء بآيات الله : ﴿وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ (٢ : ٢٣١).

وهذه هي المحاولة الثانية لدفع معول الطلاق ـ بعد وقوعه ـ عن اجتثاث البناء ، فان المطلقة رجعية زوجة ما دامت في العدة.

ثم وفي نهاية العدة ومشارف الفراق يؤمر بالتلطف معها إمساكا أو فراقا :

﴿فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ﴾ :

الأجل البالغ لغير الحامل وغير المسترابة ، ثلاثة قروء : ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (٢ : ٢٢٨) كضابطة عامة للمعتدات إلا من استثني.

والإمساك بمعروف هو الرجوع إلى بلوغ الأجل ، فإذا بلغ وخرج فلا رجوع ، والفراق بمعروف يحصل بعدم الرجوع حتى يخرج الأجل : ﴿وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلا تَتَّخِذُوا آياتِ اللهِ هُزُواً﴾ (٢ : ٢٣١) ﴿الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ﴾ (٢ : ٢٢٩).

﴿فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ وهو الرجوع إلى عصمة الزوجية ، ويتحقق الإمساك الرجوع بالقول والفعل والإشارة ، الدالة عليه ، ومعروفه ألا يكون ضرارا واعتداء ، تضييقا عليهن نقمة ، أو رجاء الأخذ مما آتوهن شيئا و «لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ بأن يصبر إلى قبيل النهاية فيراجعها لا لغرض العود إلى عصمة الزوجية ، وإنما ليطول تربصها ، وتذوق وبال الرجوع في سجن هكذا رجوع ، ثم يطلقها ثانية ويضارها كالأول ، فهذا الإمساك الضرار لا يجوز وقد لا يجزي ، وهو من اتخاذ آيات الله هزوا ، فآيات الإمساك والرجوع تعني الإصلاح ، وأنت تعني الإضرار! وإنما الإمساك المعروف هو المسموح الذي يعرفه الضمير الإنساني الطاهر ، والفطرة السليمة الإسلامية ، وهو العود إلى حياة سليمة أمينة متينة ، وإلا فلا مجال إلا الفراق والتسريح بإحسان ، فراق جسدي لا فراق ودّي ، فراق لا يفارق الإحسان : خلقيا وماليا ، أن تودي ما فرض الله لهن وزيادة : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢ : ٢٣٧) ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (٢ : ٢٤١).

فصلة الزوجية ـ إسلاميا ـ تقوم بمعروف وتنتهي بمعروف ، استبقاء لمودّات القلوب مهما افترقت القوالب ، فقد تعود بعد الفراق إلى عشرة حسنة وأحسن مما مضى ، فلا تنطوي على ذكرى رديئة ، أو شائبة تعكّر صفاءها عند ما تعود.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ وهل إن اشهاد ذوي عدل يختص بالطلاق؟ إذا فلما ذا لم يأت بعده دون فصل به أن يقول : فطلقوهن لعدتهن وأشهدوا ..! أو أنه يعمه والإمساك والفراق ، شهادة مثلثة : للطلاق والرجوع أو الفراق؟ وليس الفراق عند بلوغ الأجل إلا استمرار الطلاق فلا يحسب له حساب مستقل عن الطلاق ، إلا أن نقول : الطلاق يتطلب شهادتين مرتين! أو أنه للطلاق والرجوع؟ وهذا هو الظاهر من هذه الشهادة المتأخرة ذكرا عن الإمساك ، فكما الطلاق بحاجة إلى شهادة حفاظا على المواريث والأنساب ، وانسراحا للمطلقة في زواج آخر ، كذلك الرجوع ، ولكي تثبت حقوق الزوجة من جديد ، فقد يعلم الناس بالطلاق ، ولا علم لهم بالرجعة ، فتثور شكوك وتقال أقاويل ، إلا أنّه قد يكتفي بشهادة الرجعة بعدها ، إذ لا تتيسر غالبا عندها ، ويحصل المقصود ، فإنها لفظة قول أو عمل لا تعلم إلا من قبلهما ، ولكن الطلاق بحاجة إلى شهادة حينه ، لكيلا يلتبس الأمر ، ويكون عن بينة [1].

ولا تكفي ذوات العدل عن العدلين مهما كثرن وطمئن ، ولا حجة في القياس ولا في غيره وإن كان حجة ، لمخالفة الآية ، فإثبات ذوي عدل للشهادة هنا ينفي ما عداهما ، ولو كفت النساء فلما ذا تختصها الآية برجلين ، ولا تذكرهن

---

(١) مما يدل على الاشهاد للرجعة ما رواه في الكافي عن بريد الكناسي قال : سألت أبا جعفر (ع) عن طلاق الحبلى (إلى أن قال) قلت : فإن طلقها ثانية وأشهد ثم راجعها واشهد على وعد رجعتها ومسها .. إذ يدل على أن الاشهاد للرجعة مركوز في أذهان المتشرعة كالإشهاد في الطلاق.

بدلا كما ذكرن في الدّين : ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، فعدم ذكر البدل في شهادة الطلاق يجعل الآية صريحة في اختصاصها بعدلين.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ﴾ : أقيموا أيها المستشهدون ، والشهداء ، ومن يعلم الشهادة ، أقيموها في محاكم الشرع عند الحاجة «لله» لا لصالح الزوج أو الزوجة أو الحاكم أم ماذا ، إنما «لله» فلا تأخذكم في الله لومة لائم ، ولا توعيد واعد ، ولا رغبة في جاه أو مال ، فالقضية هي قضية الله ، والشهادة فيها إنما هي لله ، هو الآمر بها ، والرقيب عليها ، والمجازي بها ، فأقم الشهادة لله ولو على نفسك أو الوالدين والأقربين.

﴿ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ : ذلكم الحدود كلها ، إنها قضية الإيمان بالمبدء والمعاد ، فمن يتعداها فقد تعدى الإيمان :

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ :

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ﴾ هنا وفي غيرها من حدود الله ومحارمه ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ : «من الفتن ونورا من الظلم» (١) ومخرجا من مضايق التقوى وعقباتها وعرقلاتها ، ف «من اتقى الله يتقى ، ومن أطاع الله يطاع» (٢) ومن لم يتق الله اتقى من غير الله ، ف «من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء» (٣) ومن مخرجه أن يعلم من قبل أو حينه أمر الله ، وأن الله هو الذي يعطيه وهو يمنعه وهو يبتليه وهو يعافيه وهو يدفع عنه ، وقد قال الرسول

---

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي (ع).

(٢) اصول الكافي عن أبي الحسن (ع).

(٣) في الخصال عنه (ع) أيضا.

صلّى الله عليه وآله وسلّم : «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها».

ومن مخرجه في الطلاق أنه يخرجه عن عقباته ويرزقه من حيث لا يحتسب من الطيبات.

ومن المضايق في سبيل التقوى مضايق الجهل بالواجب ، وإضلال الضالين ، وإغراء المبطلين ، فهي بحاجة إلى فرقان ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ (٨ : ٢٩) : تفرقون به بين الحق والباطل ، فتقوى الله تعالى يخلفها مخرج وفرقان من الله ، نور يمشى به في الظلمات.

وكلا المخرج والرزق من حيث لا يحتسب ، يعمان الدنيا والآخرة ، كما يروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قرء الآية وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت وشدائد يوم القيامة» [١].

وقد يظن المؤمن أن لو اتقى عاش ضنكا ، فيضنّ بالتقوى أحيانا ويمارسها أخرى ، زعما منه أن أسباب الرزق محصورة فيما يحتسبها ، ولكن الله : ﴿يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ : رزقا عقليا وعلميّا وعمليّا ، ورزقا نفسيّا وضميريا ورزقا ماديا وما إليها من صنوف الأرزاق ، غير المحتسبة ، الداخلة في حساب الله لمن اتقاه.

---

(١) اصول الكافي عن أبي عبد الله (ع) أنه قال لعلي بن عبد العزيز ما فعل عمر بن مسلم؟ قال : جعلت فداك أقبل على العبادة وترك التجارة ، فقال : ويحه! اما علم ان تارك الطلب لا يستجاب له ، إن قوما من أصحاب رسول الله (ص) لما نزلت ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ ..﴾ أغلقوا الأبواب واقبلوا على العبادة وقالوا : قد كفينا ، فبلغ ذلك النبي (ص) فأرسل إليهم قال : ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا : يا رسول الله (ص)! تكفل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة ، قال : إنه من فعل ذلك لم يستجب له ، عليكم بالطلب. وفي عوالي اللئالي فعلم النبي (ص) بذلك فعاب ما فعلوه وقال : إني لأبغض الرجل فاغرا فاه إلى ربه : اللهم ارزقني ويترك الطلب.

هذا ، ولكنه ليس يكتفى بتقوى الله من الرزق المحتسب الواجب تحصيله بالسعي ، لكي يكتفي بها عن طلب الرزق [١] ، وإنما الله يطمئن المتقين أنهم لا ينقصهم ما قدّر لهم بالتقوى ، التي تحول بينهم وبين شيء من الرزق المحتسب ، فان الله يبدلهم بغير المحتسب ، وفيما إذا اقتضت التقوى ترك الطلب ، فحشرت الأوقات كلها في سبيل التقوى الواجبة ، كالجهاد ، وطلب العلم ، والدعوة إلى الله ، فهنا لك يكون الرزق كله من حيث لا يحتسب [٢] وقد قال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم» و «اتخذوا تقوى الله تجارة يأتكم الرزق بلا بضاعة ولا تجارة» ثم قرء الآية [٣].

---

(١) الدر المنثور ٢٣٢ ـ أخرج ابو يعلى وابو نعيم والديلمي من طريق عطاء بن يسار عن ابن عباس عنه (ص).

(٢) القمي ـ عن أبي عبد الله (ع) في الآية : قال : هؤلاء قوم من شيعتنا ضعفاء ليس عندهم ما يتحملون به إلينا فيسمعون حديثنا ، ويقتبسون من علمنا ، فيرحل قوم فوقهم وينفقون أموالهم ويتعبون أبدانهم حتى يدخلوا علينا فيسمعوا حديثنا فينقلوه إليهم فيعيه هؤلاء ويضيعه هؤلاء فأولئك يجعل الله عز وجل ذكره لهم مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبون (نور الثقلين ٥ : ٣٥٥).

أقول : هذا من أبرز مصاديق الآية دون اختصاص لها به.

وفيه باسناده عن أبي جعفر الخثعمي قال : لما سير عثمان أبا ذر إلى الربذة شيعه أمير المؤمنين (ع) وعقيل والحسن والحسين (ع) وعمار بن ياسر (رض) فلما كان عند الوداع قال أمير المؤمنين (ع) : يا أبا ذرّ! إنما غضبت لله عز وجل فارج من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك فأدخلوك على الفلا وامتحنوك بالقلاء ، والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقا ثم اتقى الله جعل له منها مخرجا ، لا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل.

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٣٣ ـ أخرجه الطبراني وابن مردويه عن معاذ بن جبل عنه (ص). وقد ورد في سبب نزول الآية أحاديث عدة نذكر منها التالي :

الدر المنثور ٦ : ٢٣٢ ـ أخرج الخطيب في تاريخه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في الآية ـ قال : نزلت هذه الآية في ابن لعوف بن مالك الاشجعي وكان المشركون أسروه وأوثقوه وأجاعوه فكتب إلى أبيه أن ائت رسول الله (ص) فاعلمه ما أنا فيه من الضيق والشدة ، فلما أخبر رسول الله (ص) قال (ص) له : أكتب إليه وأخبره ومره بالتقوى والتوكل على الله وأن ـ

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ [1] بعد ما اتقاه بالمستطاع دون بتل ولا فشل ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ عما سواه من الأسباب ، فإنه مسبّبها ومالك أمرها ﴿إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ﴾ . و ﴿غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ . ولا أمر : من الأشياء أو الأمور ، أو الأوامر ، إلا صادرا عنه وفاعلا باذنه ، فهو بالغ أمره تشريعا وتكوينا ، بلا قصور ولا تقصير ولا فتور ولا تقتير ، فليس بحاجة في إنفاذ أمره إلى أسباب ، وإنما الأسباب بحاجة إليه في كيانها وآثارها ، فهو البالغ للأمور كلها لا سواه ، وهو الغالب عليها لا سواه ، فعليه التكلان وبه المستعان لا سواه ، ولكن ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ : بمقداره ، وبزمانه وبمكانه وبملابساته ونتائجه وأسبابه ، دون صدفة ولا فوضى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ (٥٤ : ٤٩) ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾

. يقول عند صباحه ومسائه ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فلما ورد عليه الكتاب قرأه فأطلق الله وثاقه فمر بواديهم التي ترعى فيه إبلهم وغنمهم فاستاقها فجاء بها إلى النبي (ص) فقال يا رسول الله (ص) إني اغتلتهم بعد ما اطلق الله وثاقي فحلال هي أم حرام؟ قال (ص) : بل حلال ، إذا شئنا خمسنا ، فأنزل الله ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾.

(١) معاني الأخبار للصدوق (ره) باسناده عن أحمد بن أبي عبد الله قال : جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال له النبي ص : يا جبرئيل! ما التوكل؟ فقال : العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله ولم يرج ولم يخف سوى الله ولم يطمع في أحد سوى الله ، فهذا التوكل.

وفي الدر المنثور ٦ : ٢٣٤ عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله (ص) : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا.

وفيه عن ابن عباس رفع الحديث إلى رسول الله (ص) قال : من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله.

(١٥ : ٢١) ﴿وَلكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٤٢ : ٢٧) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ (١٣ : ٨) ، فلا فوضى في أمره ، ولا بلوغه أمره ، وإنما كل حسب الحكمة العالية.

فإذ يأمر الله بأمر فهو إلى رشد وصلاح مهما كانت العقبات والعرقلات ، وعامله إلى نجاح ، والله هو حسبه في الإنجاح ، فإنه بالغ أمره ، دون أن يحجزه حاجز ، أو يعجزه معجز! ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ :

هذه والمسبقة عليها تختص بعدد الطلاق دون الوفاة ، وبالمدخول بها غير اليائسة دون غيرها ، فالمطلقة المدخول بها إذا كانت في سن من تحيض وهي تحيض فعدتها ثلاثة قروء ، وإذا لا تحيض فثلاثة أشهر ، وكذلك اليائسة المسترابة ولا عدة لغيرها.

واليأس من المحيض ، منه مريب كما يرتاب فيه أنه لبلوغها إلى سن اليأس أم لمرض ، سواء أكان للشك في كونها هاشمية أم سواها ، أو الشك في قدر عمرها أم ماذا ، ومنه غير مريب كالواصلة إلى سن اليأس فلا عدة لها ، أو التي هي في سن من تحيض ولا تحيض ، فعدة الاولى والأخيرة هي ثلاثة أشهر.

﴿وَأُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ : مهما كانت الضابطة في العدة للمدخول بهن غير اليائسات ، الأقراء او الأشهر ، فأولات الأحمال والمتوفى عنهن أزواجهن خارجات عن هذه الضابطة ، فالحاملات يتربصن حتى يضعن حملهن ، والمتعزيات يتربصن أربعة أشهر وعشرا : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٢ : ٢٣٤) إذا فما هو أجل الحاملات المتعزيات؟.

أقول : إن بين الآيتين بالنسبة لهن تجاوب الجمع بين الأجلين ، فبينهما عموم من وجه ، تتصادقان وتجتمعان في الحاملات المتوفى عنهن أزواجهن ، فآية الحاملات تشملهن والمطلقات ، وآية الوفاة تشمل الحاملات وغير الحاملات ، فالآيتان ـ إذا ـ تحملان لمورد الجمع أجلين ، أحدهما للحمل والآخر للوفاة ، فهما إذا يتداخلان والغاية أبعد الأجلين ، من وضع الحمل والأربعة وعشرا ، فليس هنا لأجل الوضع مجال التعجيل ، إلا التأجيل إلى أجل الوفاة لوجود السببين.

ثم لا أجل للحاملات المطلقات إلا وضع الحمل ، ولا للمتوفى عنهن أزواجهن غير الحاملات إلا أجلهن الخاص ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾ ، كما توحي بهما الآيتان ، إذ ليس في كلّ إلا أجل واحد ، إلا إذا اجتمعا فتداخل الأجلان.

فمهما أوحت آية الحاملات باختصاص الأجل بوضعه ، وآية الوفاة باختصاصه بالأربعة وعشرا ، فإنما الإختصاص هنا وهناك إذا لم يوجد إلا سببه الخاص ، ففيما اجتمع السببان فالآيتان تتجاوبان في جمع الأجلين المسببين.

ثم إن أولات الأحمال تعمّ كل حمل ، في أيّ من أشهر الحمل ، وأيا كان الحمل وإن كان مضغة [1] او نطفة مستقرة ، كما يعمّ الوضع المعتاد وسواه من إجهاض ، جنينا كاملا او سواه وإلى نطفة تنطف ، عامدة في الوضع أم سواها.

فلا رجعة الى أولات الأحمال المطلقات بعد الوضع وإن كان بعد هنيئة من الطلاق ، إذ لا أجل لهن إلا الوضع ، كما لا يجوز الزواج للحاملات المتوفى عنهن أزواجهن إلا بعد الأربعة وعشرا ، فانها الأجل الثابت بشأن الوفاة ، إلا أن

---

(١) الكافي بإسناده الى عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي الحسن (ع) قال : سألته عن الحبلى إذا طلقها فوضعت سقطا تم او لم يتم او وضعته مضغة؟ قال : كل شيء وضعته يستبين أنه حمل تم او لم يتم فقد انقضت عدتها وإن كان مضغة.

يضعن بعدها فبعده [1].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ : مهما كان عسرا في ظاهر الحال والبداية. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾. : يسرا في ضميره، ويسرا في فلاحه ونجاحه، ويسرا في عاجله وآجله.

﴿ذلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ :

فتقوى الله في كبائر الحسنات والسيئات، تكفير لصغائرهما، وإعظام للأجر : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ (٤ : ٣١).

فهذا مربع الوعد الإلهي الحنون لمن اتقى : عاش حياته التقوى. أن : يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويجعل له من أمره يسرا، ويعظم له أجرا، أركان اربعة تنتجها التقوى في بناية الحياة، فيا لتقوى الله موقعا عظيما، وفي باب الطلاق، إذ يدق عليها دقا متواصلا هنا، ثم لا نجد في سواه هكذا ... فيض يغري، وعرض يثير، تيسيرا للعسير، وتكفيرا للسيئات مع أجر كبير، سبحان الرؤوف الرحيم، الخبير البصير.

ثم ومن التقوى المأمور بها الإسكان من حيث سكنى الوجد والإنفاق :

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ...﴾ :

---

(١) القمي بإسناده الى حماد عن الحلبي عن أبي عبد الله (ع) عن المرأة الحبلى يموت زوجها فتضع وتزوج قبل ان يمضي لها اربعة أشهر وعشر، فقال : إن كان دخل بها فرق بينهما ثم لم تحل له أبدا واعتدت ما بقي عليها من الأول واستقبلت عدة اخرى من الأخير ثلاثة قروء، وإن لم يكن دخل بها فرق بينهما واعتدت بما بقي عليها من الأول وهو خاطب من الخطاب.

«هن» هنا الرجعيات كما في مسبقة الآيات ، فالإسكان هنا كصيغة اخرى عن الإبقاء في بيوت الزوجية هناك كما كن قبل الطلاق ، رجاء الرجوع ، ف ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ تصريحة بوجوب إسكانهن في بيت الزوجية ، فلا يشمل ـ إذا ـ المعتدات البائنات ، فلا يجب بل لا يجوز إسكانهن فيه لانقطاع علقة الزوجية ، فهل يجوز إسكان الغريبة في سكناك؟!.

إذا فلا إسكان ، ولا نفقة كذلك ، للبائنات المعتدات كغير المعتدات سواء ، وكما اتفقت بذلك الروايات عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وأئمة أهل بيته الكرام (ع) والمخالفة منها تردّ الى قائلها ، او تؤوّل ، او تضرب عرض الحائط ، وأحرى بالضرب الأقاويل التي تقرر أن للبائنة غير الحاملة حق السكنى [1].

والإسكان لمن كانت في بيت الزوجية هو استمرارها فيه ، ولمن أخرج عنها هو إرجاعها إليه ، ولمن لم يكن لها سكنى الزوجية ، كالتي كانت في بيت أهلها ، أنه لها تهيئة السكنى ، ولمن كانت في بيت بحساب الزوج ، وهو في بيت آخر ، إن ينقلها الى بيته ، فصيغة الإسكان ـ إذا ـ أشمل من ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ .. وَلا يَخْرُجْنَ﴾ وأخص منها كذلك ، إذ تدل على وجوب كونها معه قدر الإمكان حالة العدة الرجعية ، مهما كان الوجوب قبلها مطلق السكنى.

ثم الإسكان ـ أيا كان ـ واجبة الوجد ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ : مكانا تسكنون فيه ، حسب المكنة والمكانة ، على الموسر قدره وعلى المعسر قدره ﴿وَلا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في الإسكان من حيث الفسحة والمستوى ، ومن حيث النفقة والعشرة ، ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ فيلجأن للخروج ، مضارة مقصودة لغاية التضييق ، وأما غير المقصودة ، لقصوره او قتور المال ، فلا جناح فيها ، ف ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها﴾.

---

(١) كما في آيات الأحكام للجصاص : اتفق الجميع من فقهاء الأمصار وأهل العراق ومالك والشافعي على وجوب السكنى للمبتوتة.

﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ النساء : رجعيات وبائنات ﴿أُولاتِ حَمْلٍ﴾ أياكان الحمل وفي أيّ من أشهر الحمل ، حملا منكم ، فالحاملة من زنا قبل الطلاق او بعده ، ليس وضعها أجلها ، فلا تستحق الإنفاق لأجل الحمل حتى الوضع ، وإنما لحدّ ختام الأقراء او الأشهر ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ إنفاقا للحمل في البائنات ، وله وللعدة في الرجعيات.

فهناك الإسكان من حيث سكنى الأزواج خصهن بالرجعيات ، وهنا الإنفاق لأجل الحمل عمّهن والبائنات ، وعدم ذكر الإسكان هنا مع الإنفاق رغم ذكره هناك ، كذلك يشهد للعموم ، فالحاملات الرجعيات لهن سكنى الزوجية ، والإنفاق ، إذ تشملهن آية الإسكان والإنفاق ، والحاملات البائنات لهن الإنفاق الشامل لسكنى غير الزوجية ، فلهن السكنى والنفقة حتى يضعن حملهن.

فذكر الإنفاق هنا لا يدل على عدم وجوبه للرجعيات غير الحاملات ، إذ دلّت عليه ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ و ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ ..﴾ وإنما يدل على وجوبه للحاملات البائنات ، ولم يدل عليه دليل من ذي قبل ، وإنه الإنفاق ، لا الإسكان لهن من حيث سكنى الأزواج ، وإن ضمّ مطلق السكنى ، وإنه إنفاق قد يزيد على إنفاق الرجعية غير الحاملة ، كما إذا وضعت بعد الأقراء ، او ينقص إن وضعت قبلها ، مهما اتفق الوضع في ختام الأقراء أحيانا ، ففيه زيادة البيان التشريعي أن حقها يختلف عن غير الحامل.

فليس ذكر الإنفاق هنا لمجرد التأكيد ، رغم ما قيل ، وإنما لأنه يشمل السابق من جهة ، ويخص اللاحق من أخرى ، فلا الإنفاق يدل على الإسكان من حيث سكنى الأزواج ، ولا أن هكذا سكنى يدل على الإنفاق للحاملة البائنة.

فحاصل المقصود من الآيات ، أن البائنات غير الحاملات ليس لهن شيء من النفقة والسكنى (١) إلا مهورهن في غير المفتديات بها ، وللحاملات منهن الإنفاق

---

(١). روى الشعبي قال : دخلت على فاطمة بنت قيس بالمدينة فسألتها عن قضاء رسول الله (ص) فقالت : طلقني زوجي البتة فخاصمته الى رسول الله (ص) في السكنى والنفقة فلم يجعل لي سكنى ولا نفقة وأمرني ان اعتد في بيت ابن ام مكتوم.

وروى الزهري عن عبد الله أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي عمر وابن حفص بن المغيرة المخزومي ، وأنه خرج مع علي بن أبي طالب (ع) الى اليمن حين أمره رسول الله (ص) على اليمن ، فأرسل الى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها ، فأمر عياش بن أبي ربيعة والحرث بن هشام أن ينفقا عليها ، فقالا : والله ما لك من نفقة ، فأتت النبي (ص) فذكرت له (ص) قولهما ، فلم يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملا ، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها فقالت : أين انتقل يا رسول الله؟ فقال (ص) : عند ابن ام مكتوم.

الشامل للسكنى المنفصلة حتى يضعن حملهن [1] ، وللمعتدات الرجعيات الإسكان من حيث سكنى الأزواج ، وبأحرى الإنفاق ، وكما تؤيد ذلك كلّه الروايات.

ومن ثم إذا وضعن حملهن جنينا كاملا حيّا ، يأتي دور الإرضاع ، وهي أحق به ولها حق الأجر ، وهما مأموران بالحفاظ على صالح الرضيع :

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى﴾ :

فلهن حق الإرضاع وأجرة الرضاعة مع حق النفقة. لأنهما من نفقة الولد التي هي على والده. وليس له استئجار غيرها إلا إذا رضيت ، او غلّت الاجرة عن مثلها ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى﴾ ، وأما إذا رضيت بالمثل او دونه فليس له أن يحول رضيعها عنها ، إلا لضرورة موجبة او مرجحة ، وإن وجد من تأخذ أقل من المثل او ما دونه ، وهذا من الائتمار بمعروف ، فمن المنكر التعاسر والتناكر والمضارة بحق الرضيع وأمه : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ

. (ص) فقالت ، طلقني زوجي البتة فخاصمته الى رسول الله (ص) في السكنى والنفقه فلم يجعل في سكنى ولا نفقة وأمرني ان اعتد في بيت ابن ام مكتوم.

وروى الزهري عن عبد الله أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أبي عمر وابن حفص بن المغيرة المخزومي ، وأنه خرج مع علي بن أبي طالب (ع) الى اليمن حين أمره رسول الله (ص) على اليمن ، فأرسل الى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت لها من طلاقها ، فأمر عياش بن أبي ربيعة والحرث بن هشام أن ينفقا عليها ، فقالا : والله ما لك من نفقة ، فأتت النبي (ص) فذكرت له (ص) قولهما ، فلم يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملا ، فاستأذنته في الانتقال فأذن لها فقالت : أين انتقل يا رسول الله؟ فقال (ص) : عند ابن ام مكتوم. وكان أعمى. تضع ثيابها عنده ولا يراها ، فلم تزل هناك حتى مضت عدتها ، فأنكحها النبي (ص) اسامة بن زيد.

وفي وسائل الشيعة ١٥ : ٢٣١ باب وجوب نفقة المطلقة رجعيا وسكناها وعدم وجوب ذلك للمطلقة بائنا إذا لم تكن حاملا ، فيه عشرة أحاديث.

(١). المصدر ص ٢٣٠ باب وجوب نفقة المطلقة الحبلى حتى تضع ، فيه خمسة أحاديث.

أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢ : ١٣٣).

فالآيتان تتحدثان عن حقوق الحامل والرضيع ، وتتجاوبان في المطلقة : رجعية وبائنة ، وإن عمّت الثانية غيرهما أيضا ، فعلى المولود له رزقهن وكسوتهن ، ومن الرزق السكنى ، وعليه حق الإرضاع طلبن أم لا ، إلا إذا وهبنه ، وللرضيع حق الرضاعة من أمه إلا إذا عجزت او تعاسر الوالد : ﴿وَالْوالِداتُ يُرْضِعْنَ﴾ فانه أمر بصيغة الإخبار وهي آكد : حقوق ثلاثة للوالدين والرضيع ، لكلّ نصيبه حسب العدل والحكمة ، ولا يجوز أن يستغل الولد للمضارّة ﴿لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ مضارة بينهما او بينهم بسبب الولد.

فلا فصال للرضيع عن أمه إلا بتراض وتشاور ، دون مضارة ومعاسرة :

﴿فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما﴾ وأما ان يستبد أحدهما بالفصال فلا ، ولا ان يتراضيا دون تشاور ، ولا تشاور دون تراض ، وإنما وصال في الرضاعة او فصال عنها على ضوء تشاور عن تراض وائتمار بمعروف ، وهو ان يتكلف كل منهما بالأمر وقبوله بمعروف لصالح هذا الرضيع.

هذا منتهى الرعاية للمرضعة والرضيع في شريعتنا الغراء ، وأن يأتمر الوالدان ويتشاورا في شأنه بالمعروف ، ورائدهما مصلحته ، فانه أمانة الله عندهما ، فلا يكن الفشل في حياتهما نكبة على هذا الصغير البريء ، فعلى ضوء المياسرة بحقه تكفل حياته ، وأما إذا تعاسرا فالطفل مكفول الحقوق بصورة أخرى :

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى﴾ ، والتعاسر يكون من الوالدين ، تعسير الوالد في الاجرة ، وتعسير الوالدة في الرضاعة ، او تكثير الاجرة عليها ، او تعنتها في الاجرة ، إذا فإلى مرضعة اخرى ، كيلا يضيع الطفل في جو التعاسر والتقاصر ، فإن

لم يقبل ثدي مرضعة اخرى تجبر الام بإرضاعه بأجرة المثل ، ويجبر الأب بهكذا استرضاع ، فإن لم يقدر فكما يستطيع ، وأما الام فلا مفرّ لها ولا خلاص ـ عند الضرورة ـ عن الإرضاع ، فان مصلحة الحفاظ على حياة الرضيع وسلامته فوق المصالح البسيطة المتخيلة بين الوالدين ، كل ذلك فيما إذا لم يغن لبن غير المرضعة ، وإلا فلا إكراه على الام ، إلا حقا واجبا لها ، وعليها ، شرط أن يصلها حق الرضاعة.

﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللهُ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ :

إن واجب الإنفاق للحامل والمرضعة ، وللرضاعة ، ليس إلا على قدر المكنة من الرزق الواسع والمقدور عليه ، فلا تكليف فوق الوسع والطاعة ، وإنما قدر ما آتى الله ، فلو كان معسرا سيجعل الله له يسرا إن اتقى في الإنفاق الواجب عليه : يسرا محتوما في الآخرة ومرجوّا في الدنيا.

فليس للزوج أن يقتر وله سعة ، ولا للزوجة التعنّت وزوجها فقير قتير ، وإنما ائتمار بمعروف : وصالا في الرضاع ، او فصالا عن تراض وتشاور فيه لترضع له أخرى ، دون أي استبداد وتأمّر عليه او تساخط وتباغض فيه ، فكما كان فصالهما كوصالهما بمعروف ، فليكن كذلك وصال الرضيع وفصاله ، لأنه منهما وأحرى بالرعاية.

ثم الإنفاق المستطاع لا يخص البيئة العائلية ، فانه واجب في كل البيئات إنفاقا في سبيل الله : وهي سبيل مصلحة الإنسان جماعات وفرادى ، وكما يفسره الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بهذا الشمول [1].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣٧ ـ أخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : جاء رجل الى النبي (ص) كان له مائة اوقية بعشر أواق ، وجاء رجل كان له مائة دينار بعشرة دنانير ، وجاء رجل له عشرة دنانير بدينار ، فقال النبي (ص) : أنتم في الأجر سواء ، كل واحد منكم جاء بعشر ماله ، ثم قرأ رسول الله (ص) : ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ...﴾.

هنا ، وفي ختام الأوامر والنواهي حول الطلاق ومخلفاته ، لا نجد أنقاضا من البيت المتهدم ، ولا غبارا يملأ النفوس فيخنقها ، ولا قلاقل تثير الاضطراب ، فما حصل هنا ليس إلا تفريق الجسدين والبيتين ليس إلا ، لو روعيت أحكام الطلاق ، فكافة الوساوس والهواجس الدافعة الى الظلم والضيم أزيلت بهذه الحكم الرصينة ، والعلاجات المتينة ، إذ مسح على ذلك كله بيد الرفق ، والتجمّل ، ونسم عليها من رحمة الرحمان الرحيم.

إن حواجز القانون الجاف الجارف الزمني ليست بالتي تحجز الإنسان الشره الطموع الطموع عن طيشه ، وإنما الحواجز التي تتعامل مع القلوب والضمائر هي القادرة على تحقيق هذا العدل الحنون ، إذ تستجيش حاسة التقوى والخوف من الله المطلع على السرائر.

إن الزوجين يتفارقان جسديا في ظل هذه الأحكام وفي قلوبهما بذور للودّ لم تمت ، وجذور لإنماء العلاقات قد تنبت ﴿لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً﴾.

ومن ثم يكرر الوعيد على المتخلفين ، والوعد للمتقين ، بما يجعلنا نعرف أن باب الطلاق من أهم الأبواب في حقوق الإنسان رعاية وحائطة.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها

حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (٨) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (٩) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (١٠) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً (١١) اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ (١٢)

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَعَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً. فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَكانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً﴾ :

القرية هي المجتمع ، وهي المجتمعون فيه : ﴿فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها﴾ (١٠ : ٩٨) ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (١٢ : ٨٢) فالمؤمن والمسئول هما المجتمعون ، أنفسهم ، دون حاجة الى تجوز بتقدير «أهل» وإن كانت تستعمل في محل الاجتماع أيضا : ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ (٢ : ٥٨) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها﴾ (٢ : ٢٥٩).

والعتو هو النشوز والترفع والاستكبار عن الطاعة ، كأن لا دواء له ولا رجوع ولا علاج إلا ارتتاج : ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٥١ : ٤٤).

فالعاتون كلهم يحاسبون حسابا شديدا لا يبقي ولا يذر ، ويعذبون عذابا نكرا : دهاء صعبا لا يعرف ، وهذا العذاب النكر ليس إلا ذوق العذاب المتوقع لهم ﴿فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها﴾ رغم أنه مستأصلهم ، فكيف يكون ـ إذا ـ أصل العذاب؟ :

﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ :

عذابا معدّا لهم في الاخرى ، بعد ما ذاقوا وبال أمرهم بذوق العذاب النكر في الاولى ، فأين حساب من حساب؟ وأين عذاب من عذاب! فأولوا الألباب :

الذين لهم ألباب العقول المتحللة عن القشور ، المؤمنون بالله وما أنزله ومن أرسله ، عليهم أن يتقوا العذاب النكر الشديد ، باتقاء حرمات الله ، و ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾ : عظيما يذكركم عن غفلتكم ، وينبهكم عن غفوتكم :

﴿رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾ :

قد أنزل الله إليكم ذكرا مجسدا في شخص الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ، لأنه يحمل الذكر : القرآن ، وهو ـ بأقواله وتصرفاته وأعماله وأخلاقه وأحواله ـ إنه ذكر : يذكرنا الله ، وأخلاق الله ، وأحكام الله ، فتقوى الله بحياته المجيدة كلها.

ومهما كان الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ذكرا ، ترى أنه نازل من السماء؟ ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ﴾ الجواب أن الله ليس في السماء حتى يكون النازل منه نازلا من السماء ، مهما كان البعض من رحماته المادية نازلة منها ، وإنما الرسالة الإلهية بما أنها من الله لا سواه ، وأن الله ينزلها عن مكانتها العليا لحدّ يفهمها المكلفون ـ أيا كانوا ـ لذلك تعتبر نازلة من الله ، وكما القرآن ذكر نازل منه ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ : فالقرآن لدى الله في العلم الام عند الله ، علي عن نيل الأفهام ، حكيم عن هذه التفاصيل والإيضاحات ، فهو هناك ليس قرآنا يقرء ﴿إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالله أنزله عن علوّه وحكمته وجعله مقروا معقولا.

كذلك الرسالة المحمدية ليست إلا القرآن ، فما كلم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أحدا قط بكنه عقله ، وما عاشر وواجه أحدا بعلوّه ، وإنما كسائر البشر ، موضحا لهم رسالات ربه هاديا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إليه بإذنه وسراجا منيرا.

فالرسول مهما كان بقالبه أرضيا ، فهو بقلبه سماوي إلهي يصدر عن وحي ، وهو الذكر النازل ، لا جبريل وإن كان هو أيضا ذكرا ، ولكنه ليس نازلا إلينا ، ولا يتلو آيات الله ، علينا ، وإنما الى الرسول وعليه ، والنص ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ﴾ :

ذكر نزل عن غموضه ورموزه ، لحدّ يسمعه ويقرأه ويراه ويفهمه إنسان الأرض ، وكما يعرفه ملائكة السماء ، معروف في السماوات والأرض.

﴿ذِكْراً رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ﴾ لا خافيات ولا مخفيات ، إنما مبينات لما يتطلب البيان ، لكيلا يكون لله على الناس حجة بعد الرسل ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ فهناك ظلمات راسبة فيهم رغم إيمانهم ، فالرسول يخرجهم بتلاوة الآيات ـ وهي اتبّاعها وإتباعها ـ يخرجهم من ظلمات العقائد والأوهام ، وظلمات الشكوك والأفهام ، وظلمات الأقوال

والأعمال ، إلى النور ، وهو صراط الله المستقيم ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً﴾ يناسب مبدء الإيمان ، وهو فعل كبائر الصالحات وترك كبائر المحرمات ﴿يُدْخِلْهُ[1] جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً﴾ : مصيره الى الجنة ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقاً﴾ فهل يوجد رزق أحسن وأوفر من الجنة؟.

هنا نقف أمام هذه التحذيرات والترغيبات بعد آيات الطلاق ، ما هي الصلة بين أخذ القرى العاتية وبينها؟ فنجد أنها توحي بكون الطلاق ليس أمر الفرد فقط ، إنما هو أمر الامة المسلمة ، عليهم رعاية حكم الله فيه ، وكما ابتدأت السورة بخطاب الرسول مع المؤمنين ، فالعتوّ عن أمر الله في الطلاق ، لا يسأل عنه المطلق العاتي فحسب ، فقد تواخذ بها قرية : مجتمع ، يقع فيه العتو ، فيؤخذ به ، لماذا سكتوا عما يتوجب عليهم من التوجيه والنهي؟! ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها ...﴾.

وأخيرا يذكرنا بطرف عظيم شاسع من ربوبيته تعالى لكي نعرف جانبا من سطوته وعظمته :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ :

آية عديمة النظير في الإيحاء إلى عدد الأرضين وحالتها المادية والمعنوية ، عبر المماثلة بين ﴿سَبْعَ سَماواتٍ﴾ وبين جنس الأرض : ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فما هذه المماثلة بينهما؟ وما هو الأمر المتنزل بينهن؟

الممثل هنا ﴿سَبْعَ سَماواتٍ﴾ وهي طباق بعضها فوق بعض ، وأوسع من بعض قضية التداخل الدائري بينها ، وهي شداد وطرائق ، أدناها سماء الأنجم التي فيها أرضنا ، وأعلاها دون سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، وهي كلها مرفوعة بعمد لا ترونها ، وهي في توسع دائم ، كما عرفت من آياتها.

ومن أظهر المماثلات بين الأرض والسماوات العدد السبع ، أنها سبع منفصلات كما السماوات ، أرضنا هذه وست أخرى أمثالها [١] ، وأخرى في طباقها ، فلتكن الأرضون السبع بعضها فوق بعض طباقا ، وهي تشمل حدود الفواصل بينها : ان كلا من هذه السبع في سماء غير الاخرى [٢] ، وكما توحي بها وتفصلها الآيات من «فصلت» : ﴿فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ ، فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ﴾ فالأرض هنا جنسها ومادتها التي قسمت سبعا ، وكما السماء هنا غازها ودخانها ﴿ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ﴾ ﴿فَقَضاهُنَّ﴾ : المادة الأرضية والدخان السماوي ﴿سَبْعَ سَماواتٍ﴾ فلتكن كلّ من الأرضين السبع في كلّ من السماوات السبع ، ومماثلة ثالثة في سعتها ، فكما ان كل سماء فوقانية أوسع مما تحتها قضية التداخل الدائري ، فلتكن كل أرض فوقانية أوسع مما تحتها وإن لم يكن ذلك التداخل ولم يمكن ، ورابعة أنها في

(١ ، ٢) وتدل عليها أحاديث مستفيضة من أشملها ما رواه القمي عن أبي الحسن الرضا (ع) في حديث .. هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا فوقها قبة والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبة والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبة .. وإلى الأرض والسماء السابقة ..

وهذه الفوقية للأرضين بعضها على بعض لا تنافي التعبير بكون الأرض الثانية . مثلا . تحت أرضنا هذه كما رواه في التوحيد عن أبي عبد الله (ع) : ان هذه الأرض بمن فيها ومن عليها عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي وهاتان ومن فيهما ومن عليهما عند التي تحتها كحلقة في فلاة قي . حتى انتهى إلى السابقة وتلي الآية ..

أقول : فمن الصحيح القول : ان الأرض الثانية تحتنا وانها فوقنا ، لأن أرضنا في مركز العالم وحولها السماء الدنيا بما فيها من الأرض الثانية وسواها ، فمن بعض الجهات هذه الأرضون تحتنا ومن بعضها فوقنا قضية كروية الأرض ، فالأرض الثانية مثلا كائنة في جهة من جهات السماء المحيطة بأرضنا ، ولأن أرضنا تتحرك وضعية وانتقالية فقد تقع الأرض الثانية تحتنا وقد تقع فوقنا ، وفيما إذا لم تكن الحركة هكذا تقتضي ذلك فإن الأرض الثانية تحت البعض من سكنة أرضنا وفوق البعض منهم لأنها كروية ، إذا فلا منافاة بين أحاديث الفوق والتحت.

توسع دائم كما ﴿السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ وكما الأحاديث أيضا تؤيد هذه المماثلات المستوحاة من الآيات.

وقد يقال إن الأرض لا تعني إلا الكوكب والنجم أيا كان، كما السماء لا تعني إلا الجو المحيط بالكرات، فليس لعدد السبع هنا وهناك مفهوم محدد، وإنما يشير إلى الكثرة، فمن الهراء والهذيان: أن الكواكب سبعة، والأجواء المحيطة بها سبعة، رغم أنها بليارات!.

ولكنه تفسير خاطئ للأرضين والسماوات، فإن الآيات التسع في تعداد السماوات تحصرها في سبع، وهي بصدد استعراض أعدادها، وآية المماثلة تحصر جنس أرضنا هذه. أيضا. بسبع، فمن أهذى وأهرء ممن ينسب إلى كلام الله هكذا تعبير جاهل غالط: أنه يعبر عن البليارات بالسبع، محددا لها به؟! كلا: فلا السماوات حسب القرآن هي مطلق الأجواء المحيطة بالكرات لكي تتعدد بعدادها، ولا الأرضون المماثلة لها، فالسماء الاولى والأدنى من سبع القرآن هي سماء الأنجم، كل الأنجم المرئية بالعيون المسلحة وسواها: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ﴾ (٣٧: ١٠) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ﴾ (٦٧: ٥) وكرتنا الأرضية من كواكبها ومصابيحها الصغار، ومن ثم فكل السماوات والأرضين، على حد تفسير هؤلاء المتقولين، كلها في السماء الاولى من سبع القرآن!.

ثم الأرضون السبع هي سبع كرات متماثلة مع بعض تماثلا تاما لا يوجد في غيرها من الكرات مهما كانت بليارات، وأكبر منها بمليارات المرات، توحيها (ومن الأرض): فالأرض هي أرضنا المعروفة، المشار إليها بلام العهد، و (من) تعرفنا: أن بينها وبين الست الباقية مجانسة ومماثلة ليست في سواها من الكرات، مهما كانت أرضنا زبدة منها زبدة كما يروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم (١).

(١) بحار الأنوار ٦: ٢٣ ج ١٠ عنه (ص) وهذا من أوضح الأدلة على المجانسة بينها.

فآية المماثلة ترمي إلى مماثلتين اثنتين : مماثلة الأرضين السبع مع بعض (من الأرض) ومماثلتها مع السماوات السبع (مثلهن) عرفنا الثانية منهما شيئا ما فما هي الاولى؟.

.. إنها متماثلة في المادة المخلوقة منها وسواها كما السماوات : ﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ مِنْ فَوْقِها وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ. فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَحِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٤١ : ١٢).

فالمادة الأرضية هنا تخلق في يومين من التفجرة الاولى في المادة الأمّ (الماء) وتتكامل في أربعة أيام ، ثم هي مع مادة الام السماوية (الدخان) تقتسم إلى سبع ، كل منها في كل من السبع السماوات ، فالأخوة بين هذه الأرضين السبع عريقة منذ البدء ، كما الأخوة بين السماوات السبع بأنجمها ، مهما كانت الأم الاولى قبل تفجرها واحدة هي (الماء) (١).

فللست الباقية مياه وجبال وأشجار وحيوان وإنسان كما لأرضنا هذه نستوحيها من بركاتها وأقواتها ، إذ تقتضي من يستفيد منها من دابة ، وكما تصرح بها ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ (٤٢ : ٢٩) : أن في السماوات دواب كما في الأرض ، ومنها ذووا العقول بدليل (هم) في (جمعهم) فإنها لذوي العقول ، وكما توحي به هنا ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ : أمر الله تكوينا وتشريعا ، فلا بدّ لذوي العقول من

---

(١) نبحث عن المادة الام «الماء» في سورة هود الآية ٧ : وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء راجع «ستاركان» من الصفحة ١٣ ـ أيضا.

تشريع ، وعلّه شريعة أرضنا هذه ، تحكم على الست الباقية أيضا [1] ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

أجل : إن الشرائع الإلهية الخمس تحكم على كافة العقلاء المكلفين أيا كانوا في هذه الأرض أم سواها ، مهما اختلفت حالاتهم ومتطلباتهم ، فإنما تحكم شريعة الله على كل كما يحتاج ويتطلب منه ، وفقا لبيئته الروحية والمادية.

أجل : إنه ليست السماء خلوا من الشرائع والمتشرعين ، ومن المدن والمتمدنين كما يروى عن الرسول الأمين قوله عن ليلة المعراج : (يا علي! إن الله أشهدك معي سبع مواطن ـ إلى أن قال ـ في المواطن الثاني أتاني جبرئيل فأسرى بي إلى السماء ... فكشط لي عن السماوات السبع والأرضين السبع حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها ، فلم أر شيئا من ذلك إلا وقد رأيته كما رأيته) [2].

ويروى عن علي أمير المؤمنين عليه السّلام : (لهذه النجوم التي في السماء مدائن مثل التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود مربوط من نور طول ذلك العمود في السماء مسيرة مائتان وخمسون سنة) [3].

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٣٨ ـ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب وفي الأسماء والصفات عن أبي الضحى عن ابن عباس في قوله ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ قال : سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم وآدم كآدم ونوح كنوح وابراهيم كإبراهيم وعيسى كعيسى.

أقول : لا يعني من المماثلة التعدد ، وإنما مماثلة الشريعة والأنبياء هم أنبياء أرضنا تحكم شرائعهم على سائر المكلفين أيا كانوا ، ويدل عليه الرضوي (ع) : تفسير القمي باسناده عن أبي الحسن الرضا (ع) في حديث في الآية : فأما صاحب الأمر فهو رسول الله (ص) والوحي بعد رسول الله قائم على وجه الأرض فإنما يتنزل الأمر إليه من فوق السماء من بين السماوات والأرضين.

(٢) بحار الأنوار ٦ : ٥١٧ عن السراير باسناده عن بريده الأسلمي عنه (ص).

(٣) تفسير البرهان ٣ : ١٥ القمي عن الصادق (ع) عنه (ع) .. وهنا أحاديث كثيرة عن الرسول والأئمة من آل

ولسنا ممن يحصر هذه المدن وهؤلاء العقلاء بالأرضين السبع ، وإنما نقول منها الأرضون السبع ، المتماثلة فيما لها ماديا ومعنويا ، يعبدون الله كما نعبده ويسجدون له كما نسجد : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ (١٦ : ٥٠).

فالأرضون السبع هي من جملة مساكن الدواب والعقلاء المتمدنين والمتشرعين يتنزل أمر الله تكوينا وتشريعا بينهن وبين سماواتها : ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ دون اختصاص للأمرين بكرتنا الأرضية ، مهما كانت هي المحور الرئيسي للرسالات الإلهية كما تدل عليه الآيات التي تجعل الرسول محمدا صلّى الله عليه وآله وسلّم محور الرسالات كلها ، وهنا أحاديث حول الأرضين الست الباقية ، في قياسها بالنسبة إلى بعض سعة وضيقا ، لا نصدق منها إلا أصل الاختلاف بينها طباقا كما في السماوات ، وفي فواصلها ، ولا نقبل منها ما يخالف الحس وحجة الكتاب ، التي تجعل السماء الاولى سماء الأنجم ، فأين خمسمائة عام ومليارات الأعوام التي تفصل بين البعض من مجراتها ، فضلا عما فوقها من سماوات ، وإلى غير ذلك مما لا يصدق إلا ما يصرح به أو يوحيه القرآن ، وقد نحتمل صدق البعض مما لا ينافي القرآن.

والبشرية حتى الآن على جهدها الكبير وتحملها العسير الكثير الكثير ، ما وصلت لحد العلم ان وراء أرضنا هذه حياة كحياتنا ، أو حياة حيوانية أو نباتية فضلا عن الإنسانية ، والقرآن النازل قبل أربعة عشر قرنا يخبرنا بكل هذه الحقائق وكما تكفلت آية واحدة في «الشورى» لإثبات وجود حياة نباتية

- الرسول (ص) تدلنا على وجود العقلاء المكلفين المتمدنين في السماوات كما استوحيناه من الآيات.

مثل ما رواه في البحار ٦ : ٥٠٧ عن الصادق (ع) يقول : إن جبرئيل احتمل رسول الله (ص) - إلى أن قال - ثم صعد بي إلي السماء السادسة فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكروبيون ثم صعد بي إلى السماء السابعة فأبصرت فيها خلقا وملائكة.

وحيوانية وإنسانية متمدنة في السماوات كما في الأرض ، وأن الله سوف يجمع بين البعض من دواب الأرض والسماء : ﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَهُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ﴾ (٤٢ : ٢٩). هذه التي لم تعدو محطة الخيال والآمال حتى الآن! سبحان الحنان المنان : ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾.

(سورة التحريم . مدنية . وآياتها اثنتا عشرة)

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ
وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ
أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ
بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ
ذلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ
تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً﴾ (٥)

صفحة من الحياة البيتية للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم تفتحها هذه السورة في مفتتحها ، أنه كيف كان يحافظ على كرامة النبوّة ، لحدّ تحريم بعض ما أحلّ الله له لكيلا يقع في مآزق المظاهرات المهرجة المحتالة النسائية فيخفّ من كيانه الرسالي ، وأن الله تعالى يرجعه الى حلّ ما حرّمه على نفسه ويكفيه شر المظاهرات من نسائه.

إنه لم يكن التحريم هنا تشريعا منه عاما ينافي ما أحلّه الله ، وهو رسول الله لا يصدر إلا عن الله! وإنما تحريم عملي بالحلف على ترك شيء من الحلال الخاص له ، مغبة مرضات أزواجه ، فرارا عن مظاهرتهن عليه ، لكيلا يكدّرن جوّ بيت النبوة السامية ، فقد عمل واجبه حسب حالته الحاضرة ، حتى آمنه الله بالوحي وكفاه ما يهابه ورجعه الى الحلّ وأن يكفّر عن يمينه وقد فعل.

أجل تحريم عملي بطريقة الشرع وبدافع شرعي [1] ، ف ﴿**يا أَيُّهَا النَّبِيُّ**﴾ دون «الرسول» يوحي أنه لم يكن تحريما رساليا ، إنما كنبي رفيع المنزلة ، يحرم حفاظا على نبوته ورفعته ، وإيحاء ثان يؤيده ﴿**أَحَلَّ اللهُ لَكَ**﴾ ، فالتحريم أيضا كان على نفسه دون الآخرين ، وثالث ﴿**تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ**﴾ إذ يحصر التحريم اندفاعا عن الأزواج ، ودفاعا عن كيانه إذ هددنه بالمظاهرة عليه وندد بهن الله بالعذاب والطلاق ﴿**إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ ...**﴾ ﴿**عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ ...**﴾ فقد حرم على نفسه لذة نسائية محللة

---

(١) كما في بعض الآيات ومنها : «**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ**» (٤ : ٨٧) «وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ» (٢٨ : ١٢) فان الرضاعة لموسى من غير أمها ما كانت محرمة في شريعة الله ، ولا على موسى إذ كان رضيعا لم يبلغ بعد .. وإنما التحريم واقعيا بمعنى الحرمان العملي ، فقد قدر الله تعالى لموسى أن يتمنع عن سائر المرضعات ، وألقى في قلب فرعون ان يختار امه دون معرفته.

له خاصة [1] ﴿أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ بما حلف على تركها ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ...﴾.

وكما ورد في مستفيض الأخبار انه صلّى الله عليه وآله وسلّم تزوج بامرأة ووطئها سرا عن بعض نسائه ، فلما عرفن هددنه بالمظاهرة عليه فحلف على ترك وطئها .. ترى أليس واجبه صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ ذاك أن يحلف بالله على ترك ما أحله الله وأباحه عليه ، فرارا عما حرّمه الله من انهتاك حرمته ، وانفتاك كرامته! قبل أن يأتيه الأمان بالوحي .كما أتى . بالضمان عن بأسهن ، وأن يحلّ يمينه ويرجع الى الحلّ.

فخلاف ما يزعمه غير المتأنقين ، هذه الآيات ليست تنديدا بالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ، وإنما هي تهديد بنسائه المظاهرات ، إكراما له زائدا على غيره ، ولكي يحل من أسر التحريم الشرعي بالحلف عند المحظور ، بإزالة موضوعه وهو الخوف عن مواصلة الحلال ، والحكم بحرمة الإخافة على نسائه المظاهرات ، معالجة لطيفة طيبة لمشكلة بيتية للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ندرس فيها بوجه عام أيضا ، أن خلق المشاكل في ممارسة الحلال محرّم في شريعة الله ، وإن كان الحلال مما يبغضه الطرف المقابل ، كأن تتزوج بزوجة على زوجتك ، فمهما كان صعبا عليها ، فحرام عليها خلق المشاكل لإلجاء الزوج على ترك الحلال ، عمليا او بالحلف او الطلاق ، اللهم إلا ألا يعدل ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً﴾ فتنهاه فيمن تنهاه عن منكر الظلم وإن كان انتهاؤه بالطلاق ، او أية وسيلة محللة اخرى.

وكما ترى أن الله يلقي حبل هذه المشكلة على عواتق النساء ، فيكفيه شرّهن ويهددهن بالطلاق ، خلاف ما رغبناه تماما أن يطلق او يفارق الجديدة دونهن.

---

(١) إذ أحل الله له أكثر من أربع نسوة ، وقد كانت عنده حينئذ أكثر من أربع فتزوج غيرهن عليهن.

وفيما إذا سئلنا : لماذا هذه الكثرة من النساء ، يتزوج بهن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم حتى يقع في أمثال هذه المشاكل فيحتاج الى حل إلهي؟! فالجواب : أن زواجات النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كانت ـ على الأكثر ـ سياسية تقتضيها بيئته الرسالية ، وأنا لا أحاول نفي عنصر الجاذبية والجمال عن حياة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فانها ليست موضع اتهام عليه حتى ندفعه عنه ، لأنه إنسان له شهوة الإنسان ، وله جاذبية الجنس كسائر الإنسان ، إلا أنه يوحى إليه ، قالب بشري يديره قلب وروح الوحي كما يدير سائر الأرواح.

وإنما أقول : إن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يتخطى أمثال هذه الجاذبيات النفسانية والشهوانية المحللة الى الجاذبية الإلهية ، فكان يعيش كبشر ، وكل تصرفاته بمرضات الله ، حتى زواجاته التي كانت كلها بأمر من الله ، وكما في تزويجه بامرأة زيد دعيّه ، لكي ينقض حكما جاهليا يحرم حلائل الأدعياء ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ (٣٣ : ٣٨).

صحيح أنه صلّى الله عليه وآله وسلّم تزوج بقرابة ثلاثة عشر نسوة ، ولكن تعال معي لنرى ظروفه التي كانت تتطلب هذه الزواجات ، ومن هن هؤلاء الأزواج؟.

نرى أن أول أزواجه صلّى الله عليه وآله وسلّم خديجة بنت خويلد (رض) عرفت رجلين قبله وهي فوق الأربعين وهو ابن خمسة وعشرين ، وهذا بخمس عشرة سنة قبل رسالته ، أترى لجمالها وصغرها؟ كلا! إنما لإيمانها وكفاءتها وزمالتها للرسالة المستقبلة التي آمنت بها قبل غيرها! وكانت منها ـ فيمن ولدت ـ فاطمة (ع) قرينة خليفته الأول ، وأم الأئمة النقباء (ع) ... فماتت خديجة قبل الهجرة بثلاث.

فلما ماتت تزوج صلّى الله عليه وآله وسلّم سودة بنت زمعة ، ولم تكن شابة ولا جميلة ، وإنما أرملة للسكران ابن عمرو ، وكان من السابقين الى الإسلام من مهاجري الحبشة ،

فلما تو في تزوجها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لكي لا يؤثر فيها ترمّلها ، وأنها فقدت زوجها وليس لها من كفيل ، كلا! إن كفيلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم!.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر وهي بكر ، ولم يتزوج بكرا سواها ، وكانت معه ـ الى أن توفي ـ تسع سنوات وخمسة أشهر ، تزوجها لعلل سياسية.

ثم تزوج حفصة بنت عمر ، وهي ثيب ، بعد ما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا ، تزوجها بنفس العلل ، وأن يصلح مرفوضة ، فيصلح أباها أيضا.

ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وكان زوجها الأول عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وقد قتل يوم بدر ، او عبد الله بن جحش المستشهد يوم أحد ، تزوج بها ليشجع المقاتلين للحرب فلا يعتبروا أهلهم هدرا إن قتلوا ، فالنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بشخصه الكريم كفيلهن كرامة وكرما.

وكذلك تزوج أم سلمة ، وقد قتل زوجها ابو سلمة في أحد ، فتزوجها النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وضمّ إليه عيالها من أبي سلمة ، ولأنها كانت مؤمنة طاهرة.

وتزوج زينب بنت جحش ـ كما أسلفنا ـ لمهمة تحليل حلائل الأدعياء ، ولو كان القصد من زواجها شهوة الجنس والجمال فحسب ، فلما ذا زوّجها زيدا ، وكانت منذ البدء وراغبة فيه صلّى الله عليه وآله وسلّم وهي بنت عمته صلّى الله عليه وآله وسلّم وكانت رافضة لزيد وهي غريبة عنه؟.

ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق ، إذ قسم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم سبايا بني المصطلق فوقعت هي في أسهم الثابت ابن قيس فكاتبته على نفسها فأتت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قائلة : جئتك أستعينك على كتابتي ، فقضى عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وتزوجها برضاها ورغبتها ، محررا في هذا الزواج إياها عمن لا ترغب إليه وهي راغبة إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وكانت مهاجرة مسلمة في الحبشة ،

فارتد زوجها عبد الله بن جحش الى النصرانية وتركها ، فخطبها النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ترغيبا وتثبيتا لها في إيمانها.

ثم تزوج بصفية بنت حي بن اخطب زعيم بني النضير. ثم بميمونة بنت الحارث بن حزن ، وكانت قبله صلّى الله عليه وآله وسلّم عند أبي رهم ابن عبد العزى.

وهكذا نرى ان لكلّ من زواجاته صلّى الله عليه وآله وسلّم سببا ، وهن ـ فيمن عدا زينب وجويرية وعائشة ـ لم يكنّ شابات ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال او مال ، ولهذه الثلاث أيضا ـ على جمالهن ـ أسباب تتخطى جاذبية الجنس والجمال ، الى جاذبية الحق والكمال ، وتطبيق شرعة الله حنونا عطوفا ورحمة للعالمين.

ثم هنا ـ في آيات التحريم ـ نجده صلّى الله عليه وآله وسلّم يتزوج بمارية القبطية [1] ، مما يدفع عائشة وحفصة الى المظاهرة عليه والمشاغبة معه ، وعلّه كان عليه التزويج بها لكيلا يزعم أن زواج الجواري على الدائمات من المحرمات ، ثم حرمها على نفسه عند المظاهرة ، ثم أحلّها الله عليه بإزالة السبب.

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ :

خطاب في صيغة العتاب وليس به ، وإنما يتساءله : لماذا يحرم نفسه عما أحل

---

(١) كما في مستفيض الأحاديث عن أئمة اهل البيت (ع) منها ما رواه القمي في تفسيره عن ابن سنان عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال : اطلعت عائشة وحفصة على النبي (ص) وهو مع مارية ، فقال (ص) : والله ما أقربها ، فأمره الله ان يكفر عن يمينه.

وفي حديث : كان يوم حفصة فاستأذنت رسول الله (ص) أن لي الى أبي حاجة فأذن لها فلما خرجت أرسل رسول الله (ص) الى جاريته مارية القبطية ، وكان قد أهداها له المقوقس ، فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها فأتت حفصة فقالت : إنما أذنت لي من اجل هذا! أدخلت أمتك في بيتي ثم وقعت عليها في يومي وفي فراشي! فقال (ص) : أليس هي جاريتي ، قد أحل الله ذلك لي ، اسكتي ... ثم حرمه على نفسه بالحلف اتقاء شرها ...

الله له؟ ثم يذكر سببين لهذا التحريم : ﴿تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ﴾ ، والثاني هو الخوف عن مظاهرتهن كما يتبين من بقية الآيات ، ولكي نعرف أنه صلّى الله عليه وآله وسلّم ما فعل محظورا في الشريعة يبادر بالغفران ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ وبالرحمة البالغة ﴿رَحِيمٌ﴾ ، فلو كان إثما لم يغفر إلا بالتوبة وليست هنا ، وعلّ الغفر هنا هو الستر على ما كان يخشاه منهن ، والغفر على الحرمة الحاصلة باليمين إذ فرض له تحلّته :

﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ :

والتحلة المفروضة ليست هي التحلل عن مطلق الأيمان بالكفارة ، فانه حرام لكونه حنثا لما فرض ، وإنما هي التحلل عما حرّم باليمين دون مبرر واقعي ، وإن كان له مبرر حسب ما يراه الحالف ، وتحلة يمين النبي كانت بأداء الكفارة ، فالتحلل عما حرم على نفسه.

فمخالفة اليمين كيفما كان تقتضي الكفارة ، سواء أكان الحنث واجبا كما هنا ، أم حراما كما في الأيمان الموافقة لواقع المرجوحية ، كما يحلف على ترك الحرام أو المكروه أو المباح المرجوح لضرر أو مثله ، ووجوب الحنث أو جوازه هناك دليل عدم انعقاد اليمين في الواقع ، وإنما الكفارة للحفاظ على كرامة اليمين.

ولقد حلف النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم على ترك مارية لمرضاة أزواجه وخوف مظاهرتهن ، فيما رآه النبي قبل تأمين الله وتضمينه الحفاظ عليه ، فلما زال سبب الخوف ، وأن مرضاة الأزواج لا تبرر تحريم الحلال ، ولا ينعقد الحلف عليه ، حينذاك فرضت عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم تحلة يمينه هذا وقد أحلّ.

وهذا فرض للحالف وليس عليه ﴿قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ﴾ وهذا ما تقتضيه ولاية الله علينا : أنه يحبنا ويتولى أمورنا ، فلذلك يفك أسرنا عن أمثال هذه الأيمان ، ويبدل عسرنا باليسر ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

من هنا نعرف أن تحريم ما أحله الله لا يبرره شيء ، إلا أن يحرم بعنوان

طارىء يدخله فيما حرّمه الله ، إذا فليس منا شيء من تحليل ولا تحريم ، وحتى فيما إذا نحلف على ترك شيء أو فعله فلزامه رجحان الفعل أو الترك واقعا ، وإلا تحلّل بكفارة كما في تحريم النبي مارية القبطية.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

الإسرار هنا كان منه صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى حفصة ، والإنباء كان منها إلى عائشة ، وهما ـ بالإجماع ـ [1] صاحبتا هذه المعركة الضارية ضد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لماذا نكح مارية القبطية؟

لقد أسر النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بعد قصة مارية ـ إلى حفصة حديثا : ألا تنبئي به أحدا ، ولكنها نبأت به عائشة ، زميلتها في المظاهرة ، وأظهر الله نبيه على إنباءها ، عندئذ عرّف النبي وأطلع حفصة بعض الحديث إشارة إلى جانب منه ، وأعرض عن بعضه ترفعا عن السرد الطويل وتجملا عن الإطالة في التفصيل ، علّه ولأن البعض الآخر كان جديرا بالإعراض ، فلما نبأها بالبعض الأول قالت حائرة ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هذا﴾؟ ﴿قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

ترى ما هذا الحديث السرّي ، الذي تأذى النبي بإفشائه؟ هل إنه وقوعه على مارية؟ وليس حديثا متبعضا لكي يعرّف بعضه ويعرض عن بعض! ولم يكن حديثا مستجدا لحفصة حتى يسر به إليها ، و «حديثا» ـ بعد قصة النكاح والتحريم والتحليل ـ يوحي بأنه حديث جديد!

---

(١) وممن يروى عنه ذلك عمر ابن الخطاب ـ أخرجه عبد الرزاق وابن سعد واحمد والعدني وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن حيان وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس عن عمر .. (الدر المنثور ٦ : ٢٤٣).

أو أنه تحريمه مارية على نفسه؟ فكذلك الأمر! إضافة إلى كونه بشارة لأزواجه تتطلب الإعلان ، لا الإسرار!

أو انه تبشيره إياها بخلافة أبيها وأبي بكر؟ فكذلك الأمر! فإنها بشارة لها ، فإن كانت حقا فلما ذا الإسرار ، وإن كانت باطلا فحاشا النبي عن الباطل ، إضافة إلى أن «حديثا» لزامه هنا العلاقة بقصة مارية ، وأن إفشائه يخلق مظاهرة الامرأتين ﴿.. وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ﴾ تهديدا بعد الإفشاء!

والقول الفصل هنا أن «حديثا» هذا ، حديث متبعض «عرف بعضه» يستحق الإسرار حفاظا عن كرامة النبي ، التي تمس منها بمظاهرتهما ، وله علاقة عريقة بالقضايا النسائية تحرضهن على المظاهرة ، فما هو إذا؟

علّه أو منه قصة مارية ، وأنه حرمها على نفسه ، أسرّ المجموع إلى حفصة ، إبقاء للسر في البعض الأول ، وإسرارا لما حلف في الثاني ، وكان الثاني ضمانا لعدم إفشاء القصة في أولاها ، فلما نبأت عائشة بهما . مما أبدى فيها الغيرة النسائية فأخذتا في التظاهر عليه . ﴿وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ﴾ لكي يسد باب الشرّ منذ البدء لكيلا يبلغ إلى الشره ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ وعلّه قصة الحلف ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أصل القصة ، حياء منه ، واتقاء من تدهور الوضع لو كرر التصريح به ﴿قالَتْ﴾ متحيرة ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هذا﴾؟ إذ كان الحديث بعد بينهما ، ولا يعقل أن تنبئه صلّى الله عليه وآله وسلّم زميلتها في المظاهرة ، أتفشيلا للمخطط الذي تتقصّدان؟! ﴿قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ولكي تعلما أن الله معه ، ويخبره بالمؤامرات والمكايدات المحبوكة وراء الأستار ، فتكسرا من ثورتهما ، وتقلّا من فورتهما ضده صلّى الله عليه وآله وسلّم.

﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾ :

﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللهِ﴾ تثبت أنهما عملتا أمرا يسخط الله في إيذاء رسول الله ،

أما حفصة فقد أطالت لسانها عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم وجاسرت بما لا يجوز ، وأذاعت سره صلّى الله عليه وآله وسلّم وأما عائشة فقد زاملتها في المعركة النسائية الطائشة عليه ، وعلّ منها إذاعة هذا السر لبقية النساء وأمورا مثلها ، وأصبحتا تنويان المظاهرة عليه ، أن ترأسا مسيرة ضارية مفصحة من كتلة النساء على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهذه مما تمس من كرامة النبوة أن ينبع فوار الثورة عليه من عقر داره ، ولهذا وذاك كان حلفه على ترك مارية كيلا تعقبه وتلاحقه هذه العقبات.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ : مالت قلوبكما عن الحق والاستقامة حيث آذيتما النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم والقلب الصاغي المقلوب بحاجة إلى توبة ، وهذا بالنسبة لقلب الروح المستكن في قلب الجسم ، فطالما القلب يصغو او ينجرف روحيا فهو لا يخرج عن نياطه ولا يزول عن مناطه قالبيا.

وهنا «قلوبكما» لامرأتين اثنتين ، دون «قلبا كما» لأن كل شيئين من شيئين تجوز العبارة عنهما بلفظ الجمع ، كما وانهما جمع لغويا : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما﴾ والمقصود قطع يمينهما .. هذا وإن كان يجوز العبارة عنهما بالتثنية أيضا ، وعلّ هنا نكتة زائدة هي ضم قلوب سائر نسائه الصاغيات معهما إليهما ، ولأنهما أساس المظاهرة ورأس المشكلة ، ضمت قلوب الهامشات الى هاتين المتنين ، كما وان توبتهما الى الله توبة لهن جمعاء إذ يسمعن لهما.

فأنتما بين حالتين لا ثالث لهما : التوبة الى الله لإصلاح القلوب الصاغية المائلة عن الله ، وهذا طريق الجنة ، او المظاهرة على الله فإلى النار :

﴿وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ﴾ :

حملة عنيفة هائلة بعد ما مضى ، ندرك منها عمق الحادث ومدى أثره في قلب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وضرره عليه ، وشره على كرامته ، لحدّ يعلن الله تعالى فيها

موالاته له صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذه المعركة الضارية ، ومعه وبأمره جبريل وصالح المؤمنين والملائكة ، ما لا نجد مثلها في أية معركة أبدا.

أمظاهرة على الرسول الأقدس الطاهر صلّى الله عليه وآله وسلّم ، ناشئة من بيته عن زوجتيه؟ لأنه قارب حليلة من حلائله ، دون أن يقارف خطيئة! فهذا إيذاء للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ولحدّ الكفر ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ (٩ : ٦١) إِنَّ ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾ (٣٣ : ٥٧) كيف لا! وإيذاء المؤمنين إثم مبين فضلا عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (٣٣ : ٥٨) (١).

وفيما إذا سئلنا : كيف كان بإمكان الامرأتين المظاهرة على الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم ولم تكن لهما مسكة إلا قصة مارية المحللة له صلّى الله عليه وآله وسلّم؟

فالجواب : أنهما تشاورتا فاختلفتا من ورائها فاتكة الإفك المشهورة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ. لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ. لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكاذِبُونَ. وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ. إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٣ . أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل رسول الله (ص) نساءه ... دخلت على عائشة فقلت : يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله (ص)؟ قالت : ما لي ولك يا ابن الخطاب! فدخلت على حفصة فقلت لها : يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله (ص)! ... الى أن قال : والله لئن أمرني رسول الله (ص) بضرب عنقها لأضربن عنقها.

وَلَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ. يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ... إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ... يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ... (٢٤ : ٢١).

فقد روي عن أئمة أهل البيت (ع) أن ممن جاء بالإفك عائشة وحفصة مع عصبتهما ، أفكتا على مارية أم إبراهيم أنها جاءت به من ابن جريح ، ففضحتا بعد ما تثبّت علي عليه السّلام بأمر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم فوجده خنثى لا ذكر ولا أنثى [1]

(١) رواه القمي في تفسيره عن زرارة عن أبي جعفر (ع) ، وعن عبد الله بن بكير عن أبي عبد الله (ع) ، وروي ابن بابويه بإسناده عن علي (ع) ، ومن أجمع وأشمل ما روي ما يسنده الحسين بن حمدان الخصيبي الى الامام الرضا (ع) انه قال لمن بحضرته من شيعته : هل علمتم ما فريت به مارية القبطية وما دعى عليها في ولادتها ابراهيم ابن رسول الله (ص)؟ فقالوا يا سيدنا أنت أعلم فخبرنا ، فقال : إن مارية أهداها المقوقس الى جدي رسول الله (ص) فتحظى بها من دون أصحابه ، وكان معها خادم ممسوح يقال له جريح وحسن إسلامهما وإيمانهما ، ثم ملكت مارية رسول الله (ص) فحسدها بعض أزواجه فأقبلت عائشة وحفصة تشكيان الى أبويهما ميل رسول الله (ص) الى مارية وإيثاره إياها عليهما حتى سولت لهما ولأبويهما أنفسهم بأن يقذفوا مارية بأنها حملت بإبراهيم من جريح وهم لا يظنون أن جريحا خادم ، فاقبل أبواهما الى رسول الله (ص) وهو جالس في مسجده فجلسا بين يديه ثم قالا : يا رسول الله ، إن جريحا لا يحل لنا ولا يسعنا أن نكتمك من أمره وما يظهر من خيانته شيئا وواقعه بك ، فقال : ماذا تقولان؟ قالا : يا رسول الله ، ياتي من مارية الفاحشة العظمى وان حملها من جريح وليس هو خادم ، فاربد وجه رسول الله (ص) وتلون ثم قال : ويحكما ما تقولان؟ قالا يا رسول الله إنا خلفنا جريحا ومارية في مشربتها . يعنيان حجرتها . وهو يفاكهها ويلاعبها ويروم منها ما يروم الرجل من النساء ، فابعث الى جريح فإنك تجده على هذه الحال ، فانفذ فيه حكم الله ، فانثنى النبي (ص) الى علي (ع) ثم قال : يا أبا الحسن ، قم يا أخي ومعك ذو الفقار حتى تمضي الى مشربة مارية ، فإن صادفتها وجريحا كما يصفان فأخمدهما بسيفك ضربا ، فقام علي (ع) واتشح بسيفه وأخذه

ويروى أيضا غير ذلك [1] وعلّهما معا معنيان في آية الإفك ، مهما اختصت آية المظاهرة بما افتعلت الامرأتان على ام إبراهيم.

هنا لك الله يهددهما عن مظاهرتهما كتلك الفادحة الفاضحة القادحة ﴿فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ﴾ كولاية أصيلة ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ كحامل للوحي ، ومنه إنباؤه صلّى الله عليه وآله وسلّم بكشف السر ﴿وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كعلي عليه السّلام إذ تثبّت في أمر ابن جريح فأثبت براءته ، كما الله كشف عنه حتى ابرز كونه ممسوحا فتبرء من الإفك ﴿وَالْمَلائِكَةُ

. تحت ثيابه ، فلما ولى من بين يدي رسول الله (ص) انثنى اليه فقال : يا رسول الله ، أكون فيما أمرتني كالسكة المحمية في العهن؟ والشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال له النبي (ص) : فديتك يا علي ، بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، فاقبل علي (ع) وسيفه في يده حتى تسور من فوق مشربة مارية وهي في جوف المشربة جالسة وجريح معها يؤدبها بآداب الملوك ويقول لها : عظمي رسول الله (ص) ولبيه وكرميه ... ونحو هذا الكلام ، حتى التفت جريح الى أمير المؤمنين (ع) وسيفه مشهور في يده ، ففزع جريح الى نخلة في المشربة فصعد الى رأسها ، فنزل أمير المؤمنين (ع) الى المشربة وكشفت الريح عن أثواب جريح فإذا هو خادم ممسوح ، فقال له : انزل يا جريح! فقال : يا أمير المؤمنين ، آمنا على نفسي؟ فقال : آمنا على نفسك ، فنزل جريح فأخذ بيده وجاء به الى رسول الله (ص) فأوقفه بين يديه ، فقال له : يا رسول الله ، إن جريحا خادم ممسوح ، فولى رسول الله (ص) فقال : جل لهما نفسك لعنهما الله يا جريح حتى يتبين كذبهما وخزيهما وجرأتهما على الله وعلى رسوله ، فكشف أثوابه فإذا هو خادم ممسوح ، فأسقطا بين يدي رسول الله (ص) وقالا : يا رسول الله التوبة ...

وعن أبي عبد الله (ع) أنه سئل : كان رسول الله (ص) أمر بقتل القبطي (يعني جريح) وقد علم أن عائشة كذبت عليه او لم يعلم ، وإنما دفع الله عن القبطي القتل بتثبيت علي (ع)؟ فقال (ص) : بل كان والله علم ، ولو كانت عزيمة من رسول الله (ص) ما انصرف علي (ع) حتى يقتله ، ولكن إنما فعل النبي (ص) لترجع (عائشة) عن ذنبها ، فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم بكذبها.

(١) كما في الدر المنثور أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزاة بني المصطلق من خزاعة ، ولا منافاة بين النقلين كما قلنا.

بَعْدَ ذلِكَ﴾ كله «ظهير» له ، بطاقة موحدة تجعلهم كأنهم واحد «ظهير».

وفي تقديم صالح المؤمنين على الملائكة الذين هم «بعد ذلك» إيحاء الى أفضليته ، فليكن هو نبيا او مثيله ، دون المؤمنين الذين هم دون الملائكة قطعا لعصمتهم دونهم ، فليكن عليا عليه السّلام وكما تضافرت به الأحاديث أيضا [1].

إن تلكم المؤامرة والمظاهرة النسائية برئاسة عائشة وحفصة بلغت لحدّ حملت الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم على طلاقهن ، ولم يطلق بما عالجه الله تعالى من المشكلة :

﴿عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً﴾ :

وهذه هي الحملة الأخيرة هنا ، تهددهن بالطلاق ، وتوحي كأنهن لسن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ، مهما كنّ أبكارا أو ثيبات ، فان المظاهرة على الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم هكذا لا تناسب أيا من هذه الصفات ، اللهم إلا أن يتبن الى الله.

وكما نعلم ، إنما ترجع اصول هذه الحملات والتنديدات والشكاوات الى زعيمتي المظاهرة : عائشة وحفصة ، أن لو شاء الله خلصه عنكن ، وبدله أزواجا خيرا

---

(١) تضافرت أحاديث الفريقين أن عليا (ع) هو صالح المؤمنين ، ولأنه المصداق الأوحدي من صلاح الايمان ، وله دور في صد هذه المظاهرة عن رسول الله (ص) كما سبق ، ففي الدر المنثور ٦ : ٢٤٤ . أخرج ابن أبي حاتم عن علي (ع) قال قال رسول الله (ص) : «وصالح المؤمنين» هو علي بن أبي طالب.

وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عيسى سمعت رسول الله (ص) يقول : **﴿وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** هو علي بن أبي طالب. وأخرج مثله البخاري في صحيحه.

أقول : هذا من باب التطبيق على أفضل المصاديق وطالما كان له (ع) دور في الذنب عن حرمة الرسول (ص).

منكن مسلمات ... ولا يقول : خيرا منكن في الإسلام و... وإنما «مسلمات مؤمنات ...» مما يوحي ان الخير في المبدلات بهن هو أصل هذه الصفات.

فزوجية المرأة للنبي ليست كرامة إلا مع التقوى فلها ضعف ما لغيرها : ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ ، وأما مع الطغوى فعليها ضعف العذاب ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (٣٣ : ٢٩ ـ ٣١).

وهذه الصفات هي خير ما تتواجد في النساء ، فلو كانت هناك خير منها لذكرت ، ولا سيما للرسول المصطفى الذي يحق أن تصطفى له خير النساء.

فالإسلام هو التسليم للحق أيا كان ولو على نفسك ، ومنه التسليم لحكم الله في حلية تعدّد النساء .. والإيمان هو الاطمئنان بالله والأمان الى الله .. والقنوت هو الطاعة والخضوع ، والتوبة هي الرجوع عما يقارف من خطيئة ، والسياحة هي التأمل والتدبر في مبدعات الخلقة بصرا وبصيرة ، وهن مع هذه الصفات بين أبكار وثيبات كما هن.

إذا فطلاقكن ليس إلا طلاق نساء عاديات من أبكار وثيبات ، فتبديلكن بطيبات راقيات لهن ما لهن من الجواذب النسائية وزيادات خلقية ومعنوية ، فلم هذه المظاهرات النكراء ضد الرسول الطاهر الأمين؟!.

ولكي يرغم الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أنوف المظاهرات اعتزل عنهن تسعة وعشرين يوما ، ظل فيها عند مارية القبطية ، تأديبا لهن ، وتطهيرا لها عما نسب إليها ، فظن أنه طلقهن ولما ، حتى طمأنه الله بما مضى وخلص دور التأديب والتأنيب فرجع إليهن.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ

ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ﴾ (١٢)

وكما لا يجدي نساء النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كونهن نساءه إلا أن يكنّ قانتات عابدات صابرات مجاهدات ، كذلك المؤمن لا يكفيه إيمانه ما لم يقه وأهليه نارا :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ :

إن وقاية الإيمان لا تكفي كعقيدة ، إلا بانضمام وقاية عمل الإيمان ، لا للمؤمن نفسه فحسب ، وإن وجب كمبدء «قوا أنفسكم» فللأهلين أيضا «وأهليكم» لأنه مكفل بهم كما بنفسه ، وإن كان الأهلون أيضا يؤمرون بوقاية أنفسهم ، فإنهم مكلفون ، إلا أن نقصهم وقصورهم في تكفلهم أنفسهم هنا يجبر بوقاية وقيادة حكيمة ممن يأهلهم ويرعاهم ف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

والوقاية هنا تشمل المعرفية العقائدية والعملية [1] للأنفس والأهلين ، أن (تأمروهم بما يحبه الله وتنهوهم عما يكره الله) [2] ، فأبواب الجهاد والدفاع

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٤ ـ عن علي (ع) في الآية ، قال : علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم.

(٢) أخرجه في الدر المنثور ٦ : ٢٤٤ ـ عن زيد بن أسلم قال : تلا رسول الله (ص) هذه الآية فقالوا : كيف نقي أهلنا نارا؟ قال : ... وفي الكافي مثله عن الامام الصادق (ع) مع زيادة : لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المؤمنين يبكي ويقول : أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي! فقال (ص) : حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك.

والموعظة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هي كلها تعني الوقاية الجماعية ، وكما الأمة مأمورة بالوقايات الفردية ، سواء.

ثم الأهلون لا تختص بالزوجة والأولاد للزوج والوالدين ، إنه يشمل كل مقود لقائده ، وكل مسوس لسائسه ، من الجو العائلي ، الى الأقربين ، الى العائلة أجمع ، وإلى الزعامة الدينية والزمنية سواء.

﴿قُوا ... ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ فالوقود هو الزناد والصلاء ، والناس الوقود لهذه النار الزناد هم اصول الكفر من النسناس ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ (٣ : ١٠) ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾ (٢ : ٢٤) كما ويوحي بذلك قرن الحجارة بالنار ، وهي الأحجار التي يعبدونها : ﴿إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ﴾ (٢١ : ٩٨) حجارة معبودة وأخرى غيرها يعرّفها الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم [١].

وأما الناس المؤمنون المقصرون عقيدة او عملا ، فهم إنما تمسّهم نار هؤلاء الكفار على قدر تخلفهم ، ثم تشملهم رحمة الغفار ويخرجون أخيرا من النار.

﴿عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾ غلاظ على الكفار ، شداد في تعذيبهم بالنار ، لا يخففون عنهم ولا يرحمون ، لأنهم هكذا يؤمرون ، عذابا فوق عذاب :

﴿لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ فهم غلاظ شداد في تنفيذ أوامر الله هناك بحق المجرمين ، دون مسايرة ولا مهادنة.

فيا لها من نار متسعّرة بغضب الله ، الناس فيها كالحجارة سواء ، وقودا

---

(١) في الدر المنثور ٦ : ٢٤٤ عنه (ص) ان الحجر منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه ، وان مع كل إنسان منهم حجرا أو شيطانا ، والله أعلم.

واتقادا ، وطالما قد تمسّ المؤمنين غير الواقين أنفسهم وأهليهم نارا ثم يرحمون ، لكنها للكافرين الوقود عذاب الخلود :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ :

إنهم لا ينفعهم الاعتذار ، بل : ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٧٧ : ٣٦) فممّ يعتذرون؟ هل من أعمالهم النحسة التي أصبحت لزام ذواتهم؟ وليس جزاؤهم إلا أعمالهم! ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ : في صور الأعمال وأصوات الأقوال ، والانحرافات النفسية التي تتجلى لهم فيفضحون ، وفي حقائقها التي تبرز لهم فهم بها يعذبون : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٥٠ : ٢٢).

هذا ـ ولكنما المؤمن له اعتذار يوم الدنيا بتوبة نصوح ، ويوم الدين بما يكفّر له ، فان كبائر الحسنات والسيئات فعلا وتركا تعذره عن صغائرها :

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ...﴾ :

إن التوبة النصوح هي البالغة في النصح ، أن يناصح فيها التائب نفسه ، ويبذل مجهوده في إخلاص الندم ، إزالة لآثار العصيان الغابر ، والعزم على تركه في المستقبل والحاضر ، فان التوبة وهي الرجوع الى الله عن حجاب الذنب ، إنه درجات ، كما ان المعاصي دركات ، فأفضل درجات التوبة هي النصوح : الناصحة للقلب المخلّصة له من رواسب المعاصي وعكارها ، الحاضّة للعمل الصالح بعدها ، العائشة القلب مذكرة مكررة النصح بعدم العود :

(أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر الى الله ثم لا يعود اليه كما

لا يعود اللبن الى الضرع) (١) (وأن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل) (٢) ، وترى (أينا لم يعد ..؟) ولكن (.. الله يحب من عباده المفتن التوّاب) (٣) ، فأدنى النصوح في التوبة هكذا تصميم ، وأعلاه التطبيق.

وفي هذه التوبة الحاسمة تكفير للسيئات كلها ﴿عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ : ما تقدم منها وما تأخر ، ما عشتم التوبة النصوح ، إضافة الى تكفير الكبائر التي تبتم عنها توبة نصوحا ، وإلى منعها حصول السيئات من بعد.

وترى كيف تكفر السيئات ، وقد كتبها كتبة الأعمال ويكتبونها ، وقد سجلت في مختلف السجلات الإلهية من أعضائك وفضائك وأرضك ومكانك وزمانك؟ : إنه تعالى (ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب ، ويوحي الى جوارحه : اكتمي عليه ذنوبه ، ويوحي الى بقاع الأرض : اكتمي ما كان يعمل من الذنوب ، فيلقى الله حين يلقاه وليس عليه شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب) (٤).

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٥ ـ أخرج ابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ، ما التوبة النصوح؟ قال : ...

وأخرج مثله ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بن كعب عنه (ص) : هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك عند الحاضر ثم لا تعود اليه أبدا.

وفي معناه ما في نور الثقلين ٥ : ٣٧٤ عن الكافي عن أبي الصباح الكناني قال : سألت أبا عبد الله (ع) عن الآية ، قال : يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه.

(٢) نور الثقلين عن معاني الأخبار عن أبي عبد الله (ع) قال : ...

(٣) فيه عن القمي عنه (ع) في الآية بعد التفسير المسبق قلت : وأينا لم يعد؟ فقال : ...

(٤) فيه عن الكافي بإسناده عن معاوية بن وهب قال : سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : إذا تاب العبد توبة نصوحا أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة ، فقلت : وكيف يستر عليه؟ قال : ينسي ...

وهذه التوبة من أنجح الوقايات عن النار بعد وقاية التقوى ، تكفر السيئات وتدخل الجنات ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ إضافة الى سائر المكفّرات المكررات طيّات آياتها.

﴿... يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ :

هذه المكرمة الإلهية للمؤمنين الواقين أنفسهم وأهليهم نارا ، التائبين توبة نصوحا ، إنها تكون ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ...﴾ : أن يسوّي بينهم وسواهم ، ويا له من تكريم عظيم أن يضمهم الى نبيه فيجعلهما في صف واحد في المكرمة يوم الخزي ، لأنهم «آمنوا معه» : إيمانهم من إيمانه ، فالمعية الإيمانية توحي بدرجات عالية من إيمان ، مهما كان المؤمنون معه درجات ، فإن الله يضمّ التائبين إليه إذ كانوا من حزبه معه ، مهما قصروا أو قصّروا ، ما كان حياتهم ـ كمبدء ـ إيمانية تائبة آئبة.

﴿نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ﴾ .. «نورهم» الخاص بهم بسعيهم «يسعى» لا ـ نور ـ فنورهم ليس ظاهريا منفصلا عنهم حتى يمكن الاقتباس منه ، وإلا لم يختص بما بين الأيدي والأيمان : نورا ضنينا لا يشمل! ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ...﴾ (٥٧ : ١٣) فهو النور الذي حصله المؤمن من ورائه : حياته الدنيا ، وهو لزام لأهله لا يعدوه ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (٢٤ : ٤٠).

إنه برهان ونور إلهي : ﴿.. قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ (٤ : ١٧٤) وهو الإيمان الناتج عن نور البرهان ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (٣٩ : ٢٢) وهو العمل الصالح الذي ينتجه

الإيمان ، ومن ثم هو نور الفرقان وتأييد الرحمان الناتج عن مثلث النور ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً﴾ (٨ : ٢٩).

ومربع النور . هذا . يتوحّد فيصبح نورا واحدا يسعى بين الأيدي والأيمان ، فقسم العمل الصالح والإيمان والفرقان سوف يكون على الأيمان ، فإن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه ، وقسم الهداية يكون بين الأيدي ، ومنه الهداة الى الله من النبيين والأئمة ، او أنهما يكونان فيهما كما توحي له وحدة النور (١) ، فالنور المربع بالأيمان يعده للحساب الحاضر ، وهو بين الأيدي يبشره بالثواب المستقبل ، فهناك للمؤمن حساب ثم ثواب ، كما للكافر حساب ومن ثم عذاب ، فإنه يؤتى كتابه بشماله او وراء ظهره ، إذ كان يسعى في شماله (شهواته) ووراء ظهره (دنياه) ، طالما سعي المؤمن في يمينه (إيمانه) وبين يديه (آخرته) فإنها إشارات لمختلف المساعي والغايات ، دون الجهات الظاهرية.

وأما الشمال ووراء الظهر فهما لغير المؤمنين إذ يؤتون كتابهم فيهما ، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار.

وهذا النور الساعي بين الأيدي والأيمان ينير لهم سبيلهم الى الجنة ، وهم يستزيدون غير التام من أقسامه ، فالهداية الإلهية تامة لا تحتاج الى الإتمام ، وإنما مثلث النور غير التام يتطلب التمام :

﴿يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَاغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه هي الشفاعة الأخيرة التي قد تشفع بشفاعة الشافعين المأذونين ، بعد شفاعة الوقاية والتوبة النصوح ، وبعد ترك كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات ، فيصبح المؤمن نورا خالصا فينضم الى نور الأنوار : محمد وآله الطاهرين الأبرار.

---

(١) نور الثقلين عن القمي بإسناده الى صالح بن سهل عن أبي عبد الله (ع) في الآية ، قال : يسعى أئمة المؤمنين يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم في الجنة (٥ : ٣٧٥).

فهنالك يلهم المؤمن ذلك الدعاء ، حين يلجم غيره عن كل دعوة ودعاء ، وذلك الإلهام علامة الاستجابة ، وإلا فلما ذا السماح به؟ وأنه من إكرامه ، كما أن في رده خزيه ، فالغفر عن نقصان الإيمان وما يتطلبه الإيمان ، إنه تتميم لمثلث النور بين يديه وعن يمينه ، مهما كان نور الهداية تاما لا يحتاج إلى الإتمام.

﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾:

فإن المنافق والكافر نار حيثما دار ، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار ، ولكي تبقى الحياة سليمة أمينة.

إن جهاد المنافقين والكفار ـ وهو بذل الجهد في إصلاح الأمر ـ هو من مخلفات الوقاية للأنفس والأهلين ، فالواجب على المؤمنين حماية المحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار ، فلا تترك العناصر المفسدة تهاجم المسلمين من خارج كما الكفار ، ولا من داخل كما المنافقون ، مهما اختلف الجهاد الحربي بينهما ، دفاعا في المنافقين ، وحربا في الكفار ، فالكافر يحمل إما على الإسلام الإقرار ، أو الجزية أو الحرب ، فإلى دار البوار ، والمنافق يحمل على الإيمان أو دفع الشر ، فان حارب حورب ، دون جزية ولا حرب بدائية بغية الإقرار ، وفيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعة المسلمة الغلظ عليهما ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ بما يدفع شرهم ويخمد نارهم. وقد يكون الغلظ على المنافق أشد منه على الكافر ، لأنه عدوّ من داخل ، فخطورته أكثر ، وكما أن عذابه أحيانا أشد وأوفر : ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ ـ ﴿وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وأخيرا مثال واقعي للمؤمنين يطمئنهم في الإيمان ، وللكافرين يخيّب آمالهم :

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ

﴿مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ :

ختام فيه تأنيب رعيب على زوجتي النبي المتظاهرتين عليه [١] ، وعلى كل من له صلة النسب أو السبب ، أم أية صلة من الصلات بأولياء الله ، أنها لا تنفعهم ما لم يكونوا متقين.

فامرأة نوح وامرأة لوط مثل للكفار ، و ﴿كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ﴾ يعنى بها التحتية في المنزلة ، لقيامه عليها ، وغلبته على أمرها الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وكما يقال : فلان الجندي تحت يدي فلان الأمير ، إذا كان من شحنة عمله ، أو متصرفا على أمره ، ثم المرأة ـ إضافة إلى ذلك ـ تحت الرجل بحكم الله في كل ما تتطلبه الزوجية ، ومنها عمل الجنس واتباع أوامر الزوج لصالحها وصالح العائلة وصالح الأمة ، وهذه التحتية التكوينية والتشريعية تقتضي تلون المرأة يلوّن صلاح الزوج كما في نوح ولوط ، ولكنهما خانتاهما ، رغم كونهما عبدين صالحين ، وفي ذكر الوصفين بدل الاكتفاء باشارة الضمير تعظيم لمقام العبودية الصالحة ، وأن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة ، ما لم تصلح هي نفسها.

﴿فَخانَتاهُما﴾ ترى ما هي الخيانة التي ارتكبتاها فارتكبتا فيها هنا وفي الآخرة؟ إن الخيانة خلاف الأمانة ، والقدر المفهوم هنا منها الخيانة في أمانات الزوجية ، وقد أوحت إلى مثلث منها ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ﴾ وهي وجوب كونهما تحت زوجيهما في متطلبات الزوجية دون نشوز عنها ، حافظتين لأماناتها وأسرارها ومصالحها ، وأن تتصبغا بصلاح العبودية ، ائتمارا بأمر الوقاية للأهلين ﴿.. وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾.

---

(١) تفسير البرهان ـ شرف الدين النجفي قال روي عن أبي عبد الله (ع) في الآية : مثل ضربه الله سبحانه لعائشة وحفصة ان تظاهرة على رسول الله (ص) وأفشتا سره.

ثم إنها خيانة تدخل صاحبها النار ، فليست إذا نشوزا في الأمور البيتية العادية فحسب ، وإنما التي تحقق جزاء النار من الكفر ومخلفاته ، ومنها ثالث ثلاثة : ﴿وَأَهْلِيكُمْ ناراً﴾ فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقاية ، ومنها كشف السرّ ، وكما يروى في امرأة لوط (أنها كانت تخرج فتصفّر ، فإذا سمعوا الصفير جاءوا) [1] يعني قومه ، كما وان امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين ، وتقول إنه لمجنون مع القائلين.

ومن الاولى نستطيع أن نحمّلهما كل شيء إلا فاحشة الزنا ، وكما يروى عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم (ما بغت امرأة نبي قط) [2] ، فبهذا الثالوث المنحوس ، ولا سيما أقنوم الكفر ، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان :

﴿فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ : فلا تعني من الله إلا تقوى الله ، دون أواصر القربى مع أولياء الله ، فقد دخلتا النار (في البرزخ) وستدخلانها يوم القيامة ، مع الداخلين ، دون ميزة ولا كرامة ، إنما مهانتين كسائر المهانين إليها ، والقائل مجهول «وقيل» إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين ، بل إن مهانتهما أكثر ممن سواهما لأنهما هتكتا ساحة النبوة ولوّثتا جوّها بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصالحين ﴿يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً﴾ (٣٣ : ٣٠).

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٧٦ في علل الشرائع عن أبي عبد الله (ع) قيل له : كيف كان يعلم قوم لوط انه قد جاء لوطا رجال؟ قال : كانت امرأته ...

(٢) الدر المنثور ـ أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي (ص) ...

وهكذا يكون دوما دور الكفر والخيانة الكافرة ، ان لا يبررها ولا يغني عنها من الله شيء ، مهما كانت القرابات والأنساب والاتصالات لهم بالصالحين ، كضابطة عامة لا تشذ ، فالنجسة الأخلاق والنحسة ، لا يطهرها بيت النبوّة ، إلا قدر ما تأخذ من طهارتها ، كما وأن الطاهرة الزكية لا يدنسها بيت الكفر والفرعنة ، بل وبالإمكان أن تمثل أهل بيت النبوة :

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ :

هنا تتقدم امرأة فرعون على مريم أم المسيح ، لا لسبق زمني فحسب ، بل ولكي يدلنا أن أموته المسيح واخوة هارون وبنوة عمران لا تغني عنها شيئا ، وإنما هي تقوى الله تغني ، فامرأة فرعون متحللة نسبيا وسببيا عن كل ذلك ، ولكنها بتقواها في جوّ الطغوى تستحلّ مكانة عليا ، لحدّ تقدّمها في الذكر على مريم (ع).

أظنها الامرأة الوحيدة ، في مملكة عريضة ، عند أعظم ملوك الأرض وأقواهم وأطغاهم ، في قصر عديم النظير ، تجد فيه المرأة كل ما تشتهيه ، فهي في هذه الأوساط الكافرة ، تحت ضغط الملك والحاشية والبلاط ، وضغط المجتمع السامّ ، في خضمّ هذه الظلمات الطاغية ... إنها وحدها ترفضها كلها وتعتبرها سجنا وشرّا ونحسا تستعيذ بالله منها.

تطلب من الله تعالى أن يبني لها بيد الألوهية بيتا في الجنة يعوضها به عن قصرها ، وأن ينجيها من شرّ الطاغية (فرعون) وهي ألصق الناس به! ومن عمله ، وهي تعيش تحت رحمته! ومن آله وأتباعه : ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾!

وإنها لنموذج عال في الاستعلاء على عرض الحياة وزهرتها في أجمل صورة وأزهرها ، والتجرّد لله من كافة الجواذب المتخلفة ، والهواتف المضللة ، والمعوقات القوية ، ولتسمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم :

﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ : ف «ربّ» توحي باختصاصها بتربية خاصة إلهية تنجيها عن هذه الورطة المهلكة ، و «ابن لي» رفض لكل عامر ملائكي وسواه الى معمار الكون أن يبني لها بيتا بمشيئته دون وسائط ، و «عندك» لا تعني عندية مكانية فانه تعالى ليس له مكان ، إنما عندية المكانة أن يبني بيتها في أرفع مكان وأعلى مكانة في الجنة حيث مسكن الأنبياء!

ثم تطلب النجاة المثلث من : «فرعون» الجاهل «وعمله» الباطل و «من القوم الظالمين» الباطلين الجاهلين.

ومتى تطلب؟ هل بعد أن تأخذها الورطة الفرعونية الى حزبه؟ فكيف طلبت أولا أقرب الأقربين! كلا! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطائش الى جوار رحمة الله ، أن يقبضها الله إليه ، وقد كانت في اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلف ألوان العذاب الفرعوني ، ومنها انه (وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها وأضجعها على صدرها وجعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس ، فكانوا إذا تفرقوا عنها أظلّتها الملائكة ، فرفعت رأسها الى السماء فقالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾ . الى . ﴿الظَّالِمِينَ﴾ فكشف لها عن بيتها في الجنة فرأته [1]).

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَكُتُبِهِ وَكانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ﴾ :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٦ . أخرجه من عدة طرق عن عدة من الأصحاب والتابعين.

رغم أن القرآن لا يذكر امرأة باسمها ، يردد ذكر مريم (ع) أربع وثلاثين مرة ، تكريما لها ، وذودا عن كرامتها التي مسّت بتهم اليهود ، وتدليلا على أن المسيح عليه السّلام ولد دون أب «عيسى بن مريم» مما لم تجتمع في غيرها من النساء مهما كانت البعض منهن أفضل منها كفاطمة (ع) ، فان الأخيرين دافعان مستقلان لذكرها ، وليسا من الفضائل الهامة للمرأة ، وإنما إبراز معجزة إلهية ودفع تهمة التصقت بها عبر هذه المعجزة : (حملها دون زوج يعرف).

هذا ، ولكن ترى كيف يذكر حفظ الفرج هنا وفي آية اخرى في عداد فضائلها ، ويفرّع عليه نفخ الروح فيه ، كما هنا ، وفيها كما في الاخرى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ (٢١ : ٩١) مع أن حفظه لا يختص بها ، وأنه من اوّليات واجبات الإيمان؟ ثم ترى ، ما هو المنفوخ فيها وفي فرجها؟ وماذا حملت في هذا النفخ؟ أروح المسيح ، أم هي مع جسمه ، أم نطفة الرجولية مع الروح ، أم ماذا؟ .. فهل إن ذكر إحصان الفرج لدفع تهمة اليهود الفاجرة ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً﴾ (٤ : ١٥٦) ﴿يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (١٩ : ٢٨)؟ ولدفع اختلاق النصارى لها عشيقا خطيبا هو يوسف النجار ، لتخفيف وطأة التهمة؟ فهذا وذاك وإن كانا من الدوافع لذكره ، ولكن لا يتفرع على إحصان الفرج ـ هذا ـ أن ينفخ فيه من روح الله!.

أو ولأنها كانت معرّضة للحملة الجنسية ، لجمالها ، وأنها نذرت لخدمة البيت فكانت فيه ليل نهار ، ولكنها غلبت على مختلف النوازع والعراقيل قانتة مجاهدة رافضة للجنس حرامه وحلاله ، ولأنه ينافي وحريتها في خدمة البيت ،

وقد نذرت أمها ما في بطنها محررا : ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى ... وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً ..﴾ (٣ : ٣٧) : تقبّلها ربها مريم كما سميت وهي : الغالبة ، وتقبّل إعاذتها وذرّيتها من الشيطان الرجيم ، فهي إذا غالبة معوّذة من الشيطان عند الله ، ونابتة نباتا حسنا عند الله ، ومن غلبتها التغلب على النوازع الجنسية وجواذبها وهي في عنفوانها ، وهي بمعرض مختلف الرجال في بيت الله ليل نهار ، فهذا الإحصان مما يتطلب إحسانا عاليا لها من الله المنّان ومن أحسنه أن نفخ في محل الإحصان روحا منه ، فقد جمع الى الدافعين الأولين لذكر الإحصان هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصبحت أم السيد المسيح (ع) ، ثم وعلى حدّ المروي عن الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم سوف تكون من أزواجه صلّى الله عليه وآله وسلّم في الجنة [1].

ثم وماذا حملت؟ فطالما الآية الاخرى ﴿.. فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا﴾ أجملت عن مدخل الحمل ، فآيتنا ﴿فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا﴾ تصريحة ان مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير «ه» فالمرجع إذا «فرجها» لا هي نفسها ، ولا جيبها ، رغم ما حاوله جمع ، فانه كلام فارغ ، لأنها أحصنت فرجها ، لا جيبها ، والروح نفخت في فرجها ، لا فرج جيبها!

فمن كون الآلة التناسلية النسائية هي المنفخ المدخل هنا لروح من الله نتعرف الى كيان هذه الروح وهذا اللقاح ، أن ناب لقاح الرجل دون رجل ، فلم يكن

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٤٩ ـ أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول الله (ص) : إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى.

أقول : وهذا لا ينافي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه (ص) إذ لا تحتاج الى زواج جديد.

حملها المسيح بمقاربة كالعادة ، بل بالنفخ والإلقاء الإلهيين في فرجها ، فان المسيح هو الروح والكلمة الملقاة الى مريم ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (٤ : ١٧) فالروح نفخت من المجرى التناسلي ، مما يدلّ على كونها جسما مّا ، وعلّها كانت مع النطفة الرجولية المعبر عنها بالكلمة الملقاة ، فبالإلقاء هذا تمكنت النطفة إلى عمق الرحم فتزاوجت مع النطفة الانوثية ، فأصبحتا جنينا ، ثم انضمت إليها الروح فها هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السّلام.

ثم الروح هذه كسائر الأرواح الإنسانية في الجوهر وأنها مخلوقة ، وإضافتها الى الله «روحنا» تشريفية تشرفها وتفضلها على كثير من الأرواح ، وليست جنسية تعني أنها جزء من الله او من روحه ، وكما الروح المنفوخة في آدم تملك هذه النسبة ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (١٥ : ٢٩) مما يفضل روح آدم على غيره ، وكذلك المنفوخة في بني آدم كلهم : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (٣٢ : ٩).

فأرواح بني آدم تمتاز عن غيرهم من ذوي الأرواح كما هنا ، وأرواح المؤمنين منهم تمتاز على سواهم (٥٨ : ٢٢) وأرواح النبيين على سواهم (٤٠ : ١٥) والمسيح على غيره (٤ : ١٧١) ثم روح خاتم النبيين تمتاز على الأرواح كلها (٤٢ : ٥٢) ، فالإضافة الى الله فيها كلها تشريفية لا تعني أنها بعض من ذات الله! وسبحان الله!.

وقد نوافيكم بتفصيل هذا الحمل المبارك في طيّات آياتها المفصلة كالسورة المسماة باسم مريم (ع).

ثم الآية تبيّن بعد فضيلة الإحصان ، تصديقها بكلمات ربها وكتبه ، وأنها كانت من القانتين : المطيعين ، وتذكير الضمير في «القانتين» دون «القانتات»

تذكير لنا أن القنوت في الرجل يتغلب على ما في النساء عدة وعدة ، فكان من الأفضل أن تعد في قنوتها من عداد الرجال ، رجولة في قنوطها وبطولة في تصديقها.

* * *

تمّ الجزء الثامن والعشرون بحمد الله ومنّه ، ونسأله التوفيق لمواصلة بقية الأجزاء ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

مكة المكرمة ـ ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م

محمد الصادقي

الفهرس

رسالة صاحب تفسير الميزان العلامة الطباطبائي ـ مقدمة المؤلف......................٥ ـ ٨
سورة الرحمن ، كيف يتوسط خلق الإنسان بين تعليمه القرآن والبيان.............. ٩ ـ ١٤
حسبان الشمس والقمر ـ سحوج النجم والشجر ـ رفع السماء ووضع الميزان .... ٤ ـ ٢٠
كيف اختص وضع الأرض بالأنام؟ كيف خلق الإنسان من صلصال والجان من نار٢٠ ـ ٢٥
مرج البحرين وبرزخ بينهما ـ خروج اللؤلؤ والمرجان منهما .... ٢٦ ـ ٣٣
معنى فناه كل من عليها وبقاء وجه الرب ـ ما هو سؤاله تعالى وشأنه كل يوم...... ٣٣ ـ ٤٠
ما هو النفوذ المستطاع من اقطار الكون؟ كيف لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان؟. ٤٤ ـ ٤٧
ما هو مقام الرب؟ وما هما الجنتان لمن خافه .... ٤٨ ـ ٤٩
سورة الواقعة ما هي كاذبة لوقعة الواقعة؟ وما هي خافضة رافعة؟ .... ٥٨ ـ ٦٢
الأزواج الثلاث .. السابقون : ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.............. ٦٣ ـ ٦٨

سورة المجادلة ما هي المظافرة من النساء؟ .... ١٨٧ ـ ١٩١
كيف يجمع بين الحصر في «ان مهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وبين «امهاتكم اللاتي ارضعنكم»؟
.... ١٩١ ـ ١٩٣
ما هو العود لما قالوا في المظاهرة وكفارتها؟ .... ١٩٣ ـ ١٩٨
ما معنى كون الله رابعا المتناجين الثلاث او سادساً للخمس؟................ ١٩٩ ـ ٢٠١
النجوى المحرمة والمحللة ـ التفسح في المجالس.................................. ٢٠١ ـ ٢٠٨
آية صدقة النجوى ، الخاصة بعلي عليه السلام .... ٢١٠ ـ ٢١٥
حدود الموادة المحرمة والمحللة .... ٢٢١ ـ ٢٢٥
سورة الحشر اخراج كفار الكتابين لأول الحشر ـ الفيء واحكامه دولة الحال ودولة المال ـ تبوء
الدار والإيمان .... ٢٢٧ ـ ٢٤٨
سورة الممتحنة ، تنديد شديد عن بلقون إلى الكفار بالمودة .... ٢٦٩ ـ ٢٧٣
اسوة حسنة في ابراهيم إلا في استغفار لأبيه.................................. ٢٧٣ ـ ٢٧٨
امتحان المؤمنات المهاجرات ـ حرمة نكاح المشركات دون الكتابيات .... ٢٨٢ ـ ٢٩٢
شروط مبايعة المهاجرات.. ٢٩٢ ـ ٢٩٦
سورة الصف حرمة القول بدون عمل ـ مقاتلة صفا كبنيان مرصوص .... ٢٩٨ ـ ٣٠٤
بشارة انجيلية بحق الرسول (احمد) اظهار الرسول على الدين كله معنى انصار الله ٣٠٤ ـ ٣٢١
سورة الجمعة ، فضل الجمعة ـ من هم الاميون؟بشارات توراتية محمدية.......... ٣٢٣ ـ ٣٣٥